

**TEXT FLY WITHIN
THE BOOK ONLY**

UNIVERSAL
LIBRARY

OU 190600

UNIVERSAL
LIBRARY

١٨٠٥١

٨٩٢٥٤١٠٩ / ق - و

تفادى، عبد العظيم على
الوصف في الشعر العربي
١٩٢٩

OSMANIA UNIVERSITY LIBRARY

Call No. ق-٩ / ١٩٢٥٤١٠٩ Accession No. ١٨٠٤١

Author فتاوى، عبد العليم على

Title الوصف في السيرة العربية الجزء الاول

This book should be returned on or before the date last marked below.

الوصف

في الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ

تأليف

عبد العظيم علي قناروي

الجزء الأول

الوصف في العصر الجاهلي

الطبعة الأولى

١٣٦٨ هـ - ١٩٤٩ م

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الإهداء

إِلَى النَّهْضَةِ الْأَدَبِيَّةِ ، وَإِلَى الطُّمُوحِ الْعِلْمِيِّ

إِلَى مَنْ أَلْهَمَنِي الْإِسْنَهَامَ فِي عَرْضِ طُرْفٍ مِنْ
تُرَاثِنَا الْأَدَبِيِّ الْخَالِدِ ، وَإِلَى مَنْ أَوْلَانِي الْقُدْرَةَ عَلَى إِبْرَازِ
ذَلِكَ الثَّرَاثِ شَائِقًا جَذَابًا فِي ثَوْبٍ مِنَ التَّجَلُّلِ وَالْتِفَادِ
رَائِقٍ رَائِعٍ

إِلَى هَذَا وَذَلِكَ أُهْدِيَ ذَلِكَ الْكِتَابَ الَّذِي أَرْجُو
أَنْ يَأْخُذَ مَكَانَهُ مِنْ مَكْتَبَةِ الْأَدَبِ الرَّفِيعِ ، وَأَنْ
يَنَالَ عِنَايَةً وَتَقْدِيرًا مِنْ أَدْبَاءِ الْجِيلِ ، وَأَنْ يَكُونَ
بَاكُورَةً لِجُهْدِ أَدَبِيٍّ كَبِيرٍ ، أَقْدَمُهُ لِلْأَدْبَاءِ وَالْمُتَأَدِّينَ
مِنْ أَبْنَاءِ الْعَرَبِيَّةِ الْأَمْثَلِ ، مُطْمَئِنًّا لَهُ ، مُعْتَزًّا بِهِ ،
مُعْتَمِدًا عَلَى اللَّهِ فِيهِ م

المؤلف

تقديم

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين .

و بعد : فهذا هو الجزء الأول من كتاب « الوصف في الشعر العربي » وهو كتاب تضم أجزاءه الأربعة التي ستصدر تباعا إن شاء الله فن الوصف ، ناظمة شتات هذا الفن ، جامعة أطرافه من العصر الجاهلي إلى هذا العصر ، فالجزء الأول يبحث الوصف في العصر الجاهلي ، ويناقش بعض نظريات الأدب نقاشا مدعوما بالحجة ، والثاني يبحث الوصف في العصر الإسلامي والأموي ، والثالث يبحث في العصر العباسي والأندلسي ، والرابع يبحث في العصر الحاضر . ولا أزعم أني سأستقصى كل ما قيل في الوصف ، فذلك غاية لا تبلغ ، على أن جدواها لا تتجاوز مارسمناه لأنفسنا من عرض صور كاملة لأجزاء هذا الفن ، ثم تحليل هذه الصور تحليلا دقيقا وافيًا ، وبيان ما تنتظمه من اتفاق في النظرة أو اختلاف ، ورسم خطوط واضحها لما نراه فيها من طرافة وجدة وابتداع ، أو لما نلمحه فيها من تقليد ومحاكاة واتباع . وإنما اخترت هذا الضرب من ضروب الشعر ؛ لأنه أغناها بعناصر الجمال ، وأحفلها بأسباب الحسن ، ولأنه ينبعث حين تتفجر به قرائح الشعراء عن صادق الشعور ، ووحى الإحساس .

والحق أن الوصف هو الشعر ، وبقية الأبواب الأخرى على جلال بعضها ، وانصراف الشعراء إليها في بعض عصور الأدب تجيء تابعة له ، متفرعة عنه ، تابعة من منابه ، وإن بدا الأمر غير ذلك

والشاعر الحق هو الذى يملكه مافى الكون من مناظر تبهر النواظر، فيستطيع وصفها ،
وتصوير أثرها فى نفسه ، وهو الذى يبهره مافى الحياة من ظواهر تملك الحواس ، فيستطيع
رسمها ، ووصف ما يخالج الأفكار عند مرآها ، فهو يعبر عما لا يستطيع غيره التعبير عنه من
وصف لمعنى من معانى الجمال ، ولا يقف هذا التعبير عند ناحية بذاتها من نواحي الجمال ،
وإنما تختلف هذه المناحي ، وتعدد الزوايا التى ينظر منها الشعراء ، فتتعدد عناصر الجمال .

يرى شاعر البدر فيصور استدارته فى القبة الزرقاء ، ويصور آخر وضائه بين سواطع
النجوم التى يذهب بسطوعها ، ويصور ثالث أثره فى الحبين ، وأنه عون العاذلين والرقباء ،
وفى كل من هذه الفكر حسن وروعة وجمال ، يرضى عنه شاعر ، ولا يرضى عنه آخر ،
وكلاهما يصف شعوره ، فيجيد التعبير عن وصف ذلك الشعور .

وكما اشتد الشاعر تأثرا بهذا المنظر أو بذاك وجد عناصر الإجابة لديه موانية مدانية ،
واستطاع أن يصوره على حقيقته دون مبالغة أو تزيد ؛ لأن المبالغة يأبأ إليها عند ما يريد
الأديب أن يزيد على الحقيقة ؛ ليلبسها ثوبا غير ثوبها ، ويكسوها إهابا أضفى من إهابها ،
وهذا معناه أن قصا يعثورها يريد أن يغطيه ، لكنه إذا أفعم ذلك المنظر حسه ، وملا
نفسه ، تصوره كاملا لا يحتاج إلى تزيد أو مغالة .

وبعد . فإن نهجنا فى هذا الكتاب نهج بديع لم يسبق إليه فى أى فن من فنون الشعر ،
ولم يعالجه أديب كما يعالجه نحن ، ولم يقتبسه من سوانا . ولا اعتمدنا فى أحكامنا على غيرنا
من شيوخ الأدب ، قد نتفق معهم ؛ لأننا ننظر مثل نظرتهم ، وقد تختلف معهم ؛ لأننا رأينا
نقيم الدليل على سداذه ، ونسوق الحجة على صوابه ، ولا يضيرنا الخلاف ؛ بل إننا به نسعد ،
لأنه رأى الحر .

نهجنا فى هذا الكتاب نهج شاق عنيف ؛ لأنه جمع لهذا الفن من جميع مظانه ،
وتخليصه من الأغراض الأخرى التى تتصل به ، ثم تفسير مفردات النماذج حتى تزود القارئ
بالزاد الذى يعينه على متابعة السير فى هذه الدارة التى لا يقدر على السير فيها إلا من تزود
بذلك الزاد ، ثم تحليل هذه النماذج تحليلا يكشف دقائق معانيها ، وطرائف جزئياتها ،

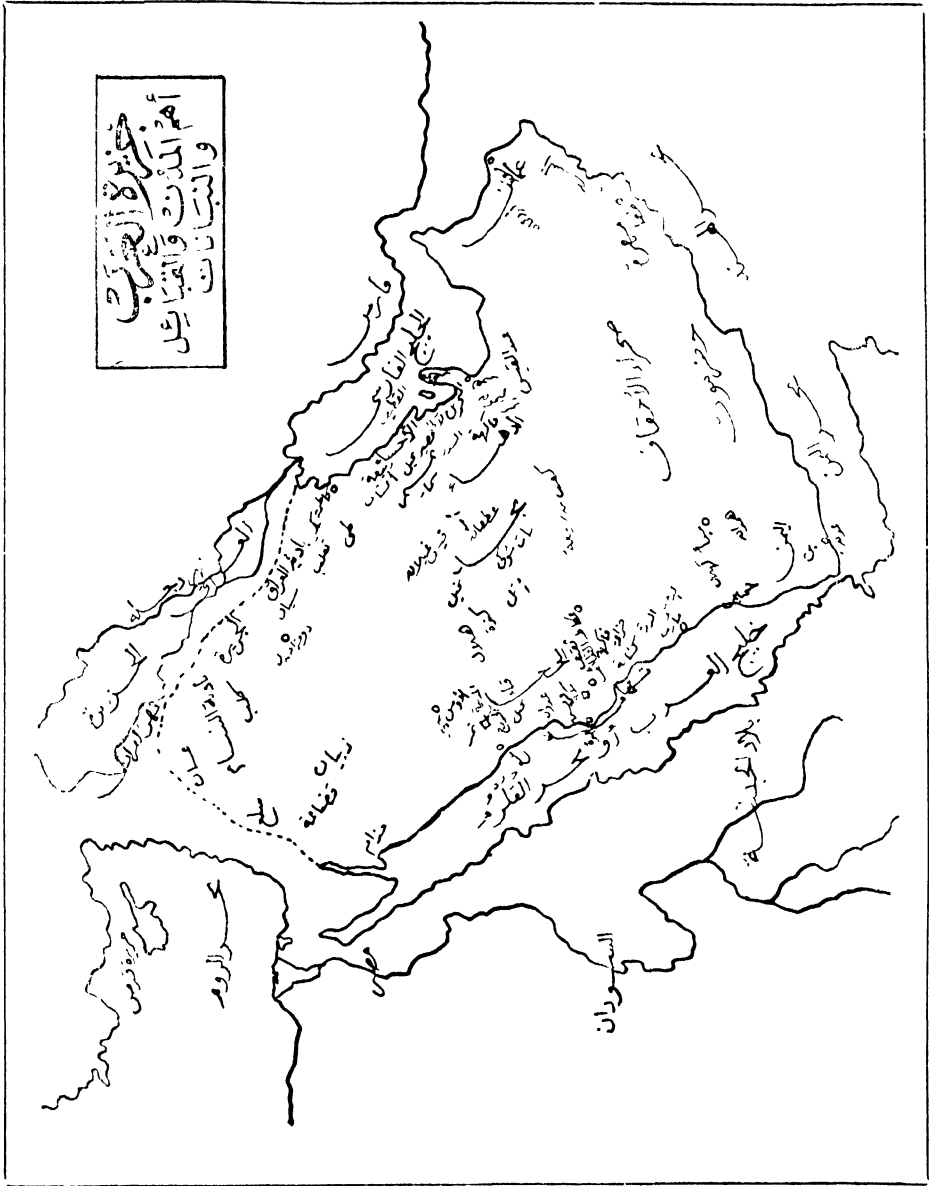
وإبراز محاسنها . ثم النظر في معانى هؤلاء الشعراء الذين اتفقوا في الموضوع ؛ لنبين عناصر الحسن ومعانى الجمال ، ولنحصى الطريف البديع ، ولننسب كل معنى إلى صاحبه ؛ إذا كان هذا المعنى طريفاً بديعاً ، وسيلتنا في هذا هو الترجمة الموجزة الوافية لكل شاعر ، ونسبته إلى إقليمه وقبيله ؛ ليظهر أثر هذين في اتجاهه وتفكيره ، وفي أسلوبه وألفاظه ؛ وفي حياته : بداوتها أو حضارتها .

وقد سارتُ العصور الأدبية ؛ لأن المعانى تتطور بتطورها ؛ ولأن الأدب يختلف باختلاف عوامل الحياة فيها ، فرأيت أن من الخير أن أربط كل عصر بأدبه ، أو كل أدب بعصره ؛ فالنابغة إذ يصف الليل ليس مثله ابن خفاجة ، والخطيئة إذ يصور البخيل ليس مثله بشار .

ثم إن هناك شيئاً آخر دفعنى إلى مراعاة ذلك الترتيب هو ربط الشعراء المتعاصرين بعضهم ببعض ، ووزنهم بميزان واحد ؛ لأنهم يحيون حياة واحدة ، ويعيشون في عصر واحد .

هذا ، وقد قدمت بين يدى الوصف فصولاً لا بد منها : هى وصف جزيرة العرب لأنها المعين الذى يستقى منه أولئك الشعراء ، ثم عرض حقائق أدبية جليناها تجلية تدفع عنها شبهات المشككين ، ثم عرضنا لتقسيم الشعر عند الإفرنج وعند العرب ، وأثبتنا أن العرب في عصورهم السحيقة كان لهم شعر قصصى . ثم انتقلت إلى تقسيم الشعر الغنائى عند العرب ، ثم عرضت للوصف قسمته ، ثم أبرزت قيمته العالية في الآداب العالمية ، وأرجو أن أكون بلغت بعض ما إليه قصدت ، فلي الله قصد السبيل ؟

المؤلف



الفصل الأول

بلاد العرب

بلاد العرب أو الجزيرة العربية كما كان القدماء من أهلها يسمونها تقع في الجنوب الشرقي من القارة الآسيوية ، وهي تحد شمالا بالبحر الأبيض وجمال طرسوس ، وجنوبا ببحر اليمن ، وشرقا بالخليج الفارسى وبحر عمان ، وغربا بالبحر الأحمر .

وإذا كانت بلاد العرب تضم شعبا واحدا ، فإنها ليست ذات طبيعة واحدة ؛ إذ أنها تختلف اختلافا عظيما في كثير من الظواهر الطبيعية ، فهذا الجزء حار الجو ، وذاك قاريه ، وذلك بارده ، وهذا إقليم خصب غنى بأسباب الحياة ، وذاك جذب قاحل تبسط الصحارى عليه أجنحتها ، وغيرهما ساحلى يشغل أهله بالنوص على اللؤلؤ والمرجان ، وعليهما يعتمدون في حياتهم .

واختلاف الظواهر الطبيعية في بلاد العرب جعلهم يختلفون طبائع وصناعات ومهن ؛ كما يختلفون حضارة وبدواة ، فهؤلاء هادئون إلى حد ، وأولئك ثأرون إلى غير حد ، وهؤلاء يصطنعون التجارة ، وأولئك يزاولون الزراعة ، وقد تجد منهم من له حظ من الصناعة ، وكل هذا التباين كان له أثره في أدبهم بوجه عام ، وفي شعرهم بوجه خاص .

لذلك كان لزاما علينا أن نتناول وصفها بالتفصيل ؛ حتى تكون الأحكام التى تصدرها على شعرهم قائمة على أساس من العلم قوى سليم .

ونستطيع أن نقسمها إلى سبعة أقسام هى أهم أقطارها فى العصر القديم ، وأعظم أقاليمها فى الأيام الأولى ، وإلى هذه الأقاليم ينقسم الشعراء جميعا ، وفيها الأماكن والعيون ، والجمال والصحارى ، والقرى والمدن التى ترد أسماؤها فى أشعارهم ؛ كما أن فيها أسماء الحيوانات والنباتات التى تفيض بها أشعارهم فى أوصافهم أو تشبيهاتهم « انظر المصور » .

وتلك الأقاليم هي : الحجاز ، واليمن ، وحضرموت ، وعمان ، والبحرين ،
والصحارى ، ونجد .

وأعظم هذه الأقسام في القديم والحديث الحجاز واليمن ونجد .

١ — فأما الحجاز فيقتبس مكانته الرفيعة ، ومنزلته الشماء ، من قدسيته ومقامه الديني ؛
ففيه مكة المكرمة أم القرى ، وبها بيت الله الحرام الذى قام على بنائه نبيان كريمان :
إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام فى واد ضيق ، وصفه الله سبحانه على لسان رسوله
إبراهيم داعياً ضارعاً : « رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ
الْمُحَرَّمِ ، رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ، فَاجْعَلْ أُمْنِيَّةَ مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ، وَارْزُقْهُمْ مِنَ
الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ » .

وقد جعل الله سبحانه هذا البيت مجتمعا للحجيج ، وأما للأنذين : « وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ
مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ، وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ، وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ
أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ . وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ
هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ ، مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، قَالَ وَمَنْ
كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ أَصِيرٌ . وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ
الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ، رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » .

وفيه يثرب التى سميت بعد الإسلام مدينة الرسول ، وهى حاضرة الإسلام فى عهد
الرسول عليه الصلاة والسلام ، وعهد خلفائه الراشدين أبى بكر وعمر وعثمان .

وفيه الطائف ، وهى مدينة حصينة منيعة ، كانت مصيف السراة . قال النمرى يتحدث
عن فاطمة أخت الحجاج ، ويصفها بالرفاهية والنعماء :

تشتو بمكة نعمة ومصيفها بالطائف

وقد ضرب بمناعتها المثل ، فقال الشاعر :

٢ : منعنا أرضنا من كل حى كما امتنعت بطائفها ثقيف

وفى خيبر ، وهى مدينة حصينة كذلك ، كان يسكنها اليهود قبل الإسلام ، ولقى

المسلمون من كيدهم وحر بهم عنتا ، وهى على عكس الطائف ؛ إذ كانت وخة الهواء ، كثيرة الوباء ، قال الشاعر :

٣ : وقفت بها أبكى ، وأشعر سخنة كما اعتاد محموا بخير صالب
والحجاز كما ترى يختلف فى هوائه ، ويتباين فى جوه ؛ فمكة مشتى لأن جوها أميل إلى الحرارة ، والطائف مصيف ؛ لأن جوه جميل ، وهواءه عليل ، وخيبر وبيئة وخيمة .
ويعيش أهله على بعض مايزرعون وما يستوردون من الأقاليم الأخرى ، وشراهم من العيون المنبثقة ، والسيول المنهمة ، ومن حيوانه الخيل الكرائم ، والإبل الهجان ، ومن وحوشه الغزلان والذئاب ، والأسود والضباع ، ومن طيوره العقبان والغربان ، والنعام والحمام . ومن زروعه النخيل والأعناب .

٢ — أما اليمن فبستمد مجده من عظمتها التالدة ، ويقتبس عظمتها من مجده الخالد ، فقد كان مقرا للملك عظيم ، وموطنا لسلطان كبير ، وعاصمته صنعاء ، وكان فى ظاهرها قصر غمدان ، ومن مدنها ظفار التى اتخذها بعض ملوك حمير حاضرة لدولته ، ومن مرافئها عدن ، كانت — ولا تزال — من أهم الموانئ على المحيط الهندى .

وهذا الإقليم ينقسم طبيعيا إلى ثلاثة أقسام :

(أ) السهل الساحلى ويعرف بتهامة .

(ب) المرتفعات الجبلية ، وهى موازية للساحل . (ح) الصحراء الشرقية .

وستقرأ فى الفصل الثالث من هذا الكتاب الكثير من مظاهر مجد اليمن وعزته فى العصور الجاهلية الأولى .

٣ — وفى الجنوب الشرقى لليمن إقليم حضرموت ، وكان فى العصور الأولى إقليما قويا ذا مملكة عظيمة ، بلغ من قوته أن حاصر ملكه مملكة سبأ ، فارتفع نجم ذلك الإقليم ، وكان ذا صلات تجارية مع جاراته .

٤ — وعمان فى الجنوب الشرقى لحضرموت ، وهى ذات ساحل طويل على الخليج الفارسى ، ويستمد أهلها ثروتهم من الفوص على الآلى* واستخراجها ، والتجارة فيها .

٥ — وإقليم البحرين ، ويمتد من عمان إلى حدود العراق ، ومن بلاده حجر وقطر ، وأهله كأهل عمان يفوصون على اللآلى* ، ثم يتجرون فيها .

وجوه الساحلى معتدل جميل الهواء ، أما الجزء الداخلى فخار ، ومن محصولاته البلج والتمر؛ حتى ضرب المثل بهجر فى جودة التمر ، فقليل « كناقلى التمر إلى هجر » والبن والحبوب والفواكه ، ومن حيوانه الخيل والإبل والبقر ، والحير والبغال ، ومن وحوشه الأسود والذئاب والضباع ، والزراف والقروء ، والنعام .

٦ — أما وسط الجزيرة فصحارى مترامية الأطراف ، لا يكاد النظر يدرك نهاياتها ، ولا يوشك الطرف أن يبلغ غاياتها ، يجرى فيها السراب . جريان الماء فى الأنهار ، وتظهر فيها الوحوش الكاسرة ظهور الحيوانات الآنسة فى الحقول الناضرة .

فمن هذه الصحارى : « صحراء الدهناء ، والنفود ، والأحفاف » وبعض أجزاء هذه الصحارى خصب ، وإن تكن رملية ، فإنها تصير بسقوط الأمطار من أجود المراعى ، وليست التربة فى الدهناء والنفود متجانسة ، فهناك بعض جهات لا يرى فيها غير آكام الرمال ؛ تكاد تبتلع السابلة لنعموتها وعدم تماسكها ، فيتجنبها الجوابون ابتغاء السلامة لأرواحهم وأرزاقهم .

وتتألف فى بعض أجزائها دارات يكثر فيها النخيل ، كما أن بها مناطق خصبة كجبل شمر فى جنوب النفود ، إذ تنحدر إليه المياه من جبل طي* « أجا وسلمى » الممتدين من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى ، ولهذه الصحارى فى الشعر العربى ، وفى الوصف بالذات الأثر العظيم .

٧ — أما نجد فيقع فى الشمال لهذه الصحارى ، وهو قطر خصب ، والمناطق الخصبة منه تطوقها الدهناء شرقا وجنوبا ، كما تطوقه النفود من الشمال ، وتتسع المنطقة الخصبة على الجانب الشاطئ للبحر الأحمر .

وحاضرة نجد الآن هى « الرياض » وتقع فى إيالة العارض ، وهى المعروفة قديما بالجو والمروض والليامة ، وتقع بين سدير شمالا ، والخرق والحريق جنوبا .

ومن مدن نجد الصغيرة الآن اليمامة ، وتقع على مجرى عين فرزان ، وكانت قديما تطلق على منطقة واسعة .

وقد تغنى الشعراء قديما بجو نجد ، وبجمال هوائها ، حتى من لم يسكن نجدا ، ولا عرف جوها ، ولا استنشق هواءها ، وليس كل الإقليم معتدل الهواء ، لكنه يختلف باختلاف المنطقة ، فالحريق ووادي الدواسر حاران مثلا .

و بنجد من الحيوان الحبارى والنعام ، وابن آوى وبقر الوحش وحماره .
ويطول بنا مجال القول لو حاولنا حصر جميع البلاد التي ورد ذكرها في الشعر العربي ، على أننا سنحدد في تفسير الأبيات كل مدينة ، أو قرية ، أو جبل ، أو بركة ، أو عين ترد فيها تقدمه من نماذج ، وحسبنا هذا الذي قدمناه في تخطيط جزيرة العرب .

جوّ بلاد العرب وأثره في شعرهم

هذا العرض الموجز لأهم أجزاء بلاد العرب ، ولطبيعتها يهيئ لنا أن نحكم حكما صالحا مبسوطا على جوها ، فجوها له أثر عظيم في شاعرية أهلها ، فهي في أكبر مناطقها قارية الجو ، ماعدا بعض المناطق الساحلية ، وقد أجلنا ذلك قبل ، فنفصل هنا هذا الإجمال :

١ — تظهر الحرارة المنطوية على « الرطوبة » في السهول الساحلية ، وبخاصة في نهاية بلاد اليمن وإمارة البحرين ، ومن القبائل التي كانت تسكنها بكر وأسد وتميم وأزد وغيرها .

٢ — تشتد الحرارة الخالصة في الوهاد التي تتوسط الجزيرة ، وفي الوديان الواطئة ، ويمتد الهواء في المرتفعات والنجاد .

ومن القبائل التي كانت تسكن هذه الأقاليم : بنو حنيفة وبنو قشير ، وجمدة و يربوع ونمير وكلاب ، وغيرها .

٣ — ويتميز البحر الأحمر بجوّه الحار ، فيمد الأقاليم المتاخمة له بالدفء في الشتاء ، ويلطف من رمضاء الصحارى التي على شاطئيه صيفا .

٤ — ونجد - كما قدمنا - من أجل بلاد العرب جوا ، لذلك تقف بصباها الشعراء ،
وقالوا عنها : إنها تهب من مطلع الشمس ، كما قال ابن الدمينه :
ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد ؟ لقد زادنى مسراك وجدا على وجد
وتقابل هذه الريح الجميلة ريح الدبور ، وهى تهب من مغرب الشمس ، ومن ذكر
الأعشى لها واصفا مسير ناقته قوله :

لها زجل كخفيف الحصى صادف بالليل ريحا دبورا
وقد جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما فى حديث ، فقال : « نصرت بالصبا ،
وأهلك عاد بالدبور » وما زال الشعراء يتحدثون بمرارها ، ويلهجون بريها ، فيقول قائلهم :
تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار
ألا يا حبذا نفحات نجد ورياروضه بعد القطار
وفال غيره :

قفادعا نجدا ومن حل بالحمى وقلّ لنجد عندنا أن يودعا
بنفسى تلك الأرض ما أطيب الربا وما أحسن المصطاف والمتر بما !
ولم تكن بلادهم تجرى من تحتها الأنهار ، أو تسعد جميع أقسامها بالأمطار ، فأحبوا
المطر وعشقوه ، فجعلوا منه دعاء لأحبابهم ، وأمانى لأعزائهم ، بل دعوا بالسقيا للأيام ،
وقلدهم شعراء : الأنهار من طرفهم ؛ والماء بعض سبلهم ، قال ابن زيدون الأندلسى :
ليسق عهدهم عهد السرور فما كنتم لأرواحنا إلا رياحينا
وقال أحمد بك شوق :

١١ : سقيا لمهد كأكناف الربا رفة أى ذهبنا وأعطاف الصبا لينا

ولفقرهم إلى الماء ، كانت غلاتهم محدودة ، ومحصولاتهم محصورة ، فلا تكاد نجد
من هذه الغلات غير ما قدمنا شيئا ، والذى قدمناه لا يستغنى به شعب ، لذلك كانت لهم
رحلتان تجاريتان : إحداها إلى اليمن زمن الشتاء ، والأخرى إلى الشام زمن الصيف ،
وكأنهم بهاتين الرحلتين كانوا يتقون الأجواء عند اجتلاب الأرزاق .

تقسيم القبائل العربية على أجزاء بلاد العرب

- ١ — كانت قبيلة قريش « واسمه فهر » تسكن مكة ، وقد تفرع إلى بطون كثيرة ، منها : الحارث ، ومحارب ، وتيم ، وعامر ، وخزيمة ، وسعد ، وعدى ، ومخزوم ؛ وكانت لقريش و بطونها الزعامة الدينية في العصر الجاهلي ، ثم ثبتت بيعثة الرسول الكريم من قريش ، وبسط في رقعتها ، فجعلها تشمل العالم الإنساني .
- ٢ — وكانت قبيلة ثقيف وهي حي من هوازن تسكن الطائف ، ولها به حصانة ومناعة ، وغنى و ثروة ، وكان يسكن الطائف مع ثقيف بنو عدوان وبنو الحارث وبنو سعيد .
- ٣ — وكانت المدينة وطنا لقبيلتي الأوس والخزرج القحطانيتين ، وهما على ما بينهما من صلات الرحم كانتا متعاديتين ، فالعداوة مستحكمة ، والحرب بينهما متصلة ؛ حتى ألف الله بين قلوبهم بالإسلام .
- ٤ — وكانت هذيل تسكن جبالا بين مكة والطائف ، وقد اشتهر الهذليون بشعرهم الرقيق ، ونسيبهم العذب الجميل .
- ٥ — وعذرة إحدى القبائل الحميرية النازحة إلى بادية الحجاز ، وقد اشتهر أبناؤها بالغزل العفيف ، وفتياتها بالجمال الرائع .
- ٦ — وكان يسكن اليمن أبناء تهحطان ، وهؤلاء كان لهم فرعان : فرع كهلان وفرع حمير ، وقد تعددت رحلات أولئك وهؤلاء ؛ حتى سكن بعض القحطانيين من أبناء كهلان الحجاز ، كالأوس والخزرج ؛ ومن فروع كهلان : طيء ونخم وجذام ومراد وكندة وهدنان ومذحج والأزد .
- ٧ — وكان يسكن حضرموت بطون من كندة تسمى تجيب ، وفي حدودها من الشمال الأحقاف ، وكانت مسكنا لعاد قوم هود عليه السلام .
- ٨ — وكان يسكن عمان بعض قوم طيء ، ومن أشهرهم بنو نبهان ، كما كان يسكن البحرين قبائل من تميم ، وهم عدنانيون مضرئون .

أثر البيئة في الشعر العربي

البيئة أعظم العوامل المؤثرة في الأدب ، بل هي في واقع أمرها ، وقوة وقمها تعتبر الخالقة لبعض فنونه ، المكونة لأكثر عناصره ، فإنها تخلع عليه جميع ألوانها ، وتهب له كل مظاهرها ، بل هي تحرمه ما حرمته ؛ وتمنحه ما مننته ؛ لبس ذلك شأنها مع الأديب أو مع الإنسان محسب : بل هو شأنها مع الحيوان ؛ فالحيوان يتلون بلون ييشته التي يعيش فيها ؛ ويتكون تكوينها ؛ فيبدو مثلاً أصفر اللون ؛ صلب الأعضاء ؛ ضامر الجسم ؛ شرس الطمع ؛ إذا كان يعيش في الصحراء ؛ فهي التي خلعت عليه صفرة رملها ؛ وصلابة صحرها ؛ وقلة الغذاء فيها ؛ طعاما وشرانا حملته ضامر الجسم ؛ وقلة الخلاط بها جعلته شرس الطمع ؛ فإذا تركت الصحراء إلى إقليم ساحلى حصب وجدت لونا أبيض ؛ وجسما ريان ممتلئا ؛ وطبعاً ليناً هادئاً ؛ وإذا كان هذا هو تأثير البيئة في الحيوان ؛ فما بالنا بتأثيرها في الإنسان ؟

إنها بطعمه بطامعها ، وتسمه ستمها ؛ فالرجل الذي يعيش في الصحراء يألف مناظرها ؛ ويأنس إلى كواصرها ، وقد يعشق بعض حيوانها ، فيتخذ منها أصدقاءه ، يستديها بصوته الذي يشبه أصواتها ، ويتألفها بلونه الذي يقارب ألوانها ، ويجد فيها سلواته ، ويلقى فيها هويته :

١٢ : عوى الذئب فاستأست بالذئب إذعوى وصوت إسان فكدت أطيّر
لذلك نجد الشعراء الذين يعيشون في الصحارى أجزل لفظاً ، وأوضح معنى ، حزالة ألفاظهم قوامها حهم لكل صلب ، وشغفهم بكل غليظ ، ووضاحة معانيهم أساسها تلك السماء الصافية التي منحت قلوبهم صفاءها ، وأخيلتهم ساطعتها ، فإذا جاوزت الصحراء إلى إقليم حصري يكسو الخصب حقوله ثياباً من الأشجار الباسقة ، والأزهار الناضرة والأثمار الياضنة رأيت في ألفاظهم رقة ، وفي معانيهم خيالا مركبا ، فمن ذلك الذي يستطيع أن يحكم أن هذه الأبيات لشاعر جاهلي دون أن يكون عالماً ذلك من قبل ؟

قال المنخل الشكرى نديم النعمان وسميره ، والنعمان كان ملكا على الخيرة من
قبل الفرس :

ولقد دخلت على الفتاة الخدر في يوم مطير
الكعب الحسناء تر مل في الدمقس وفي الحرير
مدفعتها قداهمت مشى القطة إلى الفدير
ولتمتها فتنمست كتنفس الظي الفرير

إن الحضارة التي كان يحيا فيها ، والبيئة التي عاش بها هي التي رقت شعره ؛ حتى
لكأه الماء القراح سلاسة وعدوبة ، وهي التي أوحى إليه بتلك المعاني الرائعة الغزلة ، ثم من
يحكم بعد ذلك بأن قائل الأبيات السابقة كان بعش في عصر واحد مع قائل هذه الأبيات ؟

مهففة بيضاء غير مفاضة تراثبها مصقولة كالسجنجل
نصد وتبدى عن أسيل وتتنق مناظرة من وحش وحررة مطفل
وجيد كجيد الرثم ليس بفاحش إذا هي بصبته ولا بمعطل
ومرع يزين المتن أسود فاحم أثيث كقنقو النخلة المتعشك
غداثه مستشزرات إلى العلا فضل المقاص في مشى ومرسل

: ٢١

إنه ستشتد غراته حين يعلم أن قائل هذه الأبيات ملك ابن ملك ، ولكنه سيزول
عجبه حين يعلم أن البيئة التي عاش فيها كل منهما هي الموحية إليه بأماظه ومعاييه .

لفصل الثاني حقائق أدبية

شاعرية الأسم :

الشعر في جميع الآداب العالمية هو سفير الشعور ، ورسول الوجدان ، وترجمان العاطفة ، ذلك شأنه في جميع الشعوب ، لا ينفرد بهذا شعب دون شعب ، ولا تتميز به أمة دون أمة ، وإنما تتفاضل الشعوب بمقادير ما وهب لها من رقة في العاطفة ، وتوفز في الحس ، وتمايز كذلك بتيقظ الوجدان ، وانفساح الخيال ، ففتى وهب الله للأمة من هذه المعاني قسطا أوفر بلغت في الشاعرية درجة أعلى ، وإذن فمن الغلو في التعبير أن نقول :

« في الأمم الشاعرة وغير الشاعرة ، والمطبوعة على الفن والآخذة فيه بضروب المحاكاة والتقليد » .

وإنما القصد في التعبير أن نقول : في الأمم من أوتيت استعداداً طبيعياً للشاعرية على مدى واسع ، ومن أوتيت من هذا الاستعداد حظاً ضئيلاً ، لا يقوم بشيء إلى جانب تلك ، ومن هنا تفاوتت القوى الأدبية بين الأمم ، واختلفت المعايير ، فرجحت في هذا الشعب ، وشالت في ذاك ، وكانت بينَ بينَ في ثالثهما .

وهذا ملحوظ مشاهد في القديم والحديث ، فإننا لانستطيع أن نحكم على شعب بموت الحس ، وخمود العاطفة ، فلكل الأمم فنونٌ ، الشعرُ أحدها ، كان للأمة الرومانية أدب وشعر ، ولا ينفي هذا الكون أنه أقل من الأدب اليوناني والشعر اليوناني درجة ، وما يقال عن الرومان يقال عن الفرس ، ويحكم به على غير الرومان والفرس .

اختلاف مدى الشاعرية في الشعب الواحد :

بل قد يختلف الشعب الواحد في مدى استعداده الطبيعي ، وتهيئته الفطري ، ولعل

أبناء جنوب مصر أوفر استعداداً للشاعرية من أهل شماله ، وإن كانا جميعا ذوى استعداد ،
يبدو لنا هذا في غير المثقفين من أبناء الوادى ، إذ تكثر الأغاني الشعبية في صعيد مصر ،
وتقل في دالها ، وهذا الغناء الشعبي هو اللبنة الأولى في الأدب الرفيع ، والفن الجميل .
وهذا هو الشأن في الأمة العربية ، فإننا نرى القحطانيين أقل حظا في نظم الشعر
وإنشائه من العدنانيين ، وأولئك الذين نبغوا فيه منهم لم ينبغوا إلا في أحضان العدنانيين ،
وبين أبنائهم .

أثر البيئة في الاستعداد الطبيعي :

والاستعداد الطبيعي - فيما نرى - أثر من آثار البيئة في الشعوب ، وعنصر من عناصر
تأثير الأجواء والأحياء ، يعلو على جميع الآثار ، ويسمو على كل العناصر ذات الأثر في رقى
الشعر بخاصة ، والأدب بعامة ، وفي انحطاطه ؛ فالفطرة الإنسانية من أقوى مكونات الجو
الذى يحيا فيه صاحبها ، والطبيعة الجغرافية التى تخلق ذلك الجو .

وعلى أىّ فالإنسان ابن بيئته ، وهو فى بداءته وبدأوته أسير عاطفته ، تبسط عليه ظلها ،
وتنشر فوقه لواءها ، تتحكم فيه فيثور ويفور ، أو يسكن ويهدأ ، وينبسط وينشرح ،
أو ينقبض وينكس ، يفعل ذلك للتوافه من الأمور ، والصغائر من الشئون ، فكلم من
كلمة عابرة أثار حربا ضروسا ، وكلم من نظرة عابثة استولت على قلب جاد صارم .

شأن الإنسان فى فطرته وسذاجته كشأن الطفل فى نشأته وطفولته سواء بسواء ،
ولم لا ؟ إنه فى معرفة كنه الحياة ، والبصر بأحوالها ، والنظر فى أسرارها ومعانيها ما يزال
طفلا ، وإن جاوز طور الكهولة ، بل وإن بلغ مرحلة الشيخوخة .

فإذا ما أخذ من الحضارة بعوامل التفكير والتأمل ، والتقليد والمحاكاة بدأ يحكم عقله
فى بعض الأمور ، ويرسل فكره وراء القليل من الشئون ، وهكذا يتدرج فى التأمل
والتدبر ، حتى يصل إلى مستوى من المدنية والحضارة يتيح له أن يبتكر وينشئ ، وأن
يتخذ من هذا الذى يبتكره وينشئه أسبابا للكتابة .

اعتماد النثر على العقل :

يصبح العقل حينئذ الهادى إلى الإنشاء والاختراع ، وعليه يعتمد النثر فى تسجيل ما ينشئ* ، فى حين ينبعث الشعر كما قدمنا من نبعة بعيدة كل البعد عن هذه السبيل ، تلك النبعة هى العاطفة ، وهى الشعور .

ولذلك نجد الشعر الفلسفى أو المعتمد على المنطق متأخرا فى نشأته عن الشعر العاطفى ، لأنه يتخذ العقل رائداً له ، ولا يعول على العقل ذلك التعويل إلا الشعب المتمدين ، انظر إلى الشعر الجاهلى تجده خاليا من المعانى الفلسفية ومن النظرات العميقة ؛ إلا للقليل من الشعراء الذين نظروا فى الكون ، وتأملوا فى الوجود ، فجاءوا بعمان ليقام لها وزن إذا قيست إلى معانى شاعر عاش فى حضارة ، هى إحدى آثار العقول والأفكار .

سبب الشعر للنثر :

وعلى هذا نقول : إن الشعر يسبق النثر فى الوجود سبق تحكم العاطفة فى الإنسان دون العقل ؛ ونحن لانقصد بالشعر الشعر الكامل فى جميع عناصره ، وإنما نقصد المحاولات الأولى لقوله ، دون نظر إلى نشأته وطريقة هذه النشأة فيما عدا أنه مصور للعواطف ، معبر عن الإحساسات ، مثير للذة تقدير الجمال .

وإذا كان قد ورد عن العرب غير هذا فلأنهم عَنُوا بالنثر نحواً غير الذى نعنيه نحن الآن ، عَنُوا به نثر الحديث فى شئون الحياة الهينة التى لا يحتاج المتحدث فيها إلى إعمال الفكر ، وإيمان النظر ، أليس هذا هو ما يدل عليه قول قائلهم :

« وكان الكلام كله منشورا ، فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها ، وطيب أعراقها ، وذكر أيامها الصالحة ، وأوطانها النازحة ، وفرسانها الأجداد ، وسمحاتها الأجواد ؛ تهز نفوسها إلى الكرم ، وتدل أبناءها على حسن الشيم ، فتوهوا أعاريض ، فعملوها موازين للكلام ، فلما تم لهم وزنه سموه شعراً لأنهم شعروا به » .

فروق أن فى هذا التصوير وهما كثيرا ؛ إذ ظنوا علم الأوزان سابقا لقول الشعر ، فإنهم

لم يقصدوا إلى النثر الفنى ، وإنما قصدوا إلى النثر الخطابى الذى يتناول مختلف شئون الحياة اليومية من بيع وشراء ، وطعام وشراب ، وصيد ورعى ، ونوم ويقظة ؛ إلى غير هذه الأمور التى تقوم عليها الحياة الإنسانية الساذجة .

أما النثر الفنى الذى يعبرون به عن رأى خطير ، أو يرمون من ورائه إلى أمر عظيم ، أو يعبرون به عن فكرة عميقة يعمدون إلى تصويرها به ؛ لتقتنع بها العقول ، وتؤمن بها الأفكار ، فهم يريدون فرض الرأى ، أو الإقناع بالفكرة ، فلم يسعدوا بالوصول إليه .

وها نحن أولاء نرى فى ريفنا شعراء ، لا ينقص شعرهم خيال ، ولا تعوزه عاطفة ، ولا يحتاج إلى حسن تصور ، وإنما ينقصه اللفظ الصحيح ، ويموزه الميزان السليم ، ويحتاج إلى دقة التصوير ، وليس كل ذلك بسالب إياه معنى الشاعرية ، فعدره أنه ينطق هذه اللغة ، ولو عرف غيرها لنطق بها ، وأن موازينه وإن لم تكن سليمة فهى أقرب إلى السلامة ، ودقة تصويره طريقها التأمل والتأنق ، وكَم من الشعراء المطبوعين تنقصهم دقة التصوير .

الشعر بذرة النثر الجاهلى :

والنثر الفنى الجاهلى الذى يثير اللذة ، ويبعث على الإعجاب نادر ، وهو فى مقداره إذا قيس إلى الشعر ليس شيئاً مذكوراً ، وإذا نظرنا إليه على اعتبار أنه معبر عن العقل لم نجد له وجوداً ، وإذا أغفلنا ناحية الوزن حق لنا أن نقول : إن الشعر هو البذرة الأولى للنثر ؛ لأنه كله أوجه خطب ، والخطب قوامها العاطفة ؛ على أنها فيما نعتقد قليلة لا تكاد تذكر ، وما وصل إلينا من النثر غير الخطب لا يمدو أن يكون حكماً متفرقة ، أو أمثالا منتثرة أملتها مناسباتها ، وخلقتها أسبابها ، يتورها من الشك فى سببها إلى قائلها ما يعتور الخطب والقصص .

أطامه للمضريين نثر روى ؟

إنى أخالف جمهرة من زعماء الأدب يرون : « أن تاريخ الأدب العربى يدل على أن قد كان للمضريين نثر ما ، بل يدل على أن قد كان لهم قبل الإسلام نثر وصل إلى حد الرقى لا بأس به » فإن النثر يحتاج - أول ما يحتاج - إلى الحضارة ، ومن مظاهرها الكتابة ، وقل فيهم الكاتب ، أو قل انعدم فيهم الكاتب ، ولم تكن لهم حضارة تستأهل استخدام العقل فى تصوير مظاهرها ، أو وصف آثارها ، وإن تكن فقد كانت تصور شعراً لسهولة ، وجمال نغمه ، وإذا قلنا مع أولئك القائلين : إن العرب كان لهم فى الجاهلية نثر فنى ، فإننا سنفترض أنه نثر عاطفى ، وهو ما تنفق على تسميته فى العصور الأدبية المتأخرة بالشعر المنثور .

نزول القرآن نثراً :

فإذا قيل : لماذا إذن نزل القرآن نثراً ولم ينزل شعراً ليكون التحدى به أقوى ؟ قلنا : إنه جاء نثراً ليكون التحدى أقوى وأقوى ، فدرجة النثر أقل من درجة الشعر عندهم ، فإذا جاء نثر أقوى من الشعر كان ذلك برهاناً قوياً على أنه أرقى من أى نثر آخر .

وحينما وصف العرب القرآن الكريم بأنه شعر ، ووصفوا الرسول عليه الصلاة والسلام بأنه شاعر كانوا على يقين بأن القرآن ليس شعراً ، وبأن الرسول ليس شاعراً ، فليست للقرآن سمة واحدة من سمات الشعر ليست له معانيه القائمة على الخيال المحض ؛ وليست له أغراضه المتعارفة بينهم ؛ وليست له أوزانه المرسومة عندهم ، فالقرآن لا يشارك الشعر فى غير اللفظ ؛ وهى شركة محتمة فى كل كلام .

ولم يقل الرسول - وقد عاش بين ظهرائهم ؛ وعرفوا جميع أطوار حياته كل المعرفة - بيتاً من الشعر ، وإن جاء بعض كلامه منظوماً كالذى روى عنه :

أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب

وإنما ادعوا هذه الدعوى ؛ لأنه أرقى من النثر ، فيجوز أن يعد من الشعر ، أو يجب ألا يعتبر من النثر .

التوسع فى معنى الشعر :

وإذا صح لنا أن تتوسع فى معنى الشعر ولم نقيده بما قيده به العرب من أنه الكلام الموزون المقفى ، وجعلناه الكلام المنبعث عن العاطفة ، والذي يقصد به صاحبه إثارة لذة السامع استطعنا أن نحكم بأنه أقدم من النثر دون أن يخالفنا فى هذا الحكم من يزعم أن النثر أقدم ، لأننا سندخل فى نطاق الشعر عندئذ الخطبة والقصة ، وهما تعهدان على إثارة الشعور ، وتوافر الخيال ، على أن من العرب من وصف الشعر بأنه «شئ تجيش به صدورنا فنقذه على ألسنتنا» .

صفوة القول فى سبب الشعر للنثر :

بعد كل هذا البسط نستطيع أن نقول : إن الشعر أسبق من النثر بجميع فنونه ، أسبق من القصة والخطبة ، والحكمة والمثل والمقالة ، فقد اتخذها الناس منذ إدراكهم لمعنى الحياة المعبر عما يكونون ، والناطق بما يحسون ، والمصور لما تجيش به قلوبهم من انفعالات ، وما تختلج به أفئدتهم من خواطر وإحساسات ، فولجوا بابه ، واستخلصوا لبابه ، فى حين أحكم النثر الفنى دونهم رتاجه ، وبالغ فى إيصاد مغالقه ؛ لأن هذا - كما سبق - عماده العقل والتأمل ، ومعينه الفهم والتفهم .

وأنى للأمر فى بدائها وبدواتها كل أولئك ؟ إن أبناءها - ولا نستثنى - يتيهون فى مجاهل من الجهالة ، ويسيحون فى صحارى من البداوة ، ولن يكون علم مكتسب مع جهالة مطبقة ، ولن يتفق فهم دقيق مع بداوة مفرقة ، وهام أولاء بعض سكان المجاهل الإفريقية ممن لم تغزهم الحضارة ، ولم تفتح عقولهم المدنية لهم أغانيهم المعبرة عن آمالهم ، وأناشيدهم المصورة لأشجانهم ، وهى دون شك شعر بمعناه الأعم الأفسح .

فلا علينا أن نقول بعد هذا العرض الواضح ، والبسط الضافى : إن الشعر ليس أسبق من النثر فحسب ، بل هو أسبق منه بآماد بعيدة ، تستوى فى هذا الحكم جميع الآداب العالمية ،

ولا يضيرنا في حكمنا أن يكون الشعر سطحي الخيال أو عميقه ، ضيق الآفاق أو واسعها ، متعدد الأغراض أو محصورها ، ضعيف الأسلوب أو قويه ، مختلط التركيب أو منسقه ، مختل الوزن أو مستقيم ، فكل تلك تقبلور مع الزمن ، وتستقيم مع الحياة ؛ فإن كل موجود في هذا الوجود تعتوره أطوار الحياة المتعاقبة ، وتتداوله تقلبات الزمن وتغيراته ، كل موجود ينجم ثم يخبو ، ثم يدرج ... حتى يشارف الكمال ، ولا نقول حتى يصل إلى قمة الكمال ، ثم تدول دولته ، وتخبو شعلته ، فيعود كما كان .

مال النثر الأولى :

ليس أمر النثر مغايراً لأمر الشعر ، فلا بد أنه كان في أول أمره سقيم الفكرة ، وإن يكن وليدها ، قليل الجدوى ، وإن يكن صادراً عن عقل وتدبر ، والناظر في النثر الجاهلي لا يستطيع أن يحكم دون أن يرمى بالهوى بأنه رفيع المسكاة خطير المنزلة : من الناحية التفكيرية أو الأسلوبية أو الموضوعية ، مع أن ما وصل إلينا - على فرض صحته - هو أفضل ما قيل ، وأبلغ ما ارتجل ، وأحكم ما سجل ، وإلا لما حفظته الحواظ ، وتحدث بجماله الرواة ، واعتنى بتسجيله المؤدبون والشداة .

على أنى أكاد أوقن أن هذا النثر الذي يروى بعصه شيوخ الأدب - كصاحب الأغاني وصاحب الأمالي وأضرابهما - وهو منسوب إلى بعض الجاهليين ، وفي بعضه قصص وجمال تصوير ، وأحكام وتأنق في التعبير - من وضع الرواة والمحدثين الذين رغبوا في أن يرفهوا عن الخلفاء ، أو أن يشيدوا بقول القدماء ، وحسبنا هذا الذي قدمناه .

فضل الشعر على النثر :

اتفق الأدباء - إلا القلة الضئيلة - على أن الشعر جملةً أفضل من النثر جملةً ، ونحن ممن ترى هذا الرأي ، ونقيم الأدلة على سداذه وصوابه فنقول :

١ — فضل القرآن على الشعر :

إن العرب طرا حينما بهرهم القرآن ، وأخذتهم بلاغته زعموه شعرا إيماناً منهم بأن الشعر أفضل من النثر ، وهذا الكلام الذى يحاجهم به الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويتحداهم بأن يأتوا بسورة من مثله أجود من نثرهم ، وإذن فلا عليهم أن يدعوا أنه شعر ، وإن فقد مقوماته من خيال ووزن وقافية وموضوع وأسلوب .

٢ — فضل الشعر على الفنون الجميلة :

الشعر أحد الفنون الجميلة ، ولكنه منها واسطة عقدها ، وبدر فراقدها ، فأين منه النقش والتصوير ، والنحت والموسيقا ؟ إن فيه إلى نظمه ووصفه صوراً تبهر هرة المصورين ، وجمالاً يسحر نوابغ الرسامين ، والموسيقا لاتسمو إلا به ، والغناء لا يحلو إلا فيه . إنه يتألق بين الفنون فيفيض عليها حسناً ، ويمنحها وضاءً ولألاء ، فأى فن جميل ليس للشعر فيه الأثر الرائع الجميل ؟

٣ — سمو موضوعات الشعر :

موضوع الشعر أعلق بالقلب ، وأقرب إلى النفس من موضوع النثر ، بل من موضوعات الفنون الجميلة التى لاتعتمد عليه ، والنثر إذا تجاوز موضوعه ، وحل فى غير أفعه ، واعتدى على موضوعات الشعر عد متطفلاً ، وقيل عنه إعلاء لشأنه مع هذا التطفل : إنه شعر منشور ؛ لأنه يحمل موضوع الشعر وأخيلته ، ويقتبس ألفاظه وموسيقاه ، وإن لم تسم إلى موسيقا الشعر .

٤ — رأى ابن رشيد القيروانى :

ولا نلجأ فى حجبنا إلى ما ذكره ابن رشيق فى كتاب العمدة من أن الشعر يفضل النثر لأسباب فنية ، « وأن كلام العرب نوعان : منظوم ومنثور ، ولكل منهما ثلاث طبقات : جيدة ومتوسطة ورديثة ، وأنه إذا انفقت الطبقتان فى القدر وتساوتا فى القيمة (٢)

ولم يكن لإحداها فضل على الأخرى كان الحكم للشعر ظاهراً في التسمية ؛ لأن كل منظوم أحسن من كل منشور من جنسه ؛ فالثر وبه يشبه اللفظ إذا كان منشوراً لم يؤمن عليه ، ولم ينتفع به في الباب الذي كسب له ، وانتخب من أجله ، وكذلك اللفظ إذا كان منشوراً تبدد في الأسماع ، فإذا أخذه سلك الوزن وعقد القافية تألفت أشتاته ، وازدوجت فرائده .
فمن أدبائنا من يصف هذا القول بأنه كلام ضعيف ، وإن يكن بيان ذلك الأديب أضعف من بيان ابن رشيق ، وليس هذا مجال تفصيل نقده .

٥ - فطر موضوعات الشعر :

وأولئك الذين يقولون إن موضوعات النثر أخطر من موضوعات الشعر جد واهمين ؛ فالشعر يتناول الكون بأجمعه ، وموضوعه كما قال غيرنا : الله والإنسان والطبيعة ، فهو كل مافي هذا الوجود ، على أنه يستطيع أن يتناول جميع موضوعات النثر ، بل هو الآن يتناول أعنف موضوعاته كالمباحث الفلسفية ، ويعتبر الشاعر الذي لا فلسفة في شعره شاعراً سطحياً ، لا : بل قد يبلغ به إذا فلسفه ما لا يبلغه بالنثر ، وهذه لزوميات أبي العلاء تجمع بين قوة العقل والمنطق ؛ وبين قوة التصوير وحسن الفن ، والشعر السياسي كان - ولا يزال - أقوى دعائم الدعاية السياسية ، ويكفي للدلالة على ذلك أن معاوية حين أراد أن يعمد للبيعة لابنه يزيد استعان لها بشعر مسكين الدارمي ، ذلك الذي يقول فيه :

ألا ليت شعري مايقول ابن عامر ومروان أم ماذا يقول سعيد ؟
بنى خلفاء الله مهـلاً فإنيما يبوئها الرحمن حيث يريد
إذا المنبر الغربي خلاه ربه فإن أمير المؤمنين يزيد

وأن بيت مروان بن أبي حفصة في الاحتجاج للعباسيين على العلويين ، وهو :

٢٤ : أنى يكون - وليس ذاك بكائن - لبنى البنات ورائة الأعمام ؟

كان أشد على آل على رضى الله عنه من طبات السيوف ، وأسنة الرماح ، بل كان هذا للبيت دعامة من دعائم الدولة العباسية

وإنك لتجد الحكمة وحقها أن يكون النثر معنيها مسجلة شعرا ونثرا ، فتحكم لأول وهلة بأنها شعراً أفضل منها نثراً ، وها هو ذا المثال الذى تؤيد به رأينا .

موازنة بين نثر وشعر :

(١) قال عبد الله بن الزبير حينما قتل عبد الملك بن مروان أخاه مصعباً من خطبة ينعى فيها أخاه ويؤبئه ، وتكاد هذه الخطبة تكون أروع خطبه ، والخطبة أقرب النثر إلى الشعر : « إنما التجلد والسلوة لحزماء الرجال ، وإن الهلع والجزع لربات الحجال » . وتناول أبو تمام الطائى هذا المعنى فى تعزيتة مالك بن طوق عن أخيه القاسم ، فقال :
٢٥ : خلقنا رجالاً للتجلد والأسى وتلك الغواني للبكا والمآتم
فكان البيت خيراً من الفقرة لأسباب كثيرة منها :

١ — لنظمه وجرسه الموسيقى ، وهذا فضل لا ينكره إلا معاند مكابر ، وإلا من لا تطربه الموسيقى ، ولا يملك سمعيه الجرس والغناء .

٢ — لقلة كلماته عن كلمات النثر مع أن الشاعر مقيد بالوزن الذى قد يستدعى منه أن يزيد ألفاظاً ، حتى يبنى المعنى حقه ، وحتى لا يوصف شعره بالغموض والتعقيد ، فللوزن من الأحكام ما ليس للنثر ، فلهذا الحرية المطلقة ، ولذلك القيد المحكم .

٣ — لدقة المعنى ، فقد وصف الشاعر قومه ونفسه بأنهم خلقوا رجالاً ، وفى الجملة قصر جميل ملحوظ ، فكأن أعداءهم ليست لهم هذه الصفة ، وفيها نخر نبيل واضح فى حين ترك الخطيب هذا المعنى ، وقال إن التجلد والصبر والأسى المكتوم خليق بالرجال ، أو خليق به الرجال ، فجمع بين الصفتين الجديرتين بخلق الرجال عند فداحة الخطب وجلال الرزء ، أما الخطيب فجمع بين التجلد والسلوة ، وما أدرى كيف يسلو الأخ أخاه ، وبخاصة إذا كان هذا الأخ هو البطل العظيم ، والرجل الكامل مصعب بن الزبير ؟ والفرق عظيم بين الأسى والبكاء ، فالأسى للرجال ، والبكاء للنساء ، أما السلوة التى قرنها عبد الله بالتجلد فلا موقع لها هنا ، فى حين أن المآتم وقد عطف على البكاء أدت المعنى أسد أداء ؛ فالمآتم تقام للنساء يبكين فيها ويندبن ، ليثرن الرجال للأخذ بالتأثر ، ولغسل

العار ، وخص الشاعر الغواني بالبكاء ليدل على فداحة النازلة ، وشدة الكارثة ، ومن تبيكه الغواني خليك أن يبكيه غيره .

أما فقرة عبد الله فلا تشتمل على قليل من ذلك الكثير من المعنى ، كما أن الفقرة على الرغم من أنها مسجوعة لم تتم نعمة وجرسا وموسيقا ، وقول الخطيب ربات الحجال كناية دفعه إليها التكلف والسجع ، وأجل منها دون ريب الغواني ، والهلع والجزع معناها واحد ، فلم يأت الخطيب بجديد سوى التطويل الذى لا يدعو إليه داع غير رصف الجملة ، وإقامة السجمة .

٤ — وهناك فوق ما قدمنا فروقاً تحسبها وتدرکها دون أن تستطيع لها تعليلا ، ففى الإشارة إلى الغواني بتلك جمال ، ولكن كيف نعلله ؟ أنقول : إنه أراد تعظيمهن بالإشارة البعيدة إليهن ؟ ولم لا ؟ ألسن غوانى ؟ أم نقول : إن الماتم كانت منه قريبة بعيدة ؟ أم نقول : إنه كان بين صفتين من الرجال والنساء ، فحدث الرجال بقوله : خلقنا رجالا ... والتفت إلى النساء فأشار إليهن قائلا : وتلك الغوانى ... ؟

(ب) موازنة أخرى :

وهذا مثل اختلف فيه النقاد ، فهناك من فضل النثر ، وهناك من فضل الشعر ، وإننا من أصحاب رأى الأخير ، وسنورد رأى الأول ، ثم نرد عليه ونفنده ، وللقارى الحكم بعدئذ .

قال عمر العتيبي : العقل عقلان عقل تفرد الله بصنعه وهو الأصل ، وعقل يستفده المرء بأدبه وهو الفرع ، فإذا اجتماع قوى كل منهما صاحبه تقوية النار فى الظلمة للبصر وقال أحد الشعراء :

رأيت العقل عقلين فطبع ومصنوع

ولا ينفع مصنوع إذا لم يك مطبوع

كما لا تنفع الشمس وضوء العين ممنوع

زعم صاحب الرأى الأول أن الشاعر « كرر كلمتى مصنوع ومطبوع على غير داع ، وقد سلمت الأولى من ذلك التكرار ، وكلمة مصنوع فى الشعر تقابل كلمة مكتسب فى النثر ، ومكتسب أليق بموضعها ، وأدق فى الدلالة على مايراد منها ؛ فالتعبى أدق عبارة ، وأحكم تأليفا ، وأسلم من التكرار » ثم قال : « قسم كل منهما العقل قسمين ، وفاضل بينهما ، ولكنهما اختلفا فى طريق المفاضلة ، فالأول ذكر أن القسمين يتعاونان إذا اجتمعا ، ومثل لهما بضوء الناريقوى البصر فى الظلمة ، وذكر الآخر أنهما إذا افترقا لم يغن المكتسب شيئا ، ومثل بنور الشمس لمن لا يبصر ، فقد اختلفا فى أجزاء المعنى ، والأول بين حالة اجتماع العقلين ، والآخر بين حالة افتراقهما ، والحالة التى ذكرها العتبى أقرب إلى الواقع ، وآلف عند الناس ، فإنهم يبتغون دائما تقوية العقل الموهوب بما يكتسب من تجارب ويستفاد من علم ، ولا يطمع أحد أن يفيد غير العاقل بالتعلم شيئا » فإذا ناقشنا هذا الرأى لنبين ضعفه قلنا :

١ — كان الشاعر أقدر من ناحية التأليف والصياغة من الكاتب ، فقد أوجز دون إخلال بالمعنى فى حين أورد الأول فى عبارته ما يمكن أن يسمى حشوا ؛ إذ يقول : « عقل تفرد الله بصنعه » كأن هناك عقلا اشترك فيه مع الله سواء ، هذا إلى أن الفرع جزء من الأصل وليس قسما له كما يقول .

٢ — عندى أن تكرار مصنوع ومطبوع فوق أنه أكسب البيت جرسا جميلا ، وموسيقا عذبة ، ومطابقة مستساغة فيه معنى التوكيد ، وإذن فليس من التكرار المعيب .

٣ — تشبيه الشاعر أدق وأظهر فى بيان فضل العقل المطبوع على المصنوع ، على أن الأول وقع فى خطأ فكري ، فالنار لا تزيد قوة البصر ، وإنما تخفف شدة الخلكة ، وتدفع إصراف الظلام .

٤ — كلمة مصنوع أفضل من مكتسب التى يطلبها صاحب الرأى الأول ؛ أفضل ليطابق بها كلمة مطبوع ، على أنها من ألفاظ الأدب والشعر ، فيقال : شاعر مطبوع ، وشاعر مصنوع .

٥ — هذا إلى أن ألفاظ الشعر أقل من كلمات النثر ، وإلى أن لموسيقا الشعر رنيننا يسمع الأذن رنين الجمال .

أسباب رجاحة الشعر للنثر :

وبعد فليس كل شعر خيرا من كل نثر ، بل لابد من اجتماع عدة عوامل مرجحة للشعر فوق الخيال والوزن ، فأوجه الموازنة كثيرة متنوعة منها : الأسلوب ، ومطابقة الكلام للواقع ، واثتلاف الألفاظ واتساقها ، ومناسبتها للموضوع ، والإقلال من الزخارف بجميع أنواعها ، فإنها قد تحجب المعنى ، أو تسيء إلى الفكرة ؛ فالجمال في المفاضلة فسيح ، وعناصر الموازنة كثيرة .

نثر يفضل الشعر :

من النثر الذى يفضل الشعر تلك الحكمة الجاهلية : « المرء بأصغريه » وأكتفى بهذا الجزء منها ، فهي أفضل من قول الشاعر :

٢٩ : لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

أما أوجه التفضيل فكثيرة منها : الإيجاز ، والحكمة كلمتان ، والشرط الأول من البيت ، — وهو فى الحق موطن المفاضلة — خمس كلمات ، والحكمة أكثر صدقا ؛ لأن المرء يظهر علمه أو جهله ، وحلمه أو حمقه بأصغريه ، وإن لم يكونا نصفيه ، ولتلك الكناية اللطيفة الدالة على علم بأعضاء الإنسان ، فأصغر الأعضاء القلب واللسان ، ولعدم التكرار كما نرى فى الشرط إذ كرر كلمة « نصف » وكدقة كلمة المرء ؛ لأنها أشمل من كلمة الفتى ، ولعدم الغلو فى المبالغة التى زادها الشاعر بروزا بشرطه الأخير .

لفصل الثالث

فى تقسيم الشعر

أقسام الشعر عند الإفرنج :

يقسم الإفرنج الشعر إلى ثلاثة أقسام : الشعر القصصى والتمثيلى والغنائى ، والقصصى كان فى غالب أمره دينيا ، يتعلق بالآلهة وأنصاف الآلهة ، وما قدموا لبنى الإنسان من أباد وصنائع ، وما حكموا لبعضهم على بعض من ظفر وانتصار ، وما أصاب غير هؤلاء من ويلات وهزائم ، ثم أثر هذه الأحكام فى حياة الناس ، كما نرى فى الإلياذة والأوديسة المنسوبتين إلى هوميروس الشاعر اليونانى .

ولم يكن الشعر القصصى مستقيم الأوزان دائما ، بل قد يستعصى الوزن على الشاعر فلا يآبه له ، وإنما الواجب الختم هو أن يظهر فيه أثر الخيال ، فإن الشاعر وإن لم يكن فى ملحمة معبرا عن أحاسيسه ، ناطقا بما يختلج به قلبه ، وتضطرم فيه عواطفه ، فإنه معبر عن إحساسات الناس ، ناطق بما تختلج به قلوبهم ، وتضطرم فيه عواطفهم ، فعليه أن يتصور كل هذا ، ويصوره لقارئه أو سامعيه كأنه حقيقة واقعة ، فعينه لذلك ثقیل ، وفى مثله تظهر البراعة الفنية ، فليس كل شاعر بمستطيع تخيل ما تجول به خواطر الناس وأوهامهم ، ولا بمقتدر على تصور ما تصوره لهم نفوسهم من أمان وآمال .

الشعر التمثيلى :

أما الشعر التمثيلى فيخالف القصصى من وجوه ، فهو يؤثر فى القلوب من نواح : ناحية السمع حينما ينطق الممثل به ، وناحية البصر حينما يرى الممثل أمامه يعبر عما يريد التعبير عنه ، لا بلسانه فحسب ، بل بحواسه الأخرى وبأعضاء من جسمه إذا استدعى التمثيل ذلك ، ثم

ناحية التصوير الدقيق الذى يحاول به أن ينسى جمهرة الرائيين والسامعين أنه أمام تمثيل ،
ثم تصوير الجو المهيّ لتخييل التمثيل حقيقة لا ريب فيها .

والشعر التمثيلي قوامه الفن هو الشعر القصصى الدينى ، فمنه نشأ ، وعليه اعتمد ،
ثم أخذ يخطو نحو الكمال ، ويستقل عن أصله الذى منه نشأ وعليه اعتمد ؛ حتى بلغ
الغاية ، فصار ذا أساسين : الشعر القصصى والغنائى ، ثم تطور بعدئذ من الشعر إلى النثر ،
ومن الخيال إلى الحقيقة ، ومن الغرض الدينى إلى أغراض آخر .

اعتمد التمثيل على النثر ؛ لأن هذا أداة طيعة سهلة للتمثيل والحوار ، فالحوار بالنثر
أيسر من الحوار بالشعر ، والتمثيل أغلب أمره حوار ومحادثة ، والأغراض الأخر التى عنها
التمثيل سواء أ كانت أغراضا اجتماعية أم سياسية أم فكاهية لا يغنى فيها الشعر القائم على
الخيال ؟ وإما يجدى فيها النثر المعتمد على الفكرة السديدة والرأى الرشيد .

الشعر الغنائى :

أما الشعر الغنائى فهو الشعر الذاتى ، المعبر عن عواطف قائله ، والمصور لمشاعره ، وقد
سمى هذا الاسم لأن قائله كانوا يتغنون به فى جميع الأُمم ، وبجميع فنونه ، فهو ينغمه
رائيا ، ويشدو به مفتخرا ، ويرجعه ناسبا ، كما كان ذلك شأن الشعر القصصى
فى أول عهده .

أقسام الشعر الغنائى :

كل شعر ذاتى فهو من الغنائى ، فالشاعر الذى يأخذ به جمال الزهرة أو عطرها ،
أو تكوينها ، فيصفها ، كان هذا الوصف صادرا عن ذاته ، والشاعر الذى يستثيره إنسان ،
فيتحمس ويفخر عليه ، ويعد مناقبه . . . كان هذا الفخر صادرا عن ذاته ، وهكذا
يقال عن جميع الأغراض المعروفة فى الشعر العربى القديم : كالغزل والثناء والهجاء
والمدح والحكمة .

العرب وتقسيم الشعر عند الفرسي :

يقول الباحثون في الآداب العربية : إن العرب لم يكن لهم حظ من الشعر القصصى والتمثيلى ، ويكادون يتفقون على هذا رأى ، وإن اختلفوا فى أوجه الاتفاق ، ومن تردّد منهم اعتبر بعض مقطوعات الفخر التصويرى من الشعر القصصى كمعلقة عمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة من الشعر القصصى القصير ، ولنا فى هذا الحكم نقاش طويل نرجو منه أن نزعزع أسسه ، ونزلزل أركانه ، فينتفض أولئك الباحثون حكمهم الذى أبرموه ، وليس يعيننا أن ننسب إلى العرب فنّاً لم يطرّقه ، أو أن ندعى لهم أدباً لم يقنّاولوه ، والكنه الرأى نقنع به ، فندافع عنه .

قول مؤرّفى الأدب عن الشعر اليونانى :

يقولون : إن الشعر اليونانى القديم كان فى أول أمره مقصوراً على القصص القصير ، ثم ضم هذا القصص بعضه إلى بعض بعد أن خطت الأمة اليونانية فى الحضارة خطوات ، وصعدت فى سلم المدنية درجات ، واستطاع من قام بهذا الجمع والضم أن ينظر فيه ؛ ليجعل منه وحدة متماسكة الحلقات ؛ لأنه لا يمكن روايته وهو آلاف الأبيات إلا إذا تماسك بعضه مع بعض ، واثلتفت حوادثه تمام الائتلاف .

الكتابة والشعر القصصى :

وبما لاشك فيه أن الكتابة - وإن تكن قد عرفت - لم يكن قد يسّر أمرها ، وسهلت وسائلها ، وهان على الناس استخدامها فى تسجيل هذه القصص الطويلة . وعلى هذا فالإلياذة والأوديسة لم تظهرأ فى ثوبهما الفضفاض الضافى إلا بعد أن نالت الأمة اليونانية من الحضارة والمدنية حظاً أقدرها على أن تحافظ على هذا التراث الجيد تلك الأجيال الطويلة من حقب التاريخ الأولى .

وما يقال عن الإلياذة والأوديسة يقال عن المهاباراتا والرامايانا الهنديتين ، وعن سنوحى والبحار الغريقى المصريتين ، وعن غير هذه وتلك من قصص الأولين .

لماذا لم يكن للعرب شعر قصصى ؟

وبعد هذا أليس من حقنا أن نتساءل ؟ لماذا لم يكن للعرب شعر قصصى ، وقد آمن الجميع بأنهم ذوو فطرة أدبية سليمة ، وذوق فنى قويم ، وأنهم يُسامون اليونانيين فى تلك الفطرة ، وفى ذلك الذوق ؟ أليس الشعر القصصى ينبع من النبعة التى ينبع منها الشعر الغنائى ؟ ولا يغير هذا الحكم اختلاف الزمان والمكان ، ثم أليس معقولا أن الشعر القصصى - ودافعا للدين والحرب ، ولكليهما عند العرب المكانة التى هى لهما عند غيرهم إن لم تفقها - قد ظهر قصصا قصيرا عند العرب ، ثم ضم بعضه إلى بعض ، أو لم يتح له من يفكر فى ضمه حتى طواه الزمان فيما طوى من أخبار وآثار ؟ أما أنا فأقول : بلى . لقد كان لهم شعر قصصى لما مضى ولما يلى .

أدلتنا على أنه العرب كان لهم شعر قصصى :

١ - اهتدى العلماء المنقبون من الأوربيين عن أطلال الدولة السبئية فى اليمن إلى بعض الآثار ، وذكروا أن دولة سبأ بدأت فى نحو القرن الثامن قبل الميلاد (أى حين ظهور هوميروس) وأن أسماء ملوكهم التى سجلوها على آثارهم قد بلغت أكثر من ثلاثين ملكا .

٢ - من المؤرخين من ذكر أن سيل العرم الذى اجتاحت هذا الملك الطويل العريض : الطويل فى أمده ، العريض فى سلطانه كان قبل ميلاد المسيح عليه السلام بنحو قرن من الزمان .

٣ - تحدث المسعودى فى كتابه « مروج الذهب » كما تحدث غيره من ثقات المؤرخين « أن أرض سبأ كانت من أخصب أرض اليمن وأثراها وأغدقها ، وأكثرها جنانا وغياضا ، وأفسحها مروجاً مع بنيان حسن وشجر مصفوف ، ومساكب للماء متكاثفة ، وأنهار وأزهار متفرقة ، وكانت مسيرة أكثر من شهر للراكب الجذ على هذه الحالة ، وفى العرض مثل ذلك .

وأن الراكب والماركان يسير في تلك البلاد من أولها إلى أن ينتهي إلى آخرها لاتواجهه الشمس ولا تعارضه ، لاستئثار الأرض بالعمارة الشجرية ، واستيلائها عليها ، وإحاطتها بها ، وكان أهلها في أطيب عيش وأرفه حال ، وأرغد قرى ، وفي نهاية الخصب وطيب الهواء ، وصفاء الفضاء ، وتدفق الماء ، وقوة الشوكة ، واجتماع الكلمة ، ونهاية المملكة ، وكانت بلادهم في الأرض مثلاً ، وكانوا على صفة حسنة من اتباع شرف الأخلاق ، وطلاب الإفضال على القاصد ، والسفر بحسب المكان ، وما توجبه القدرة من الحال ، فكثوا على ذلك ماشاء الله من الأعصار ، لا يعاندهم ملك إلا قصموه ، ولا يوافيهم جبار في جيش إلا كسروه ، فذلت لهم البلاد ، فصاروا تاج الأرض »

ثم هو يروى بعد ذلك شعرا ينسبه إلى ملك سبأ عندما أغرقهم سيل العرم ، ويزعم أن اسمه الملك الشاعر عمرو بن عامر ، وهذا الشعر جزء من أسطورة زعموها هي أن الجرذ سُلط عليهم فقلب برجليه صخرة لا يقلبها خمسون رجلا ، فنقب بفعله هذا السد الذي كان يقبُه سبب غرقهم ، فقال :

أبصرت أمرا عادلى منه ألم وهاج لى من هوله برح السقم
من جرذ كفحل خنزير الأجم أو تيس صرم من أفاويق الغم^(١)
يسحب صخرنا من جلاميد العرم له مخالب وأنياب قضم
٣٣ : مافاته سحلا^(٢) من الصخر قضم كأنه يرعى حصيراً من سلم

ومع يقيننا بأن هذا الشعر مخترع مع هذه الأسطورة ؛ إذ لم تكن لغة قوم سبأ هي لغة قریش ، ولم يكن سبب انفجار السد جرذا كما تزعم الأسطورة ، فإنها تبين لنا أن ذلك الخيال الساذج الذى تخيل الأسطورة وشعرها يعترف بأن الأمة العربية القديمة كان لها شعر ، وكان بعض هذا الشعر قصصياً ، وكان من بحر الرجز أيسر بحور الشعر نظماً ، وأسهلها على الشعراء قافية .

(١) الصرم : الجماعة ، والأفاويق : الحيار . (٢) سحلا : نحتا .

وليس طعننا في هذه القصة بدافع سوانا إلى أن يظن في وصف بلاد اليمن اعتمادا على أن مصدرها واحد ، فحضارة اليمن تحدث عنها غير المسعودي من مؤرخي العرب ، بل تحدث عنها غير مؤرخي العرب .

٤ — فقد قيل إن الدولة التي قامت باليمن نالت من بسطة الحياة ونخامة المدنية حداً أدى بمعاصريهم من اليونانيين إلى أن يسمّوا هذه البلاد ببلاد العرب السعيدة ، وناهيك بمن بلغ من المعرفة الهندسية حداً يستطيع به أن يرسم سد مأرب ، وأن يشيد بناءه ، وهو بعد من أعظم ما أقامه البشر

وقصور اليمن التي تتحدث عنها كتب التاريخ تنطق بعلومهم الواسع ، وفنهم الزاخر ، فمن قصورها قصر غمدان الذي قيل عنه : « إنه كان مربعا : أحد أركانه مبنى بالرخام الأبيض ، والثاني بالرخام الأصفر ، والثالث بالرخام الأخضر ، والرابع بالرخام الأحمر ، وفيه سبعة سقوف طباقا ، ما بين السقف والآخر خمسون ذراعا ، وعلى كل ركن تمثال أسد من نحاس ، إذا هبت الريح دخلت من دبره وخرجت من فمه ، فيسمع له صوت يشبه زئير الأسد » .

وإذا كان في وصف القصر مبالغة ، فإنها تؤيد رأينا ؛ لأن المبالغة دليل على إيمان المؤرخين بحضارتهم العظيمة ، وأنهم بلغوا منها الحد الذي يقدرّون معه على إثبات أمثال تلك العجائب .

الدولة اليمنية والدولة الحميرية :

٥ — ما قيل عن دولة اليمن يمكن أن يقال مثله عن الدولة الحميرية التي بهرت العالم بحضارتها ، والتي تحدث المؤرخون عنها « بأنها أول دولة أنشأت الشرائع ، وجعلتها أساس معاملة أفرادها بعضهم مع بعض ، وليس كونها دولة تشريع بمانع أن تكون دولة فنّ ، فقد كانت الدولة الرومانية دولة تشريع وفنون معا ، وإذن فلماذا نحرمها حق الشاعرية في ذلك الزمن السحيق ؟ .

رأى الأستاذ جرجى زيدان :

٦ — يرى العالم الباحث جرجى زيدان « أن الشعر عند الساميين أقدم آدابهم لكن أكثره كان غنائيا ، وليس فيه من الشعر القصصى إلا نتف قليلة ، أما التمثيل فيظهر لأول وهلة أنه بعيد عن آداب العرب » .

وسنرى أنه موجود فيها على صورة ساذجة تشبه إلى حد كبير الصورة التي نشأ بها الشعر التمثيلي عند اليونان ، وإن لم يسمه العرب بهذا الاسم ، ولم يمثله غير قائله ، ثم يقول : « وما يعد من قبيل آداب العرب في ذلك العصر سفر أيوب ، والمرجح عند أهل التحقيق أن صاحب هذا السفر في التوراة عربى الأصل نظم ذلك الكتاب شعراً عربياً في نحو القرن العشرين قبل الميلاد على أثر نزوح المحوريين من بين النهرين ، ثم ترجم إلى العبرانية ، وعد من الأسفار المقدسة ، وضاع أصله العربى ، كما ضاع أصل كليلة ودمنة الفارسية ، فإذا ثبتت عربية سفر أيوب كان العرب أسبق الأمم إلى قرص الشعر ؛ لأنه نظم قبل إلياذة هو ميروس بألف سنة ، ومهابها راتا الهند بعدة قرون » .

مقدمة المقال فى الشعر القصصى والتمثيلى :

وبعد ، فإننا وقد بينا أن عوامل الشعر القصصى كانت متوافرة عند العرب فى عصورهم السحيقة ، فلماذا لا نؤمن بوجوده ؟ بل لماذا ننكر — دون سند — وجود الشعر التمثيلى ، وقد كان أول ما عرف أسوياء ؟

إن هذه المدنية التى وصفنا بعض مظاهرها ، وعرضنا بعض آثارها لا بد أن يكون قد تبعها تقدم عظيم فى الفنون ، ومن بينها الشعر ؛ فالمقول أن يصفوا حروهم ، ويصوروا انتصاراتهم ، ويتمثلوا أبطالهم ، ويرسموا أعمالهم بالشعر القصصى والتمثيلى والغنائى ، وليس من الختم اللازم أن يكون شعر جميع الأمم متحد الصورة متماثل اللون ، فإنه حتى الآن ليس متحد الصورة ، ولا متماثل اللون ، ولا جارياً على نمط مستقيم لا عوج فيه ، ولو أننا

قلنا غير هذا الجاز لنا أن نقول : إن الله خلق العالم كله ذا لون واحد ، ولسان واحد ، وعقل واحد ، وشعور واحد ، وليس شيء من ذلك حادثا .

مناقشة رأى ابن الأثير في أقدمية الشعر العربي :

قلنا : إن المقول أن العرب كان لهم شعر متنوع فيه القصصى والتمثيلي والغنائى ، وأن هذا الشعر بأنواعه الثلاثة قد طواه الزمان فيما طوى ، وعفته الأيام فيما عفت ، ودع عنك رأى ابن الأثير فى المثل السائر ، إذ يقول : « والذى نقلته الأخبار وتواردت عليه أن العرب كانت تنظم المقاطيع من الأبيات فيما يعنُّ لها من الحاجات ، ولم تزل الحال على هذه الصورة إلى عهد امرئ القيس ، وهو قبل الإسلام بمائة سنة زائداً لا ناقصا ، فقصده المقصائد . . . » فإن ابن الأثير بقوله هذا إنما يقصد الشعر المنظوم بلغة عدنان ، ومع ذلك فإنه من غير المقول أن يكون الشعر قد ولد كاملا فى معانيه وفى أسلوبه وفى أوزانه ، فطبيعة الأشياء أن تنشأ ناقصة ، وتقوّم شيئا فشيئا حتى تبلغ درجة أدنى إلى الكمال .

وها نحن أولاء نرى أن بدء القصائد ببكاء الديار مثلا تتابع عليه الشعراء جيلا بعد جيل ، وعصرأ بعد عصر ، فكيف أمكن ذلك التغيير الشامل فى الشعر من المقاطيع إلى القصائد فى عهد شاعر واحد ، وفى جيل واحد ، مع أن هذا لابد أن يستلزم تغيرا فى المعانى بالزيادة أو بالنقص ، وتفتقا للأفكار ، وتنوعا فى الخيال ، كما يستلزم حتما تغيرا فى الأسلوب ليجارى تلك المعانى ؟

الشعر المحمورابى واليمنى كانه بغير اللغة العدنانية :

ولا ريب أن الشعر المحمورابى ، واليمنى كان بغير لغة عدنان ، كان بلغتين تخالفان فى أصولهما وقواعدهما اللغة العدنانية مخالفة لابد أن تكون عظيمة ، حتى ليصعب على القارى فهمها ، وهاك ما يؤيد ما نقول نقلا عن كتاب تاريخ آداب اللغة العربية لجرجى زيدان ، قال :

« قس مقدار الفرق بين لغة مضر ولغة عمالقة العراق بالفرق الذى وجدوه بين لغة عرب الشام فى أوائل القرن الرابع للميلاد بما قرءوه على قبر امرئ القيس بن عمرو ملك الحيرة ، وبين لغة مضر عند ظهور الإسلام ، وذلك أنهم عثروا فى أطلال الحمار فى حوران على حجر عليه كتابة عربية بالخط النبطى نقشت فى أوائل القرن الرابع للميلاد ، أى قبل ظهور الإسلام بثلاثة قرون . »

ثم أورد المؤلف صورة الكتابة ، وقال :

« وإليك نصها كما تقرأ ، كل سطر على حدة :

١ — فى نفس مر القيس بر عمرو ملك العرب كله ذو أسر التاج .

٢ — وملك الأسدين ونزار وملوكهم وهرب مذحجو عكدى وجاء .

٣ — يزجود ؟ فى جيح نجران مدينة شمر وملك معدو ونزل بنيه .

٤ — الشعوب ووكله لفرس والروم فلم يبلغ ملك مبلغه .

٥ — عكدى هلك سنة ٢٢٣ يوم ١٧ بكسلول بلسعد ذو ولده .

ثم يقول : « هذا لسان عربى تشوبه صبغة آرامية يحتاج تفهمها إلى إيضاح ، وهاك

تفسير هذه الكتابة باللغة العربية الفصحى ، وهو :

١ — هذا قبر امرئ القيس بن عمرو ملك العرب كله الذى تقلد التاج .

٢ — وأخضع قبيلتى أسد ونزار وملوكهم ، وهزم مذحج إلى اليوم وقاد .

٣ — الظفر إلى أسوار نجران مدينة شمر ، وأخضع معدا ، واستعمل بنيه .

٤ — على القبائل وأبا بهم عنه لدى الفرس والروم فلم يبلغ ملك مبلغه .

٥ — إلى اليوم توفى سنة ٢٢٣ فى يوم ١٧ أيلول (سبتمبر) وفق بنوه السعادة .

ثم يقول : « انظر إلى الفرق بين الأصل وتفسيره ، والمدة بين هذين العصرين ثلاثة

قرون ، فكيف تكون وبينهما بضعة وعشرون قرنا . »

عود إلى رأى ابن الأثير :

ذلك رأى الذى يقول به ابن الأثير هو رأى أئمة الأدب القدماء ، وقد علناه وأظهرنا

أن أساسه الذى بنى عليه هو مارووه من الشعر ، ولكنهم لم يُعملوا فكرا ، ولا أجالوا نظرا فيما بُد من عصور التاريخ ، ولو قد فكروا لما وصموا الأمة العربية بموت العواطف ، ونضوب القرائح تلك الأحقاب الطويلة .

لو قد فكروا لعرفوا أن امرأ القيس وخاله عدى بن ربيعة الذى قالوا عنه : إنه هاهل الشعر وغيرهما ممن جاء قبلهم وجدوا شعرا كامل العناصر تام الأجزاء فساروا على النهج الذى وجدوه ، ومتحوا من العين التى عرفوها ، إذ من المحال أن يولد الطفل رجلا ، وأن يظهر الناقص كاملا .

لو نظروا لرأوا امرأ القيس نفسه يقول :

عوجا على الطلل المحيل لعلنا نبكى الديار كما بكى ابن خذام
ولا نجد بين أيدينا من كتب الأدب واللغة عن ابن خذام هذا الذى يتخذهُ أمير الشعراء
فى العصر الجاهلى قدوة يقتدى بها ، وقبسا يقبس من معانيه ما ينقع غلة أو يبل صدق كل
ما قيل عنه : إنه رجل جاهلى كان يقول الشعر ، وهذا هو مفهوم البيت لا غير ، أما ماذا
قال من شعر ؟ وفى أى زمان ومكان قاله ؟ فلا نجد شيئا .

لو تأمل القدماء فى النزر اليسير الذى وصل إلينا من شعر العصر الجاهلى لرأوا هؤلاء
الشعراء يصفون أنفسهم بالتقصير ، ويعترفون فى شعرهم بأنهم ينهلون من مناهل استنبطها
لهم أسلافهم ، ويردون موارد هدام إليها أجدادهم ، فزهير بن أبى سلمى يقول :

٣٥ : ما أَرانا نقول إلا معارا أو معادا من لفظنا مكرورا

إنه ينسب إلى نفسه - وهو من هو صفاء قريض وسناء معان - ينسب إلى نفسه وإلى
غيره الاستعارة والاستعادة والتكرار مما قاله القدماء ، ولما قالوه دون أن يجد من مدى
الاستعارة والاستعادة والتكرار مما يدل على أنه يريد بها جامعة شاملة جميع ما يمكن
أن يجمع .

وهذا شاعر آخر يقرر أن الأول لم يترك للآخر شيئا ، وينفى فى صيغة الاستفهام أن
يكون الشعراء السابقون تركوا معنى لم يتركوه ، أو متردما من الشعر لم يصلحوه ، فيقول عنتره :

هل غادر الشعراء من متردّم أم هل عرفت الدار بعد توهم؟
ومن أولئك الذين يقررون ويؤكدون أنهم مقتبسون ومستعيرون ، ومستعيدون ومكررون
ومقلدون ؟ إنهم ثلاثة من أصحاب المقلات ، ومن زعماء الشعر في العصر الجاهلي ، وهم
لا يرون في ذلك غضا من عليائهم ، ولا توهنيا لكبريائهم .

الشعر العربي المفقود له بلسانه قحطان :

وإذن فإن لنا أن نحكم بأن للعرب المتوغلين في الدهر شعرا لم يصلنا منه شيء كان
بلسان قحطان ، لم يصلنا لأنه اندثر فيما اندثر من آثار ، وبأن هذا الشعر لم يكن غنائيا
خالصا ، وإنما هو مزيج من الغنائي والقصصي والتمثيلي ، ولكنه ساذج لم يتم بناؤه ، ولم
تستحصد أجزاؤه ، فلم يوصف بأنه قصصي أو تمثيلي .

الحوار هو الشعر التمثيلي :

إن تلك المحاورات التي تروى عن امرئ القيس وعبيد بن الأبرص ، وعنه وعن
التوهم اليشكري - مع أننا نظن أنها موضوعة - تصلح لأن تعطينا صورة للحوار الذي يمكن
أن يعتمد عليه المسرح .

وها هو ذا الحوار الذي زعم أنه دار بين امرئ القيس والتوهم :

قيل إن امرأ القيس نازع التوهم اليشكري جد قتادة بن الحارث ، فقال : إن كنت
شاعرا فأجز ما أقول : فقال التوهم : قل ما شئت ، فقال امرؤ القيس :

امرؤ القيس : أصاح ترى بريقا هب وهنا .^(١)

فقال التوهم : كئنا مجوس تستمر استمارا .

فقال امرؤ القيس : أرتق له ونام أبو شريح .

٣٨ : فقال التوهم : إذا ما قلت قد هدا استطارا .^(٢)

(١) البريق : تصغير برق ، والتصغير هنا للتعظيم ، ووهنا : منتصف الليل .

(٢) استطار : انتشر .

فقال امرؤ القيس : كأن هزيره بوراء غيب .

فقال التوهم : عشار وُلّه لاقت عشارا .

فقال امرؤ القيس : فلما أن علا كنفي أضاح^(١) .

فقال التوهم : وهت أعجاز ريقه فخارا .

فقال امرؤ القيس : فلم يترك بذات السر ظيبا .

٤١ : فقال التوهم : ولم يترك بجلهتها حمارا .

فلما رأى امرؤ القيس أن التوهم قد ماتنه ، ولم يكن في الزمن الأول شاعر يماثنه آلى
ألا ينازع الشعر أحدا بعده

أُعييب العرب ألا يكون لهم شعر قصصى وتمثلي

و بعد فهمهم لم يقولوا شعرا قصصيا ولا تمثليا فإن ذلك لايهن من براعتهم ، ولا يغض
من فنيهم ، إذ لا يعيبهم أن يعرضوا عن منهل لم يستعذبوه ، أو ألا يردوا موردا لم يعرفوه ،
ولو أرادوه لعرفوه ، فليس الشعر المسرحي بمعجز من كان له طبع سليم ، وخيال فسيح ،
وكانا متوافرين عند العرب .

وقد يكون من أسباب انحرافهم عنه — إن كانوا قد انحرفوا — أو عدم اتجاههم إليه إن
سلمنا بأنهم لم يتجهوا — أنهم كانوا ذوى بديهة وارتجال ، لأنهم — كما يرميهم بعض المتعنتين —
ضيقوا المجال ، مقفرو الخيال ، فشرهم الغنائى يشعرونا بغير ذلك ، فقد منحتهم طبيعتهم عناصر
الإبداع ، ووهبت لهم بيتهم أسباب تفرع القول .

(١) إحدى قرى اليمامة لبني نعيم

الشعر الغنائى

انبعاث الشعر الغنائى :

ينبعث الشعر الغنائى عن عاطفة صادقة ، ويتدفق من وجدان سليم ؛ إذ هو يصور ما يحيش بخاطر الشاعر دون غيره ، ويرسم ما يخالط مشاعره لا مشاعر سواه ، فهو أقرب ما يكون موطناً من الغناء ، وأدنى ما يكون صلة به ، فالعربى الذى يحدو إبله ، والراعى الذى يرعى غنمه ، والحبيب الذى يناجى حبيبته ، والعاشق الذى يساهر النجوم ، والمحارب الذى يصول فى حومة الوغى ، والمكلم الذى يشكو الجوى ويرسل الأسى ، وغير أولئك وهؤلاء ممن تحفرهم إلى إنشاء القريض دوافعه تفتتح صدورهم لإنشاده ، وتطرب آذانهم لتلحينه ، فإذا الشاعر مغن ، وإذا المغنى شاعر .

الشعر القصصى والتمثيلى ليسا صالحين للغناء دائماً :

أما القسمان الآخران : القصصى والتمثيلى فلا يصلحان فى جميع الأحوال للغناء ، إذ ليست جميع المواقف والمشاهد تستأهل التلحين ، وحتى إن كانا صالحين ، فإنهما يصدران عن باعث ليس قويا قوة انبعاث الشعر الغنائى ، هذا إلى أنهما أقرب إلى الدين والأخلاق منهما إلى الآداب والفنون ، وهما يحتاجان إلى التروية والتأمل ، وهذا ما لم يكن يحتمله العربى الجاهلى القريب العهد بالإسلام ، فحياته البدوية البحت لا تلائم هذه القيود ، وطبيعة النفور من الأسر لا تتحمل هذه الأصفاة ؛ تلك التى تقف دون انطلاق لسانه بما يشاء ويريد ، لا بما يرام منه .

الشعر القصصى والتمثيلى يحتاجان إلى تدوين .

ثم إن الشعر القصصى والتمثيلى يحتاج كلاهما إلى تدوين وتسجيل حتى يقتدر ناظمه على تتبع ما نظم ، والعودة إلى مراجعة ما قرأ ؛ لتسير اللاحمة أو التمثيلية على عطف متسق ،

ونظام متصل، وهذا هو ما صرف الشاعر في العصر الجاهلي الحديث عن هذين الفنين، لا ما يزعمه بعض رجال الأدب من أنه ضيق الأفق، أو قيد القافية، فليس العربي القدي يعيش بين الصحراء والسماء - لا يوجب هذه الآفاق عنه حجاب - ولا يمترض النظر في كائنتهما حائل - بالذي يقال عنه إنه ضيق الأفق، وأما القافية فهو مخترعها، ولو رأى أنها ستصده عن طريق يريده لحاد عنها، وإذا كان الرجز أول مقال من الشعر وقد التزم فيه بناء البيت على الشطر الواحد، فالقافية ملتزمة في كل شطر، ثم توسع في استعمالها؛ إذا كان الأمر كذلك، فإنه يتحول عنها إلى ما ييسر عليه النظم، فهو مطلق الحرية في ذلك الحين، وهو الخالق للأسس والقواعد.

ومع هذا فبحر الرجز يبيح له ما لا يباح في بحر سواه، وسهولة النظم به تتيح للشاعر القدرة على الإطالة، وهذه أرجوزة أبي العتاهية الشاعر العباسي توشك أن تكون ملحمة، مع أنها في الحكمة، والحكمة أضيق معاني من الملاحم.

وها هو ذا أحمد شوقي بك استطاع أن ينظم القصة القصيرة، والتمثيلية الجميلة دون أن يقف في سبيل نظم قيد البحر أو القافية.

أول سه فكر في تقسيم الشعر الغنائي :

أول من فكر في تقسيم الشعر الغنائي عند العرب تقسيما فيه دقة نظر، واستقصاء أغراض هو الشاعر العباسي هو أبو تمام الطائي، فقد اختار من شعر الشعراء المجيدين في الجاهلية وصدر الإسلام، والعصر الأموي وصدر العباسي أجود ما قاله أولئك الشعراء، وسمى كتابه : « ديوان الحماسة »، ووهب لهذا الغرض ثلث كتابه.

وإذا كان لنا ما نأخذه عليه فهو أنه آثر المقطوعات القصيرة على المقطوعات الطويلة والقصائد الكاملة، وكأنه أراد بذلك أن يعرض علينا من شعر الفحول أكثر ما يمكن أن يجمع في كتاب؛ فيكتفي البيتين أو الأبيات دليلا على جمال الشعر وروعته، وعلى قدرة

الشاعر وبراعته ، مثله كمثل البستاني ينسق الطاقة ، فيقطف من كل نوع زهرة ، ليظهر غنى بستانه بأزهاره .

تقسيم أبي تمام ورأينا فيه :

وقد قسم ما اختاره إلى عشرة أقسام : الحماسة والمرثي ، والأدب والنسيب ، والهجاء والأضياف والمديح ، والصفات والسير ، والملح ومذمة النساء .

ومن عجب أن أبا تمام غرض من قدر الوصف مع أنه كان من البارعين فيه ؛ إلا إذا أجبنا لأنفسنا ألا نتقيد بالتسمية التي سماها لأقسامه ، وأورد تحتها الأبيات التي اختارها . على أنه أورد في باب الصفات سبعة عشر بيتا ليس فيها بيت لشاعر من شعراء الوصف المجيدين ، فهي للبعيث الحنفي ، واعنتره بن الأخرس ، وللملحة الحرمي ، وهذه أبياته يصف فيها السحاب :

أرقت وطال الليل للبارق الومض	حبيا سرى مجتاب أرض إلى أرض ^(١)
نشاوى من الإدلاج كدرى مزنه	يُقَصَّى مجذب الأرض مالم يكذب يقضى ^(٢)
تحن بأجـــــــــواز القضا قُطراته	كما حَنَّ نيب بعضهن إلى بعض ^(٣)
كأن الشماريخ العلا من صبيره	شماريخ من لبنان، بالطول والعرض ^(٤)
يبارى الرياح الحضرميات مزنه	بمنهم الأرواق ذى قرع رفض ^(٥)
يفادر محض الماء ذو هو محضه	على إثره إن كان الماء من محض ^(٦)
٤٠ : يروى العروق الهامدات من البلى	من العرفج النجدي ذو باد والمحض ^(٧)

-
- (١) حبيا : سحابا معترضا الأفق . (٢) الإدلاج : سير أول الليل . كدرى : فى لونه كدرة وسواد (٣) الأجواز : الأوساط . قطراته : نواحيه . النيب : الإبل المسنة . (٤) الشماريخ : أعالي الجبال ، واستعارها للسحاب . الصير : السحاب فيه سواد ويياص . (٥) الحضرميات : الهابة من حضرموت . الأرواق : جمع روق المياه الصافية . القرع : قطع السحاب . الرفض : الإبل تترك فى المرعى ، ويريد متفرقا . (٦) ذو : بمعنى الذى . (٧) العرفج : اسم نبات . ذوباد : الذى هلك . المحض : الرمن النبات

وبات الحبي الجون ينهض مقدما كنهض المدائى قيده الموعث النقص^(١)
وهى أبيات باللغة الإحسان فى وصف السحاب ، والقطعتان الأخريان إحداها فى وصف
الناقة ، والأخرى فى وصف الثعبان .

إذا لم تنقيد بهذه التسمية وجدنا فى جميع الأبواب قطعا تصلح لأن تكون فى باب
الصفات ، كأبيات أمية بن أبى الصلت التى يصف فيها شأنه وولده إذ يقول :

غذوتك مولوداً وعلتك يافعا تل بما أدنى إليك وتنهل
إذا ليلة نابتك بالشكو لم أبت لشكوك إلا ساهرا أتمل
كانى أنا المنطروق دوك بالذى طرقت به دونى ، وعينى تهمل
تخاف الردى نفسى عليك ، وإنى لأعلم أن الموت حتم مؤجل
فلما بلغت السن والغاية التى إليها مدى ما كنت فيه أومل
جعلت جزائى منك جبها وغلظة كأنك أنت المنعم المتفضل

إلى آخر هذه القطعة التى فى أبياتها الكثير مما يدخل فى الوصف الحكى وتندرج تحته ،
بما تنتظمه من صور كاملة ، ومعان سامية ، وكقول الأخنس التغلبى الجاهلى فى الأطلال
والناقة والسيف :

من يك أمسى فى بلادٍ مقامة يسائل أطلالا بها لا تجاوب
فلاينة حطان بن قيس منازل كما نطق العنوان فى الرق كاتب
تمشى بها حوّل النعام كأنها إماء تزجى بالعشى حواطب^(٢)
٥٩ : وقتت بها أبكى وأشعر سخنة كما اعتاد محموما بنجير صالب^(٣)

(١) الجون : السحاب الأسود أو الأبيض ، والأول هو المراد . المدائى : المقارب الخطأ .
الموعث : السائر فى الأرض اللينة . المعض : المهزول الضعيف .

(٢) إماء : جمع أمة البنت الرقيقة . تزجى : تساق سوقا لنا . حواطب : ضالة تخبط
خبط عشواء ، أو جامعات الحطب . (٣) أشعر : ألبس الشعار ، وهو الثوب يلى الجسد .
سخنة : حرارة . صالب : حمى مصحوبة بصداغ .

خليلىَّ عوجا من نجاه شملة عليها قتي كالسيف أروع شاحب^(١)
 خليلاي هوجاء النجاه شملة وذو شطب لا يجهتويه المصاحب^(٢)

وهي أبيات تبدو فيها الروعة والحسن والافتنان ، فهذا التشبيه لرسم الديار « كما نطق العنوان ... » لا يفضل قول طرفة في المعنى نفسه : « تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد » وتشبيهه النعام الحائل في أماكن تلك الديار يضرب فيها ، ويخبط في جنباتها بالإماء تخبط خبط عشواء ، أو بهنٍّ إذ ينتقلن في جمهن الحطب من مكان إلى مكان تصوير جميل . وإذن فإن أبا تمام وإن يكن قد وضع الوصف في غير مكانه ، فقد ملأ به كتابه ، ففض منه من ناحية ، وعنى به من ناحية أخرى ، قل أن تجد قطعة لا يبهرك الوصف فيها .

تقسيم البحري ورأينا فيه :

ثم جاء بعده أبو عبادة البحري ، فوضع كتابه : « الحاسة » على غرار كتاب أستاذه أبي تمام في الاسم فقط ، وخالفه فيما عدا ذلك ، إذ قسمه إلى أربعة وسبعين ومائة قسم ، نظر فيها لا إلى فنون الشعر ، بل نظر إلى جزئيات المعاني ، فيقول مثلاً :
 « الباب السادس عشر » فيما قيل في حمد عاقبة ركوب المكروه عند الحرب :
 قال النابغة الذبياني :

سرنا إليهم وفيهم كارهون لهم وقد يصادف في المكروهه الرشدُ
 وقال الجال العبدى :

إذا خفت في أمر عليك صعوبة فأصعب به حتى تذل مراكبه
 ٦٤ : وأمر على مكروهه قد ركبته فكان بحمد الله خيرا عواقبه

(١) عوجا : ميلا . النجاه : السرعة . الشملة : الناقة السريعة . الأروع : الجميل . شاحب :

متغير من السفر .

(٢) خليلاي مبتدأ خبره : هوجاء النجاه ، وذو شطب . الهوجاء : الناقة في سيرها هوج

ونشاط . وذو شطب : وصف للسيف به طرائق متعرجة . يجهتويه : يكرهه وبغله .

وقال الأخرز بن جرين :

وأركب الكره أحيانا وأحمده وربما نال في الكره الفتى الرُّغبا
لا تجزعن لكره أنت راكبه واجسر عليه ولا تظهر له رُعبا

وقال بشامة بن حصين الفزارى :

٦٧ : ونركب الكره أحيانا فيفرجه عنا الحفاظ وأسياف تؤاسينا

ثم ينتقل بعد هذه الآيات الستة إلى الباب السابع عشر فيما قيل في الاعتذار من الفرار ، وهكذا يسير في تقسيمه ، فيجمع المعاني المتماثلة ، والأفكار المتقاربة في إطار واحد ، وهو لا يمدو فيها يعرضه البيت والبيتين والثلاثة ، فيتيح للنّاظر في الشعر ، تبين أصحاب المعاني المبتدعة ، ومعرفة من اقتبس منهم . وأخذ عنهم ، ويجمع الكتاب نحو أربعة آلاف بيت كلها من جيد الشعر ومصطفاه

تقسيم قدامة بن جعفر :

ولقدامة بن جعفر كتابان في النقد ، أحدهما : نقد النثر ، والآخر نقد الشعر ، قال في أولهما ؛ عن تقسيم الشعر : « وللشعراء فنون كثيرة تجمعها في الأصل أصناف أربعة ، وهى : المديح والهجاء ، والحكمة واللهم ، ثم يتفرع من كل صنف من ذلك فنون ، فيكون من المديح المرائى والافتخار ، والشكر والطف في المسألة ، وغير ذلك مما أشبهه وقارب معناه ، ويكون من الهجاء الذم والعتب والاستبطاء والتأنيب ، وما أشبه ذلك وجانسه ، ويكون من الحكمة الأمثال والتزهيد والمواعظ ، وما شاكل ذلك وكان من نوعه ، ويكون من اللهم الغزل والطرد وصفة الخمر والحجون وما أشبه ذلك وقاربه ، ثم يورد بعد ذلك أمثلة لهذه الفنون الأصلية والفرعية ، وهو تقسيم تظهر عليه سمة العلماء وأهل المنطق . وقال في نقد الشعر تحت عنوان : « باب المعاني الدالّ عليها الشعر » .

« ... ولما كانت أقسام المعاني التي يحتاج فيها إلى أن تكون على هذه الصفة مما لانهاية لعدده ... ، رأيت أن أذكر منه صدىً ينبىء عن نفسه ، ويكون مثالا لغيره ، وعبرة لما لم أذكره ، وأن أجعل ذلك في الإعلام عن أغراض الشعراء ، وما هم عليه أكثر حوماً ، وعليه أشد روماً ، وهو المديح والهجاء ، والنسيب والمرائى والوصف والتشبيه » .

ولو أنه استغنى عن التشبيه بالوصف لكان تقسيمه أقرب إلى ما تعارف عليه الشعراء .

تقسيمات أخرى :

جاء أبو هلال العسكري المتوفى سنة ٣٩٥ هـ في أعقاب قدامة بن جعفر المتوفى سنة ٣٣٧ هـ فسار على نهجه ، وأخذ عنه مذهبه ؛ إذ قال : « وإنما كانت أقسام الشعر في الجاهلية خمسة : المديح والهجاء والوصف والتشبيب والمرأى حتى زاد النافعة فيها قسما سادسا ، وهو الاعتذار فأحسن فيه » .

ومن بعدهم جاء ابن رشيقي القيرواني المتوفى سنة ٤٥٦ هـ ومعدل في تقسيم من سبقوه تعديلا طفيفا ؛ إذ جعله تسعة أقسام : النسب والمديح ، والافتخار والثناء ، والاقتضاء والاستنجاز ، والعتاب والوعيد والإنذار ، والهجاء والاعتذار .

ويقول عبد العزيز بن أبي الإصبع : « والذي وقع لى أن فنون الشعر ثمانية عشر فنا : غزل ووصف ، وفخر ومدح ، وهجاء وعتاب ، واعتذار وأدب ، وزهد وخمرات ، ومراث وبشارة وتهان ، ووعيد وتحذير وتحريض وملح ، وباب مفرد للسؤال والجواب » .

وهو تقسيم ليس بذى قيمة فنية ، فلا هو راعى دقات المعانى كالبحتري ، ولا هو لاحظ خصائص المعانى ، فنحن نستطيع أن نجتمع بين الهجاء والعتاب والوعيد والتحذير والتحريض فى باب واحد ؛ لأنها تصدر عن غاية واحدة ، وكذلك المدح والبشارة والتهانى ، ثم الأدب والزهد .

وقسمه البارودى فى مختاراته إلى سبعة أقسام : الأدب والمديح والثناء ، والوصف والنسب والهجاء والزهد ، ومع أنه أيضا من زعماء الوصف فى عصره ، فإنه لم يعرف له قيمته ، ولم يضعه فى فلكه ، فلم يعقد له بابا خاصا .

وبعد ، فأقرب هذه التقسيمات إلى الدقة تقسيم أبى تمام والبارودى ، فتقسيمهما تقسيم الشاعر لا تقسيم العالم .

الفصل الرابع

فى الوصف وتقسيمه

معنى الوصف :

الوصف بمعناه اللغوى : هو التحلية والتجميل ، يقال : وصف الشيء له وعليه وصفا وصفة: حلاه وجهه ، وللصديق أوصاف حسنة وصفات جميلة، وتواصفوا الكرم إذا وصف بعضهم بعضا به ، وقد اتصف جاره بالخلق الحميد إذا صار منعوتا متواصفا بين القوم به . وهو عند النحويين يخالف معناه عند اللغويين بعض المخالفة ، فهو عند أولئك أعم وأشمل ، إذ جعلوه يتناول المدح والذم ، والحسن والقبيح ، فيقال : هذا فتى وسيم، وذاك رجل دميم ، وفلان له أصل كريم ، والآخر له نسب لئيم .

ونحن لانعنى هذا المعنى ولا ذاك ، وإنما نعنى معناه عند الأدباء ، وهو عندهم :

تصوير الظواهر الطبيعية بصورة واضحة التقاسيم ، وتلوين الآثار الإنسانية بألوان كاشفة عن الجمال ، وتحليل المشاعر الإنسانية تحليلا يصل بك إلى الأعماق ، إلى غير هاتيك العناصر التى قد يحتاج وصفها إلى ذوق فنى ، وتتطلب الإحاطة بنواحيها ، والسمو إلى آفاقها وجداننا شاعرا ، وإحساسا مرهفا ، وذوقا سليما ، ككل ما يملك على الإنسان المرفه الحس إحساسه ، ويشير فيه شعوره ووجدانه ، وكتلك المناظر التى تخلب لب المتأمل وتملكه ، وتأسر بفتنتها المتمعن وتسحره ، فيطيل فى قسماتها التأمل ، ويدمن فى أجزائها التمعن ، ثم يصوره بعدئذ فى الصورة التى يرتضيها ذوقه ، ويقبلها فنه ، وقد يكون الفن فى أول الأمر ساذجا مطريا ، يعوزه الصقل والتقويم ، وتنقصه الدقة والعمق ، ولكنه ما يلبث بعد حين أن يصقل ويكمل ويوفى على التمام .

قيمة الوصف فى الشعر العالمى :

والوصف — فى حقيقة الأمر — هو عمود الشعر وعماده ، بل إن كل أغراض الشعر

وصف ، فالممدح وصف نبل الرجل وفضله ، والنسيب وصف النساء والحنين إليهن ، والشوق إلى لقاءهن ، والرثاء هو وصف محاسن الميت ، وتصوير آثاره وأياديه ، والهجاء وصف سوءات المهجوة ، وتصوير نقائصه ومعائبه ، وهكذا نستطيع أن ندخل جميع فنون الشعر تحت الوصف ، فهو على هذا الوضع كاللدوحة الملتفة الأغصان ، الفارعة الأفنان ، الترامية الظلال ، ولكننا نريده مستقلاً بذاته ، محدود المعالم عن سواه ، وهو ما سنفصله في هذا الكتاب .

الوصف أول ما نطق به الشعراء :

أرى أن فن الوصف هو أول ما نطق به الشعراء ، لا ما يرى البعض من أن الشعر الحماسي هو أول ضروب الشعر ، وحتى إن رضينا بهذا الذي يقال ، فإننا نرجع الشعر الحماسي إليه ؛ لأنه وصف لضروب من الشجاعة والقوة ، وعرض لصور من البطولة والقوة .

إني أرى أن الشعراء حينما تدقت ألسنتهم بالشعر ، بعد أن أفعمت به قرايحهم تدفقوا واصفين شعورهم ووجدانهم ، أو أساهم ووجدهم ، أو مصورين نجوهم وشكواهم ، أو نعيمهم وملهامهم ، وعلى الجملة معبرين عن كل ما يحرك كواميهم ، ويثير هواجسهم ، ويوقظ أحاسيسهم ، ويستبد بمشاعرهم من مناظر أو أحداث ، أو مظاهر أو آثار .

نعم نطق الشعراء بالشعر واصفين — لا مفتخرين ولا رائيين — بالفخر كان بلغة الشعب إلا إذا اقتضته المحافل الجامعة أو الأسواق الحاشدة ، ولغة الشعب في الأمم البادية هي القوس والسهم ، والسيف والرمح ، والرثاء كان بلغة القلوب والعيون . القلوب تنفطر ، والعيون تنهمر . أما وصف أثر الطبيعة في النفس ، وتصوير فعل الظواهر في الخاطر ، فلا بد أن يكون بلغة أرقى ، وبأسلوب أكثر اتساقاً ، وأعظم انسجاماً من سواه ، وهو الشعر .

ودع رأى من يقول : « إن أبواب الشعر اليوم تعدّ بالشرائح لم يكن منها في الجاهلية إلا الفخر والحماسة ، والتشبيب والمدح والهجاء ، وتفرع من المدح الرثاء وهو مدح الميت » فذلك رأى لا تؤيده الطبيعة الإنسانية ، ولا يثبتته المروى من الشعر الجاهلي ، ولعل القائل فاته أن الوصف يمكن أن يندرج تحته كما قدمنا — الفخر بالقبيلة لأنه وصف لما أثرها ، وعد لآلائها ومناقبها ، وعلى النمط بقية الأغراض التي تناولنا الحديث عنها .

كثرة الوصف ولطيفاته على الأعراسه الأخرى :

وبين يدينا الكثير من الشعر الجاهلي نتأمله فنجدّه يبدأ بالوصف دائماً ؛ وصف الأطلال أو وصف الظعن ، أو وصف الحبيبة ، أو وصف الخمر أحياناً ، ثم ينتقل الشاعر من وصف إلى وصف مستطرداً متتابعاً ؛ حتى تكاد القصيدة تنتهى ، فإذا جُلّها وصف ، وإذا تقلب منها ليس كذلك .

وهذه — مثلاً — معلقة امرئ القيس نتبعها فنجدّها جميعاً وصفاً ، فقد بدأها بوصف منازل حبيبته ، وتأثير الشمال والجنوب فيها ، فترى في عرصاتهما وقيعانها بحر الآرام كأنه حب فلفل ، ثم يصف وقوفه وصحبه عند ما تحمل أحبابه ، وهم يبعثون فيه التجمل ، ويصور ما يشقى نفسه ، ويطنى لوعة قلبه بأنها عبء مهراقه ، وإن لم يكن من ورائها طائل ، فهل عند رسم دراس من معول ؟ وهكذا ينتقل في الوصف ، فيصف عتر مطيته للعذارى ، ويعجب من كورها للتحمل ، ويصور كيف ظل العذارى يرتمين بلحهما « وشحم كهداث الدمقس المفلن » ثم يصف دخوله خدر عنيزة وأنها عبثت به فدعت عليه ؛ لأنه سيرجلها بركوبه معها ، إذ لن يستطيع البعير أن يحملهما جميعاً ، وأى عبث كقولها :

« لك الويلات إنك مرجلى » .

ويسير على هذا النهج الوصفى القصصى المعتمد على الحوار الهادئ حيناً ، والثائر حيناً كقولها :

« عقرت بعيرى يا امرأ القيس فانزل » فيقول :

٦٨ : فقلت لها سبرى وأرخى زمامه ولا تبعدينا من جنائك الملل

ثم ينتقل إلى وصف بيضة الخدر التى لا يرام خباؤها ، ويصف الثريا فى السماء ، وقد عرضت له :

« تعرض أثناء الوشاح المفصل » .

ويصف بعد ذلك صورة لما يجرى بين العاشقين ، لا ينقص الصورة تلوين أو تظليل ، بل هى كاملة التكوين والتجوير ، وأى صورة أكمل من قوله :

هصرت بفودي رأسها قمايلت عنى هضم الكشح ربا الخخل
 مهفهفه بيضاء غير مفاضة تراثها مصقولة كالسجنجل
 تصد وتبدي عن أسيل وتتقى بناظرة من وحش وجرة مطفل
 وجيد كجيد الرثم ليس بفاحش إذا هى نصته ولا بمعطل
 وفرع يزين المتن أسود فاحم أثيث كعنو النخلة المتشكل

وينتقل من وصف عنيزته ذلك الوصف الذى يستطيع المصور أن يخلق منه ملكا
 جمال فى هذا العصر بعد أن يتأمل دقائقه ، ويتصور جزئياته ،

ثم ينتقل إلى وصف الليل وطوله ، وثبات نجومه حتى لكأنها :
 « بكل مغار الفتل شدت بيدبل » .

ومن الليل ينتقل إلى وصف واد :

وَوَادٍ كجوف العير قفر قطعته به الذئب يعوى كالخليع المعيل

ثم يدير الحديث بينه وبين ذلك الذئب ، ومن ثم ينتقل إلى وصف فرسه ، وسنعرضه
 عرضا مبسوطا بعد حين ، وإذ يبلغ غايته من وصف فرسه يصف سربا من البقر الوحشى .
 وهنا ترى صورة من الصيد والطرّد ، كأنها لوح فى معرض من معارض التصوير ، أو قطعة
 فنية فى متحف من متاحف الآثار ، وبنقل من معركته مع صيده إلى وصف البرق ،
 وأن وميضه .

« كلع اليدين فى جبي مكلل » وبعد أن يأخذ حظه من وصفه يصف ثييرا فى عرابين
 وبله كأنه : « كبير أناس فى بجاد مزمل » حتى يختم القصيدة بقوله :

كأنّ مكّاكى الجواء غديّة صبحن سلافا من رحيق مغفل

٧٦ : كأن السباع فيه غرقى عشية بأرجائه القصى أنايش عنصل

فهذه قصيدة تجاوزت أبياتها الثمانين ليس فيها بيت واحد يمكن أن يقال عنه : إنه
 ليس من فن الوصف ، مع أنها لشاعر يتسع له مجال الفخر والحاسة ؛ لأنه ملك وسليل

ملوك ، ولكن الوصف غلب عليه ؛ لأن من حقه أن يغلب عند ذوى النفوس الجياشة ،
وهم الشعراء قبل جميع الناس .

وهذه قصيدة سويد بن أبي كاهل اليشكري تجاوزت أبياتها المائة تكاد تكون وصفا
حالفا ، فهو يصف في أولها خليلته وصفا لا فحش فيه ولا فسوق ، بل هو تشبيه وتصوير
كقوله :

تمنح المرأة وجها واضحا مثل قرن الشمس في الصحو ارتفع
صافى اللون وطرفا ساجيا أكل العينين ما فيه قمع
ثم ينتقل إلى وصف زيارة طيف المحبوبة ، وسهاد الليل في سبيل الإسلام به ، وأنه
قطع في رحيله إليه : « عصب الغاب طروقا لم يرع » لأنه :

آس كان إذا ما اعتادنى حال دون النوم منى فامتنع
ثم يصف رحلته إليها ، وقطعه المعاوز في سبيلها ، فيصف الزمان والمكان والسكان ،
فيقول :

كم قطعنا دون سلمى مهمما	نازع الغور إذا الآل لمع
في حرور ينضج اللحم بها	ياخذ السائر فيها كالصقع
وتخطيت إليها من عدى	بزماع الأمر والهم الكنع
وفلاة واصح أقرابها	باليات مثل مرفت القرع
يسبح الآل على أعلامها	وعلى البيد إذا اليوم متع
مركبناها على مجهولها	بصلاب الأرض فيهن شجع
كالغالى عارفات للسرى	مسنفات لم توشم بالنسع

ثم يسير في هذا الوصف حتى يبلغ منه غايته ، فيخرج على قبيلته يصفها ، ويفخر بكرمها
وخلقها ، ثم ما يني أن يعود إلى تصوير أثر بعد الحبيبة عنه فيقول :

٨٧ : حل أهلى حيث لا أطلبها جانب الحضر وحلت بالقرع

لا ألقاها وقلبي عندها غير المام إذا الطرف هج

ومن ثم يصف الثور الوحشي وصفا فيه دقة المعرفة ، وفيه سذاجة الفطرة ؛ فهو يصف
شياته وأجزاءه ، ثم يصف روعته وفزعه من صياد طي وكلابه ، فيصور لك حربا ناشبة
بين الكلاب وبينه ، مما سنعرضه لك فيما بعد

وما يزال ذلك شأنه يتنقل بين وصف الطبيعة الساكنة والمتحركة ، أو بين الفخر
والحكمة ، وللوصف في هذين أثر حتى يبلغ الغاية بوصف شيطان شعره ، فيختم به قصيدته
فيقول :

وأناي صاحب ذو غيث	زفیان عند إنفاد القرع
قال : لبيك ! وما استصرخته	حاقرا للناس ، قوال القذع
ذو عباب زبد آذيه	خبط التيار يرمى نالقع
زغر بي مستعز بحره	ليس للماهر فيه مطلع
هل سويد غير ليث خادر	ثدت أرض عليه فانتجع ؟

هاتان قصيدتان من أطول قصائد الشعر الجاهلي لانتكاد تجد فيهما من أغراض الشعر
بعد الوصف إلا القليل الذي لا يعتد به ، بل لانتكاد تجد فيهما شيئا غير الوصف إذا نظرنا
إلى ما فيهما من غزل أو غفر أو حكمة نظرة واسعة ، فسويد يقول في فخره ، ووصف حربه مع
عدوه :

وعدو جاهد ناضلته	في تراحي الدهر عنكم والجمع
فتساقينا بمر ناقع	في مقام ليس يثنيه الورع
وارتمينا والأعدى شهد	بنبال ذات سم قد نقع
بنبال كلها مذبوبة	لم يطق صنعتها إلا صنع
٩٨ : خرجت عن بغضة بينة	في شباب الدهر والدهر جذع

فهل بعد هذا يصح لقائل أن يقول : إن شعر الحماسة في العصر الجاهلي غلب

على الشعر العربي ، أو أن نستمع إلى من يقول: «إن الوصف كان متخلفا عن أكثر أبواب الشعر العربي » ؟ اللهم لا ، وقد قدمنا الحجة والدليل .

الشاعر هو الوصف :

إن الشاعر الوصف يعبر عن خلجات النفوس ، وخفقات القلوب ، ومضات العيون ، وبسات الشفاء ، وأسارير الجباب ، معينه في وصفه السماء ، والأرض ، والصحراء ، والماء ، والبدو ، والحضر ، والشمس ، والقمر ، والإنسان ، والحيوان ، والنبات ، والجماد ، وكل ما قد خلق الله وما لم يخلق كما يقول المتنبي . يتخذ منه مادته ، ويجعله نبع عاطفته ، فهو يصور الليل إذا سجا ، والنجم إذا هوى ، والموج حين يتلاطم ، والرمل وهو متراكم ، والبدر عندما يتألق ، والصبح حينما يشرق ، بل هو يصف ما لا يدركه البصر ، ويصور ما لا يعرف كنهه النظر ، فيصف الحس ، ويصور الخاطر ، ويخرج من هذه المعنويات صورا فتانة يدركها الحس ، ويتأملها الشعور ، فكأنك ترى الكبد المقروحة ، أو القلب الخفاق ، أو النفس الهاجسة ، أو الطيف الزائر ، أو الخيال العابر ، مما لا تدركه إلا النفوس الجياشة بالشعور . ويصور لك الشوق نارا تتأجج ، والسرور نسما يتأرجح ، وغير هذا وذاك ، مما ستقرأ منه الكثير ، فتجد فيه روح العبير .

أثر البيئة العربية في أهلها

إذا تأملنا مصور شبه جزيرة العرب أدركنا لأول وهلة أنها وحى صادق للشاعرية ، ونبع غزير للوصف ، إنها تكاد تكون صحراء ، لا أنهار تجري بينها ، فتفتق مكنونها ، وتخرج مكنوزها : فالقحط يشملها من كل جانب ، والجذب يحتلها من كل قطر ، فهم لذلك ينتظرون الوسى انتظار الحب رجع الرسول ، ويؤملون من النوء أن يجر أهدابا على البطحاء ، ويسعون في طلب الكلال سعيًا يجمع بين الضحك والبكاء ، وينتجعون العشب في الصبح أو في الليلة الظلماء ، لا يشغلهم عن طبيعة بلادهم السافرة ، ومناظرها الساحرة

إلا أن يجدوا من العيش شظفاً ، ومن الماء رشفاً ، ثم انصرفوا إلى ذلك الطبيعي يتأملونه فيصفونه ، ويستنبئون سره ويعلنونه :

إن الذى حرم الصحارى منظرًا ألــقى عليها للجلال شعرا
روحية صدفت عن الدنيا وما فيها وأضحت للشـعور مثارا
لذا عرفوا جميعا - لا فرق بين طفل وشيخ ، ولا بين رجل وامرأة ، ولا بين أعمى ومبصر
دقائق ظواهرها ، وحقائق مناظرها .

أعربى ضرير يستنبى ، ثم يعلن حكمه :

حدثوا أن أعرابيا ضريراً خرج مع ابنة عم له يرعيان غنما ، فأحس سمة تؤذن بمطر ، وأراد أن يتعرف من ابنة عمه حال السماء ، فقال : إني أجدر ربح النسيم قد دنا ، فارفعي رأسك فانظري ، فقالت : تريد السحب ، كأنها ررب معزى هزلى ، فعلم أن السحب لا تنزل في صغر قطعها ، ووضوح لونها كقطع المعزى الهزيلة ، وأن المطرات ولكن بعد حين ، فقال لها : ارعى واحذرى ، وسكت ساعة ، ثم أعاد السؤال ، فقالت : كأنها بغال دهم تجر جلالها ، فعرف أن السحب قد عظمت وأطبقت ؛ حتى صارت في ضخامة البغال قد سقطت عنها الجلال ، فهي تتعثر فيها ، فقال : ارعى واحذرى ، وبعد قليل سألها الثالثة ، فقالت : كأنها بطن حمار أحمر .

فعرف أن غبرة السماء قد اختلطت بجمرة خفيفة ، وأن السحاب قد تدلى لثقل مائه ، وعما قليل سيمطر ، فقال لها : ارعى واحذرى ، ثم سألها الرابعة ، فأنشدت :

١٠١ : دان مسف فويق الأرض هيدبه يكاد يمسه من قام بالراح
فأيقن أن المطر هاطل ، فقال لها : انجى لأبالك ، فما أتم كلامه حتى هطلت السماء

عناية العرب بالسحاب والغيث :

و بلغ من عنايتهم به ، ورقابهم له أن سموه أسماء بترتيب دمعاته ، فقالوا : إنه أول ما ينشأ نشء ، فإذا انسحب في السماء فهو السحاب ، فإذا تنفمت له السماء فهو الغمام ، فإذا كان الغيم في عرض السماء ولم تبصره وإنما تسمع رعده فهو العقر ، فإذا أطل وأظل السماء فهو العارض ، فإذا كان رعد وبرق فهو العراض ، فإذا كانت السحابة قطعا صفارا متدانيا بعضها من بعض فهي النمرة ، فإذا كانت متفرقة فهي القرع ، فإذا كانت قطعا متراكمة فهي الكرفى ، فإذا كانت قطعا كأنها قطع الجبال فهي قلع ، فإذا كانت قطعا رافقا فهي الطخارير ، فإذا كان حولها قطع من السحاب فهي مكلفة ، فإذا كانت سوداء فهي طخياء ، فإذا حسبتها ماطرة فهي نخيلة . فإذا غلظ السحاب وركب بعضه بعضا فهو المكفهر . . . إلى آخر هذه الأسماء التي تبلغ اثنتين وثلاثين منزلة لكل منزلة اسمها المميز لها عما سواها .

وللمطر أسماء مميزة : منها الوسمى ، ثم الولى ، ثم الربيع ، ثم الصيف ، ثم الحميم ، وله في آثاره أسماء كذلك ، فالحيا ما يحيي الأرض بعد موات ، والغيث ما يعقب الحل ، والديمة الدائمة مع سكون إلى غير هذه الأسماء المحددة للعاني ، والتي تبلغ سبعة وعشرين اسما كل اسم يميز أثر المطر في الأرض .

وللرياح من الأسماء ما للسحاب والغيث ، فهي النكباء إذا وقعت بين ريحين ، وهي الجرباء إذا وقعت بين الجنوب والصباء ، وهي المتناوحة إذا هبت من جهات مختلفة إلى آخر هذه الأسماء التي تبلغ أربعة وعشرين اسما .

ونظروا إلى الجبال في ارتفاعها وشهوقها ، فأدنى الجبل الحضيض ، ثم السفح ، ثم السند ، ثم الكيخ وهو عرضه ، ثم الحضن ، وهو ما أطاف به إلى غير تلك الأسماء الكثيرة التي تدل على طول تأملهم فيها ، وإدمانهم النظر إليها ، فضربوا بها الأمثال .

استقالتهم بمظاهر الطبيعة :

ولهم في وصف كل هذه الظواهر الرائع من الشعر ، والجيد من النثر ، فهم يحتفلون بها فيصورونها أجل تصوير ، ومن نثرهم قول أعرابي يصف المطر :

« تدارك ربك خلقه وقد كلبت الأحمال ، وتعاصرت الآجال ، وعكف الياس ، وكتمت الأنفاس ، وأصبح الماشى مصرما ، والمترب معدما ، وجفيت الحلائل ، وامتهنت العقائل ، فأنشأ سحابا ركما ، كنهورا سجاما ، بروقه متألقة ، وعوده متعقمة ، فسح ساجيا راكدا ثلاثا غير ذى فوق ، ثم أمر ربك الشمال فطحرت ركاه ، وفرت جهامه ، فانقشع محمودا وقد أحيا وأغنى ، وجاد فأروى ، والحمد لله الذى لاتكث نعمه ، ولا تنفذ قسمه ، ولا يخيب سائله ، ولا ينز نائله » .

ولشغفهم ببيتهم ، وإعجابهم بطبيعتهم : المتحرك منها والساكن استمدوا منها أوصافهم واقتبسوا من مظاهرها صورهم ، في شعرهم ونثرهم . رجالهم ونسأؤهم على السواء ، وهذه قصة مارية امرأة حاتم الطائي تصف سنة أصابها وزوجها فيها القحط ، ثم نصف مع هذا كرم زوجها ، فنقول :

« أصابتنا سنة اقشعرت لها الأرض ، واغبرت أفق السماء ، وراحت الإبل حدبا حدابير ، وضنت المراضع على أولادها ، فما تبض بقطرة ، وحلقت السنة المال ، وأيقنا بالهلاك ، فوالله إننا لفي ليلة صنبر بعيدة ما بين الطرفين ؛ إذ نضاعى صبيتنا جوعا : عبد الله وعدى وسفانة ، فقام حاتم إلى الصبيين ، وقت أنا إلى الصبية ، وأقبل يعلننى بالحديث ، ففرفت ما يريد ، فتناومت ، فلما تهورت النجوم إذا شئ قد رفع كسر البيت ، ثم عاد ، فقال حاتم : من هذا ؟ قالت : جارتك فلانة . أتيتك من عند صبية يتعاونون عواء الذئاب ، فما وجدت معولا إلا عليك يا أبا عدى ، فقال : أعجلهم ، فقد أشبعتك الله وإياهم ، فأقبلت المرأة تحمل اثنين ويمشى جنائبها أربعة ، كأنها نعامه حولها رئالها ، فقام حاتم إلى مرسه فوجأ لبته بمديته ، نحر ، ثم كشطه عن جلده ، ودفع المدية إلى المرأة ، وقال لها :

شأنك ، فاجتمعنا نشوى اللحم ونأكل ، ثم جعل يمشى فى الحى يأتهم بيتا بيتا ، فيقول هبوا أيها القوم ، عليكم بالنار ، فاجتمعوا ، والتفع فى ناحية ينظر إلينا ، فوالله إن ذاق من مزعة ، وإنه لأحوج إليه منا ، فأصبحنا وما على ظهر الأرض من الفرس إلا عظم وحافر . هذه القطعة فيها الجميل من الصور ، والبديع من الوصف ، وهو لا يحتاج إلى من يكشف عنه ستوره ، أو يبدي مكنونه ، فوصف الأرض بالاقشعرار ، والسماء بالاغباء ، وصف يشعر بالفاقة ، وينبئ عن الحاجة ، ووصف الإبل بالحذب والضمور ، والمراض بالضنّ والجفاف يدل على اختيار المعانى .

فالعربى يجوع ليطعم ناقته ، والأم تضى ليحيا وليدها ، وما أروع وصفها الصبيا بأنهم يتعاوون عواء الذئاب ؟ فلصوت الذئاب نكر ووحشة ، وما أجمل تشبيه الأم بالنعامة تغطى اثنين من رثالها بجناحيها ، ويلتف من حولها بقية أولئك الرثال .

إنها جميعها صور مستمدة من تلك البيئة الغنية بأسباب الجمال ، السخية بروائع الصور والظلال ، قلنا إنهم اتخذوا من هذه البيئة أمثالهم وحكمهم ، فيقولون : أظلم من حية ، وأغدر من ذئب . قال الأسدى :

لمعرك لو أرى أحاصم حية إلى فقمس ما أنصفتنى فقمس
إذا قلت : مات الداء بنى وبينها أرى حاطب منهم لآخر يقبس
فما لكم طلسا إلى كأنكم ذئاب الغضى ، والذئب بالليل أطلس

وقالوا : « ماء ولا كصدا » وهى ركية عدة . قال ضرار السعدى :

وإنى وتهيامى زينب كانى تطلب من أحواض صداء مشربا

وقالوا : « لقد ذل من بالت عليه الثعالب » وأصله أن رجلا من العرب كان يعبد صنما ، فجاء ثعلب ، فبال عليه ، فكفر بصنمه ، وقال فى ذلك :

١٠٦ : أرب يبول الثعلبان برأسه ؟ لقد ذل من بالت عليه الثعالب

أثر البيئة فى الوصف :

وبعد فليبيئة العربية فى الأدب الأثر القوى ، ولها فى الوصف بصفة أخص الأثر

الأقوى ، منها يستمد معانيه ، ويستنبط أفكاره ، ويتخذ تشبيهاته ، ويستوهبها مادة أوصافه .

وإننا لنعلم فوق ماقدما عن طبيعتها أن العرب كانوا دائمي التسيار ، مدمنى الأسفار ، لا يكاد الواحد منهم يحط رحله اليوم حتى يشده غدا للارتداد والانتجاع فهم لا يطمثون فى مكان ولا يسكنون إلى دار ؛ لينالوا رزقهم ، ويبلغوا مايتبلغون به ، يخرجون إلى مواطن الكلا ومناات العشب ، ومساقط الغيث ومنايع الماء .

وقد ساق إليهم هذا الحلُّ الفقر ، وبعث فيهم ذلك الجذبُ القحطُ ، فاستهانوا بالنفوس ، واستخفوا بالأرواح يزهقونها ويختطفونها ، فكان اشتعال الحروب ، واصطرار الجيوش ، رأيناهم يشنون الغارات ، ويؤلفون العصابات ، ويوقدون نار الحرب التى كلما أطفأها عقلاؤهم أوقدها سفهاؤهم

وإذا آمنا بأن الشعر المضرى نهض نهضته الفتية قبل بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام بمائة سنة ، وأن أول من هلمل الشعر هو عدى بن ربيعة جاز لنا أن نقول : إن الحرب بين بكر وتغلب هى التى أطلقت لسانه ، وفكت عقاله ، أطلقتته بالقصائد الجياد التى سار على نهجها الشعراء من أبناء عصره ، ومن بعد أبناء عصره ، فقد قيل : إن هذه الحرب دامت أربعين عاما تتطاحن فيها القبيلتان بالسنان والالسان .

وهكذا نستطيع أن نحكم بأن يثبتهم قد أثرت فى حياتهم الصاخبة الصارخة التى لا يستقر لها قرار ، ولا ينطفئُ للهبها أوار ، فلونت شعرهم بملأثم هذه الحياة ، فوصفوها أجمع وصف ، وصوروها أحكم تصوير ، ولم يتركوا فى الفلوات والمفازات إذا كانوا من بنينا شيئا إلا وصفوه ، فوصفوا وحوشها الضارية ، وذئابها العاوية ، وظباءها السارحة ، وحررها القارحة ، كما وصفوا جوارح السماء وصوادحها ، وخشاش الأرض وهوامها ، ثم وصفوا الرسوم والأطلال ، والسهول والجبال ، والأنواء والأمطار ، والعيون والآبار ، والبرق والرعد ، والأفلاك والكواكب ، ولم ينسوا أن يصفوا حياتهم فى جدم ولهوم ، وظنهم وإقامتهم ، وسلمهم وحرهم ، وأن يصفوا أدوات الحرب كالسيف والرمح والقوس والسهم ، وشأنهم

في الحضر ، هو شأنهم في البادية ؛ فوصفوا جميع مظاهره ، وصفوا للنبات والأزهار ، والحدائق والأثمار ، والخمر ومجالس الشراب ، واللهو ومحافل الميسر . وعلى الجملة لم يتركوا في قراهم ومدنهم منظرا إلا رسموه ، ولم يستخدموا عما يقع في محيطهم أو تحت سمعهم وبصرهم حيوانا أو جمادا إلا وصفوه ، ولم ينالوا من متع الحياة شيئا إلا تحدثوا عنه ، وأشادوا به ، ولم يروا من بأسائها ضرا إلا ذكروه وشكوا منه . نخلدوا بشعرهم يبتهم ، وأبقوه على الدهر صورة لحياتهم هي أصدق سفر المؤرخين ، وأدق سجل للباحثين ، ولذلك قالوا صادقين :
« الشعر ديوان العرب »

أقسام الوصف

الطبيعة في الشعر العربي :

يقسم الأدباء الوصف إلى قسمين : وصف الظواهر الطبيعية التي هي من خلق الله القادر المبدع ، ووصف الآثار الإنسانية التي هي من صنع الإنسان الخاذق الخترع ، ومن إخراج اليد الصانع ، ثم هم يتناولون الظواهر الطبيعية فلا يجدونها متائلة في جميع الخصائص ، فيعقدون بينها موازنة تنتهي إلى تقسيمها قسمين : الظواهر المتحركة ، وهي كل ما يجري فيه ماء الحياة وينبض بالحركة : من حيوان أنيس كالناقة والفرس ، والكلب والمز والنعيم ، أو حيوان آبد كالأسد والضبع ، والذئب والثعلب ، والحشرات والهوام .

والظواهر المتحركة إما خارجية كهذا الذي قدمنا أمثلة له ، ويسميه الغربيون الوصف الموضوعي ، وإما داخلية ، وهي تلك التي تمثل أحوال قائلها ، فتصف خواطر نفسه ، أو خفقات قلبه ، أو تقرّح كبده ، أو تحرق فؤاده ، أو همسات وجدانه ، أو همسات شعوره ، أو لحات أفكاره ، أو ومضات إنسانه ، إلى آخر ما يصوره من تلك التوجّجات النفسية ، والاهتزازات العاطفية ، وهو الوصف الذاتي .

والظواهر الساكنة ، وتنصرف إلى كل ما تشتمل السموات والأرض من أجرام وكواكب ، وجبال وصحارى ، ووهاد ونجاد ، وبحار وأنهار ، وما ينشأ عن هذه وتلك من مد وجزر ، وبرق ورعد ، وغيث ومطر ، وزلازل وبراكين ، وزعازع وأعاصير .

وللشعر العربي في هذه وتلك الآثار الجليلة ، ولا نظن أن آداب أمة ذات شاعرية تدانى الأمة العربية في العصر الجاهلي في وصف الظواهر الطبيعية الموضوعية ، وبخاصة الحياة منها ، وسنعرض من جميع ماتقدم مافيّه مقنع لكل شاكّ في أن العرب في القديم قد فاقوا أضرابهم في أكثر ضروب الوصف .

غلبة الحس الفردى على الوصف عند العرب :

وبعد ، فالوصف يدور في غالب أمره على الحس الفردى الذى يشعر به صاحبه عندما يكون في حال تماثل حال الشاعر الذى يصور ذلك ، أما الإحساس الجماعى ، فلا يصوره الشعر في العصر الجاهلي ؛ لأن حياة الجماعة لم تكن واضحة المعالم في تلك العصور ، فالشاعر يتحدث عن نفسه أو مايمس نفسه ، لا يكاد يتجاوزهما بالنظرة البعيدة ، أو الفكرة الشعبية . على أن هذا لا يفض من قيم الوصف العربى ، فقد فطر الشعب العربى على ثوران النفس ، وتوقز الحس ، لا يطمئن ويهدأ حتى يفكر ويتعمق ، فشعره قائم على البديهة والارتجال أو مايشبه الارتجال ، ومن كان هذا شأنه لا يرضى من شعره إلا بما يرضى عاطفته ؛ ويعبر عن شعوره .

على أن من شعرهم ما يعتمد على الحس والخيال معا ، والعاطفة والتصوير والتمثيل ، وسنعرض في هذا الكتاب لكثير مما يقوم دليلا على أن ألوانا من الوصف قد امتزج فيه الحس بالخيال ، وسيان بعدئذ أن يكون الخيال ماديا أم روحيا

عوامل الشاعرية :

من الأدباء من يقول : « إن شعراء العرب لم يكونوا ينظرون إلى الكون النظرة الشاملة الواسعة ، ولم يكونوا يشعرون بما فيه من مظاهر الجمال ، وأسرار الحياة إحساس الشعراء الغربيين » وكأنى بأولئك قد نسوا أن الطبيعة الشعرية ليست العامل الفردى فى الشاعرية ، وإنما هى أحد العوامل التى منها : الثقافة والحضارة والبيئة والعصر والخلق ؛ فالعرب فى عصورهم الأولى لم يكونوا قد بلغوا من قوة التفكير مابلغه شعراء هذه العصور الذين غمرتهم الثقافة ، وشملتهم الحضارة ، وربطتهم بغيرهم أسباب وأسباب .

نهجنا في التأليف :

هذا وسنقسم الشعر الوصفي إلى قسميه المعروفين : وصف الظواهر الطبيعية المتحركة والساكنة ، ثم وصف الآثار الإنسانية .

والشعراء في العصر الجاهلي كانوا أكثر في القسم الأول افتتاناً إلا فيما يتصل بالطبيعة الداخلية ، إذ لم تكن الآثار الإنسانية وفرت - فيما عدا أدوات الحرب - حتى تلفت إليها أنظار الشعراء .

سيكون نهجنا أن نجمع القطع المتحددة الموضوع ، المتقاربة المعاني ، نضعها جميعها في إطار قد وُشى بالتفسير والشرح ، والتحليل والنقد ، ونبرز ما قد يكون فيها من صور شعرية ، وما في هذه الصور من دقة في الفن ، وجودة في الوصف .

وعندنا أن التفسير أول واجب على المؤلف ؛ حتى لا يحمل القارئ عبء الانصراف عن القراءة إلى مراجعة المعجمات يسألها البيان والإيضاح ، فينبعث في نفسه الميل إلى الانصراف عن هذا الشعر الذي لا يفهم إلا بمسألة القواميس ، وشرح هذه القطع شرحاً تصويرياً يجب إلى شدة الأدب آثارهم القديمة ، ويرجى إليهم اللذة الفنية .

ولا نريد إحصاء ، فالشعر العربي زاهر بمادة الوصف ، ومكان ذلك الإحصاء إنما هو دواوين الشعراء ، وإن كنا سنورد أمثلة للكثرة الغالبة من الشعراء ، دون تمييز بين من اشتهر بالوصف ، ومن لم يشتهر به ؛ لنبين أن العرب أجمعين كانوا وصافين ، ولتبدى لكل قارئ أن الوصف في الشعر العربي كان يغلب جميع ضروب الشعر

هذا ولن نعرض لوصف الناس : رجالاً ونساء ، فهذا باب له المدح أو الفزل أو الهجاء ، حتى ولو كان معبراً عن دراسة نفسية ، كقول أحد الشعراء عن أخلاق النساء :

رأين الفواني الشيب لاح بعارضى فأعرض عني بالحدود النواضر

١٠٨ : وكن إذا أبصرني أو سمعني بي سمعين فرقعن الكوى بالحاجر

لأن ذلك سيخرجنا عن الوصف إلى كل ما يمت إليه ، وما أكثر ما يمت إليه

ويتصل به .

قيمة الوصف في العصر الجاهلي :

كان الوصف في العصر الجاهلي أقوى فنون الشعر ، فكلمنا عن لأحدم أن ينظم شعراً كان الموحى به هو الوصف ، سيات في ذلك أن يكون وصفا للطبيعة المتحركة أو الساكنة ، يبدون به قصائدهم التي قد يكون الدافع إليها ضربا سواه ، ولكن الشاعر ينسى هذا الضرب ، وقد لا يلم به إلا إلماما ضئيلا .

وشغفهم بالوصف دمعهم إلى أن يصفوا بعض التافه من عاداتهم ، فمن ذلك أن غلمانهم كانوا إذا تغروا رموا أسنانهم في عين الشمس بسباباتهم وأباهيمهم ، وقالوا : أبدلينا أحسن منها ، فوصف ذلك طرفة بقوله :

بدلته الشمس من منبتها بردا أبيض مصقول الأشر

وكانوا يزعمون أن الإبل إذا أصابها المر ، فأخذوا الصحيح فكووه زال العرن السقيم ، قال النابغة في وصف تلك العادة :

وكلفتني ذنب امرئ وتركت كذى العريكوى غيره وهوراتع

ومن ذلك لعبة الفيل حين شبه بها طرفة السفينة في البحر تشقه ، فقال :

يشق حباب الماء حيزومها بها كما قسم الترب المقاليل باليد

وذكروا الوشم الذي كانوا يستوشمون به ، فقال زهير في مطلع معلقته :

أمن أم أوفى دمنمة لم تكلم بحومانة الدراج فالمتلثم ؟

ودار لها بالرفقتين كأنها مراجع وشم في نواشر معصم

وقال طرفة في المعنى ذاته في أول معلقته :

١١٤ : خلوة أطلال بيرة شهيد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

وذكروا أكل المرة أولادها حبا لها ، وأكل الضب إياها عقوقا منه ، فوصفوا به برّ

الرجل ، فقال العملى بن عقيل لأبيه :

أكلت بنيك أكل الضب حتى وجدت مرارة الكلال الوبيل
فلو أن الألى كانوا شهودا منعت فناء بيتك من يجيل

وليس كل ذلك في حقيقة الأمر من وصف الطبيعة الساكنة أو المتحركة ، وإنما هو وصف للعادات ، وهو يدلنا على إيمان في الوصف إمعانا لم يقف عند حد ، وإن أنكر ذلك المنكرون ، فأى وصف للطبيعة الداخلية والنفس المتغيرة أقوى من قول علقمة الفحل :

فإن تسألوني بالنساء فإننى بصير بأحوال النساء طيب
إذا شاب رأس المرء أو قلّ ماله فليس له في ودهن نصيب
يردن ثراء المرء حيث علمنه وشرح الشباب عندهن عجيب

وأى وصف أبدع تصويرا لأخلاق النساء وغريزة حب الاستطلاع من قول المثقب العبدى :

١٢٠ : ظهرن بكلة وسدلن رقيا وثقبن الوصاوص للعيون

وكل هذا وسواه مما سنعرضه في هذا الجزء يدل على أن الوصف الجاهلى بلغ مبلغا عظيما



الفصل الخامس

وصف الطبيعة المتحركة في العصر الجاهلي

عنى الشاعر الجاهلي بوصف الطبيعة المتحركة العناية كلها ، ولا سيما وصف الناقة والفرس ، وله ما يبرر هذه العناية بهذين الحيوانين أكثر من عنايته بسواهما ، فإن الناقة أعظم خلق أرضي في نظره ؛ لما يفيد منها ، ولما تسديه إليه من صنائعها ، وهى صديقة حله وترحاله ، ورفيقة ظعنه وإقامته ، تحمل له الكل ، وتعينه على نوائب الدهر ، وتصبر معه على لأواء الأيام ، دون أن تشكو نصبا ، أو تحس لغوبا ، وإن أحسسته لم تضجر ولم تتملل .

إنها نظماً فلا تشكو الصدى ، وتجموع فلا تظهر الأسى ، وتقطع بجليها الصحارى فى الصبر الجميل والوفاء الكريم ، فإذا أقام شرب لبنها ، ونسج وبرها ، وطعم لحم فصالها ، هذا إلى أنها تؤنس وحشته ، وتخفف عليه وحدته ، يحدوها فتشاركه فى عواطفه ، ويفنيها فتشاطرهم جميع مشاعره ، تنقاد له انقياد الصديق لا انقياد الذليل ، وتطيعه طاعة الرفيق لا طاعة الرقيق ، فلو شئت لحرمته امتطاءها ، ومنعته وبرها ولبنها وفصالها ، فهى فى ضخامتها وجسامتها ، وقوتها ومُنتها تستطيع أن تدفع عن نفسها ، ولكنها تنيخ إذا أراد إناختها ، وتنهض حينما يطلب نهوضها ، وترقل إن ابتغى منها إرقالا ، وتخذ إن أحب منها وخدا ، فكيف به بعد كل ذلك لا يحفظ ودها ، ولا يحسن نعتها ؟

ثم يتبع بوصفها وصف ما يشبهها من بقر وحشى فيبدع فى وصفه ما شاء له الإبداع ؛ لأنه شبيه ما منحه مودته ، ونظير ما أولاه تقديره

وإن الفرس لأجل ما خلق الله في نظره ، وهو إلى هذا الجبال الفتان صديق حربه
وسلمه ، ولهوه وجده ، وطرده وصيده ، لا يضمن عليه بجهد ، ولا يبخل دونه بشأو ، إذا
حارب كان له أوفى من سيفه ورمحه ، وأسدّ من قوسه وسهمه ، وإذا سالم شاركه في خيلائه ،
وعاونه على بناء مجده وسنائه ، وإذا ابتغى صيدا كان قيد الأوابد ، أو أراد طرداً آلى على
نفسه أن يلحق المطارد ، وأمهار الفرس ثروته المدخرة ، وكنزّه الثمين ، فهي كما قال الشاعر :
* قليلة كالكرام ، عزيزة لاتضام * وإذا وصف فرسه انتقل منه إلى وصف
ما يتصل به فأنا يصف الصيد والطرد ، وأنا يصف المارك والحروب ، وإذن فلا غرامة
أن يفتن بهما ، فيفتن في وصفهما .



(١) وصف الناقة

١ — قال طرفه بن العبد * يصف ناقته في معلقته التي أولها :

لخولة أطلالٌ يبرُقة شهيدٌ تلوح كباقي الوشم في ظاهر الميـد^(١)

وَإِنِّي لَأَمْضِي الهمَّ عند احتضاره بموجاء مِرْقَالٍ تروحُ وتفتدي^(٢)

أُمونٍ كالأواحِ الإِرانِ نَساتُها على لَاحِبٍ كأنَّه ظَهرُ بُرْجُـدٍ^(٣)

١٢٤ : تَبَارِي عِتاقًا ناجياتٍ وَأَتَبَعْتُ وَظِيفًا وَظِيفًا فَوْقَ مَوَرٍ مُعَبَّدٍ^(٤)

* ترجمه الشاعر : هو طرفه بن العبد بن سفيان البكري ، وطرفة لقبه ، واسمه عمرو ، وهو من أشعر شعراء العصر الجاهلي ، ومعلقته التي منها هذه الأبيات من أجود المعلقات ، ومن أروع الشعر الوصفى ، فهي جميعها وصف ، وقد اشتملت على معان لم تشتمل عليها غيرها ، قتل بأمر من عمرو بن هند لأنه هجاء ، ولم تكن سنه بلغت الثلاثين ، فكيف به لو عمرا ؟ قتل حوالى سنة ٥٥٢ م

التفسير المفرد : (١) خولة : خليلته ، قيل : إنها امرأة من كلب . الأطلال : جمع طلل ماشخص من آثار الديار . البرقة : الرابية من الرمل والطين . الوشم : غرز الإبر ، ثم ينذر عليه الكحل فيبقى سواده ظاهرا .

(٢) لأمضى : لأذهب احتضاره : نزوله . الموجاء : الناقة النشيطة لانستقيم في سيرها . مرقال : سريعة . تروح وتفتدي : يستوى عندها سير الليل والنهار .

(٣) أُمون . مأمونة العثار . الإِران : الثابوت . نَساتُها : ضربتها بالنسأة . لَاحِبٍ : طريق واضح . برجد : كساء مخطط .

(٤) تبارى : تسابق . عتاقا : جمع عتيقة كراثم : ناجيات : جمع ناجية سريعات . الوظيف : عظم الساق . المور المعبد : الطريق المهد .

- تَرَبَّعتِ الْقَفَيْنِ بِالشَّوْلِ تَرْتَعِي حَدائقَ مَوَلِيٍّ الْأَسِرَّةِ أَغِيدَ^(٥)
تُرْبِعُ إِلَى صَوْتِ الْمُهَيْبِ وَتَتَّقِي بِذِي خُصَلٍ رَوَعَاتٍ أَكَلَفَ مُلْدِدَ^(٦)
كَأَنَّ جَنَاحِي مَضْرَحِي تَكْنُفَا حِفَايِهِ شُكَّا فِي الْعَسِيبِ بِمَسْرَدَ^(٧)
مَطُورًا هِ خَلْفَ الزَّمِيلِ وَتَارَةً عَلَى حَشَفٍ كَالشَّنِّ ذَاوٍ مَجْدَدَ^(٨)
لَمَّا فَيَخْدَانِ أ كَمَلِ النَّخْضُ فِيهِمَا كَانَهُمَا بَابَا مُنِيفٍ مُمَرَّدَ^(٩)
وَطِيئٌ مَحَالٍ كَانَتْ لِي خُلُوفُهُ وَأَجْرِنَةُ لَزَّتْ بِدَائِي مُنْصَدَ^(١٠)
١٣١: كَانَ كِنَاسِي ضَالَةً يَكْنُفَانَهَا وَأَطْرَقَسِي تَحْتَ ضَلَبٍ مُؤَيَّدَ^(١١)

(٥) ربت : رعت الربيع : القفین : مثني قف ، وهو الأرض المرتفعة . الشول : الإبل شالت صروعها . المولى : الله ، توالى عليه المطر . الأسرة : مفردا سرارة ، بطون الأودية . الأغيد : الناعم من كل شيء .

(٦) ربع : رجع . المهيب : الراعي يهيب بها ويدعوها . بذى خصل : بذيل كشياف الوبر . الروعات : الإفراعات . أكلف : أحمر ضارب إلى السواد . اللبد : التلبذ وبره .

(٧) المضرحى : العتيق من الدسور يصرب إلى البياض ، وهو طويل الجناحين . تكنفا : صارا من حانيه . حفايه : حانيه . شكا : غرزا . العسيب : أصل الذنب . مسرد : بمخصف .

(٨) الزميل : الرديف ، ويصعد موضعه . الحشف : الأخلاف جف لبها . الشن : القرنة المالة . الداوى : الذابل الياس . المجدد : الذاهب اللبن .

(٩) النخض : اللحم . المنيف : العاير . وهو وصف لموصوف محدوف أى قصر منيف . ممرد : مملس أو مطول ، وهو المقصود هنا .

(١٠) المحال : قمار الظهر الواحدة محالة ، وهى خاصة بفقر البعير . الحى : مفردا حنية القسى . الخلوف : مفردا خلف الأصلاع . الأجرة : جمع جران باطن العنق ، وجمعه لما حواله لزت : قرن بعضها ببعض . الدأى جمع دأة وهى قمار العنق أو الظهر . منصد : منسق منظم .

(١١) الكناس : بيت الظبي يحتمره فى أصل الشجرة كالسرب والجحر . الضالة : شجرة السدر . يكنفانها : يحيطان بها . الأطر : العطف . مؤيد : مقوى مشدد .

- لها مرفقان أفلان كأنما تمرُّ بسلمى دالج مُتَشَدِّدٌ^(١٢)
 كقنطرة الرُّومى أقسم ربها لتكتنفن حتى تشاد بقرمَد^(١٣)
 صهايبه العننون موجدة القرا بعيدة وقد الرجل موارده اليد^(١٤)
 أمرت يداها قتل شزر وأجنحت لها عصداها في سقيف مسند^(١٥)
 جنوح ، دفاق ، عندل ، ثم أفرعت لها كتفها في معالي مصعد^(١٦)
 كأن علوب النسع في دأياتها موارد من حناء في ظهر قرود^(١٧)
 ١٣٨ : تلاقى وأحيانا تبين كأنها بنائق غر في قميص مقدد^(١٨)

- (١٢) المرفقان : مثنى مرفق ، الوصلان بين الساعد والعصد . أفلان : محكان . السلم : الدلوذات عروة واحدة . الدالج : النازح بالدلو من البئر إلى الخوض .
 (١٣) لتكتنفن : لتؤتين من أطرائها لتبنى . تشاد : رفع . بقرمَد : بآجر .
 (١٤) صهايبة العننون : حمراء ماتحت لحبيها من الور ، والصهبية يياض تخالطه حمرة . موجدة : محكمة . القرا : الظهر . الوخد : ضرب من السير السريع . موارده اليد : دواردة القامتين الأماميتين .
 (١٥) أمرت . قتلت . قتل شزر : قتلا إلى أعلى . أجنحت : أميلت . سقيف مسند : سقف متاسك .
 (١٦) جنوح : مائلة . دفاق : متدققة في السير . عندل : ضخمة الرأس . أفرعت : عوليت . معالي : اسم مفعول من على يعالى . مصعد : مرتفع .
 (١٧) العلوب : مفرداها علب بفتح العين الآثار . النسع : الحبل من الجلد مضافور . الدأيات : منتهى الأضلاع . الوارد : طرق المياه . الخلقاء : الصحرة للساء . القردد : الارض المستوية الصلبة .
 (١٨) تبين : تفرق . البنائق : مفرداها بنيقة قطع القميص من الأجناب . عر : ييض مفرداها غراء . مقدد : مشقوق .

- وَأَتْلَعُ نِهَاضٌ إِذَا صَعَدَتْ بِهِ سُكَّانِ بَوَصِيٍّ بِدِجْلَةٍ مُضْعِدٍ^(١٩)
وُجْجَمَةٌ مِثْلُ الْعَلَاةِ كَأَمَّا وَعَى الْمُلْتَقَى مِنْهَا إِلَى حَرْفٍ مَبْرَدٍ^(٢٠)
وَحَذُّ كَقِرْطَاسِ الشَّامِيِّ وَمِشْفَرٌ كَسَبَتْ أَلْبَانِي قَدَّهُ لَمْ يُحْرَدِ^(٢١)
وَعَيْنَانِ كَالْمَاوِيَّتَيْنِ اسْتَكْنَفَتَا بَكَهْفِي حِجَاجِي صَخْرَةٍ قَلْتُ مَوْرِدٍ^(٢٢)
طَحُورَانِ عُوَارَ الْقَدَى مَتْرَاهَا كَكَحْوَاتِي مَذْعُورَةٍ أُمَّ فَرْقَدٍ^(٢٣)
وَصَادَقَتَا سَمْعَ التَّوَجُّسِ لِلشَّرَى نَجَسٍ خَفِيٍّ أَوْ لَصُوتٍ مُنْدَدٍ^(٢٤)
١٤٥: مَوْلَاتَانِ تَعْرِفُ الْعِتْقَ فِيهِمَا كَسَامِعَتِي شَاةٍ بِحَوْمَلٍ مُفْرَدٍ^(٢٥)

- (١٩) الأتلع : الطويل العنق . النهاض : القوي للرفع في سيره . صعدت به : أشخصته إلى السماء . السكَّان : الدقة . البوصى : النوى . دجلة : نهر بالعراق . « انظر المصور »
(٢٠) العلاة : السندان . وعى : تماسك . الملتقى : مجتمع عظام الرأس . الحرف : الحد .
(٢١) القرطاس : ورق الكتابة . الشامي : الكاتب المنسوب إلى الشام . للمشفر : للجمل كالشفة لغيره . السبت : الجلود المدبوعة أو من حلد البقر خاصة . قدّه : قطعه . لم يحرد : لم يعوج في تقطيعه .
(٢٢) كلماويتين : كالمرايتين . الكهف : الغار في الجبل . الحجاج : العظم للشرف على العين . القلت : النقرة في الصخرة أو العين . المورد : منهل الماء .
(٢٣) طحوران : دفاعتان . العوار : ما يضر العين كالقذى . المذعورة : وصف لموصوف محذوف هو بقرة . أم فرقد : كناية عن البقرة الوحشية ، والفرقد اسم ولدها .
(٢٤) التوجس : التسمع بخذر . السرى : السير لئلا حيث يجب الحذر . الهجس : الحركة . مندّد : مرفوع .
(٢٥) مولاتان : محدتان . العتق : الكرم . الشاة : الثور الوحشي . حومل : اسم مكان . مفرد : صفة لشاة ، وجاء اللفظ بلاهاء ، لأنه أراد الثور الوحشي ، وانفراده يجعله أحد سمعا ؛ إذ ليس هناك ما يشغله .

وَأَرَوُعُ نَبَاضٌ أَحَدٌ مُنْكَلَمٌ كِرْدَاةٍ صَخْرٍ فِي صَفِيحٍ مُصَمَّدٍ (٢٦)
 وَإِنْ شَدَّتْ سَامَى وَاسِطَ الْكُورِ رَأْسُهَا وَعَامَتْ بِضَبْعِهَا نَجَاءَ الْخَفِيدِ (٢٧)
 وَإِنْ شَدَّتْ لَمْ تُرْقِلْ وَإِنْ شَدَّتْ أَرْقَلَتْ خَافَةَ مَلَوَىءَ مِنَ الْقَدِّ مُحْصَدٍ (٢٨)
 وَأَعْلَمُ مَخْرُوتٌ مِنَ الْأَنْفِ مَارْنٌ عَتِيقٌ مَتَى تَرَجُمُ بِهِ الْأَرْضَ تَزْدَدِ (٢٩)
 ١٥٠ : عَلَى مِثْلِهَا أَمْضَى إِذَا قَالَ صَاحِبِي أَلَا لَيْتَنِي أَفْدِيكَ مِنْهَا وَأَفْقَدِي (٣٠)



(٢٦) الأروع : صفة لموصوف محذوف هو ، القلب ، والأروع : الفزع الخائف . نباض : كثير النض والحققان . احد : أملس ملمس . مجتمع . كمرداة : كصخرة تنكسر بها الصخور لصلابتها . الصفح : العريض من الحجارة . المصمد : الصلب لاخور فيه .
 (٢٧) سامى : على وطاوول . واسط الكور : العود بن موركة الرجل ومؤخره ، وموركة الرجل الموضع الذى يضع عليه الراك رجله . بضعيها : بعضديها . نجاء : إسراع . الخفيد : الظلم .
 (٢٨) الإرقال : ضرب من السر السريع . الملوى : وصف للوسط . القد : الجلد . المحصد : المحكم .
 (٢٩) الأعلم : وصف للشفر ، والعلم : الشق فى الشفة العليا ، وضده الفلج ، وهو شق الشفة السفلى . المخروت : المشقوق . المارن اللين . عتيق : كريم . ترجم : تضرب به الأرض . تزد : تضاعف سيرها .
 (٣٠) منها الضمير يعود على القلاة الموحشة المخيفة .

تحليل الأبيات :

هذه قصيدة كاملة في وصف الناقة ، وإن تكن جزءا من معلقة طرفة ، فقد بلغ وصفه للناقة ثمانية وعشرين بيتا ، وهو قدر لم يبلغه شاعر سواه ، وكلها تفيض بالمعنى وتزخر بالأفكار ، فليس فيها بيت يمكن أن يقال عنه : إنه انحرف فيه عن موضوعه ، أو حاد عن غرضه ، بل إن الأبيات إلى الإيجاز بنوعيه : إيجاز الحذف وإيجاز القصر أقرب منها إلى الإسهاب والإطناب .

ولو أن رساما نابغة ذايد صناع ، وريشة مطواعة وقف يتأمل الناقة جزءا جزءا ، ثم يرسم ما تأمله ، وما يمكن أن يتخيله ما بلغ هذا الذى بلغه طرفة ، فسيكون الرسم صامتا لا ينبض بحياة ، ساكنا لا يشعر بنأمة ، أما الأبيات فتنبض بالحياة وفيض بالحركة .

في هذه الأبيات صور كثيرة تبهر أقدر المصورين ، وتعجز أسبغ الرسامين ، ولقد أعجب بهذا الوصف القدامى والمحدثون ، ولا نعرف أحداً من أولئك أو هؤلاء جرؤ على القول بأن في الوصف عيبا ، أو أن في الخيال شططا ، فالأخيلة جميعها مستمدة من بثته ، مقتبسة من طبيعة أرضه ، مأخوذة عن المحسوسات ؛ إذ وصف الناقة لا يستقيم بغير المحسوسات .

قال : إني لأزِيل هُمى وَغَى بامْتِطَاء نَاقَةٍ نَجِيبة ضَامِرَة ، سَريعة مَرَفَال ، تَصِل بِمَسِير اللَّيْلِ سِيرَ النَّهَار ، دُونَ أَنْ يَخْشَى رَاكِبُهَا الْعَثَار ، وَكَيْفَ تَعَثِّرُ وَجَسْمُهَا فِي صَلَابَتِهِ كَالْوَلَحِ التَّائُوت ؟

لقد مستهتا بالنساء لأستثير همتها في طريق قويم ، لأمت فيه ولاعوج ، كأنه الثوب المستقيم الخطوط .

ومن قداماء النقاد من زعم أنه لم يرد في قوله : « على لاحب كأنه ظهر برجد » ظهر الكساء دون بطنه ، وكأنه يقول : إن « ظهر » حشو ، والأمر ليس كذلك ، فظهر الكساء هو الذى تظهر خطوطه واضحة ، أما بطنه فلا تكاد تظهر له خطوط ، وهى دقة نحى على غير طرفة المتأمل المتمعن .

ناقى تلك تبارى فى سيرها كراثم النياق ، وبجانب العتاق ، فتغذ السير ، وتتبع
الوظيف الوظيف فوق ذلك الطريق المعبد ، وهى الكريمة عندى ، الأثرة لدى ، فأنا
أربعا نبات الربا ، وأرعياها عشب الحدائق ، وهذا وذاك أجل ماننبته الصحراء ، بل من
أجل ماتخرجه الأرض ، أرعياها نبات الربا وعشب البساتين بين نياق قد جفت ضروعها ،
ونضبت أخلافها ، فقيهن إلى الطعام هم ، ولهن على التهامه قدرة ، فيبعثن فيها الميل إلى
التنافس فى الرعى من ذلك المرعى الناعم الأريص الذى يلاحق وسميه وليه ، فهو دائماً
الإعشاب ناعم التراب .

وهى ناقة مذعانة إذا أهاب بها حادياها سعت إليه سரா متقية بذيلها ذى الخصل
الكثيفة ماقديعترض طريقها من الفحول الشداد . تلك الفحول الكلف الملبدة خصل
ذيلها لكثرة ثورانها . ولكنها لاتباليها فى سبيل الإجابة لإهابة داعيها ، ذنبها الذيال
المنبسط البر يشبه جناحى النسر العتيق الطويل الجناحين ، فكأنهما قد غرزا
فى عظامه ، وهذا تشبيه واسع الدلالة ؛ إذ يدل على أنها قوية كقوة جناحى النسر ، وأن
ذيلها منبسط انبساط الجناحين ، كما يدل على غزارة وبره ، فهى به معجبة ؛ فطورا تضرب
به مكان الرديف لحادياها ، وآخر تضرب به أخلافها ، فهو حيناً إلى أعلى ، وحيناً
إلى أدنى ، وفى الحالين تبلغ به المكان القصى البعيد ، يبلغ به أخلافها التى جف لبنها ،
فصارت كالقربة البالية ، والشن الذابل ، ولها فخذان مكتنزان باللحم ، كأنهما لضخامتهما
مصراعا باب لقصر مشيد منيف ، وفقار ظهرها متداخلة متماسكة ، وهى مع الأضلاع
المتصلة بها كالقسي اقترن بعضها ببعض فى صفوف متراسة ، وما بين مرفقى الناقة منبسط
مسيح ، كأنه كناسان محفوران فى أصل شجرة سدر ، وكأن قسيا متعاطفة تحت أضلاعها
الصلبة ، فهى لذلك مأمونة المسير .

ولما وصف ما بين مرفقيها بالانبطاء أراد أن يزيد المعنى إيضاحاً فقال :

إن مرفقيها المفتولين المتباعدين يشبهان دلوين بحملهما سقاء قوى ، إحداها فى يمينه ،
والأخرى فى يسراه ، فهو لقوته يبعدهما عن جانبيه ؛ حتى لا يمتكلا بشيانه ، وهى
فى امتدادها وصلابة أجزائها كقنطرة رجل رومى حاذق الصناعة ، محكم البناء ، بصير

بحاجاته وأدواته ، فهو يقسم أن بينها من جوانبها بالآجر ؛ حتى لا يصيبها وهن ، وهى من النوق المتكاملة الجمال ، فما تحت لحبيها أحمر ، وهى قوية الظهر ، شديدة الأسر ، بعيدة الخطو ، دواة اليد ، وفى هذا البيت تقسيم رائع فى معنى وافر لا يفيض من قيمته أنه تكرار لمعى سبق ، فكأنه أراد أن يجعل بعد تفصيل ، شأن العليم بالفرائز يجمع المتفرق ؛ ليثبتته فى الأذهان ، وهو إلى هذا من طرق شعراء ذلك العصر ، وأحسب أن شيئاً آخر غير العلم بالفرائز يدعو إلى التكرار هو أنهم فى أمية تحتاج إلى التقرير والتأكيد .

أحكمت فائمتاها الأماميتان أيما إحكام ، فكأنهما مفتولتان فتلا شزرا ، وأميلت عضداها تحت جنبها ، فكأنهما سقفان أسند بعضهما إلى بعض ، تنجح فى سيرها لفرط نشاطها (وليس بين هذا البيت والبيت الثالث . . . أمون كألواح . . . تناقض ؛ لأنه فى البيت الثالث حملها على الاستقامة بمنسأته) وتندق فى طريقها ضخمة الرأس ، مرتفعة السكتمين على ظهر قد علا وتسامى ، وكأن آثار النسع فى ظهر هذه الناقة وجنبها موارد ماء ينبجس من ناقة ملساء فى أرض صلبة غليظة ، وهو تشبيه كامل الحسن ، دقيق العرض ، فقد شبه خطوط الأساع بموارد الماء فى بياضها وامتدادها ، وشبه جنبها بالصخرة الملساء فى الصلابة والنعومة ، وجعل ظهرها صلباً كالأرض الغليظة ؛ إذ فى الظهر السنام ، هذه الموارد تبدو للعين متلاقية متجمعة حيناً ، ومتفرقة متساعدة حيناً ، فتتلاقى تحت إبطها عند ما تربط بينها العرا ، وتقاعد عند ما ترتفع إلى الرحل ، فكأنها بنائق بيض فى قيص شقق ووصل ، وهذا البيت يتم الصورة فى البيت السابق .

ولها عنق سامق ، إذ أرفعته من كسكان النوق يسير بزورفه فى دجلة ، والتشبيه يجمع بين حركتى العنق والسكان فى ارتفاعهما حين تسير الناقة ، وحين تجرى فوق الماء السفينة ، ولها جمجمة صلبة كأنها السندان ، فكأنما طرفاها يجتمعان عند ملتقى صلب محدد تحديد المبرد ، وهو تشبيه بالغ الحسن ، قال عنه الأصمى : « لم يأت أحد غير طرفه بهذا التشبيه » ولها خد مصقول قد حلا من الشعر الذى يشين الخدود ، فكأنه

لانسقاه قرطاس كاتب شامى ، فهو يختار لما يكتب أرق القراطيس وأبيض الورق ، ينتهى بمشفر طويل لين مستقيم ، كأنه مقدود من جلد البقر المدبوغ بالقرظ ، واستقامة المشفر دليل فناء الناقة وشبابها ، ولها عينان صافيتان متألفتان كمرأتين ثبتتا في عظمتين غائرتين ، كأنهما لغورهما وصلابتهما نقرتان في جبل ينبع منه أصفى الماء ، هاتان العينان تدفعان ما يمكن أن يصيب العيون من عوار أو قذى ، فهما في صفائهما وكلهما كعيني بقرة وحشية مذعورة من صائد تزقبه وتحذره على نفسها وعلى فرقدها ، والبقرة في تلك الحال أنجل ما تكون عينا ، وأحد ما تكون بصرا ، ولها أذنان سماعتان متوجستان في السرى ، سواء عندها أكان ما تسمعه مجسا خفيا أم صوتا عاليا ، أذنان دقيقتان محدودتان تحديد الحربة ، فكأهما أذنا ثور وحشى في مكان موخش ، فهو لوحده ووحشته حديد السمع ، شديد الحذر . ذات قلب عظيم الارتياح ، سريع الخفقتان ، خفيف ذكى مجتمع ، كأنه الصحراء العظيمة بين أضلاع كالحجارة العراض ، وذات مشفر معلم ، وأنف مثقوب لين ، فإذا أومات به إلى الأرض اندفعت كالسهم لا تأبه ما يعترضها .

وهى مروضة ذلول ، إن أردتها على الإسراع لبت إرادتك ، وإن شئت منها البطء أجابت مشيئتك خشية سوط ملوى محكم مقدود من الجلد ، وإن أردتها على أن تطاول برأسها العود في واسط كورها كان لك منها ما تريد ، وجميع ذاك لفرط نشاطها ، وامتلاكى زمامها ؛ حتى لتشبه إذ تسبح بعضديها الظليم الطويل الساقين .

على مثل تلك الناقة التامة التكوين ، الكاملة الأعضاء ، أقطع الفلاة التى تخيف الشجاع الجرى ؛ حتى ليقول صاحبي : ليت لى ما أفنديك به وما أفندى به نفسى ؛ لتكتب لنا النجاة ، تكون هذه الناقة سبيل الأمان ورائد الحياة .

النقد :

وبعد ، فإن المتأمل في هذه الأبيات يستنبط منها ما يمكن أن يتخذ حكا عاما على الوصف في الشعر الجاهلي ، فهو لا يعنى بالترتيب ، ولا يبالي بمواقع الأعضاء ، فقد وصف أول ما وصف سرعة الناقة ، وانتقل من وصف سيرها إلى وصف أضلاعها ، ولم يسر في هذا طويلا بل رجع إلى وصف منزلتها في نفسه ، وإكباره لها ، ثم عرج على وصف ذيلها ، وهكذا ، لاتراه يسير على نمط ، بل أشد ما يتأثر به هو أول ما يبدأ بوصفه .

وهو يعتمد على التشبيه كل الاعتماد في تصوير ما يشاء تصويره ، ويغلب أن يكون واضحاً كل الوضوح ، فكأنه اختار لكل جزء لونه الملائم له ؛ لتكون الصورة كما يقولون « طبق الأصل » فأى جمال في التشبيه يفوق قوله :

أمون كألواح الإبران نسائها على لاحب كأنه ظهر برجد

وقد عرضنا لدقة التشبيه في تحليل هذا البيت ، وأظهرنا أن أى كلمة لا يعنى عنها غيرها ، فهي مأمونة المسير ؛ لأن أعضاءها صلبة كألواح التابوت ، وهى تطوى طريقا لاحبا ، قد رسم طرفه كثرة المسير فيه فهو يظهر كالسقاء المخطط خطوطا طولية ، أوقوله :

لها مخدان أكل النحض فيهما كأنهما بابا منيف مـرد

لم يكف أن يشبه نخذيها بأنهما كبابى القصر فى استطالتهما وتقابلوما ، فوصف القصر بأنه شاهق أملس ، لأن نخذى الساقين أملسان ، والملاسه من آثار السمنة ، أوفوق قوله :

وعينان كالماويتين استـكنتا بكهفي حجاجي صخرة قلت مورد

وامله لاحظ في هذا البيت أكثر من علاقة بين المشبه والمشبّه به ، فالعينان كالمرأتين المستكنتين فى مغارة جبلية ، ولمعان العينين فى هاتين النقرتين كالماء ينبع من تينك المغارتين ، إلى غير هذه التشبيهات الدقيقة التصوير .

كما أن الكناية تلى التشبيه فى اعتماده عليها ، وعنايته بها ؛ فالأبيات التى لا تشبيه بها قد يكون فيها كناية مستملحة ، كقوله :

تبارى عتاقا ناجيات وأتبعن وظيفا وظيفا فوق مور معبد
قد كنى فى الشطر الأول عن كرمها ونجاتها بمباراتها للكرائم العتاق ، كما كنى فى الشطر الآخر عن سرعتها ونشاطها باتباعها الوظيف الوظيف ، وكقوله :

تربعت القفين بالشول ترتى حدائق مولى الأسرة أغيد
كنى عن إعزازه إياها بأنها تربع نبات الربا ، وترتى حدائق قد أخذت حظها من الماء ، فهى ناضرة ناعمة ، وكقوله :

تريع إلى صوت المهب وتتقى بذى خصل روعات أكلف ملبد
كنى فى الشطر الأول عن يقظتها وطاعتها ، ودأبم توجسها وتوقها ، وكنى عن كثافة وبر ذيلها بأنه ذو خصل ، وكنى عن شجاعتها بأنها تفوت الفحل الأكلف الملبد ، وعنه بأنه أحمر ضارب إلى السواد ، وكنى عن قوته بروعائه وبكلفه وإلباده .
وقد يستخدم الاستعارة قليلا ، وإذا جاء بها بدت متناسقة الألوان ، كاملة الظلال ، كقوله :

أمدت يداها فتل شرر وأجنحت لها عضداها فى سقيف مسند
فقد صور استدارة فأتمتها الأماميتين بالقتل الشرر ، وظهرها بالسقف المتساند المتمايك الأجزاء ، وكقوله :

طحوران عوار القذى ، فتراها كمكحولتى مذعورة أم فرقد
فى الضمير المحذوف العائد على « وعينان » استعارة ، إذ شبه العينين بإنسانين يدفعان الأذى ، ويطحران العوار .

والشاعر واسع الثروة اللغوية ، فاللغة لغته ، ولا يعيبه أن يستبدل بلفظ لفظا ، ولا يعجزه أن يعدل عن كلمة إلى أخرى ، وإن لاحظنا أنه إنما يعدل عن القريب إلى

الغريب ، وليس ذلك شأن أكثر شعراء عصره ، فلعل ذلك لأنه كان ما يزال شابا ، وللألفاظ جزالة وفتوة تستمدان من قائلهما ، أو كأنه يريد أن يظهر أنه فوق براعته في القريض يستطيع التصرف في الألفاظ ، أو أن ذلك مسلك سائر شعراء العصر الجاهلي في الوصف أو في وصف الطبيعة المتحركة بالذات ، وذلك واضح جدا في وصف النابغة وزهير وغيرها .

وطرفة لا يهتم بالأسلوب اهتمامه بالمعنى ، فقد نجد في الأسلوب ما قد يأخذه عليه الناقدون ، وذلك لأن الجاهليين كانوا يؤثرون العناية بالمعنى ، والتصرف فيها على العناية بالأسلوب ومراعاة الجمال فيه ، فما لاستلذ الأذن جرسه لتتوالى الإضافات قوله :

وعينان كلما ويتين استكنتا بكهفي حجاجي صخرة قلت مورد
وقوله في البيت التالى للبيت السابق :

طحوران عوار القذى فتراهما كمكحولتى مدعورة أم فرقد

وإننا لنشعر بأن طرفة كان رجلا خيرا ببيئته ، عالما بطبيعة بلاده خبرة وعلمًا قل أن يدركهما علماء وصف البلدان ، ونجده بصيرا حاذقا بطبائع الحيوان ، بصرا وحذاقا لا يجاريه فيهما علماء الحيوان في هذا العصر ، ولا أقصد حيوانا خاصا هو الناقة التى يصفها ، بل أقصد جنس حيوان بلاد العرب .

إنه في كثير من أبياته يتحدثنا عن البيئة الصحراوية ، وما تشتمل عليه من صخور ملس ، أو منابع روية ، أو أحجار صلدة ، أو كهوف وأغوار ، فاستمع إلى قوله :

كأن كناسى ضالة يكنفانها وأطرقسى تحت صلب مؤيد

إن هذا البيت قد رسم لنا كناس الظبي ، وحدد مكانه ، فهو يتخذ في أصل شجرة السدر ، وصور لنا القسى في الصورة الدقيقة التى لا تدق عنها صورة .

وأما عن طبيعة الحيوان فقد عرفنا أن طبيعة الناقة ليست هى طبيعة الجمل ، وأن حياة الإبل ليست مثلها حياة غيرها ، وأن ما يستحسن في نوع منه قد لا يستحسن في سواه . هذا

إلى أن الأبيات توحى إلينا أنه واسع المعارف ، عظيم الاطلاع ، فهو يعرف عن الروم
إحكام الصناعة والمهارة في البناء ، فيقول :

كقنطرة الرومي أقسم ربها لتكتنفن حتى تشاد بقرمد

وهو يعلم أن البناء بالآجر أحكم من البناء بالحجر ، وأن الجوانب إذا كانت قوية حفظت
البناء من التصدع والانهدار .

كما أنه يعرف جغرافية الشام واليمن وحال أهليهما ، وما يجيده أولئك وما يحسنه هؤلاء
فأهل الشام يقرءون ويكتبون ، وأهل اليمن يحسنون صناعة الجلد ، فقال في وصف
خدّ ناقته :

وخذ كقرطاس الشامي ومشفر كسبت اليماني قدّه لم يجرّد

وفي الأبيات عرض لبعض عادات الجاهليين ، فقد وصف لنا العلاة حين شبه بها الجمجمة
في قوله :

وججمة مثل العلاة كأنما وعى الملتقى منها إلى حرف مبرد

وختام القول أن طرفة كان أقدر شعراء عصره على الإطلااق في وصف الناقة ، فقد بذ
من سبقه من فحول الشعراء ، ولم يلحقه من جاء بعده ، مع أنه عبد لهم الطريق ، ومهد
لخيلهم السبيل ، وأحسب أن طرفة كان شديد الحساسية بفضل ناقته عليه ، فأتى في وصفها
بالصور التي لا تدانيها صور لأي شاعر كان .



٢ — وقال بشامة بن الغدير * من قصيدة بدأها بالغزل ، فقال :

هَجَرَتْ أُمَامَةً هَجْرًا طَوِيلًا وَحَمَلَتْ النَّأْيَ عَيْنًا ثَقِيلًا^(١)

فَقَرَّبَتْ لِلرَّخْلِ عَيْرَانَةً عُدَافِرَةً عَنَتْرِيْسًا ذَمُولًا^(٢)

مَدَاخِلُهُ الْخَلْقُ مَضْبُورَةٌ إِذَا أَخَذَ الْحَاقِقَاتُ الْمَقِيلًا^(٣)

لَهَا قَرَدٌ تَامِكٌ نَيْيٌ تَزَلُّ الْوَلِيَّةُ عَنْهُ زَلِيلًا^(٤)

تَطْرُدُ أَطْرَافَ عَامٍ خَصِيبٍ وَلَمْ يَشُلْ عَبْدٌ إِلَيْهَا فَصِيلًا^(٥)

تَوَقَّرُ شَاظِرَةً طَرَفَهَا إِذَا مَا نَنَيْتَ إِلَيْهَا الْجَدِيلًا^(٦)

١٥٧ : بَعِينَ كَمِينَ مُفِيضٍ الْقِدَا حَ إِذَا مَا أَرَاغُ يُرِيدُ الْحَوِيلًا^(٧)

* ترجمه الشاعر : هو بشامة بن عمر الملقب بالغدير بن هلال العطفاني الشاعر الحكيم

الوصاف ، عليه تخرج زهير بن أبي سلمى ، وكان مقعدا ذا مال كثير ، ولا ولد له ، فأورث أهله ماله ، وجاء زهير يستورثه ، فقال له : « والله يا بن أختي لقد قسمت لك أفضل ذلك وأجزله ، فقال زهير : وما هو ؟ قال : شعري ورثتيه » .

التفسير اللغوي : (١) أمامة : خليلته المتخيلة ، فقد كان مقعدا لأرب له في النساء .

النأى : البعد . العباء . الحمل .

(٢) العيرانة : الناقة تشبه العير الوحشي لوثاقها . عدافرة : شديدة ضخمة . عنتريسا :

قوية متينة . ذمولا : سريعة .

(٣) مداخلة الخلق : محكمة الجسم . مضبورة : مجموعة الخلق . الحاققات : الطباء تكون

في الأحقاف ، والحقف ما عوج من الرمل . المقييل : مكان قضاء وقت القيولة .

(٤) القرد : السنام . التامك : المرتفع العالي . النى : الشحم . تزل : تنزلق . الولية :

جلس يوضع تحت الرجل ليحمي الظهر .

(٥) تطرد : تتبع . لم يشل : لم يدع . الفصيل : ولد الناقة .

(٦) توقر : ترزن وتثقل . شازرة : رافعة . الجدليل : الزمام الجدول .

(٧) مفيض القداح : الذى يقلب قداح الميسر ، وبه يضرب الثل في حدة النظر . أراغ :

أراد . الحويل : الاحتيال .

وَحَادِرَةٌ كَنَفِيهَا الْمَسِيحَ تَنْضَحُ أَوْبَرَ شَا غَلِيلاً^(٨)
 وَصَدْرٌ لَهَا مِهْيَعٌ كَالْخَلِيفِ تَحَالُ بِأَنَّ عَلَيْهِ شَلِيلًا^(٩)
 مَرَّتْ عَلَى كَشْبٍ غُدُوَّةً وَحَادَتْ بِجَنْبِ أَرِيكَ أُصَيْلًا^(١٠)
 تَوَطَّأَ أَغْلَظَ حِزَّانَهُ كَوَطَّءَ الْقَوَى الْعَزِيزِ الذَّلِيلَا^(١١)
 إِذَا أَقْبَلْتُ قَلْتَ مَذْعُورَةً أَطَاعَ لَهَا الرِّيحُ قِلْعًا جَفُولَا^(١٢)
 وَإِنْ أَدْبَرْتَ قَلْتَ مَشْحُونَةً مِنْ الرُّمْدِ نَلْحَقُ هَيْقًا ذَمُولَا^(١٣)
 وَإِنْ أَعْرَضْتَ رَاءَ فِيهَا الْبَصِيرُ مَا لَا يَكْلَفُهُ أَنْ يَفِيَلَا^(١٤)
 ١٦٥ : يَدَا سُرْحًا حَائِلًا ضَبْعُهَا تَسُومُ وَتَقْدُمُ رِجْلًا زَجُولَا^(١٥)

-
- (٨) الحادرة : الضخمة . كنفها : جانبيها . المسيح : العرق المسوح . الأوبر : دو
 الوبر . شتا : كثيرا متراكبا . غليلا : حارا .
- (٩) المهيح : الطريق الواسع البين . الخليف : الطريق أيضا . الشليل : كساء أملس
 يوضع فوق عجز البعير .
- (١٠) كشب وأريك : جبلان متباعدان . غدوة : صباحا . أصيلا : بعد العصر ،
 وقبيل المغرب .
- (١١) توطأ : تطأ . حزانه : جمع حزين، وهو ماغلظ من الأرض .
- (١٢) أقبلت : جاءت إليك . مذعورة : خائفة . أطاع لها : هيا لها . جفولا مسرعا .
- (١٣) أدبرت : تحولت إلى الخلف . مشحونة : مملوءة ، وهي وصف لموصوف محذوف
 هو سفينة . الرمد : جمع أرمد أو رمداء ، وهي النعامة، سميت بذلك لأن لونها يشبه الرماد .
 الهيق : ذكر النعام . ذمولا : مسرعا .
- (١٤) أعرضت : تحولت . راء : رأى حصل فيها قلب ، فقدم الألف على الهمزة .
 يفيلا : يخطىء .
- (١٥) يدا سرحا : يدا منسرحة سهلة . حائلا ضبعها : مضطربا عضدها . تسوم : تمر
 مروراً سهلا . زجولا : بعيدة الاندفاع .

وَعُوجًا تَنَاطَحْنَ تَحْتَ الْمَطَا وَتَهْدِي بِهِنَّ مُشَاشًا كُهُولًا^(١٦)
 تُمَزُّ الْمَطَى جِمَاعَ الطَّرِيقِ إِذَا أَدْلَجَ الْقَوْمُ لَيْلًا طَوِيلًا^(١٧)
 كَأَنَّ يَدَيْهَا إِذَا أُرْقِلَتْ وَقَدْ جُرْنَتْهُمْ أَهْتَدَيْنَ السَّبِيلَا^(١٨)
 يَدَا عَائِمٍ خَرَّ فِي غَمْرَةٍ قَدْ أَدْرَكَهُ الْمَوْتُ إِلَّا قَلِيلًا^(١٩) : ١٦٩



-
- (١٦) العوج : جمع عوجاء كناية عن الأضلاع . تناطحن : تداخلن . المطا . الظهر .
 تهدي : ترشد . المشاش : رؤوس العظام . الكهول : جمع كهل الضخام الطوال .
 (١٧) تمز : تغلب . المطى جمع مطية الإبل . جماع : طوال . أدلج : سار ليلا .
 (١٨) أرقلت : أسرعت . جرن : ملن عن الطريق ، والضمير يعود على النياق اللاحقة
 يسيرنها .
 (١٩) عائم : سابع . خر : سقط . غمرة : ماء كثير .

تحليل الأبيات :

لم يكن بشامة من رجال الحب ، بل لم يكن ممن يتخيل الحب فيحسن تخيله ، أو يصوره فيجيد تصويره ، فجاء مطلع قصيدته دالاعليه ، منبثا عنه ، ناطقا بأن عاطفته في الغزل ناضبة جامدة ، فقد هجر فؤاده حبيبته هجرا طويلا ، وكان من حق أمامة أن تكون هي الصادة عنه ، الهاجرة له ؛ إذ شأن المرأة الصد والدلال ، والهجر والإعراض ، وليس ذلك شأن الرجل في لغة المحبين ، وكأنه أحس بأنه أخطأ في حق الحب والجمال ، فقال : « وحملك النأى عبثا ثقيلا » ولكن كيف حمله النأى العبء الثقيل ، وهو صاحب الهجر الطويل ؟ ثم يدير كلاما في النسب ليس له من جمال الخيال نصيب يصف بعده الوداع ، وأن عينها استعبرت ، فيقول :

فبادرتها مستعجلا من الدمع ينضح خذا أسىلا

ولا ندري لماذا لم يصنع دمه الدامى حده ليكون الوداع دامعا داميا ؟ ثم ينتقل إلى وصف ناقته ، فيقربها للرحيل يقرب ناقه صلبة قوية كأنها العير الوحشى في وثاقة جسمها ، وصلابة أعضائها ، وهى شديدة ضخمة ، حريثة سريعة ، فأى صفة مستحبة تنقصها ؟ إنها متداخلة الأعضاء ، مدججة الأجزاء ، يبدو مراحها في أدنى الأوقات إلى الخمول ، ويظهر نشاطها في أحق الساعات بالكلال والملال ، وهى ساعات الظهيرة ؛ إذ يقيل كل كائن ، ويسكن كل متحرك ، ويهدأ كل حى ، حتى الظباء ، وهى رمز المراح تطلب الراحة والسكون ، وتسكن إلى الهدوء والاطمئنان .

أما الناقة فلا تشعر بتغير الجو ، ولا بتوهج الشمس ، وهى لاتسكن إلى الراحة ، لها سنام مرتفع مكتنز ، قد أزال اكتنازه وبره ، فهو أملس ناعم تزل عنه الولية زليلا ، ويستط عنه الحلس سقوطا ، أعززت تلك النجيبة ، ففتحها حق الرعى حيث شاءت ، فهى تقطف أطراف النبات الناجم فى الأرض الخصبه دون أن يزجرها راعيها ، وتستمد قوتها من أنها لا فصيل لها يتمتع مُنتها مع امتصاص أخلافها ، ويرشف دمها حين يرشف لبنها ، وهى

وقور رزان لاثور إذا ما شد راكبها زمامها ، ولا تنفر عندما يثنى إليه خطامها ، تنظر بعين حادة كأنها عين مقلب القداح ، قداح الميسر ؛ ليعرف الراجح منها ، ويحتال ليتبين الكاسب فيها . وأذنها ضخمة ينضج على جانبيها العرق غزيرا ، حتى يتجاوزها سائلا إلى الوراء في لحيتها ، فيبلل ذلك الور الكثيف الحار ، ولكنه لا يزيل حرارته لتجمعه وتكاثفه ، ولها صدر عريض واسع ؛ كأنه طريق بين لاحب ، يتموج ويضطرب كأنه مغطى بذلك الكساء الذى يوضع فوق أعجاز الدواب ، وهى تقطع المراحل الشاسعة دون أن يدركها الأين أو يحط عليها الكلال ، فتغدو على جبل كشب ، لتمسى فوق جبل أريك ، فما أقوى احتمالها ! إنها لتطأ الأرض الغليظة الحزنة ، فتحيلها لينة ناعمة ، مثلها كمثل السيد القوى العزيز يطاء بجبروته الرجل الضعيف الذليل ، فيطوى صفحته من الوجود ، متى أقبلت عليك ظمنتها لنشاطها قد تمسكها الذعر ، واستولى عليها الفرع ، فهى أسرع من نعمة يطاردها ظليم قوى عداء ، وإذا أدبرت حسبته سفينة موسوقة أطاعت الريح قلعها ، وأذعنت الريح الصرصر لشرعها ، وهى بمن فيها بحفلة متوجسة ، فهى تمخر العباب بقوتين ، وتجرى فى اليم بإرادتين : قوة الريح والشرع ، وإرادة الإجفال والتوجس ، وإذا ظهرت أدرك رائيتها كرمها ونجابتها دون أن يخطئ ، فى إدراكه ، أو يفيل فى تقديره ، يرى يدا منسرحة سهلة ، وهى مختلجة العضد ، مضطربة الصبع ، تمر يدها من الريح ، وتندفع قدمها اندفاع الصخرة ، ذات أضلاع تبدو تحت ظهرها عوجاء مقوسة ؛ قد تلاقى بعضها ببعض ، واتصل يمينها بشمالها ، حتى لسكانها تناطح ، ترشد من يراها أن عظامها ضخام صلاب ، جسام شداد ، تبارى المطى فتغلبه وتعزه ، وتسابق الركب جماع الطريق فنسبقة وتبزه ، وذلك الغلب والسبق حينما تسرى ليلا ، فتبدو يداها ، وقد أرقلت إرقالا معتدلا هازة رأسها — فى مرح ونشاط ، فتشاركها الإبل المبارية لها فى أول مراحل السير هذا المرح وذلك النشاط ، فينحرفن عن الطريق كما تنحرف ، ويملن عن الصراط المستقيم كما تميل ، فإذا ما أوغلن فى الطريق سرن معتدلات قاصدات لا يجرن ولا ينحرفن ؛ لأنهن فقدن تلك القوة الدافعة ، واستنفدن ذلك النشاط الحافز ، لقد أدركهن الأين والنصب ، وأصابهن التعب والوصب ، فسرن سواء السبيل حينئذ تبدو يداها كيدي

ساحج في بحر عجاج متلاطم الأمواج قد كاد يدركه الغرق ، ويطويه في قراره الماء ، وهو يطلب الحياة ، فيعمل يديه كليهما بكل ما أوتى من قوة ؛ حتى يبلغ ساحل الأمان ، ويصل إلى شاطئ الاطمئنان .

النقر :

الناظر في هذه الأبيات يجدها ممتازة بوفرة معانيها ، وتجدد الأفكار فيها ، فإذا نحن تجاوزنا الصفات العامة التي كاد يتفق فيها أغلب الواصفين كصلابة الناقة ، ووثاقة الأعضاء وسرعة السير ، وعظم السنام ، واكتناز الفخذين ، وجفاف الأخلاف ، واتساع الصدر... إذا تجاوزنا هذا وجدنا الشاعر وفق إلى معان لم يوفق إليها شاعر عداه ممن سندرهم بعده ، وهي معان تعتمد على الحس حقا ، ولكنها مع هذا بالغة الروعة ، عالية الخيال ، وذلك كقوله في وصف حدة نظرها :

توقر شازرة طرفها إذا ما نثيت إليها الجدिला
بعين كعين مفيض القداح إذا ما أراغ يريد الحويلا

لغة نظر الناقة صفة نعتها بها كل واصف إياها ، ولكن أحدا لم يشبهها بمثل هذا التشبيه الذي أوحى إلينا بالتفكير في إحدى عاداتهم ، وبتصور حال الحكم في الميسر ، وفيما يجب أن يكون عليه من حدة النظر ، وحسن الاحتيال ، وكقوله في وصف سرعتها في السير ، وجلدها عليه :

فرت على كشب غدوة وحاذت بجنب أريك أصيلا

فقد صورها لنا تربط بجملدها وقوة صبرها بين المتباعدين ، وتصل بين المتنايين ، وأى قوة كفتوتها ، وقد سارت اليوم كله من مطلع الشمس إلى مغربها لم يأخذ منها الكلال ، ثم إن تشبيه وطئها غليظ الحصى ، واستحالاته تحت أقدامها دقيقا ناعما بوطء القوى العزيز للضعيف الدليل تشبيه إنسانى صادق فيه سمو المعنى ونباله الغرض الذي أوحى به ، فهو يرمز إلى أن القوى يكاد يحسب الدليل مفقود الحس ، معدوم الشعور فقدان الحصى للحس والشعور ، أو أنه لا يدرك أنه كائن حتى من حقه أن يشعر بالوجود ، كما أن الحصى ليس كائنا

حيا ، فليس من حقه أن يشعر بالوجود ؛ لابد أن بشامة نظر إلى هذا المعنى الإنسانى الرائع فقد كان إنسانا كريما ، كما كان شاعرا حكيما ، والإنسانية والحكمة تمليان هذا المعنى

ووصفه تقابل الأعضاء بأنها تتناطح وصف دال على طول التأمل ؛ فالأضلاع والقرون كلاهما مقوسان ، والأضلاع متقابلة ، تقابل القرون عندما تتناطح ، فهي صورة تكاد تكون كاملة لا ينقص من كمالها سوى أن الأضلاع متعددة ، والقرون محدودة العدد .

وتشبيهه يدى الناقة عند الإرفال بيدى السابح فى عباب متلاطم يكاد يقضى عليه بالفرق ، فهو لذلك يبذل قصارى جهده ؛ ليصل إلى النجاة تشبيه قوى مستقيم ، وخاصة إذا ذكرنا أن بلاد العرب غريبة فيها هذه المناظر لانعدام البحر والأنهار فيها .

والحق أن هذه القطعة من حير ما قيل فى وصف الناقة ، ولو بلغ عدد أبياتها عدد أبيات طرفة لكان أحق منه بزعامة وصف الناقة ، بل لكان أحق منه بزعامة الوصف عامة ، وذلك من نواح : أسلوب بشامة أتمس وأعذب ، وتشبيهاته أدق وأقرب إلى الحقيقة ، ولعل طول الحياة ، وكثرة التجارب ، وسعة الخبرة هدت بشامة إلى ما لم يهتد إليه طرفة ، فقول بشامة فى وصف تداخل أعضاء ناقته !

مداحلة الحلق مضبورة إذا أخذ الحاققات المقيلا

أقرب إلى الحقيقة من قول طرفة :

وطى محال كلخنى خلوفه وأجرنة لزت بدأى منضد

وينتظم أسلوب بشامة البديع من البديع ، والرائع من جمال اللفظ ، وحق مثله فى حياته وسنه أن تكون عنايته بجمال اللفظ دون عناية طرفة ، فالشباب دائما باحث عن الجمال فى كل شئ ، ولكن بشامة كان يبغي الجمال فى شعره دون سواه ؛ لأن حياته حرمة النظر إلى غير جمال الشعر ، فمن ذلك الجمال قوله :

إذا أقبلت قلت مذعورة من الرمد تلحق هيقا ذمولا

وإن أدبرت قلت مشحونة أطاع لها الريح قلعا جفولا

وإن أعرضت راء فيها البصير مالا يكلفه أن يقيلا

ويعجبنا منه ذلك التضمن الذى يعيبه واضع قواعد النظم العربى ؛ يعجبنا لأنه مبعث تشويق ، وشغف للقارى ؛ إذ هو ينتظر فى لهفة المشبه به ؛ ليتبين وجه الشبه الذى يربط بينه وبين المشبه ، وذلك فى قوله :

كأن يديها إذا أرقلت وقد جرن ثم اهتدين السبيلا
يدا عائم خرّ فى غمرة قد أدركه الموت إلا قليلا

وتعجبنا دقته فى اختيار الألفاظ ، وحسبنا شاهدا البتتان السابقتان ، فاختياره الإرقال دون غيره من أنواع السير دقة ؛ لأن السابح يحرك مع يديه رأسه كما تصنع الناقة المرقلة ، واختياره لفظ « عائم » دون سامح مثلا دقة ؛ لأن السباحة تشعر بالمهارة دون العوم ، وتفضيله « خرّ » على عام مثلا دقة ؛ لأنها تشعر بالسقوط دون عمد .

وإذا كان لنا مانأخذ عليه ، فهو تكرار القافية ، لقد كان بشامة أستاذ الزهير فأكرم بالأستاذ والتلميذ .



٣ - وقال المثقب العبدى * فى قصيدة أولها :

هَلْ عِنْدَ غَانٍ لِفَوَادٍ صِدٍ مِنْ نَهْلَةٍ فِى الْيَوْمِ أَوْ فِى غَدٍ ؟^(١)

حَتَّى تَلَوَيْتُ بِلَيْكِيَّةٍ مُعْجَمَةِ الْحَارِكِ وَالْمَوْفِدِ^(٢)

تُعْطِيكَ مَشِيًّا حَسَنًا مَرَّةً حَثْكَ بِالْمِرُودِ وَالْمُخَصَّدِ^(٣)

يُنْبِى تَجَالِيدِي وَأَقْتَادَهَا نَاوِي كِرَاسِ الْفَدَنِ الْمُوَيْدِ^(٤)

عِرْفَاءَ ، وَجَنَاءَ ، جُمَالِيَّةٍ مُكَرَبَةٍ أَرْسَاغُهَا جَلْعَدِ^(٥)

تَنْمَى بِنَهَاضٍ إِلَى حَارِكٍ ثُمَّ كَرُكْنٍ الْحَجَرِ الْأَصْلَدِ^(٦) ١٧٥ :

* ترجمه الشاعر : هو العائد بن محسن بن ثعلبة بن وائل العبدى ، وكنيته أبو عمرو ولقبه

المثقب لقوله : ظهرن بكلة وسدلتن رقما وثقتن الوساوص للعيون

وهو شاعر مجيد ، قيل عنه : « قد عرد بقصائده كل مفرد » ، وأنشدت على كل

مورد . والقصيدة التى منها هذه الأبيات من أجود شعره ، وقد أجاد فيها وصف نافته ،
توفى سنة ٥٢٠ م .

التفسير اللغوى : (١) الغانى : أصلها الغانية ، ثم رخم ، أو أنه ذهب إلى الإنسان .

صد : عطشان . الهلة : المرة من النهل . (٢) تلويت : ندوركت . بليكية : بناقة كثيرة

اللحم ، وبليكية صفة لموصوف محذوف ، واللكائك شرائع اللحم . معجمة الحاراك : مكتزة أعلى

الكاهل . الموفد : المشرب . (٣) حثك : حضك ودفعك . المروود : حديدة تدور فى اللجام .

المخصد : السوط المحكم القتل ، فهو صفة لموصوف محذوف .

(٤) ينبى : يدفع . تجاليدى : جسمى وأعضاءه . الأقتاد : جمع قتد ، وهو أداة

الرحل . الناوى : سنام الناقة . الفدن : القصر العظيم ، أو الصرح الضخم . المؤيد : الموثق المشدد .

(٥) عرفاء : وصف للناقة صار سنامها كالعرف ، وهو المرتفع من الرمل . الوجناء :

الغليظة ، أو العظيمة الوجنتين . جمالية تشبه الجمل فى وثاقة الخلق وعظم الجسم . المكربة : الموثقة

الصلبة . الأرساغ : جمع رسخ ، وهو الموضع المستدق بين الخف وموصل الوظيف . الجلععد :

الغليظ الصلب . (٦) تنمى : ترتفع . النهاض : الكثير النهوض ، ويقصد به العنق . المصعد

المتسامى . الحاراك : أعلى الكاهل . ثم : هناك . كركن : بجانب . الأصلد : الأملس الصلب .

- كأَنَّمَا أَوْبُ يَدَيْهَا إِلَى حَيْزُومِهَا فَوْقَ حَصَى الْقَدْفِ (٧)
 نَوْحُ ابْنَةِ الْجَوْنِ عَلَى هَالِكِ تَنْذِبُهُ رَافِعَةً الْمِجْلِدَ (٨)
 كَلَفَتْهَا تَهْجِيرَ دَوِيَّةٍ مِنْ بَعْدِ شَأْوٍ لَيْلِهَا الْأَبْعَدِ (٩)
 فِي لَاحِبٍ تَعْرِفُ جَنَاتِهِ مُنْفَهَقِ الْفَقْرَةِ كَالْبُرْجُودِ (١٠)
 تَكَادُ إِذْ حَرَّكَ مَجْذَاهَا تَنْمَكُ مِنْ مِثْنَاتِهَا وَالْيَدِ (١١)
 لَا يَرْفَعُ الصَّوْتَ لَهَا رَاكِبٌ إِذَا الْمَهَارَى جَوْدَةً فِي الْبَدِ (١٢)
 تَسْمَعُ تَمَزَافًا لَهُ رَنَةً فِي بَاطِنِ الْأَرْضِ وَفِي الْقَرْدِ (١٣)
 كَأَنَّهَا أَسْفَعُ ذُو جُدَّةٍ يَمْدُهُ الْوَبْلُ ، وَلَيْلُ سَدَى (١٤) : ١٨٣

- (٧) أوب يديها : رجوع قائمتيها الأماميتين . الحيزوم : ما استدار بالظهر والبطن أو ضلع القواد . القدف : المكان الغليظ أو الفلاة .
 (٨) ابنة الجون : امرأة من كندة عرفت بشدة النواح حتى ضرب بها المثل . تنذبه : تبكيه . المجلد : خرقه سوداء كالمنديل تحملها المائدة ، وتشدها بين يديها وفوق رأسها .
 (٩) التهجير : السر في ساعات المهجير عند اشتداد الحر . اللدوية : الصحراء الشاسعة . شأوى ليلها : تثنية شأو ، كأنه أراد شأو ليلها ونهارها ، والشأو : الغاية .
 (١٠) اللاحب : الطريق البين الواضح . منفهق : متسع . الفقرة : العلم من جبل أو فلاة . البرجد : الثوب المخطط .
 (١١) مجذافها : يريد سوطها ، وهو في الأصل المجذاف ، وهو خشبة طويلة مبسوطة أحد الطرفين تسير بها السفن . المثناة : الزمام .
 (١٢) المهاري : الإبل المنسوبة إلى مهرة بن حيدان من عرب اليمن ، قالوا عنها : إنه لا يعدل بها شيء في سرعة جرياتها . الجودة : كالنجوم ضرب من السير . البد : الابتداء ، يقال بدأت بالشيء ، وبدت به .
 (١٣) التمزاف : أصوات الحجارة التي تقذف بها الناقة إذا سارت ، وهو في الأصل العزف على ناي أو عود أو غيرها . الرنة : الصور والصلصلة . القردد : الأرض الغليظة .
 (١٤) الأسفع : الثور الوحشي في وجهه سفح ، وهو السواد المشرب بالحمرة . الجدة : خطة في ظهره تخالف لونه . يمد . يطويه يقال : ممدود الخاق ومعصويه . الوبل : المطر الكثير . السدى : الندى . يقال سديت الأرض نديت .

تحليل الأبيات :

بدأ الشاعر قصيدته كأكثر شعراء عصره بالغزل المتمنى ، فهو يتنى على غانيته أن يجد عندها رية لفؤاده الصادى من رحيق ريقها العذب فى يومه ، فإن تعذر عليها فى غده ، ثم يسير فى غزل قصير يعتمد فيه على الأمانى العذاب ، وإذ لم يجد من ينيله مغمناه انتقل إلى وصف الناقة فقال :

لقد تداركنى الأمر بناقة موفورة اللحم ، كثيرة الشحم ، مكتنزة الكاهل ، سمينه العنق ؛ إذا ما امتطيتها سارت بك سيرا جميلا ؛ جميلا فى ليمه وهدهونه . جميلا فى إرقاله وتجويده ، فكأنك تستعجبها — دون أن يكون منك حض أو استعجاب — بمرود لجام ، أو بحكم سوط ، وهى — إذ يعتمد على سنامها جسمى ورحلى ، ذلك السنام العظيم الضخم الذى يشبه قمة القصر الفخم — تدفعنى من أرض إلى أرض ، وتقلنى من بلد إلى بلد ، هى ناقة عرفاء ، فسنامها فى اكتنازه وارتفاعه كدعص الرمل منبسط من أذناه ، مجتمع فى أعلاه ، ووجنتها مملئتان يغطيها لحم كثير ، ويكسوها جلد نخين ، وأعضاؤها فى وثاقها وإحكامها ، وتداخلها وتساندها كأعضاء الجمل ، وأرساغها فى ملاستها وصلابتها كالبحر الصلد ، ووظيفها فى غلظه وشدته كالجلعد الغليظ من الأرض .

إذا سارت صعدت بعنقها حتى تسامى به كاهلها السامق الرميع الذى هو كجانب الحصن المنيع ، وكأن صوت قائمتيها الأماميتين ، وهى تعود بهما فى مسيرها إلى وسط بطنها ، وضلع فؤادها فوق حصى الغدغد ، كأنه نواح ابنة الجون على هالك عزيز عليها ، وفقيد كريم لديها ؛ فهى ترجع فى نواحها ، وتندب رافعة بين يديها مجلدها ، تشير به إلى الأمام وإلى الوراء .

كلفت تلك الناقة الجمالية العرفاء أن تقطع بى فى ساعة القيلولة وإبان المقييل ، وحين التهاب الرضاء صحراء واسعة ، دون أن يكون هذا الذى كلفتها إياه أول مسيرها ، بل كان بعد أن قطعت شوطا بعيدا فى يوم أيوم ، وليل أليل ، فسارت فى تلك المغازة فى طريق

واضحة ، وسبيل لاجبة ، فقد قطعنها وعرقنها ، فأبى بها جواب آفاق ، وجوال صحارى ،
فهي تعرف جناتها ، فتسير في طرقها المستقيمة الممتدة التي تماثل في استقامتها وامتدادها
ظهر برجد ، إذا ما حرك حاديا سوطه في يده كادت لشدة فزعها تنزع منه زمامها ، وإذا
ماسايرت النياق المهارى اللأنى ما يزلن في أول شوطهن في حين أنها قطعت ما قطعت من
رحلة في إثر رحلة ، وسارت ماسارت من ليل في أعقاب نهار لم تحوج حاديا إلى أن
يسمعها زجره ، بل تسمعه صوتا موسيقيا موقعا منغما ، كأنه عزف ناي ، ينبعث هذا
الصوت الموسيقى من اصطدام وظيفها بالحصى الغليظ ؛ سواء أكان مسيرها في بطن الوادى
أو في ظهره .

كأن ناقتى تلك لجمال وجهها ، وسفعة وجنتيها ثور وحشى ، لون ظهره يخالف لون
وجهه ، إذ في وجهه سفح كأنه الدم المتجمد ، وظهره أبيض كأنه ملتف نالوبل الندى

النقد

وصف المثقب يبعد كثيرا عن وصف طرفة وبشامة ، فقد أقل من وصف الأعضاء ،
فلم يفصلها تفصيل طرفة ، ولا اجتراً ببعضها دون بعض كما فعل بشامة ، وإذا كان قد
جارأها في شيء ففى وصفها جملة بالصلابة والاكتمال ، فأجل نعوتها في الثلاثة الأبيات
الآنية :

ينى تجاليدى وأقتادها ناو كرأس القدن المؤيد
عرفاء ، وجناء ، جمالية مكربة أرساغها جلعده
تنى بنهاض إلى حارك ثم كركن الحجر الأصلد

ولكنه تحدث عن حسن سيرها ، وسهولة قيادها ، وشدة يقظتها ، وعظم صبرها ، فأجاد
إجادة بالغة ، فهي :

تعطيك مشيا حسنا مرة حثك بالمرود والمحصد

ويمجبنا منه قوله : تعطيك فهي استعارة جميلة ، وكأنه قد شبهها كذلك بالنرس يتحكم
فيه اللجام ، ويخشى السوط المحكم المحصد ، ولكنها ليس لحاديا ما يتحكم به فيها غير حبا

إياه ، وطاعتها له . ثم رسم رجع يديها إلى وسط بطنها ، وأنها إذ تقدمهما وتؤخرهما في سرعة سريعة ذات صوت ورنين تشبه ابنة الجون الصائحة النادبة .

وهذه صورة لا تنقصها الظلال ، فأحسب أن الغبار الذي تثيره الناقة هو لون مجلد ابنة الجون ، وتشبيه السوط بالجدايف تشبيه جميل ، فكلاهما وسيلة سير ، وكلاهما مبسوط ممتد ، وكلاهما عريض من قبضته ، دقيق في نهايته .

وفيه عنها رفع صوت حادها لها ؛ استحاثا لإرقالها بعد مسيرة بعيدة المدى في حين أن كراثم النياق ماتزال في بدء سيرها ، فيه نكريم لها ، واعتزاز بها ، ولكن فيه كذلك مبالغة وغلو ليسا من سمة الجاهلى .

ووصفه صوت وظيفها عند ما يصدم الحصى بأنه كالتعزاف أو كسب الجو جمالا يشعر به من يعرف أثر الخداء والغناء في قوة الإبل عند ما تشعر بالآين والإعياء ، فكأنها تغنى لنفسهم ، وتحدو بوظيفها إذا غفل راكبها عن الخداء لها .

والناظر بين أبيات المثقب وأبيات طرفة وبشامة يجد أبياتا قليلة متماثلة ، أنحكم بأن طرفة وبشامة أخذتا من المثقب ، أم أنها معان مطروقة ؟ أما أنا فأعتقد أنها معان مطروقة ، وذلك كقوله :

تمى بنهاض إلى حارك ثم كركن الحجر الأصـلد
إذ مثله قول طرفة :

وأتلع نهاض إذا صعدت به كسكان بوصى بدجلة مصعد
وبيت طرفة أجل ؛ لأنه أوسع معنى ، وأدق تصويراً . ويشبه قول بشامة
ابن الغدير :

تعزز المطى جماع الطريق إذا دلج القوم ليلا طوبلا
قوله :

لا يرفع الصوت لها راكب إذا المهارى جودة في البد

وبيت بشامة أضفى مدحا مع قلة في المبالغة ؛ لأنه وصفها بالسبق طوال الطريق .
 أما أسلوب المتعب فهو سلس سهل ، لا عوج فيه ولا أمت ، وفيه من التشبيهات
 الجميل الجيد ، والواضح الساطع كقوله :

كأنما أوب يديها إلى حيزومها فوق حصى القفد

نوح ابنة الجون على هالك تندبه رامة الحلد

وقد اتفق طرفة معه في وصف الطريق في الاستقامة والوضوح بأنه كالبرجد ،
 وبيت طرفة أجمل ، على أن له فضلا في كثير من هذه المعاني ، فقد سبق طرفة
 بفترة طويلة .



٤ — وقال زهير بن أبى سلمى * من قصيدة بدأها بقوله :

غَشِيتُ الدِّيَارَ بِالْبَقِيعِ قَتْمَدٍ دَوَارِسَ قَدِ أَقْوِينَ مِنْ أُمِّ مَعْبِدٍ ^(١)

وَقَفْتُ بِهَا رَأْدَ الضَّحَاءِ مَطِيقِي أَسْأَلُ أَعْلَامًا بِبَيْدَاءِ قَرَدَدٍ ^(٢)

فَلَمَّا رَأَيْتُ أَنَّهَا لَا تَجِيبُنِي نَهَضْتُ إِلَى وَجْنَاءِ كَالْفَخْلِ جَلْعَدٍ ^(٣)

بُجَالِيَّةٍ لَمْ يُبْقِ سَيْرِي وَرِحْلَتِي عَلَى ظَهْرَهَا مِنْ نَيْيَا غَيْرِ تَحْفِدٍ ^(٤)

مَتَى مَا تُكَلِّفُنَا مَابَةَ مَنَهْلٍ فَتَسْتَعِفْ أَوْ تُنْهَكْ إِلَيْكَ فَتَجْهَدِ ^(٥)

١٨٩ : تَرِدُهُ وَلَمَّا يُخْرِجِ السَّوْطُ شَاوَهَا مَرْوَحًا ، جَنُوحَ اللَّيْلِ ، نَاجِيَةَ الْغَدِ ^(٦)

* ترجمه الشاعر : هو زهير بن أبى سلمى بن الزنى الشاعر الحكيم ، المحيد في جميع

فنون الشعر ، وبخاصة الحكمة والمدح والوصف ، ويمتاز من غيره بسقيح شعره ، وتهذيب قريضه ، وتنقيته من كل زيف وبهرج ، حتى تخرج قصائده متينة الرصف ، محكمة البناء ، ولذلك كان له قصائد تعرف بالحوليات لأنه لا ينشدها إلا بعد عام كامل على نظمها ؛ توفي سنة ٩٩ هـ

التفسير اللغوي : (١) غشيت : زلت . البقيع وهمد : مكانان بالمدينة . دوارس :

زوائل . أقوين . أقفرن ، ورحل عمن أهلهم . أم معبد : زوجته .

(٢) رأد الضحاء : وقت ارتفاع الشمس وبسط ضوءها . المطية : الناقة ، ثم أطلقت

على كل ما يمتطي ظهره . أعلاما : جمع علم ، وهو ما بهتدى به في الصحراء . الردد الأرض الغليظة المرتفعة .

(٣) الوجناء : الناقة الضخمة الوجنتين . الغليظة الحدين . الجلعد : الشديدة الصلبة .

(٤) حالية : تشبه الجمل في عظم خلقها ، وقوة جسمها . النى : الشحم . المحفد : الأصل ،

ومثلها المحتد ، والمحكد ، أو أن المحفد الأصل للسنام خاصة .

(٥) مآبة منهل : المآبة أن تسير الناقة نهارها ، ثم تثوب إلى المنهل للشرب عشيا .

فتستعف : يؤخذ ما عندها من السير من غير كد . تنهك : يبلغ منها بالضرب والإجهاد . تجهد : تتعب .

(٦) ترده : ترد المنهل . لما يخرج السوط شأوها : لم يستخرج ضرب السوط كل عفوها

وما تسمع به نفسها من طاقة وقدرة وطلق . مروحا : نشيطة مرحة . جنوح الليل : ميالة

في سيرها يمينا وشمالا في الليل بجنوحها في النهار ، وذلك لنشاطها . ناجية الغد : مسرعة في غدها

كَهْمُكَ إِنْ تَجَهَّدَ تَجِدْهَا نَجِيحَةً صَبُورًا ، وَإِنْ تَسْتَرِخْ عَنْهَا تَزِيدُ^(٧)
وَتَنْضَحُ ذَفْرَاهَا بِجَوْنٍ كَأَنَّهُ عَصِيمٌ كُحَيْلٍ فِي الْمَرَاجِلِ مُنْقَدٌ^(٨)
وَتُلَوِي رِيَّانَ الْعَسِيبِ ثَمَرَهُ عَلَى فَرْجٍ مَحْرُومِ الشَّرَابِ مُجَدِّدٌ^(٩)
تُبَادِرُ أَغْوَالَ الْعَشِيِّ وَتَتَّبِقِي عَلَالَةَ مَلَوِيٍّ مِنَ الْقَدِّ مُخَصَّدٌ^(١٠)
كُنْشَاءَ سَفَاءِ الْمَلَاظِمِ حُرَّةً مُسَافِرَةً مَزْوُودَةً أُمَّ فَرْقَدٍ^(١١)

(٧) كهملك : هي كما يهملك منها وترجو . إن تجهد : إن تطلب جهدها وإسراعها .
نجيحة : سريعة . صبوراً : كثيرة الصبر على الجهد . تسترخ : تجعل لها السير سهلاً . تزيد :
تسير سير التزيد ، وهو صرب من السير فوق العنق .

(٨) تنضح : ترشح . الثدري . عظم نائى حلف الأدن ، ويكثر عرق البعير في هذا
المكان . الجون . الأسود والأبيض والأول هو المراد . العصيم : البقية من كل شئ .
الكحيل : القطران أو النفط ، ويقال : إن الإبل أول ما يبدو عرقها أسود ، ثم يصمر .
قال الشاعر :

يصفر لليبس اصفرار الورس من عرق النصح عصيم الدرس
منقذ : مطبوخ .

(٩) تلوى : تصرب يمنة ويسرة . ريان العسب : محتلى الأصل ، وهو يعنى ذنا عليظا ،
والعسب : عظم الدب ومنبته من الجلد والعظم . ثمره : تذهب به وبجي . محروم الشراب :
كناية جميلة عن عدم حملها . مجد : لالين في أخلافها من جد الشئ يحده كنصره ينصره
قطعه ، وشاة حذاء قليلة اللبن ، يابسه الصرع ، ويقال : ناقة جدود : مجددة .

(١٠) تبادر : تسارع . أغوال : أبعاد مهردة غول ، وهو بعد المفازة ، لأنه يغتال من يمر به ،
ويقال : هون الله عليك عول هذا الطريق أى خفف عليك بعده العلالة : البقية . ملوى
من القد : مفتول من الجلد ، وهى كناية عن السوط . محصد : شديد القتل محكمه .

(١١) الكنساء البقرة الوحشية التأخر أنفها في رأسها . السفع : السواد في حمرة ،
والمقصود بهذا الوصف خدائها . إذ للملاطم : الحدود لأنها تلطم . حرة : كريمة عتيقة . مسافرة :
كثيره الأسفار وقطع الأرض . مزوودة : مذعورة ، يقال : زئد الرجل فهو مزوود ، والاسم
منه الزؤد . الفرقد : ولد البقرة الوحشية .

تحليل الأبيات :

نزلت بديار أم معبد ، تلك الديار التي تقع بين البقيع وشهد من مدينة يثرب ، وقد درست آثارها ، واحتمت معالمها بعد أن فارقتها تلك الزوجة الغالية ، ونأت عنها هذه الحبيبة الغانية .

وقفت بها مطيتي وقد انبسط ضوء الشمس ، وامتدت أشعتها هنا وهناك ، وقفت أسائل أعلام تلك البداء الغليظة ، والصحراء الوعرة ، أسائلها أين ذهب الذين مروا بها مرتحلين ؟ ومن حزن ومن أسى أن الديار لم تجب لي نداء ، وأن الدوارس لم تلب لي دعاء ، فوثبت حزينا باكيا إلى ناقتي الغليظة ، الضخمة الوجنات ، الوثيقة الأعضاء التي تماثل الجمل في خلقها ، وانبساط جسمها ، وإن لم يبق سفرى الطويل الدائم ، ورحلى المستمر من شحم سنامها سوى أصله ، ولم يخلف منه غير رسمه ، ولكنها مع هذا الجهد الجاهد إذا ما كلفتها قطع مفازة ، أو عبور فلاة ذات مناهل وعيون لم تن في العدو ، ولم تدخر شيئا من النشاط ، شأن كرائم الإبل ، وعناق النياق ، بل هي تبذل نشاطها كله لا تستبق منه شيئا حتى تبلغ ذلك المنهل من دون أن تجهد بالضرب ، أو تنهك بالزجر ، ترده قبل أن يخرج السوط نهاية شوطها ، أو غاية طلقها ، ترده نشيطة مرحة ، قوية جلدة ، لم ينل منها أن سارت الليل كله ، فهي تميل يمينا وشمالا ، سريعة في العشي والغدو ، في الليل والنهار ، هي كما تريد منها محببة مذعانة ، إن أجهدتها بالسير الطويل ، أو الإرقال السريع وجدها نجيحة سريعة ، مروحا نشيطة ، صبوراً جليدة ، وإن تركتها دون إجهاد سارت متزيدة ، فهي لك كما تبغى ، وهي في مسيرها على ماتهوى ، وإن نال منها الجهد ، وأدركها الأين حينئذ تنضج ذفرها بعرق أسود كأنه بقية قطران انعقد في المراحل ، وطبخ على النار في الأواني .

وهي إذ تسير تضرب بذنها الممتلي الريان العسيب ، الغليظ الضخم المنبت ، تضرب به ساقها ، ثم تذهب به وتجيء على فرج قد حرم الشراب ومنع من الضراب ، فهي لم تحمل ولم تحلب ، ولا لبن في أخلافها ، يمتصه ويمتص معه غذاءها فصلان ، فغذاؤها لها وحدها

وطعامها وقف عليها دون سواها ، فهي لذلك الجلدة الصبور ، وإذا سرت بها في مهمه فيحاء أسرع بك إسراعاً كأنه جرى الريح خشية أن يكون بعد المسافة في العشى سبب اغتيال ، فهي تبغى لك الحياة ، وإن كانت من كثرة أسفارك في شقاء ، وتطلب لك النجاة ، وإن أصابها من تعدد رحلاتك العناء ، وهي شديدة الخوف كثيرة الفرع ، تخاف أن تعلق بذلك السوط الحكم المقتول ، المقدود من الجلد .

ما أشبه ناقتي تلك بالبقرة الخنساء قد سفعت وجنتها ، وهي إلى هذا الحسن والجمال كريمة عتيقة ، حرة عزيزة ، قطاعة آفاق ، جوابة أنحاء وأقطار ، شديدة الذعر ، جياشة الفؤاد ، تكاد تشبه لشدة ذعرها ، وجيشان فؤادها البقرة الرؤوم الحريصة على فرقدتها الحسن الجميل .

النقر :

معاني هذه القطعة من قصيدة زهير تشبه شها واضحاً معاني قطعة بشامة بن الندير أستاذة العظيم ، فالناقة وجناء كالفلح الغليظ الضخم ، وهو معنى سبقه إليه بشامة ، بل إن بيت بشامة أجمع :

فقربت للرحل عيرانة عذافرة عنتريسا ذمولا

وإن يكن زهير قد وصفها - دون غيره ممن تقدمه - بأنها نضو أسفار ، وطلّيح آفاق ، وذلك إذ يقول :

جمالية لم يبق سيري ورحلتى على ظهرها من بيها غير محفد

وأحسب أنه لو أكرمها لأراحها ، كما أراح علقمة ناقته في قوله :

قدعريت زمناحتى استطف لها كتركافة كير القين ملموم

وأراه متناقضا ، فقد ذكر أنه يكرمها ، ويضاعف لها غذاها ؛ لأن فرجها محروم الشراب ، وذلك مفهوم من قوله :

وتلوى بريان العسيب تمره على فرج محروم الشراب مجدد

ثم هي مضناة من السفر ، مضناة من الرحل ، وذلك غير قول أستاذة بشامة :
لها قد تمالك نيه تزل الولى عنه زليلا
وكانى زهير فى بيته ذاك قد نظر إلى نفسه لا إلى ناقتة ، وهذا المعنى يقال عن غيره من
أولئك الشعراء الذين يصفون مطاياهم بالنضو والضنى والهزال .
ولقائل أن يقول : إن زهيراً كان جواب آفاق ، فأما شامة فقد كان قعيد داره ،
لا يكاد يبرحها ، فناقتة مكنتزة السنام ، وكلاهما وصف ناقتة بالكرم والعنق والجنوح
والنجماء ، والمرح والنشاط ، ولكن معنى جديدا أوردته زهير واضحاً ساطعاً ؛ ذلك أن ناقتة
تشعر بشعوره ، وتحس باحساسه ، فهى إذا ما أرحى الليل سدوله ، وخيف على المسافر
الفتك والاغتيال :

تبادر أغوال العشى ، وتتقى علالة ملوى من القد محصد
ويؤيد هذا المعنى أيضاً قوله :

كهملك إن تجهد تجدها نجيحة صبوراً ، وإن تسترخ عنها يزيد
وهذان البيتان واضحان عن قول المسيب بن علس :

مرحت يداها للنجماء كأنما تكرو بكفى لاعب فى صاع
فعل السريعة نادرت جدادها قبل المساء تهيم بالإسراع

ولم وصف زهير سوطه بأنه علالة ؟ لأنه قطعه بضربه إياها ؛ أم لأنها لا تحتاج إلى
ضرب ، فاكتمنى بالبقية الباقية منه ؛ الوجه أنه عرفها كريمة عتيقة ، فاستغنى عن السوط
الكامل بعلالة منه

وزهير يمتاز على جميع شعراء عصره بدقة التحديد ، فديار أم معبد « بالبيع قهمد »
وقد كان وقوفه « راد الضحاء » والرحل لم يبق من « نيه غير محفد » وهى « جنوح الليل
ناجية القد » وتجيء دقة معانيه تابعة للدقة فى ذلك التحديد سواء أ كان التحديد مكاناً
أم زماناً ، معنى أم صورة .

كما أنه دائم الجنوح إلى الحقيقة ، وهذا أثر من آثار حكمته التي أخذها عن أستاذه بشامة ، فهو لم يقل ما قاله طرفة في وصف انفراج ما بين مرقفها :

كأن كناسي ضالة يكتفانها وأطر قمى تحت صلب مؤيد
ولم يسر على نهج أستاذه ، فيقول كما قال :

وصدر لها مبيع كالخليف تحال بأن عليه شليلا
ولكن في الأبيات غير التشبيهات الكنايات الطريقة كقوله :
وتلوى بريان العسيب تمره على فرج محروم الشراب مجدد
وقوله :

كنساء سقاء الملاطم حرة مسافرة مزودة أم فرقد

وبعد معاني زهير أقل من معاني من سبقوه ، وتشبيهاته أدنى من تشبيهاتهم ، ولعل ذلك لأنه كان يؤثر الحقيقة ، وفي التشبيه نوع من المبالغة ، وصوره ليست متكاملة كأكثر صورهم : وأسلوبه في جملة أقل رنيناً من أساليبهم .



٥ — وقال المسيب بن علس* من قصيدة أولها :

أَرَحَلْتَ مِنْ سُلَى بِغَيْرِ مَتَاعٍ قَبْلَ الْعَطَاسِ وَرُعْتَهَا بَوْدَاعٍ؟^(١)
 قَسَلًا حَاجَتَهَا إِذَا هِيَ أَعْرَضَتْ بِحَمِيصَةٍ سُرُوحِ الْيَدَيْنِ وَسَاعٍ^(٢)
 صَكَّاؤَ ذِعْلَبَةٍ إِذَا اسْتَدْرَجَتْهَا خَرَجَ إِذَا اسْتَقْبَلَتْهَا هِلَوَاعٍ^(٣)
 وَكَأَنَّ قَنْطَرَةَ مِمَوْضِعِ كُورِهَا مَلَسَاءَ بَيْنَ غَوَامِضِ الْأَسَاعِ^(٤)
 وَإِذَا تَعَاوَرَتِ الْحَضَى أَحْقَافُهَا دَوَى نَوَادِيهِ بَظْهَرِ الْقَاعِ^(٥)
 وَكَأَنَّ غَارِبَهَا رَنَاوَةً مَحْزَمٍ وَتَمَذُّ ثَنَى جَدِيلِهَا بِشِرَاعٍ^(٦)
 وَإِذَا أَطْفَتَ بِهَا أَطْفَتَ بِكُلِّ كَلٍ نَبْضِ الْفَرَائِصِ مُجَمَّرِ الْأَضْلَاعِ^(٧)
 مَرَحَتْ يَدَاهَا لِلنَّجَاءِ كَأَنَّهَا تَكْرُرُ بِكَفَى لَاعِبٍ فِي صَاعٍ^(٨)
 ٢٠٣ : فَعِلَ السَّرِيعَةَ بَادَرَتْ جُدَادَهَا قَبْلَ الْمَسَاءِ تَهْمٌ بِالْإِسْرَاعِ^(٩)

* ترجمه الشاعر: هو زهير بن علس بن مالك بن عمرو الربي، خال الأعشى وأستاذه، شاعر مقلد حميد، مدح عمرو بن هند، ولقي عند طرفة والمتنلس الشاعر بن، وهذه الأبيات من قصيدته حميد مدح بها القعقاع بن معد، وكان سيداً كريماً ظريفاً يضرب بطرفة المثل، توفي حوالي سنة ٥٨٠ م.

التفسير اللغوي : (١) العطاس : الصباح . رعته أفزعته :

(٢) أعرضت : صدت . بحميصه : بناقة ضامرة الحصر ، منظومة البطن . سرح اليدين : سهلة السير بهما . وساع : واسعة الخطو . (٣) الصكاء : القوة في سيرها ، والتي تقارب عرقوها . الذعلبة : السريعة . الحرج : الطويلة الضامرة . الهلواع : السريعة الحديدية اللذاعة . (٤) الكور : الرجل بأداته . غوامض : خوافي الأساع : جمع نسع سيور الجليد يشدها الرجل . (٥) تعاورت : تداولت . دوى : صوت . نواديه : شوارده ومتفرقه . القاع : الأرض السهلة . (٦) الغارب : هنا السام ومن معانيه ما بين الظهر والكاكل . الرناوة : منقطع الغلظ من الجبل حيث استرق . المحزم : منقطع أف الجبل . ثنى : مثني . الجدليل : التزام الجدول المقتول . الشراع : القلع . (٧) الكلكل : الصدر . نبض : حركة . الفرائص : جمع فريضة وهي مصعة بين الكتف والصدر . مجمر : واسع . (٨) مرحت : نشطت . النجاء : الإسراع . تكرو : تلعب . الصاع : منهبط الأرض . (٩) الجدادة : ما بقي من خيوط الثوب .

تحليل الأبيات :

بدأ المسيب قصيدته في مدح القعقاع بن معبد بغزل لم يتجاوز الأبيات الثلاثة من القصيدة ، فقد صحا في بيته السادس من حمله ، وأفاق من شوقه ، ورأى أن الحكمة في اجتناب الصبا ، وذلك إذ يقول :

فرايت أن الحكم يجتنب الصبا وصحوت بعد تشوق ورواع
وإذن فعلى قلبه الواله أن يتسلى عن سلمى إذا ما صدت عنه ، وأعرضت دونه ، فقال له :
تسلّ عن حاجتك منها بخيلة أخرى تطيعك إن أحببت ، وتقبل عليك متى أردت ،
ولا تصد عنك أو تعرض كتلك الخليلة التي أعرضت عنك وصدت ، تسلّ بتلك الناقة
النجيبة ، الخيصة البطن ، الضامرة الخصر ، السهلة السير ، الواسعة الخطو ، البعيدة الشأو ،
كأنها في تقارب عرقوبها ، وقوة نشاطها نعمة تسابق الريح ، فلا تكاد تبينها إذا رأيته
مدرة ، فإذا استقبلتها بدت لك طويلة ضامرة ، مطيعة مذعنة ، حديدة البصر ، قوية
ال نظر ، وكأن ظهرها قنطرة ملساء مدحجة ، مكنتزة قد أثرت سيور الكور التي لا تكاد
ترى لتدخلها في لحمها الكثير ، حتى ملس ونعم مكان تلك الأساع ، إذا أرقلت
فداولت أخفافها حصى الطريق المتفرق سمعت له دويّا في الأرض الهينة الناعمة ، كأنه
صوت الريح الحنون .

أما سنامها الضخم المتعالى فأشبهه بأكمة رمل ، أوراوة جبل ، كلاهما يعلو جسما
منبسطا ، وكلاهما ينتهى بقمة متماسكة متداخلة ، وتحملك على أن تبسط المنثنى من زمامها
المفتول ، وخطامها المجدول ، عند ما تمد في مسيرها عنقا مستطيلا ، كأنه الشراع المطوى ،
أو الرقل المستعرض التين .

وإذا تأملت ، وتدبرت محاسنها ، وأحطت بأعضائها أخذك ما تراه من قوة
في صدرها ، وامتداد في كلكها ، ذلك الصدر الذي تنبض بالحركة الدافقة فرائصه ،
وتشتد بالخفقان السريع عروقه ، وتتسع أضلاعه ، قد نشطت قائمتها الأماميتان ، فهما
تندمان للعدو اندفاعا ، حتى ليحسبها من يراها تدفعهما بتلك القوة تريد أن تحفر بهما

الأرض ، فهما ككفى لاعب ماهر ، قد نشط للكرة يقذفها بكلتا يديه في أرض منخفضة سهلة ، وقد انهمك في اللعب حتى سال عرقه ، وجرى فوق أعضائه ، تلك الناقة تشبه في تتابع قائمتيها عند إرقالها امرأة تريد أن تنتهى من ثوب تنسجه قبل أن يحل بها المساء ، ويطوى النهار ، فهي تبادر إلى مابقى من خيطها تعمل فيه يديها في قوة وإسراع .

النقر

يغلب على وصف المسيب الحسية البصرية ، فهو يعتمد على عينيه الاعتماد كله ، أليست ناقتة « بخميصة سرح اليمين وساع » ؟ وبتأملها مدبرة ومقبلة فيقول :
صكاء ذعلبة إذا استدبرتها حرج إذا استقبلتها هلواع
وكان قنطرة بموضع كورها ملساء بين غوامض الأنساع
وكانه أخذ هذا المعنى من طرفه ؛ إذ يقول :

لها مرفقان أفتلان كأنما تمر بسلمى دالج متشدد
كقنطرة الروى أقسم ربها لتكتنفن حتى تشاد بقرمد

وإن قوله : « ملساء بين غوامض الأنساع » فيه تصوير واضح ؛ إذ أظهر انطواء جلد الناقة فوق الأنساع حتى ما تظهر أوتيين ، وفيه دلالة على اكتنازها ورقة جلدها ، وتصويره تعاور أخفافها الحصى بأن له دويا أوحى إلى السامع أشياء :

منها تصوير تلك الفلاة التي تقطعها بأنها وعرة ، وأن السير فيها لا يهون إلا على النياق الوثيقة الأخفاف ، الصلبة الأرساغ ، وتوحى بأن السامع أذنا موسيقية تعرف كيف تميز الأصوات ، وكيف تصورها ، وأن قوتها في مسيرها أطارت الحصى ، فضرب بعضه بعضا ، وهو قريب من قول المثقب العبدى :

تسمع تعزافا له رنة في باطن الوادى وفي القردد

وتشبيهه سنامها بأنه كربة الجبل تشبيه جميل ، وإن يكن مطروقا على ألسنتهم جميعا ،

فهو يشبه بقمة الحبل ، والمثقب العبدى يشبه برأس القصر ، وهو يدل على خيال
حضرى ، فيقول :

ينبى تجاليدى وأقتادها ناو كراس الفدن المؤيد

وتشبيهه قائمتها الأماميتين بكفى لاعب الكرة يقذفها بكلتا يديه ليكون مرماها بعيداً .
تشبيه جميل ؛ لأنه يدل على بعض ألعابهم ، وجميع تشبيهاته مستمدة من بيئته ، فغاربها
رباوة مخرم ، وزمامها كالشراع أو كالذقل الذى يفضلهُ القدماء ، وإن كنت لا أرى ما يمنع
تشبيه العنق بالشراع المطوى ، والخصى يدوى نواديه بظهر القاع ؛ وقد جرى الشاعر على
الطبيعة الجاهلية ، فلم ينظر فى أبياته تلك إلى ترتيب بل كل ما يعنّ له من معان ينظمه ،
وذلك شأن الشاعر المطبوع فى ذلك العصر .



٦ — وقال علقمة الفحل* من قصيدة أولها :

هل ما علمت وما استودعت مكتوم أم حبلها إذ نأتك اليوم مصروم^(١)

فالعين منى كأن غرب تحط به دهاء حاركها بالقتب محزوم^(٢)

قد غريت زمناً حتى استطف لها كثر كحافة كبر القين مليم^(٣)

قد أدبر العر عنها ، وهى شاملها من ناصع القطران الصرف تدسيم^(٤)

٢٠٨ : تسقى مذائب قد زالت عصيفتها حدورها من أتى الماء مطموم^(٥)

* ترجمه الشاعر : هو علقمة بن عبدة بن النعمان بن ناشرة التميمي ، شاعر جاهلي فحل . قال عنه ابن سلام الجحى : « له ثلاث روائع جياذ لا يفوقهن شعر » والقصيدة التي منها هذه الأبيات إحدى هذه الروائع ، ولقب بالفحل لأنه نازع امرأ القيس الشعر ، وحكاً أم جندب زوج امرئ القيس ، فحكمت لعلقمة عليه ، فطلقها امرؤ القيس ، خلفه عليها ؛ توفي حوالى سنة ٥٦١ م .

التفسير اللغوي : (١) نأتك : فارقتك . مصروم : مقطوع .

(٢) الغرب : الدلو العظيمة ؛ تصنع من جلد الثور . تحط به : تعتمد في جذبها إياه على أحد شقيها . دهاء : وصف للناقة ، إذ الدهم أقوى أنواع الإبل والخيول . الحارك : أطل الكاهل . القتب : الإكاف الصغير .

(٣) استطف لها : ارتفع لها . السكر : السنام . الكبير : موقد النار للحداد ، وهو القين . مليم : مجتمع .

(٤) العر : الجرب . الناصع : الخالص . التدسيم : الأثر

(٥) مذائب : مدافع الماء إلى الرياض . العصيفة : ورق الزرع . حدورها : منحدرها . أتى الماء : السيل القوى التدفع . مطموم : مملوء .

هل تُلحَقَنِّي بأخرى الحى إِذْ شَحَطُوا جُلْدِيَّةٌ كَأَتَانٍ الضَّحَلِ عُلُكُومٌ؟^(٦)
 كَأَنَّ غِسْلَةَ خِطْمِيَّ عِشْفَرَهَا فِي الْخَدِّ مِنْهَا وَفِي الْأَخْيَيْنِ تَلْفِيمٌ^(٧)
 مِثْلَهَا تَقْطَعُ الْمَوْمَةُ عَنْ عَرْضِ إِذَا تَبَغَّمَ فِي ظِلْمَائِهِ الْبُيُومُ^(٨)
 ٢١٢ : تَلَا حِطُّ السَّوْطِ شَزْرًا وَهِيَ ضَامِرَةٌ كَمَا تَوَجَّسَ طَاوَى الْكَشْعِ مَوْشُومٌ^(٩)



- (٦) أخرى الحى : آخر الفرق المرتحلة . شحطوا : بعدوا . الجلدية : الصلبة الفوية .
 أتان الضحل : الصخرة يجرفها السيل فتبقى في الماء . العلكوم : الغليظة .
 (٧) الغسلة : ما غسل به الرأس . الخطمي : نبات يغسل به . التلفيم : تفعيل من
 اللغام ، وهو زبد تخالطه خضرة من المرعى .
 (٨) المومة : الصحراء . عن عرض : عن اعتراض . تبغم : صوت صوتا مختلسا .
 (٩) شزرا : بمؤخر العين . ضامرة : صابرة فلا ترغو من الضجر . طاوى الكشح :
 كناية عن الثور الوحشى . موشوم : منقط .

تحليل الأبيات :

بدأ علقمة قصيدته بمناجاة قلبه في موقفه من خليلته ، أ يحافظ على سرها ، ويحكم
مكنون أمرها ، أم أنه وقد نأت عنه سيقطع صلته بها ، ثم يفشى سرها ؟
ثم أخذ يصف رحيل الغواني وأثره ، وجمالهن وسحره ومسكنهن وعطرهن ؛ حتى انتهى بعدئذ
إلى أن العين كالذئب اعتمدت على أحد جانبيها ناقة دماء ، قد ظهر من فوق قبتها الحزوم في كاهلها ،
فأدلو لهذا الميل دائم الانسكاب ، وهو بعد هذا التمهيد يسير في وصف الناقة ، فيقول :
إنه يعز ناقته ويكبرها فلا يستخدمها إلا قليلا ، قل أن يضع الرجل فوق ظهرها ،
فهو في أكثر الأحيان عريان ، لذلك هو مكتنز صلب كحافة كبر الحداد ، وقد ذهب عنها
المرء ، وزال الجرب ، بما بذله من العناية بها ، فأثار القطران الخالص تشمل جميع
أجزائها ، وهذا في ذلك العصر دليل الغنى والثروة .

مثل ذلك القطران يسقى جميع أجزاء هذه الناقة كمثل الماء يسير في طرقه ومجاريه ؛
ليسقى الحداثق والرياض ، قد زالت عنها أوراق الأشجار ؛ فالقطران يسير من أعلاها إلى
أدناها ، فيتفرق على قوائمها وعنقها وذيلها وجميع أجزاء جسمها ؛ تفرق الماء يسير إلى
الرياض من المرتفعات إلى الوهاد ، فيسقيها جميعها .

هل تلحقني تلك الناقة العزيزة المكربة بأخرى الظمائن اللأى ظمنّ ، وهي الظلمينة
التي علق بها قلبي ؟ ولم لا تفعل ؟ وهي ناقة قوية صلبة كأنها الصخرة نصب عنها الماء ،
فبدت ناعمة ملساء ، وكأنها - وقد علا مشفرها وخدها ولحيها الزبد المختلط بخضرة
العشب - قد غسلت بالخطمي .

بمثل تلك الناقة القوية الجلدة تقطع الفلوات ، وتجاب المغازات دون أن تبالها
أو تخشى مجاهلها ؛ تلك المجاهل التي يصوت في أقطارها اليوم ، ذلك الصوت المنكر
الضئيل المختلس ، كأنه يخاف أن يسمعه صائد فيودى به ويقضى عليه ، وهي إذ تسير
تراقب سوط راحبها ، وتنظر إليه بمؤخر عينها جلدة صورا لا تشكو سيرا ، ولا تحس
ضجراً ، مثلها في النظرة الشراء والطرف الحذر ؛ كمثل الثور الوحشي الطاوي الكشح ،
الضامر الخصر ، المنقط الجسم ، يتوجس الشر ، فيسمع كل نامة ، ويهرب كل حركة ،
فهو لا يأمن كائنا ، ولا يصاحب مخلوقا .

النقر :

لم يقتضب علقمة في قصيدته غزله كما اقتضبه سائر من اخترنا من شعرم في الوصف ، فقال طرفه : « وإني لأمضى الهم عند احتضاره » وقال بشامة بن الغدير : « فقربت للرحل عيرانة » .

وقال المثقب العبدى : « حتى تلوفيت بلسكية » ، وقال زهير بن أبى سلمى : « وقفت بها رأد الضحاء مطيتى » ، وقال المسيب بن علس : « فتسل حاجتها إذا هى أعرضت » .

لم يفعل كما فعلوا وإنما مهد للوصف تمهيداً طريفاً على غير عادة الجاهليين ، فقال : إن عينه مثلاً كمثل الدلو تحمله ناقة دهاء قوية ، وقد مالت الدلو إلى أحد جانبيها فهى تسيل ، ثم انصرف إلى وصف تلك الدهاء .

وفى القطعة معان طريفة مخترعة لم يمر لها نظير فى شعر الخمسة الشعراء الذين قدمنا لهم نماذج فى وصف النوق ، فناقته عزيزة عليه عزتها على الآخرين ، ولكنه لا يرهقها كما فعل زهير ، بل :

قد عريت زمنا حتى استطف لها كثر كحافة كير القين ملموم
قد أدبر العر عنها وهى شاملها من ناصع القطران الصرف تدسيم

ومن الطريف تشبيهها فى صلابتها وملاسه جسمها بالصخرة الغليظة الضخمة يجرفها السيل ، فتبقى فى الماء دهرأ فتزول خشوتها ، وتبقى لها قوتها ، فيقول :

هل تلحقنى بأخرى الحى إذ شحطوا جلذية كأثان الضحل علكوم ؟

وهو يتخير الألفاظ الصلبة لمعانى الصلابة ، مثل : جلذية ، علكوم ، ضامرة ، كثر .

والقطعة على قصرها تدل على أن علقمة كان من مجيدى الوصف البارعين فيه ، فأى صورة كاملة للقطران يعم أجزاء الناقة أدق من تشبيهه بالماء يسيل من الروابى والنجداد إلى المنخفضات والوهاد ، فيصل جميع أجزاء الروض .

نظرة فاحصة عن معاني الشعراء في وصف الناقة

هؤلاء الشعراء الستة الذين أردنا أن نجمل منهم عناوين لبقية شعراء هذا العصر في وصف الناقة ليسوا بأشعرهم في الوصف ، وليسوا بأفوقهم في الشعر ، ولكننا اخترناهم ؛ لأنهم ينتسبون إلى قبائل متعددة ، ويعيشون في أقاليم متباعدة ، وينشئون في عصور مختلفة وإن بدت متقاربة ، فطرفة كان ينتسب إلى بكر ، ويعيش في البحرين وإن رحل منها إلى غيرها ، وكان بشامة بن الغدير غطفانيا ، ويعيش في نجد ، والمثقب عبديا ، ويعيش في العراق ، وكان زهير مزنيا ، ويعيش في نجد ، والمسيب بن علس بكريا ، ويعيش في العراق ، وكان علقمة الفحل تميميا ، ويعيش في نجد ، وليس كون بعضهم متفقيين في الوطن أنهم متفقون في الفكرة ؛ إذ كانوا جميعا ما عدا بشامة بن الغدير من الشعراء الرحالين ، وللرحلات أثر في الأدب ؛ إذ ينهل الشاعر من البيئة التي يرحل إليها له من البيئة التي يرحل عنها ، هذا إلى أن العراق ونجدا إقليمان واسعان مختلفان اختلافا كبيرا في نظم الحياة .

ونحن نرى هؤلاء الشعراء - ما عدا طرفة - يكادون يتشابهون في المعاني التي أوردوها ، ولم نستئن طرفة لأنه لم يشاركهم في معانيهم ، بل لأنه أورد معاني كثيرة اتسع لها طول وصفه ، وهم يعتمدون على الحس دون العطف الاعتماد كله ، وبخاصة حاستا السمع والنظر ، ولكنهم يتفاوتون في الاعتماد عليهما ، فمنهم من يؤثر النظر ، ومنهم من يؤثر السمع ، وقلما يشيرون إلى الشعور الداخلي ، ومن ذلك القليل قول زهير :

تبادر أغوال العشى وتتقى علالة ملوى من القد محصد

فقد أشار إلى إحساسها وشعورها حينما يغطيها الظلام ، ويفشاهما الليل ، ولكنها مع ذلك إشارة عابرة ، ومنه قول علقمة :

بمثلها تقطع المومة عن عرض إذا تبغم في ظلماته البوم

فهو يشير إشارة مبهمة أو خفية إلى أنها تسعى جاهدة لتقطع هذه المومة بعد أن بسط الليل جناحيه الأسودين ، يشعرنا بهذا الذي يعنيه قوله : تبغم فهي وحدها الموحية بهذا الشعور .

ومع تباعد أوطانهم وأنسابهم وأعمارهم تكاد معانيهم تنبع من معين واحد ، فكلمهم
وصف ناقته بالصلافة والقوة ، فقال طرفة :

أمون كألواح الإيران نسأتها على لاحب كأنه ظهر برجد
وقال بشامة بن الغدير :

فقربت للرحل عيرانة عذافرة عنقريسا ذمولا
وقال المثقب العبدى :

عرفاء ووجناء جمالية مكربة أرساغها جلعـد
وقال زهير بن أبى سلمى :

جمالية لم يبق سبرى ورحلتى على ظهرها من نيا غير محفـد
وقال المسيب بن علس :

صكاء ذعلبة إذا استدبرتها حَرَج إذا استقبلتها هلواع
وقال علقمة الفحل :

هل تلحقنى بأخرى الحى إذ شحطوا جلذية كأنان الضحل علىكم؟
وقال أيضا :

فالعين منى كأن غرب تحط به دهاء حاركها بالقتب محزوم

وقد استنبطت قوتها من كلمة دهاء ؛ إذ الإبل الدم معروفة بالقوة والسرعة ، فهو فى تناوله
هذا المعنى غير المسيب بن علس الذى نعتها بنموت القوة كصكاء وحرَج ، فالصكاء القوية ،
والحرَج الطويلة ، وكلاهما غير زهير الذى صورها جملا ، وهو دون شك أقوى من الناقة
وأبسط جسما ، وثلاثتهم أقل من المثقب العبدى الذى وصفها بأنها عرفاء ، ووجناء ،
وجمالية ، وبأنها مكربة وجلعـد الأرساغ ، فهذه خمسة نموت كل نعت منها يشعر بالقوة
والصلافة ، أما بشامة فيصف قوتها فى بيتين متتابعين :

فقربت للرحل عيرانة عذافرة عنقريسا ذمولا
مداخلة الخلق مضبورة إذا أخذ الحاققات المقيلا

فنبات الربا في الحدائق التي توالى عليه المطر أنعم وأجود من سواء ، ولا يعرفه من يعيش في صحارى الأحقاف أو في النفود أو في الدهناء ، ثم جمعه الحدائق يدل على كثرتها وانتشارها ، ومثل قوله :

لما فُخذان أكل النحض فيهما كأنهما بابا منيف مـمرد
فتشبيهه الفخذين ببابي القصر المنيف دليل مدنيتهما ؛ حتى إنهم يشيدون قصورا ممردة
متعددة الأبواب ، وتستطيع أن تتبع أبيات القصيدة لتجد دلائل الحضارة ومظاهر المدنية
واضحة ساطعة ، وتجد أثر الحضارة في تشبيه آثار ارتطام الحصى بأرساغ الناقة بالغناء في قول
المثقب :

تسمع تعزافا له رنة في باطن الوادى وفي القرد
وفي قول المسيب :

وإذا تعاورت الحصى أخفافها دوى نواديه بظهر القاع
أما آثار الثقافة في شعر طرفة فظاهرها كثيرة كذلك ، ومنها قوله :

كقنطرة الرومي أقسم ربها لتكتنفن حتى تشاد بقرمد
فهو قد أشعرنا بأن الروم يحسنون البناء ، ويحيدون فن الهندسة ، وقوله :

وخذ كقرطاس الشامي ومشفر كسبت اليماني قدّم لم يـمرد
ففي هذا البيت صورة لقرطاس الشامي ، فهو رقيق أبيض عريض ؛ لأنه يريد وصف خد
الناقة بهذه الصفات ، ولأن هذه الصفات من أسباب الجمال في النوق والمشفر كسبت اليماني
نستشعر منه أن سبت اليماني أحمر لين مستقيم ؛ لأن هذه صفات المشفر الجميل ، وقوله :

وعينان كالماويتين استكتتا بكفى حجاجي صخرة قلت مورد
فتشبيه العين بالمرآة يدل على ثقافة وحضارة ؛ إذ هو يعرف في المرآة الصفاء ، وكثرة العرب
تشبه العين بالنبع ، أو النبع بالعين ، أما تشبيهها بالمرآة فلا .

على أنه لا ينسى البادية بل يذكرها ، فالفاظه في جملتها من أجزل ألفاظ البادية ،
والكثير من معانيه وتشبيهاته وكنائياته أضفت عليه البادية الكثير من القوة والرصانة ،
وذلك كقوله :

ترى إلى صوت المهب وتتنقى بذى خصل روعات أكلف ملبد
فهذه الكنائيات فى البيت من ملاحظات أهل البادية ، وكقوله :
كأن كناسى ضالة يكفانها وأطر قسى تحت صلب مؤيد
لها مرقان أقتلان كأنما تمر بسلمى دالج متشدد
كلها من إملاء البيئة البدوية التى لا تشوبها شائبة من الحضارة ، فإن القسى من أدوات
الغابة لا من نبات الحديقة .

وهذا الذى ذكرناه عن طرفه يذكر بعضه عن الشاعرين الآخرين المنتسبين إلى العراق ،
ونقول بعضه لأنهما لم يطبلا كما أطال ، ولم يكن لهما ماله فى ذلك الجال ، وإن يكن لهما
من الصور الشعرية ما يملأ النفس روعة ، كقول المثقب العبدى :
كأما أوب يديها إلى حيزومها فوق حصى الفدند
نوح ابنة الجوف على هالك تندبه رافقة المجلد
فهذه صورة واضحة كاملة لحركة القائمتين الأماميتين لا تنقصها ألوان ولا خفقان ، وهذه
الزغمة الموسيقية التى تصورها المسيب بن علس فأحسن تصويرها لا يمكن أن نغض من
شأنها بالإشارة إليها دون عرضها ، وهى قوله :

وإذا تعاورت الحصى أخفافها دوى نواديه بظهر القاع
أما الشعراء النجديون وهم بشامة وزهير وعلقة ، فمع أن اثنين منهم كانا حكيمين ،
والحكمة توحى إلى صاحبها بالركة والسهولة ، واللين والساحة فإنك تشعر أن للبيئة فيهما
مالها فى غيرهما ، فاستمع إلى هذا البيت ينشده رجل هو قعيدة بيته ، وحكيم قبيلته ، وهو
بشامة بن الغدير :

فقربت للرحل عيرانة عذافرة عنتريسا ذمولا
أربع كلمات كأنها منحوتة من الصخور فى بيت واحد ، ولو أنها وزعت فى إحدى المطولات
لألبستها شملة الأعراب ، ثم قوله .
لها قرد تامك نيه تزل الولية عنه زليلا

أما تلميذه زهير ؛ فشأنه هو شأنه المعروف رقة لفظ وعذوبة أسلوب ، فإن خرج عن طبعه فلأن الكلمة التي قهر عليها مما لا يغنى عنها غيرها ، أو لأن الشعراء جرت بها ألسنتهم ، فصارت كالجزء من وصف الناقة ، وذلك كقردود وجلعد ، ومزءودة ، فأما علقمة فقد كان شعره جميعه منخولا مصفى ؛ حتى أخبر عنه حماد الراوية قال : « كانت العرب تعرض أشعارها على قریش ، فما قبلوا منها كان مقبولا ، وما ردوا منها كان مردوداً ، فقدم عليهم علقمة بن عبدة فأنشدهم القصيدة التي منها هذه الأبيات ، فقالوا : هذه سمط الدهر ، وكان الفرزدق يقول عنه :

والفحل علقمة الذي كانت له حلل الملوك كلامه يتنخل
وقد قدمنا أنه كثير الرحلات فلعل هذا من أسباب رقة شعره ، ويعجبنا منه ذلك الخيال في قوله يصف مسيل القطران الخالص على أطراف الناقة :

تسقى مذائب قد زالت عصيفتها حدورها من أتى الماء مطموم
فالقطران لا يجدى الجدوى كلها إلا إذا كان جسم الناقة خاليا من الشعر ، وهو ما أشار إليه بقوله : « قد زالت عصيفتها » وقوله في وصف خضرة مشفرها من أثر الرعى :

كأن غسلة خطى بمشفرها في الخد منها وفي اللحيين تلغيم
كما يعجبنا قول زهير في وصف عرقها خلف أذنها :

وتنضح ذفراها بجون كأنه عصيم كحيل في المراجـل معقد
فهذا الوصف لرق الإبل الذي يتحدثون عنه بأنه أسود في أول أمره ، ثم ما يلبث أن يصفر حتى يصير كالقطران المطبوخ تشبيه دقيق يدل على علم بدقائق حياة الإبل .

وبعد فهذه نظرات فاحصة قد تكون إلى الإيجاز أقرب منها إلى الإطناب ، ولكنها مع ذلك محصية مستقصية ، فهي إتمام لما بدأناه في تحليل القطع الست ، وإيفاء لما قد نكون عبرناه عبراً ، وإيماء إلى من يريد أن يتبين أصول وصف الناقة في العصر الجاهلي ، وحسبك من الزاد ما بلفك الحل ، ومن النقد ما رسم لك الطريق .

(ب) وصف الفرس

١ — قال امرؤ القيس * من معلقته :

- وقد أغتدى الطيرُ في وُكُناتها بمنجردٍ قيدِ الأوابدِ هيكَل^(١)
مِكرٍ مِفرٍ ، مُقبلٍ مُدبرٍ معاً كجلودٍ صخرٍ حطَّ السيلُ من عَلٍ^(٢)
كُميت يَزِلُ اللبدُ عن حالِ متنه كما زَلَتِ الصَّفْوَاهُ بالمتنزلِ^(٣)
على الذَّبَلِ جياشٍ كأنَّ اهتزامه إذا جاش فيه حميه غلَى مِرْجَلِ^(٤)
مِسْحٍ إذا مال السَّابحاتُ على الوئى أثَرَنَ الغُبَارَ بالكديدِ المَرَكَلِ^(٥)
٢١٨ : يَزِلُ الغلامُ الخِفُّ عن صهواته ويلوى بأثوابِ العنيفِ الثَّقَلِ^(٦)

* ترجمه الشاعر : هو امرؤ القيس بن حجر بن الحارث بن عمرو الكندي ، زعيم شعراء العصر الجاهلي ، بما اخترع من معان بقيت مادة الشعر والشعراء عصوراً ، وبما أنشأ من صور لونها ، فلم يمح ألوانها مرور الدهور ، وبما ابتكر من أساليب ذات طراز طريف خالده ، وبما ابتدع من تشبيهات واستعارات وكنائيات هي آية الآيات في الروعة والجمال ، في الشعر القديم والحديث ، وأسنى شعره غزله ووصفه ، لأنهما ينبعثان عن نفس جياشة صافية ، توفي حوالي سنة ٥٣٩ م .

التفسير اللغوي : (١) أغتدى : أخرج غدوة للصيد ، والغدوة أول ساعات النهار . وكناتها : جمع وكنة وهي الأوكار ، والوكنات في الجبال كالتماريد في السهول ، والتمراد برج الحمام . بمنجرد : بفرس قصير الشعر . قيد الأوابد : مقيد للوحوش الآبدة النافرة . هيكَل : ضخم . (٢) مكر مفر : كثير الكر والفر ، مقبل مدبر : حسن الإقبال والإدبار . كجلود صخر : كصلب الصخر . حطه : أسقطه .

(٣) كُميت : أحمر مائل إلى السواد . يزل : يسقط . حال متنه : موضع ظهره . الصفواه : الصخرة للساء . بالمتنزل : بالسيل المتدافع . (٤) الذبل : الضمور . جياش : مضطرب اضطراب الماء المغلى . اهتزامه : صوته . حميه : غليه . المِرْجَل : القدر الكبيرة .

(٥) مسح : عداء ، من مسح السحاب المطر إذا صبه . السابحات : وصف للخيل تبسط يديها في جريها كما يبسطهما السابح . الوئى : البطء والفتور . الكديد : الأرض الصلبة المطمئنة . المَرَكَل : الذي يركل بالرجل مرة بعد مرة .

(٦) يزل : يزلق . الخف : الخفيف . الصهوات : جمع صهوة مقعد الفارس من ظهر الفرس . يلوى : يرمى يمينا وشمالا وفوقا . العنيف : الفارس الحاذق . الثقل : الثقيل .

- دِرِيرٍ كَخُذْرُوفٍ الْوَلِيدِ أَمْرُهُ (٧) تَتَابَعُ كَفِيهِ بِخَيْطٍ مُوَصَّلٍ
 لَهُ أَیْطَلَا ظِيٍّ ، وَسَاقًا نَعَامَةً (٨) وَإِرْخَاءَ سِرْحَانٍ ، وَتَقَرِيبُ تَقْلٍ
 ضَلِيعٍ إِذَا اسْتَدْبَرْتَهُ سَدَّ فَرْجَهُ (٩) بِضَافٍ فُوقَ الْأَرْضِ لَيْسَ بِأَعْزَلِ
 كَانَ سِرَاتَهُ لَدَى الْبَيْتِ قَائِمًا مَدَاكَ عُرُوسٍ أَوْ صَلَايَةٍ حَنْظَلٍ (١٠)
 كَانَ دِمَاءُ الْهَادِيَاتِ بَنَحْرِهِ (١١) عَصَاةُ حَنَاءٍ بِشَيْبٍ مُرَجَّـلٍ
 فَمَنْ لَنَا سَرَبٌ كَانَ نَعَاجَـهُ (١٢) عَذَارَى دَوَارٍ فِي مُلَاءٍ مُذَيَّلٍ
 فَأَذْبَرْنَ كَالْجَزَعِ الْمَفْصَّـلِ بَيْنَهُ (١٣) بِحَيْدٍ مُعِمٍّ فِي الْعَشِيرَةِ مُخَوَّلٍ
 فَالْحَقْنَا بِالْهَادِيَاتِ وَدُونَهُ (١٤) حَوَاحِرَهَا فِي صَرَّةٍ لَمْ تَزِيلَ
 ٢٢٧ : فَعَادَى عِدَاءَ بَيْنِ ثَوْرٍ وَنَعْجَةٍ (١٥) دِرَاكًا وَلَمْ يُنْضَخْ بِمَاءٍ فَيُغْسَلَ

(٧) دریر : مستدر في العدو . الخذروف : الحرارة ، وهي حصاة مثقوبة يجعل فيها الصبيان خيطا ويديرونها فيسمع صوت ودوى لسرعة دورانها . أمره : أحكم فتلته . تتابع كفيه : بسرعة إدارة تلك الحصاة . (٨) أیتلا ظی : خاصرتا غزال . إرخاء سرحان : عدو ذئب ، والإرخاء نوع من جريه . تقرب : وضع الرجلين موضع اليدين في العدو . التفل : ولد الثعلب . (٩) ضليع : عظيم الأضلاع . استدبر الشيء : نظر إلى مؤخره . الفرج : الفضاء بين الفخذين . بضاف : بذيل سابغ مغط . فوق : تصغير فوق للتقريب ، كأنه قال : بضاف قريب من الأرض . الأعزل : الذي يميل عظم ذنبه على أحد الشقين . (١٠) سراته : ظهره . المداك : الحجر الذي يدك به الطيب ونحوه . الصلاة : الحجر الأملس الذي يدق فيه أو عليه . الحنظل : نبت مر . (١١) الهاديات : السابقات من كل شيء ، ويريد هنا المتقدّمات من طرائد الصيد . بنحره : بعنقه . مرجل : مسرح . (١٢) عن : اعترض . السرب : القطيع من البقر الوحشى . العذارى : جمع عذراء الأبكار ، ويعنى أنهن فتيات قويات . دوار : اسم صنم كان الجاهليون يدورون حوله تشبها بالطائفين حول الكعبة . الملاء : جمع ملأة الملاحف ، ولا تسمى ملأة إلا إذا كانت لففين مذيّل : أطيل ذيله . (١٣) الجزع : الحرز اليماني فيه سواد وبياض . المفصل : المنظم بغيره من الجواهر . بحيد : بعنق . معم : كريم الأعمام . مخول : كريم الأخوال . (١٤) الجواهر : التخلّفات في جحورهن . الصرة : الجماعة . لم تزيل : لم تتفرّق . (١٥) فعادی عدا : فوالى الجرى موالاة . دراكا : مداركة ومتابعة . ينضخ : يرشح .

تحليل الأبيات :

غنى امرؤ القيس في معلقته الخالدة خلود الفن والأدب بواحد وخمسين بيتاً أودع فيها ألواناً من الفن ، وأفانين من الجمال ، مختلفة مؤتلفة ، مختلفة لاختلاف أصواتها ، مؤتلفة لائتلاف أوصافها ، فهي جميلة رائعة ، سواء أكانت في وصف الأطلال أم في وصف أمّ الحويرث ، أم في وصف يوم بدارة جلجل ، أم في ذلك الحوار الأخاذ بالألباب بينه وبين عزيزته ، أم في وصف مغامراته في سبيل حبه ، ومخاطراته ليقضى حق قلبه ، أم في وصف الليل وهوله ، أم في خدمته لآله وصحبه ، أم في قطعه واديا كجوف العير تعوى فيه الذئاب ؟ أليست هذه كلها أصواتاً مختلفة ، وألحاناً متباينة ، ولكنها مع هذا متسقة المعانى ، متسامية الخيال ؟ وإذن فهي مختلفة مؤتلفة .

والشاعر لم ينهر لطول الفناء ، ولم يبيعّ صوته لكثرة الإنشاد ، بل زاده ذلك جلاء ووضوحاً ، وحسن نعمة ، وجمال ترجيع ، فأخذ يغنى بمحاسن جواده .
وامرؤ القيس الشاعر هو امرؤ القيس الفارس الذى صادق الخيل فتى وشاباً ، ورجلاً وكهلاً ، الذى صادقها فى لهوه وجدّه ، وسلمه وحر به ، وصيده وطرده ، فكانا الكريمين فى صداقتهما ، وفاء فى الشدة والرخاء ، وصفاء فى السراء والضراء ، فليس غريباً أن يغنى بمحاسن جواده خمسة عشر بيتاً ، فيقول :

قد أغدو بكرة مرّحاً نشيطاً ، وأى نشاط أوفر من نشاط أسبق به رمز النشاط ، أسبق به الطيور التى لا تزال فى وكراتها ممّا تصحّ لتشقّش وتغرد ، أغدو معتلياً صهوة جواد كريم ، قد انحسر شعره لوفرة سمّنه ، جواد ماض لا يقف فى طريقه كائن ؛ حتى إنه ليقيد بسرّعته الوحوش الأبدية ، فما تستطيع حراكا ، وهو الفرس النهدي العظيم ، المكر فلا يسبق ، المفر فلا يلحق ، المقبل حين تريد إقباله فلا يصد ، المدبر إذا رغبت فى إدباره فلا يرد ، وهذه الصفات متجمعة فى قوته ، لا أنه يأتيها جميعها ، كأنه فى سرّعته وصلابته حجر عظيم أسقطه السيل الزاحف ، من السمو إلى الهوى ، هذا الفرس الكميّ الضخم الجسم ، المكتنز اللحم ؛ حتى ليسقط اللبد عن أوسط ظهره سقوط الصخرة الملساء بالمطر

المهاطل ، وهو ضامر ذابل كثير الجيشان ؛ حتى لتخال تكسر صوته إذا حمى في عدوه جيشان الماء في الرجل .

يصب هذا الجواد عدوه صبا ، فيأتى بأفانين تتيح له سبق ، في الوقت الذي أدرك الجياد السابحات الونى والكلال ، ويبدو ذلك الإعياء من أنها تشير من الأرض الصلبة الغبار ، يزلق الغلام النحيل الخفيف الذي لم يدرب على الفروسية عن صهوته ، ويرمى بأثواب الفارس العنيف الماهر الشديد في جهات ثلاث ، يرمى بها إلى أعلى وإلى شمال وإلى يمين ، وهو يستدرّ عدوه ، ويوالى جريه كما تدر ذوات اللبن ضرعها إدراراً متتابعاً ، أو هو في تتابع أفانين سبقه كخدروف الصبي أحكم قتل خيطه ، وتتابع كفاه في إدارته بنحيط قطع ثم وصل ، فهو كالخدروف يبدأ هادئاً ، ثم يشتد شيئاً فشيئاً بين انبساط وانقباض .

ترى لذلك الفرس النهد خاصرته ظي ، وساقى نعامة قصيرتين صلبتين ، وسيراً كبير الذئب ليس بالشديد ولا البطيء ، وتقريباً في سيره بين قوائمه كما يفعل ولد الثعلب عند ما يسرع إذ تقع قدماه الخلفيتان مكان قدميه الأماميتين ، فهو قد أخذ من كل حيوان أجل ما يتصف به ، فأخذ من الظبي خصره الضامر ، ومن النعامة ساقها القصيرة الصلبة ، ومن الذئب سيره المرخى ، ومن التنفل تقريب قوائمه في سيرها .

وهو مع ضمور خصره عظيم الأضلاع ، ممتلئ الجنين ؛ إذا تأملته مستدبراً رأيته يسد القضاء الذي بين قائمته بذنبه الضافي السانح الذي يكاد يصل إلى الأرض ، في استقامة واستواء ، كأن ظهره الأملس حينما ينزع عنه سرجه قائماً أمام البيت في صفائه وملاسته مذاك عروس أو صلاية حنظل ، واختياره مذاك العروس ؛ لأنه دائم الطيب ، وصلاية الحنظل لأنه يسيل منها دهن فتلمع جوانب الصلاية وتبرق ، وكذلك جلد الفرس فيه نضاعة وصفاء ، ولمعان وبريق .

هذا الفرس يقيد الأوابد ، ويدرك الهاديات الشوارد ، وفارسه حينئذ يطعن طعنة

عميقة يتدفق منها الدم غزيراً ، فيضرج نحر ذلك الفرس الكريم ، فإذا هو كالشيب
الرجل بالحناء ، لقد عرض لنا قطع من البقر الوحشى هو آية الجمال ، وعنوان الحسن ،
فظهرها بيض نواصع ، وقوائمها سود حوالك يشبهن فتيات عذراوات ، يملك صفاء
بشرتهن القلوب ، وقد أسبغن على أرجلهن ملاء سودا ذوات أذيال سابغة ، ويختلن اختيال
أولئك العذارى إذ يدرن حول صنم يقدسنه ويعظمه ، وإذا هن فى تلك الحال الملائى
بأسباب المسرة بدوّت لهن قفز عن أعظم الفزع ، وأدبرن متفرقات ، وكن من حين متجمعات
مختالات ، فبدون فى تفرقهن كالجزع سائره أبيض وأطرافه سود ، وقد فصل بعضه عن
بعض بمجوهر كريم ، يزدان به عنق غلام نبيل ، فهو كريم الأعمام والأخوال ، ولكن
تفرقهن لم يغنهن شيئاً ؛ إذ ألحقنا الجواد الكريم بالسوابق منهن ، وترك من خلفه الجواهر
المتخلفات ، فأدراكه للأوائل كفيل باقتناص الأواخر .

وهى إذ تفرقت تفرقت جماعات ، فعادى بينها عدا ، ووالى الجرى موالاة ، بين
ثيران ونعاج ، فأدر كهن لم يجهده الإدراك ، ولا أشقاء العدو ، فلم يسلم منه عرق ، فيفسد
جسمه .

الفقر :

والناظر فى هذه الخمسة عشر بيتاً يجد ضرباً من الوصف رائعة ، وألواناً من الجمال
فاتنة ، تشع ألقاظها معانى أوسع مما تعارف عليه اللغويون ، وتصب معانيها صوراً لا يخلق
مثلها المصورون ، بل هى ترسل وميضاً تشعر به ولا تصوره ، فهى مفعمة بالصور الكاملة ،
زاخرة بالحياة النابضة ، فكأنك حيالها فى ميدان أو فى حلبة فرسان .

أى حياة نابضة أوضح من حركة الكر والفر ، والإقبال والإدبار ؟ كلها فى شطر
واحد ، إن هذه لا تصدر عن جواد فى لحظة ، ولكنها تدمج فى حلبة ، وإننا لتتخيل
الصخرة العظيمة تسقط من شاقق ، فتمتلئ القلوب من سقوطها هلماً ، قد نتصورها ،
ولكننا نعجز عن تصور أثرها فيمن تسقط عليه ، إلا أننا نستشعره إذ نسمع :
« كجلمود صخر حطه السيل من عل » .

وأى حياة خافقة نابضة أقوى من حياة تستقصيك جميع حواسك ، فترى منها
وتسمع ، ولا تكتفى بالسمع والبصر ، بل تطالبك باللمس وبغير اللمس ؟ هذه الحياة تبدو
في قوله :

على الذبل جياش كأن اهتزاه إذا جاش فيه حميه غلى مرجل
إن الألفاظ مع قوتها لا تغنيك شيئاً كثيراً في تصور « اهتزاه » ولا في تصوير « غلى
مرجل » وتخيل حيواناً يتألف من جملة أجزاء لعدة حيوانات ؛ حيوان له خصر كخصر
الظبي ، وساق كساق النعامة ، وسير كسير الذئب ، وتقريب كتقريب التتفل ، أليس
ذلك الحيوان سيكون نوعاً فريداً بين سائر أنواع الحيوان ؟

وإنك لتتخيل الغلام الفر بالقروسية يعتلى صهوته ؛ بل صهواته ، وفرق بعيد بين
اللفظين وإن أديا معنى واحداً ، فإن هذا الجمع يشعر بالفخامة والضخامة ، والحول والهمول ؛
حتى ليكاد الغلام يزل دون ركوب ، إنه لن يثبت على ذلك الفرس الجبار ذى الصهوات ،
لن يثبت عليه لا لجوحه فهو عتيق أصيل ، ولكن لاندفاعه فهو القوى الشديد ، وتتصور
صورة ذلك الفارس العنيف العنيد تتطاير أثوابه ، فلا يستطيع جمعها ، فهو مشغول بحسمه
عن ثوبه ، وتتصور أثوابه تتطاير في جميع الجهات ، فكأنها جناحان لطائر جارح .
وتتخيل خراة طفل قد أحكم قتل خيطها ، وأجاد اللعب بها ، إنك لا تستطيع أن
تبين الخذروف لسرعة دورانه ، ولتتابع حركة الصبي به .

وامرؤ القيس هو الشاعر الذى يستطيع - دون تكلف - أن يفعم قصائده بالصور
المتكاملة الظلال ، فلنعد هذا النوع لنقف وقفة قصيرة عند نوع آخر تظهر فيه عبقريته .

الدقة في التعبير سمة امرئ القيس الظاهرة ، وآيته السافرة ، فتأمل هذا البيت :

كيت يزل اللبد عن حال متنه كما زلت الصفواء بالمتنزل

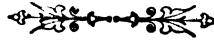
فحال متنه وسط ظهره ، وهنا تبدو الدقة ، فقد يزل اللبد لأنه لا يتوسط الظهر ، ولكن
وقد توسطه لا يزل إلا للملاسة ظهره ، واكتناز لحه ، ومثل :

مسح إذا ما السامحات على الونى أثرن الغبار بالكديد المركل

فقد يشور الغبار إذا كانت الأرض رملية أو متربة أو سهلة ، وليس في ثورانه حينئذ ما يدل على الونى أو الكلال ، وإنما الذى يدل عليهما هو إثارة الغبار من الكديد ، ومثل :

ضليع إذا استدبرته سدّ فرجه بضاف فويق الأرض ليس بأعزل
قد يكون الذيل ضافيا سابقا ولكنه معيب ؛ لأن صاحبه يتعثر فيه لطوله فى عدوه ،
ولذلك احتس من هذا المعنى بقوله : « فويق » دون فوق لتفيد قربه من الأرض دون
ضفوه عليها .

وتستطيع متابعة التأمل لتحكم بأن الدقة يراعيها كل المراجعة ذلك الشاعر الذى حكم
له بأنه استنبط للشعراء معانى ، وفتح لهم فى الشعر منابع وعيوننا .
وليس عجبا على امرئ القيس أن ينال زعامة الشعر ، وأن تكون أقوى أسباب زعামته
وصف فرسه ، فقد صاحبه من مهده إلى لحده ، وبين الصاحبين مجاورة هى أقوى عوامل
الإجادة والإحسان .



٣ — وقال بشر بن أبي خازم * من قصيدة أولها :

ألا بان الخليط ولم يُزاروا وقلبك في الظمائن مستعار^(١)

فأبلغ إن عرضت بنارس—ولاً كنانة قومنا في حيث ساروا^(٢)

كفينا من تغيب واشتبحنا سنام الأرض إذ قحط القطار^(٣)

بكل قيادٍ مُسنفةٍ عَنودٍ أضر بها المسالِحُ والغوار^(٤)

مُهارشة العنانِ كأن فيها جرادة هبوة فيها اصفرار^(٥)

٢٣٣: كأتى بين خافيتي عُقابٍ تغلبنى إذا ابتل العذار^(٦)

* ترجمه الشاعر : هو بشر بن أبي خازم بن عمرو بن عوف شاعر مجيد وفارس مغوار ،

وهو ينتسب إلى بني أسد ، وقد كان يهجو أوس بن لأم الطائي هجاء مقنعا حتى ذكر في هجائه أمه ، فتحنن له أوس القرص حتى أسره في إحدى حروبه مع طيء ، وكان أوس قد أهدر دمه إن مكن الله منه ، فقالت له أمه : خل الرجل فإنه لا يمحو ما قاله غير لسانه ، فعفا عنه ، فجعل بشر مكان كل قصيدة هجاء قصيدة مدح ، توفي حوالى سنة ٥٣٠ م .

التفسير اللغوي : (١) بان : بعد . الخليط : المخالط أو المخاطون يطلق على المفرد والجمع ،

وهم الأحياء . الظمائن : سمر ظعينة ، وهى الإبل فوقها الموائد فيها النساء . مستعار : مأخوذ منك معهن .

(٢) عرضت بنا : تحدثت عنا . رسولا : رسالة . قومنا : بدل من كنانة .

(٣) كفينا : حمينا . اشتبحنا : جعلناها مباحة لا أحد يحميها ، سنام الأرض : نجدها . قحط القطار : قل المطر ، ونضب الفيث ، فأجذبت الأرض وأمحلت .

(٤) قياد : عنان . المسنفة : الفرس شد عليه السنان ، وهو لبيب يشد من وراء السرج . إلى صدر القرس لثلا يتأخر السرج . العنود : التى تعاند الفارس فتأبى إلا قطعه . المسالِح : المراقب والنغور . الغوار : الغارة ، وهو مصدر لغاور .

(٥) المهارشة : القتالة . العنان : جلد اللجام ، وتقاتله لنشاطها ومرحها . الهبوة : الغبرة ، وخص جرادة الهبوة لأنها أشد طيرانا ، ثم خص الأصفر ، لأنه ذكر الجراد ، وهو أخف من الأنثى فى الطيران .

(٦) الخافية : جمعها خواف الريش الصغير ، وضدها القوادم . عقاب : نسر . ابتل العذار : كناية عن العرق ، والعذار : الشعر الذى يحاذى الأذن .

- نَسُوفٍ لِلْحِزَامِ بِمِرْفَقَيْهَا يَسُدُّ خُوءًا طُبَيْهَا الْغُبَارُ^(٧)
 تراها من يبيس الماء شهبًا مُخَالِطَ دَرَّةٍ مِنْهَا غِرَارُ^(٨)
 بِكُلِّ قَرَارَةٍ مِنْ حَيْثُ جَالَتْ رَكِيَّةٌ سُنْبُكٍ فِيهَا انْهِيَارُ^(٩)
 كَانَ حَفِيفٌ مُنْخُورُهُ إِذَا مَا كَتَمَنِ الرَّبُّو كَبِيرُ مُسْتَعَارُ^(١٠)
 وَجَدْنَا فِي كِتَابِ بْنِ تَمِيمٍ « أَحَقُّ الْخَلِيلِ بِالرَّكْضِ الْمَعَارُ »^(١١)
 يُضَمَّرُ بِالْأَصْلِ نَائِلٌ فَهُوَ نَهْدٌ أَقْبُ مَقْلَصٌ فِيهِ اقْوَرَارُ^(١٢)
 كَانَ سَرَاتَهُ ، وَالْخَلِيلُ شُعْتُ غَدَاةٍ وَجِيفُهَا مَسَدٌ مُغَارُ^(١٣)
 ٢٤١ : يَظَلُّ يِعَارِضُ الرُّكْبَانَ يَهْفُو كَانَ بَيَاضُ غُرَّتِهِ خِمَارُ^(١٤)

- (٧) نسوف : دفعوع . خواء : خلاء طبييها : مثني طبي ، وهو من الفرس ما يشبه الحلف من الإبل ، والضرع من دى الحنف .
- (٨) يبيس الماء : متجمده ، ويقصد جاف العرق . شهباء : بيضا . الدرة : كثرة العرق . والغرار : قلته .
- (٩) القاراة : الأرض المطمئنة . الركية : موضع حافر في الأرض ، وأصلها البر . السنبك : مقدم حافر الفرس . انهيار : سقوط .
- (١٠) الحفيف : صوت نفس الفرس . . المنخر من الفرس ما يشبه الأنف من الإنسان . الربو : النفس المرتفع . الكير : المنفاخ الذي ينفخ به الحداد ناره . مستعار : مأخوذ ثم يرد . أو متداول من تعاوروا الشيء إذا تبادلوه .
- (١١) الركض : دفع الفرس للعدو . المعار : المضر ، أو المنتوف الذنب ، أو المسمن ، أو المتروك دون قيد حرأ ، وكلها تصلح لأنها دليل العناية به .
- (١٢) يضمر : يصير ضامرا . الأصائل : جمع أصيل ، وهو الوقت بعد العصر وقيل المغرب . نهـد : قوى ضخم . أقب : ضامر البطن . المقلص : المشمر الطويل القوائم . الاقوارار : الضمور .
- (١٣) سراته : أعلاه ، ويقصد ظهره . شعـت : جمع أشعث ، مغبرة . غداة : صبيحة . وجيفها : إسراعها . مسد مغار : جبل مفتول محكم القتل .
- (١٤) يظل : يستمر سائر النهار كله . يعارض الركبان : يبارى الحيوـل وينافسها . يهفو : يسرع . الفرة : البياض في جبهة الفرس . الخمار : القناع .

تحليل الأبيات :

يتحسر بشر حسرة موجمة أن رحل عنه خطاؤه . وفارقه خلاصاؤه دون أن يهبي له الدهر السعادة بمرآهم ، فقلبه قد استعارته هذه الظمائن ، ثم يسير مسيراً طويلاً في عرض حنينه ، ونمت وجده ، ووصف جمال هؤلاء الظمائن ، ومن ثم ينتقل إلى أغراض آخر تصل به إلى وصف فرسه فيقول :

أبلغ أيها الخليل إن تحدثت عنا ، وجرى على لسانك ذكرنا لدى قومنا بنى كنانة ، حيث انجهوا وساروا ، وكيفما كانوا وصاروا ، أننا كفينا من تغيب منهم مئونة الحرب ، وتحملنا دونهم أعباء القتال ، وأننا استبحنا حرم المجد ، واستفتحنا سنام الأرض ؛ إذ الفيث ضنين ، والمطر بخيل ، والقطار لا يعطى ولا يجود ؛ فالناس في قحط وإعدام ، والقوم في جذب وإحمال ، نحن حينئذ نقتحم كل منيع ، ونبلغ كل حصن حصين ، فنزل حينما يفيض الماء ، ويقطط المطر حيث نشاء ، بكل فرس جواد قد شد لها السناف ، حق لا يسقط عنها سرجها عندما يغلى مرجلها ويشتد عدوها ، وهى عنود للأرض ، مطواعة للفرس ، فتأبى فى عنادها إلا أن تطوى الأرض طيا مهما يطل الأمد ، وتتسع الشقة ، وهى فرس كريمة قد اختيرت لحماية الثغور ، ومراقبة المسالح حتى أضنتها ، واشتخت للمرابطة عند الحدود حتى أضرتها ، وعودت شن الغارات حتى تعودتها ، هى آية فى النشاط حتى إنها لتعارك العنان ، وتترك اللجام ، تريد كراً وفرأ ، وفارسها يبغي منها سكونا وانتظاراً ، فهواها مختلف ، فهما فى عراك مستمر ، كأن أعضائها يسكنها ذكر الجراد ، فهو لا يفتأ طائراً وما يزال متوثباً ، كأنى حينما أعتلى صهوتها ، وأمتطى متنها ، وتأخذ فى العدو حتى يجرى حميمها ، ويسيل عرقها فيقتل عذارها ، كأنى أمتطى خافيتى عقاب ، تميل بى كل الميل ، تدفع بمرقبها حزامها حينما تشتد فى السبع بيديها ، فيسد ما بين طبييها القبار الناث من بين سنايكها .

ترى الخليل التى منها فرسى تلك حينما يحف عرقها فوق أجزاء جسمها ، وقد خالط

كثيره قليله ، وامتزج غامره بفراره ؛ تراها يبضا لوامع ، وشهبها سواطع ؛ إذا سارت تلك الخيول فى أرض سهلة مطمئنة أثرت فيها سنابكها الصلاب تأثيرا بالغا ، حتى لتبدو هذه الآثار كالحفائر المنهارة ، أو الآبار المطمورة ، وكأن صوت ذلك الفرس عندما يشتد عدوه ، وتكتم الخيول أنفاسها فى مناخرها كير حداد قد استعاره مستعير ، فهو شديد الحرص على أن يرده إلى صاحبه فور وقته ، فهو ينفخ فيه بشدة ، ليقضى به حاجته قبل أن يضطر إلى رده لصاحبه .

ونحن نسمن خيلنا ، ونكرم أفراسنا ، حتى تكون على العدو فى الحرب قوية الإغارة ، وتظهر قديرة على الركض ، فقد نقل عن بنى تميم أن أجدر الخيل بالركض المضرة المسمنة ، وهو يشير بهذا إلى قول أحد شعراء بنى تميم القدامى :

أعبروا خيلكم ثم اركضوها أحق الخيل بالركض الممار

فرسى هذا موضع عنايتى ، ومحل تكريمى ، إنا أنا أضمره أصيل كل يوم ، وهونهد ضخم ، ضامر البطن مشمر القوائم ، كأن ظهره وقد اغبرت شعور الخيل ، وتشعثت أعرافها من طول السفر ، وتغيرت ألوانها من غبار الطريق ساعة سيرها السريع ، كأن ظهره حبل شديد الفتل بحكم البرم ، يشبهه فى شدته وامتداده ، واملاسه واستوانه ، يظل يومه الأطول يعارض كراثم الخيل ، وبيارى المذاكى العتاق ، فهو يهفو ليسبقها ، ويعدو ليبيدها ، هو وضاح الغرة ، مشرق الجبهة ، كأن غرته الحمار الأبيض يغطى رأس المليحة الفيداء .

النقر :

بشر فى هذه الأبيات يتفق مع امرئ القيس وقد كانا متعاصرين فى بعض معانيه ، ويختلف معه فى البعض الآخر ، ولكنه على أى حال لا يبلغ مبلغه ، ولا يمدو فى طلقه ، وإن تكن المعانى التى انفرد بها بشر معانى جيدة ، منها : الطريف المبتدع ، والجميل المخترع ، وهذه نظرة فاحصة لذلك الذى أجهلناه :

قال امرؤ القيس في وصف جيشان جواده عند عدوه :

على الذيل جيشان كأن اهتزاه إذا جاش فيه حميه على مرجل

وقال بشر :

كأن حفيف منخره إذا ما كتمن الربو كبير مستعار

وبيت امرؤ القيس أدق في الوصف والتصوير ، فألفاظه تكاد تشعر بك بصوت الشهيق والزفير اللذين يصدران عن الفرس عندما يشتد عدوه ؛ فقد جمع امرؤ القيس في بيت واحد بين جيشان ، واهتزاز ، وحميه ، وغلى ، ومرجل ، وكل هذه الألفاظ توحى بالصورة التي يريدها الشاعر ، فوق أنه وصفه في أول البيت بالضمور ، وإسناد الجيشان إليه مع الضمور فيه بقطة حسية . فقد يكون مبعث الجيشان الضخامة والسمنة والاكتناز ، أو الهرم ، أو غيرها .

أما بيت بشر فإبه وإن يكن دون بيت امرؤ القيس ، فإن فيه حسنا مبعثه الإشارة إلى توالى التنفس وتتابعه بقوله : « كبير مستعار » ولكنه على أيّ دون بيت امرؤ القيس ، والبون بينهما شاسع .

ومن المعاني التي اتفقا فيها وصف الفرس بالملاسة والصلابة ، فقال امرؤ القيس :

كأن سراته لدى البيت قائما مذاك عروس أو صلاية حنظل

وقال بشر :

كأن سراته وانخيل شعث غداة وجيفها مسد مغار

وكلا البيتين يشتمل على معان غير المللمسة ، فامرؤ القيس وصف الظهر بالصفاء ، ولم يرد هذا المعنى في بيت بشر لأن السد لا يوصف بالصفاء ، وأشعرنا بطيب ريحه بنسبة المذاك إلى العروس ، وباللعان بنسبة الصلاية إلى الحنظل ، وجميع هذا خلا منه بيت بشر ؛ ولا أظن أن من المستحسن أن يكون الظهر كالحبل المبرم المقتول ، فاستواء الحبل مهما أحكم قتله غير ملاحظ ، فهو ينثى وينطوى ، والجمال في البيت يبدو في قيد استقامة ظهره عند مباراته

الخيول الأخرى ؛ لأن الفرس حينئذ يشتدّ ظهره شدا قويا ، ووصف الخيل بأنها شعث أشعر بأن فرسه ليس كذلك لأنه يغسله ، وإن لم يواته اللفظ الدال على صفائه كما واتى امرأ القيس .

أما المعاني التي انفرد بها بشر ، وهى معان جميلة طريفة فمنها :

مهارشة العنان كأن فيها جراحة هبوة فيها اصفرار
كأنى بين خافيتى عقاب تقلبنى إذا ابتلّ العذار

فمن شأن كرائم الخيل أن تعلق لجامها ، وتشدّ عنانها كأنها تقاتله ، وعدم تشبيهها بالجرادة بأن جعل الجرادة جزءا من أجزائها معنى دقيق ، وعمق فى التصور ، ثم تصويره نفسه حينما يعتلى صهوتها بأنه بين خافيتى عقاب تصوير جميل ، يشعر بأنه لا يأمن على نفسه ، وهو الفارس الجبار ، ومنها قوله :

نسوف للحزام بمرققيها يسد خواء طبييها الضار

ويشبهه قول سلمة بن الخرشب ، وسيرد فيما بعد :

إذا كان الحزام لقصريها أماما حيث يمتسك البريم
يدافع حد طبييها وحيث يعادله الجراء فيستقيم
وبيت بشر خير من بيتى سلمة ، وأوفى منهما معنى ، وأسلس لفظا .



٣ — وقال عنتره بن شداد العبسي * من قصيدة أولها :

هَجَيْتُ عُيْلَةً مِنْ قَتَى مُتَبَذِّلٍ عَارَى الْأَشَاجِعِ شَاحِبٍ كَالْمَنْصُلِ ^(١)
وَلَرُبَّ مُشَلَّةٍ وَزَعَتْ رِعَالَهَا بِمَقْلَصٍ نَهْدِ الرَّاكِلِ هَيْكِلِ ^(٢)
سَلِسِ الْمُنْذَرِ لَاحِقِ أَقْرَابِهِ مُتَقَلِّبٍ عَبَثًا بِفَأْسِ الْمِسْحَلِ ^(٣)
نَهْدِ الْقَطَاةِ ، كَأَنَّهَا مِنْ صَخْرَةٍ مَلَسَاءِ يَفْشَاهَا الْمَسِيلُ بِمَخْفِلِ ^(٤)
وَكَأَنَّ هَادِيَهُ إِذَا اسْتَقْبَلَتْهُ جِذْعٌ أَذِلَّ ، وَكَانَ غَيْرُ مُذَلِّلِ ^(٥)
٢٤٧ : وَكَأَنَّ مَخْرَجَ رُوحِهِ فِي وَجْهِهِ سَرَبَانٍ كَانَا مُوَلِّجَيْنِ لِحَيْالِ ^(٦)

* ترجمه الشاعر : هو عنتره بن عمرو بن شداد العبسي ، أحد فرسان العرب وأغربهم وأجوادهم وشعرائهم ، وكانت أمه زبيبة أمة حبشية ، وأبوه من سادات بني عبس ، وكانت العرب لا تلحق بأنسابها أبناء الإماء ، فبقي عنتره عبدا منبوذا حتى ظهرت فروسيته في حرب داحس والغبراء ، فنسبه أبوه إليه وأصبح بعدئذ سيدا من سادات بني عبس توفي سنة ٦١٥ م.
التفسير اللغوي : (١) عييلة تصغير عيلة ، وهي ابنة عمه أحبها وشغفه حبها ، ولكنه حرماها ، فعاش حياته يفرد باسمها ويتغنى بحبها . متبذل : مستخف غير محتشم . الأشاجع : المروق المتصلة بأصول الأصابع . وفي عريها كناية عن الضعف والهزال . شاحب : متغير . المنصل : السيف .

(٢) المشلة : وصف للكثبية المنفرقة في كل وجه . وزعت : فرقت . رعالها : جمع رعلة ، وهي القطعة من الخيل . بمقلص : بفرس طويل القوائم . نهدي : ضخم جميل . للراكل : جمع مركل موضع ركل الفرس . هيكلي : عظيم ضخم .

(٣) سلس : لين . المذر : موضع العذار من كاهل الفرس . لاحق الأقرباب : ضامر الخواصر . الفأس : الحديد القائمة من اللجام في حنك الفرس . المسحل : حلقة في طرف الشكيمة . (٤) نهدي القطاة : عظيم العجز . يفشاه : ينزل بها . المسيل : مجرى الماء . بمخفل : مجتمع الماء ، وفيها كناية عن الاكتناز .

(٥) الهادي : العنق وجمعه هواد . أذل : سهل ونعم . غير مذلل : غير منعم ومسهل . (٦) مخرج روجه : كناية عن فتحة منخره : سربان : مثنى سرب سردابان . موليئين : مدخلين . لحيال : لضبع .

- وكان متنيه إذا جردته وزعت عنه الجل متنا أيل^(٧)
 وله حوافر موثق تركيها صم النور كأنها من جندل^(٨)
 وله عسيب ذو سيب سابغ مثل الرداء على الفقى المفضل^(٩)
 سلس العنان إلى القتال ، فمينه قبلاء شاخت كمين الأحول^(١٠)
 وكان مشيته إذا نهته بالنكل مشية شارب مستعجل^(١١)
 فلي أقمع الهياج قممها فيها وأنقض انقراض الأجل^(١٢) : ٢٥٣

(٧) متنيه : ثنية متن ، والتين الظهر ، وهو هنا يريد جانبه ؛ لأنها يكتنفان صلب الظهر عن يمين وشمال . جردته : رامت عنه الجل . الجل : ما يوضع فوق ظهر القرس ليصان به ، وهو كالثوب للإنسان . الأيل : نوع من الظباء ، جانباً ظهره أملسان ناعمان ، وله قرون متشعبة لا تجويف فيها .

(٨) موثق : محكم . صم : جمع أصم ، وهو الصلد الصلب . النور : جمع نسر ، والنسر لحة في باطن حافر الفرس . جندل : صخر صلد .

(٩) العسيب : هو أصل عظم الذنب ومنبت الشعر منه . ذو سيب سابغ : له شعر ضاف طويل . الرداء : الثوب . المفضل : الزائد في طول رداءه عن جسمه .

(١٠) سلس العنان : لين القيادة ، وهي كناية . قبلاء : ناظرة إلى أعلى ، ومثلها شاختة . الأحول : الرجل ينحرف إنسان عينه إلى أحد الجانبين أو إلى أعلى ، وهو المراد هنا .

(١١) نهته : زجرته وكففته . بالنكل : بهديدة اللجام . شارب : يقصد سكران . مستعجل : مسرع .

(١٢) أقمع : أحترق . الهياج : كناية عن الحرب ، وهو في الأصل الثورة . قممها : قممها : قمويا مشتدا . أنقض : أثب . الأجل : الصقر .

ساكنة في صخرة أوفى أصل شجرة ، والمنخر في رأس الفرس التي قد يكون فيها من أعضاء الجسم ما يشبه الثقوب والتتوء في الصخرة ، ففيها العينان ، وفيها الأذنان ، وفيها العذار ، وفيها الشفتان ، وكل هذه تقرب شبه الرأس بالصخرة غير الملساء .

و بعد فعنتره دون امرئ القيس في هذه الأبيات وفي غير هذه الأبيات ، ولكنه يبذل بشراً في هذه الأبيات وفي غير هذه الأبيات ، وليس بناقص من قدر عنتره أن يكون دون امرئ القيس ، فالعبرى لا يعاب من لا يساويه ، وأين قول عنتره في وصف ذيل فرسه ؟ وله عسيب ذو سبيب سابع مثل الرداء على الغنى المفضل من قول امرئ القيس :

ضليع إذا استدبرته سد فرجه بضاف فويق الأرض ليس بأعزل

إن وصف عنتره ناقص من وجوه عن بيت امرئ القيس :

أولاً : إن رداء الغنى المفضل ينسحب على الأرض فيتعثر فيه إلا إذا رفعه بيديه ، وهذا ما احترس منه امرؤ القيس إذ قال : « فويق الأرض » .

ثانياً : أن السبيب يخالف الرداء من نواح : فشعراته غير متساوية الطول ، ولو قال : إنه ثوب ذو أهداب لكان أقرب إلى السداد ، والثوب يبدو ضيقاً من أعلى وواسعاً من أدنى ، وليس ذلك شأن الذيل .

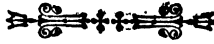
ثالثاً : بيت امرئ القيس اشتمل على صفات ثلاث : فهو ضليع ، وهو ضافي الذيل ، وذيله مستو مستقيم ، فوق أنه أشعرنا بأنه كشيء لأنه يسد ما بين ساقيه . وليس في بيت عنتره شيء من ذلك .

هذا إلى أن في البيت صورة رجل وقف يتأمل فرساً من خلفه ، فهو يراه على الصورة التي رسمها ، ولكن عنتره أحسن وصف شعور فرسه ، إذ صورته ناظراً إلى أعلى يتأمل فارسه ، وكأنه يريد أن يدفع عنه عوادى الزمن ، فهو متأهب لهذا الدفاع ، أشعرنا أن فرسه هذا نبيل كريم ، وأن حياة فارسه أعز عليه من حياته ، فقد

لايتقى هو طمئة قد توجه إليه ، وهو شاخص ببصره إلى فارسه ، هذا إلى أنه يشارك فارسه في ابتغاء النصر ، وإدراك الظفر .

أما اللغة فكلها تنبع من عين واحدة ، ولا تكاد تجد فرقا كبيرا بينهما ، ولكننا إذا أنعمنا النظر حكمنا بأن ألفاظ عنقرة أرق من ألفاظ امرئ القيس ، مع أن حالهما كانت تستأهل غير ذلك ، فعنقرة من عبدان العرب وأغربتهم ، وامرؤ القيس من أواسطهم وملوكهم ، وعنقرة يجب أن يكون خشن الملمس ، غليظ القول ، وعكس هذا كان يجب لامرئ القيس .

وأرى أن الجاهليين ومقلديهم كانوا يؤثرون في وصف الناقة والفرس وما يجري مجراها اللفظ الجزل ، فالعدول عن هذا انحراف عن مذهبهم ، ولا يعتبر مزية يمتاز بها صاحبها بل يعتبر ذلك قصوراً منه وعجزاً .



٤ - وقال سلمة بن الخرشب * من قصيدة أولها :

تَأْوَبَهُ خِيَالٌ مِنْ سُلَيْمَى كَمَا يَتَعَادُ ذَا الدَّيْنِ الْغَرِيمُ^(١)

وَمُخْتَضٍ تَبِيضُ الرُّبْدُ فِيهِ تَحْمُومَى نَبْتُهُ فَهُوَ الْعَمِيمُ^(٢)

غَدَوْتُ بِهِ تَدَافَعِي سَبُوحُ فَرَّاشُ نُسُورِهَا عَجَمٌ جَرِيمُ^(٣)

مِنْ التَّلَفَّاتِ بِجَانِبِهَا إِذَا مَا بَلَّ تَحَزَمَتْهَا الْحَمِيمُ^(٤)

إِذَا كَانَ الْحِزَامُ لِقُضْرَيْنِهَا أَمَامًا حَيْثُ يَمْتَسِكُ الْبَرِيمُ^(٥)

٢٥٩: يُدَافِعُ حَدَّ طَبِيبِهَا وَحِينَا يُعَادِلُهُ الْجِرَاءُ فَيَسْتَقِيمُ^(٦)

* ترجمه الشاعر : هو سلمة بن عمرو بن نصر بن حارثة النطفاني ، ولقب أبيه الخرشب ومعاه الطويل ، وهو شاعر جاهلي ، ولكننا لم نقع له فيما بين أيدينا من كتب على ترجمة مطولة .
التفسير اللغوي : (١) تأوبه : راجعه . الخيال : الطيف . سليمى : محبوبته . يتعاد : يعاود . ذا الدين : الدين . الغريم : الدائن .

(٢) المختاض : الموضع الذي يخوض فيه الناس ، لكثرة عشبهِ والتفاف نبتهِ . الربد : مفردة ربداء ، وهى النعام . تحمومى : تحاماه الناس فلم يرعوه خوفا . العيم : الكثير الشامل للتلطف بعضه على بعض .

(٣) غدوت به : بكرت إليه . تدافعى : تدفعى . السبوح : الفرس التى تسبح بيديها ، كما يسبح الإنسان فى الماء . فراش نسورها : الفراش : ما تطاير منها . والنسور : جمع نسر ، وهى قطع اللحم الصلب فى باطن الحافر ، وصلابتها موضع الدح منها . عجم : نوى . الجريم : المجرور وهو المقتطوع ، وهو ما طال مكثه فى نخله حتى جف وصارت برا ، ونواه أصلب النوى .
(٤) من التللفات بجانبها : من الخيل التللفات ، والجملة كناية عن نشاطها ومراحها .

المهزم : موضع الحزام ، وهو أول ما يمسه العرق . الحميم : العرق .
(٥) لقصرييها : لضاعيا السفليين . البريم : الخيط للبروم ، أو السير من الجلد تشده المرأة حول وسطها .

(٦) الطبيان : مثنى طبي ، وهو ما يشبه الخلف من الناقة والئدى من المرأة ، والضرع من ذات الظلف . يعادله : يقيمه ويعدله . الجراء : الجرى ، فيستقيم : فيعتدل فى سيره .

- كَيْتٌ غَيْرُ مُحَلَّفَةٍ وَلَكِنْ كَلَوْنِ الصَّرْفِ عَلَّ بِهِ الْأَدِيمُ^(٧)
تَعَادَى مِنْ قَوَائِمِهَا ثَلَاثٌ بِتَحْجِيلٍ ، وَقَائِمَةٌ بِهِيمِ^(٨)
كَأَنَّ مَسِيحَتِي وَرَقٍ عَلَيْهَا نَمَتْ قُرْطَيْهِمَا أُذُنٌ خَزِيمِ^(٩)
تُعَوِّذُ بِالرَّقَى مِنْ غَيْرِ خَبَلٍ وَتُعَقِدُ فِي قَلَائِدِهَا التَّمِيمِ^(١٠)
وَتُمْكِنُنَا إِذَا نَحْنُ اقْتَنَصْنَا مِنَ الشَّحَاجِ أَسْعَلَهُ الْجَمِيمِ^(١١)
هُوَ : ٢٦٥ عُقَابٌ عُرْدَةٌ أَشَارَتْهَا بَذَى الضَّمْرَانِ عِكْرِشَةُ دَرُومِ^(١٢)

(٧) الكميت : الأحمر يميل إلى السواد . غير محلفة : خالصة اللون لا يحلف عليها أنها ليست كذلك . الصرف : صبغة حمراء تصبغ بها الجلود . عل : منق مرة بعد مرة . الأديم : الجلد .

(٨) تعادى : تتابع وتوالى . بتحجيل : التحجيل البياض في موضع القيد من قوائم الفرس . بهيم : الأسود أو السوداء .

(٩) المسيحة : الصفيحة أو السيكة . الورق : الفضة . نمت : رفعت . قرطيهما : حلقيهما . خذيم : مخدومة مثقوبة .

(١٠) تعوذ : يدعى لها بالحفظ . الرق : جمع رقية التأم ونحوها . الحبل : الجنون . تعقد : تربط . القلائد : جمع قلادة العقود . التميم : جمع تيمية التماويد .

(١١) تمكنا : تهيء لنا . اقتنصنا : خرجنا للصيد والقنص . الشجاج : الحمار الوحشي يشجع بصوته دون أن يفصح به . أسعله : جعله مسعلاً نشيطاً كالسعلاة ، وهى الغول . الجميم : الكثير من النبات .

(١٢) هوى : سقوط . العقاب : النسر . عردة : اسم لهضبة . أشارتها : ألققتها واستخفتها . بذى الضمران : بذلك المكان . العكرشة : أنثى الأرنب . الدروم : المقاربة الخطو .

تحليل الأبيات :

زار قلبه طيف سليمى ، التى لا يفارقه خيالها ، فهو معه فى كل زمان ومكان ،
يلزمه ملازمة الدائن لمدينه ، ويعاوده معاودة الغارم من غريمه ، ثم انتقل بعد بيت واحد
إلى غرضه الأصيل فأخذ يصف فرسه ، فقال :

ورب مرعى مخصب ، ومختاض موفور العشب ، ملتف النبت تحاماه الناس وخافوه
لكثرة هوامه وكواسره ، وتوقوه خشية وحوشه وجوارحه غدوت إليه فى بكرة النهار
لا أخشى بأسا ، ولا أخاف فيه فتكا ، فإنى أعتلى صهوة جواد سبوح لا يطلب راكبها ،
ولا يدركها طالبها ؛ إذا عدت تطاير من نسورها حصى له صلابة الحديد ، أو نوى التمر الذى
طال تجفيفه ، فأصبح نواه صلبا صلدأ ، فإذا لزجها ، أو ركل مركلها تلعبت بمتنيها ،
وتلعبت بجانيها ، يحدث منها هذا عند ما يبيل العرق موضع حزامها ، وذلك لحدة نشاطها ،
وكثرة مراحمها ، وإذا عدت وحزامها بحكم الربط عند ضلعها السفليين فإن عدوها ،
وانقباض بطنها ، وضغطها على أضلاعها يجعل ذلك الحزام عند طبيعتها ، وأحيانا يقيمه
ويعدله استقامة عدوها ، واعتدال جريها .

فرسى تلك كميث خالصة اللون صافية الأديم ، لونها فى شدة حرته ، وأديمها فى صفاء
كمتته ، كلون الصبغ الأحمر ينهل منه الأديم ويعل ، لينال صافى لونه ، وخالص قانيه ،
وهى محجلة القوائم الثلاث دهاء الرابعة ، والضد يظهر حسنه الضد ، فى قوائمها يظهر حسن
الضدين ، وكأن سبائك من الفضة الرقيقة قد صنع منها لكل قائمة قرطان ، وورفا إليها ،
فكان الأقراط فى آذان مثقوبة .

هذه الفرس كريمة على ، أثيرة عندى ، فأنا لذلك أحفظها بالرقى ، وأقيها الشر
بالتعاويد دون أن يكون ذلك لخلب أصابها ، أو لمس نزل بها ، فهى سليمة من كل عيب ،
خالصة من كل شين ، وأنا أعتقد فى قلائدها التمام ، وأضع فى عقودها التعاويد ، كأنها ولد
عزيز على أحبيه من عيون الحاسدين .

وهى تهيب لنا إذا خرجنا للصيد أن نصطاد أشق أنواع الحيوان صيدا ، فنصيد بها

الحمار الوحشى الذى قد أصبح لكثرة ما رعى ، ووفرة ما أكل كالغول يخيف كل صائد ، وينأى عن كل قاصد ، فهى تهوى عليه كما يهوى عقاب تلك الهضبة القوية العقبان ، ألقها أن ترى بذلك المكان أرنبا متقاربا فى خطوه ، متدانيا فى سيره ، فهى لابد أن تنقض عليه فتقصر أجله .

النقد :

هذه قصيدة كاملة فى وصف الفرس لم تتجاوز منها إلا بيتا واحداً ، فهى ثلاثة عشر بيتا ، ونقصد بهذا أن الشاعر محتفل بغرضه ، حاشد له جميع قواه ، ولكنه لم يبلغ فيه المبلغ الذى كان يرجوه ، وبماذا جاء من المعانى ؟

تكاد تحصر المعانى التى اشتملت عليها قصيدته فى العناصر الآتية :

- ١ — فرسه سبوح ذو نسور صلبة قوية . ٢ — تتلمع بجانيها عند ما تستنار للعدو .
- ٣ — ينقبض بطنها فيجرى عليه حزامها المحكم . ٤ — هى كيت اللون خالصة السمكة .
- ٥ — محجلة القوائم الثلاث دهاء الرابعة . ٦ — كأن قوائمها البيض مقرطة بأقراط فضية .
- ٧ — معوذة بالرقى والتأئم لإعزازها . ٨ — تتيح لنا الصيد مهما يكن المصيد .
- ٩ — تهوى كما يهوى العقاب على الأرنب .

هذه هى المعانى التى أوردتها الشاعر فى قصيدته ، وجميعها معان مطروقة ، والجديد منها ليس بذى بال كتمويذه إياها ، وتعليق التأئم فى القلائد ، وهو أمر يعرفه الخاص والعام ، فمن الناس حتى اليوم من يعوذ فرسه لاعتقاده أن العين تصيبها قبل أن تصيب سواها ، والحق أن تخيله بياض قوائمها بأنها أقراط فضية خيال لا بأس به .

هذه هى المعانى التى لم يتناولها الشعراء ، وإن تناولوها ، فقد نهجوا فى تناولها غير

نهجه ، وساروا بها فى غير طريقه ، أما ما سواها فكلها معان معروفة ، فقوله :

غدوت بها تدافنى سبوح فراش نسورها عجم أديم

يشبه قول عنتره :

وله حوافر موثق تركيبها صم النسور كأنها من جندل

وفي كل من البيتين ناحية جمال يمتاز بها عن الآخر ؛ فبيت سلمة يمتاز بأنه وصف
فرسه بصفتين هما سبحة في عدوه ، وصلابة نسوره ، وبيت عنتره يمتاز بأن تشبيهه أقوى
من تشبيه سلمة فتشبيه النسور بالجندل أقوى من تشبيهها بالنوى مهما تكن صلابته .
وقول سلمة :

إذا كان الحزام لقصريها أماما حيث يمتسك البريم
يدافع حد طبيها وحينما يعادله الجراء فيستقيم
كقول بشر بن أبي خازم :

نسوف للحزام بمرفقيها يسد خواء طبيها الغبار
وبيت بشر أجمع من بيتي سلمة ، فقد زاد في معناه أن الغبار النائر في مسيره يسد ما بين
مرفقيها ، أما القيود التي أوردتها سلمة فليست ذات قيمة فنية فقوله : « أماما حيث يمتسك
البريم » قيد ثقيل في لفظه وفي معناه .

وإذا كانت الألفاظ توحى بمعانيها ، وتشعر بمدلولاتها ، وذلك هو دليل حسن اختيار
الأديب للفظه ، فإن إيجاء الألفاظ هنا على مدلولاتها إيجاء ضعيف ، ودلالاتها على مدلولاتها
غير كاملة ، فاختياره كلمة عكرشة لأنثى الأرنب لارقة فيه ، فحروف الكلمة ، وتجمع
هذه الحروف بعضها مع بعض يوحي بأنها اسم لغير الأرنب .
ومن الأبيات ما ليس واضح المعنى لأن صورته غير كاملة ولا منسقة ، وذلك يظهر
في قوله :

كأن مسيحتي ورق عليها نمت قرطيها أذن خذيم
فإن المعنى جميل ، ولكن التصوير غير كامل التكوين .

٥ — وقال عوف بن عطية من قصيدة أولها :

أمن آل مِ عرفت الديارا بحيثُ الشقيقُ خلاءَ قفارا؟^(١)

وأعددتُ للحربِ ملبونةً تَرُدُّ على سائسِها الحِمَارا^(٢)

كَمِيتًا كحاشيةِ الأنجمِ لم يدعِ الصُّنْعُ فيها عَوَارا^(٣)

رَوَاعُ الفؤادِ يَكَادُ العنيفُ إذ أجرتِ الخيلُ أنْ يُسْتَطارا^(٤)

لها شُعْبٌ كإيادِ الغبيطِ فضضَ عنها البناءُ الشُّجَارا^(٥)

لها رُسْعٌ مُكْرَبٌ أَيْدٍ فلا العظمُ واهٍ ولا العِرْقُ فارا^(٦)

لها حافرٌ مثلُ قَعْبِ الوليدِ يتَّخِذُ الفأرُ فيه مَفَارا^(٧)

لها كَفَلٌ مثلُ متنِ الطَّرا فِ مددٍ فيه البناءُ الحِتَارا^(٨) : ٢٧٣

* ترجمه الشاعر : هو عوف بن عطية بن عمرو بن عبس من بني تميم شاعر فارس إلا أنه مقل . واختلف فيه أهو مخضرم أم هو جاهلي صرف ، والظاهر أنه لم يدرك الإسلام .

التفسير اللغوي : (١) مِ : اسم حبيبتة . الشقيق : ماء لبني أسد بن عمرو بن تميم .

قفارا : ماحلا .

(٢) الملبونة : التي تسقى اللبن إكراما لها . سائسها : فرسانها . الحمار : يقصد الحمار الوحشي .

(٣) الحاشية : الأطراف . الأنجمي : ضرب من البرود منسوب إلى آتحم باليمن .

الصنع : الدواء الذي تصنع به في ضمرها . العوار : العيب .

(٤) رواع الفؤاد : ذكية القلب . العنيف : الشديد الغليظ . يستطار : تحمله على أن

يطير من فوقها .

(٥) شعب : جمع شعبة ويقصد فقار الظهر أو هي ما أشرف منها كالسكاهل والعنق ،

وهو أنسب للمعنى . الإياد : القدم من الغبيط . الغبيط : الرجل . فضض : فض وفرق .

الشجار : خشب الهودج .

(٦) الرسغ : الموضع المستدق بين الحافر وموضع الوظيف من اليد والرجل . مكرب :

شديد موثق ، وهو وصف للجلل المحكم القتل . أيد : قوى شديد . واه . ضيف . فار

المرق : انتفخ ، والانتفاخ يضعف القوائم .

(٧) القعب : القدح . الوليد : الصبي . المغار : الحجر .

(٨) الكفل : مؤخر الظهر . الطرف : البيت من الجلد . الحتار : خيط يشد به الطرف

تحليل الأبيات :

بدأ الشاعر قصيدته بالاستفهام التمجيدى ؛ إذ كيف تعرف ديار آل مى الواقعة بالقرب من ذلك الماء ؟ لقد أصبحت خالية مقفرة ، لا أحد من الإنس يسكنها ، فلتختر سكنها الوحوش الأوابد ، بعد أن كانت مهبط الغيد النواعم ، ثم أخذ ينتقل فى وصف عشقه ولهوه فى شبابه وشيبه من معنى إلى معنى ؛ حتى بدأ يصف فرسه ، أليس هو من أكبر أسباب اللهو ؟ فيقول :

إنى أعددت ليوم الكر والفر ، والضرب والطعن ، فرسا غذيتها باللبن ، فكانت فتية قوية ؛ إذا طارد بها فارسها حمارا وحشيا ردت به إليه مذعنا مطيعا ، فكأنها قيد الأوابد .
أعددتها فرسا كملت اللون ، كأنها فى صفاء لونها ، ووثاقة جسمها أطراف ذلك البرد اللينى ، قد أحكم ناسجه نسجه ، فليس فيه ما يعاب به .

هى فرس ذكية الفؤاد ، متوفزة الإحساس ، نهاية للأرض ، جوابة للقفر ، تكاد تطير من فوق صهوتها الفارس العنيف حينما تبارى عتاق المذاكى ، فقار ظهرها فى صلابتها كإياد الرجل أزيل عنه خشب الهودج ، فبدت للأنظار متانتها ، ورسغها موثق محكم ، مفتول مكرب ، فليس عظمها واهيا ، ولا عرقها منتفخا فائرا ، فيضعف ذلك من قوة قوائمها ، ويوهن من صلابة أرجلها ، وحافرها فى استدارته وتقعيبه مثل قدح الصبى ، بعيد النور ؛ حتى ليتمكن أن يتخذ فيه الفأر حجرا ، ويجعل منه مغارا ، وكفلها مثل ظهر البيت المتخذ من الجلد ، المشدودة أطرافه ، فبدا أملس ناعما ، ممتلئا مكتنزا .

النقر :

التأمل في هذه الأبيات يجد الشاعر قد أمعن في نمتها ، فله في كل بيت معنى أو أكثر من معنى ، وكلها معان مطروقة لا جدة فيها ، وإن لم نعتبر للسابق فضلا على اللاحق ، فكلهم ينظرون ويسمعون ، فينمتون ويصفون ، ولا يمنع ذلك من أن نجتمع بين بعض معانيه ، وبعض معاني من قدمنا عنهم القول ، يشبه بيته الأول بعض الشبه بيت امرئ القيس :

وقد أغتدى والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل
وبيت امرئ القيس أطرف معنى ، وأقوى أسلوبا ؛ إذ ذكر ساعة صيده ، ووصف فرسه بأنه منجرد الشعر ، وقيد الأوابد ، وضخم الجسم ، وقوله : قيد الأوابد من معجزات الشعر .

وبيته الثاني يشبه بيت سلمة بن الخرشب :

كيت غير محلفة ولكن كلون الصرف على به الأديم
وبيت سلمة أفضل من وجوه ، أجملها ذلك الاحتراس « غير محلفة » فقد أكد المعنى وأكسبه روعة ، وتشبيه لونه « بأنه كلون الصرف على به الأديم » تشبيه بديع ، وقول عوف :
رواع الفؤاد يكاد العنيف إذا جرت الخيل أن يستطارا
بيت جميل وإن تكن فيه مبالغة من ناحية ، وقصور من أخرى ، أما المبالغة ففي استطاره العنيف ، أو قربها ، وأما القصور ، فشرطه الاستطاره بجريان الخيل معها ، ولم تكن المبالغة من سمات الشعر الجاهلي ؛ كما أن القصور اللفظي قد يوجد ، أما القصور المعنوي فقل أن يوجد .

٦ — وقال المرقش الأصغر* من قصيدة أولها :

أَمِنْ رَسْمِ دَارٍ مَاءِ عَيْنِيكَ يَسْفَحُ غَدَا مِنْ مُقَامِ أَهْلِهِ تَرَوُّحُوا؟^(١)
 غَدُونَا بِصَافٍ كَالْعَسِيبِ مُجَلَّلٍ طَوِينَاهُ حِينًا فَهُوَ شِزْبٌ مَلُوحٌ^(٢)
 أَسِيلٌ نَبِيلٌ لَيْسَ فِيهِ مَعَابَةٌ كَمِيتٌ كُلُّونِ الصَّرْفِ أَرْجُلُ أَقْرَحُ^(٣)
 عَلَى مِثْلِهِ آتَى النَّدَى مُخَايَلًا وَأَغْمَزُ سِرًّا ، أَيُّ أَمْرِي أَرْبَحُ^(٤)
 وَيَسْبِقُ مَطْرُودًا ، وَيَلْحَقُ طَارِدًا وَيَخْرُجُ مِنْ غَمِّ الْمَضِيقِ وَيَجْرَحُ^(٥)
 تَرَاهُ بِشِكَاكِ الْمُدْجَجِ بَعْدَ مَا تَقْطَعُ أَقْرَانُ الْمَغِيرَةِ يَجْمَحُ^(٦)
 شَدْتُ بِهِ فِي غَارِهِ مُسْبَطَرَةً يُطَاعِنُ أَوْلَاهَا فَنَاءً مُصْبَحُ^(٧)
 كَمَا انْتَفَجَتْ مِنَ الظُّبَاءِ جِدَايَةٌ أَشْمُ إِذَا ذَكَرْتَهُ الشَّدُّ أَفْجَحُ^(٨)
 ٢٨٢: يَجْمَحُ جُحُومَ الْحَسَنِ جَاشَ مَضِيقُهُ وَجَرَّدَهُ مِنْ تَحْتِ غَيْلٍ وَأَبْطَحُ^(٩)

* ترجمه الشاعر : هو ربيعة بن سفيان بن سعد بن مالك بن ضبيعة البكري عم طرفة بن العبد ، والمرقش الأكبر عمه ، والأصغر أشعر ، وأطول عمرًا ، وقد أجاد الغزل ؛ لأنه من العشاق ، والوصف لأنه من الفرسان ، توفي حوالى سنة ٥٠٠ م فهو أقدم من امرئ القيس .

التفسير اللغوى : (١) الرسم : بقية آثار الديار . يسفح : يسيل ويجرى . غدا من مقام : أصبح من إقامة إلى رحيل : تروحوا : ساروا فى وقت الرواح ، وهو من زوال الشمس إلى الليل . (٢) غدونا . سرنا مصبحين . بصاف : بفرس خالص اللون . كالعسيب : كطرف السعفة فى صفاء لونه . مجلل : وضع عليه الجلال . طويناه : ضمناه . شزب ملوح : ضامر متغير من حر الشمس . (٣) أسيل نبيل : أملس جميل . كيت : أحمر مائل إلى السواد . الصرف : صبغ أحمر يصبغ به الجلد . أرجل : محجل . أقرح : أغر الجبهة . (٤) الندى النادى . مخايلا . أغمز : أشير . (٥) مطرودا : يطرده فارس وراءه . طاردا : يطرد غيره أمامه . غم المضيق : شدة الأمر . يجرح : يصيد ، ومنه جوارح الطير . (٦) الشكات : جمع شكة ، السلاح . المدجع : اللابس السلاح . تقطع أقران المغيرة : تمزق نظراء الكنية . يجمح : ينفرد ويشرد . (٧) مسبطة : ممتدة طويلة الأمد . فناء : جماعة . مصبح : مغار عليها صباحًا . (٨) انتفجت : ثارت . جدية : شابة . أشم : على الأنف . أفجح : فسيح الخطأ . (٩) يجم : يجتمع شدة . الحسى : الرمل على الصخر يجتمع الماء تحته . جاش : غلى . الغيل : الماء الكثير . الأبطح : الحصى .

تحليل الأبيات :

يسائل المرقش نفسه ، أأن رأيت آثار الحبيبة تسيل الدموع من عينيك مدرارا .
وتجري العبرات من مآقيك غزارا ، لأن من كانوا يحلون تلك الديار غدوا مرتحلين ، وأموا
غيرها متروحين ؟

ثم يأخذ في نسيب رقيق ، ووصف بديع لريق الحبيب في أحد عشر بيتا يقتضب
بعدها نسيبه إلى وصف فرسه ، فيقول :

لقد غدونا إلى الصيد بفرس صافي اللون ، ضامر البطن ، مكرم عندى ؛ إذ الجلال فوق
متنيه يحميه من الحر والقر ، وقد ضمرناه حيناً حتى صار ضموره عنوان جماله .
هو أملس الجسم ناعمه ، جميل الخلق رائعه ، ليس فيه مايعاب ، فهو كيت اللون كثمة
كأنها الصرغ ، محجل القوائم ، أغر الجبهة « كأن بياض غرته خمار » .

وهو مظهر سراء وشرف لمتطيه ، فأفد به على نادى قومى معجبا مختالا ، معتزاً مزهوا ،
أسائل نفسى « أى أمرى أربح ؟ » أيوم أخرج به للصيد ، فأبلغ مأرجو من قنص الشوارد ،
وصيد الأوابد ، أم يوم أستريح فأفد به إلى ذلك النادى الذى ينتظم سراة قومى ،
وأشراف قبيلى ؟ .

إنه حينما أخرج به للحرب والغارة يسبق إذا كان مطروداً ، ويلحق إذا كان طارداً ،
فهو ينجى من المآزق ، ويفرج من المضايق ، ويشاركى فى حربى ، فيضرب ويحرج .

وهو إلى كل هذه الصفات كريم ذلول ، سلس العنان ، سهل القياد ؛ إذا حمل فارسه
مدججاً بسلاحه ، مقلداً عتاده جعل النصر غايته ، فيعمل مع فارسه لإدراكه ، فإذا ما فرق
فارسه الأقران ، وجدل الأبطال ، عاوده المرح والنشاط ، فإذا هو الفرس اللعوب الجلوح ،
أليس قد شارك فى فوز فارسه ، وأسهم فى نصر سيده ؟

كم قد شهدت به غارات طويلة الأمد ، بعيدة الأجل ، يطاعن طليعة المغيرين جماعة
مصعبون ، فأولئك وهؤلاء يدقون الرماح بالرماح ، ويكسرون النصال على النصال ،

فتسمع للفرس ثورة وهممة ، وانتفاجا وزججرة ، كأنما هو في ثورته وانتفاجه ظلية فتية ، نشيطة قوية ، لاتهدأ ولا تسكن ، ولا تقف ولا تهمد .

هو فرس أشم طويل ، واسع الخطا ، إذا ذكرته بالشد على العدو اندفع اندفاع الحسى ينبع منه الماء تلو الماء ، وعراءه مما حوله الماء المتدفق ، والحصى المتفرق .

النقد :

المرقس من الشعراء المجيدين ؛ لأنه كان عاشقا فارسا ، والعشق والفروسية من عناصر الشاعرية ، ومن مقومات الوصف بصفة خاصة ، ويظهر في هذه الأبيات المدودة أنه نحا في وصفه نحوا يخالف إلى حد ما الطريق الذى نهجه بعده أكثر الشعراء ، أو أنهم لم ينهجوا نهجه فلم ينصفوه ، فعندى أن نهجه أوضح من نهج أكثرهم .

إنه لا يصف أجزاء الجسم عضواً عضواً ، وإنما يلم بهذه الأعضاء إلاما ، ثم ينصرف إلى غيرها ، ففرسه :

أَسِيلٌ نَبِيلٌ لَيْسَ فِيهِ مَعَابَةٌ كَيْتُ كُلُّونِ الصَّرْفِ أَرْجَلُ أَوْحُ

فها هوذا قد وصفه بست صفات في بيت دون أن يقال : إنه قصر في وصفه .

أما النحو الجديد الذى نحا فهو الربط بينه وبين فارسه ، وتصويرها صديقين متعاونين على ما يكسب المجد ، وينشر عنهما طيب الحديث ، فهو :

طَلَى مِثْلَهُ آتَى النَّدَى مُحَايِلًا وَأَغْمَزُ سِرًّا أَيْ أَمْرَى أَرْجَحُ؟

وَيَسْبِقُ مَطْرُودًا وَيَلْحَقُ طَارِدًا وَيَخْرُجُ مِنْ غَمِّ الْمُضِيقِ وَيَخْرُجُ

تَرَاهُ بِشِكَاكِ الْمُدَجَّجِ بَعْدَمَا تَقْطَعُ أَقْرَانُ الْمُنِيرَةِ يَجْمَعُ

وهو بارع الإجابة عند ما يصور اندفاعه بين جماعة الخيل ، فيصوره باندفاع الحسى ،

ضاق مسيله ، وجرده من تحته الماء والحصى ، إنها صورة دقيقة ، وإن ضاقت الألفاظ عن

المعنى ، ولو أنه غنى بتكوين الصورة ، وتوضيح الفاية لكان قد بلغ أسمى ما يريد من

التصوير ، والبيت هو :

يَحْمُ جُمُومَ الْحَسَنِ جَاشَ مَضِيقُهُ وَجَرَّده مِنْ تَحْتِ غِيلٍ وَأَبْطَحَ

ويعتمد المرقش على المقام الاعتماد كله ، فيقول مثلاً :

غَدُونَا بِصَافٍ كَالْعَسِيبِ مُجَلَّلٍ طَوِينَاهُ حِينًا فَهُوَ شَرِبٌ مَلُوحٌ

فإلى أين غدا به ؟ إلى الحرب أم إلى الصيد أم إلى غيرها ؟ إنه لم يحدثنا من قبل عن شيء من هذه الأشياء .

نم ما الأمران اللذان يسأل عن معرفة الأربع فيهما ؟ في قوله :

على مثله آتى الندى مخايلاً وأغزى سرا أى أمرى أريج ؟

إنه غامض ، فنحن لاندرى الصيد يريد أم السباق ، أم الحرب أم اللهو ؟ وأنجاء يريد أم الطلب كما يرى بعض الأدباء ؟ وقد عرضنا رأينا في التحليل ، ولعله أقرب الآراء إلى المعنى الذى أراد .

وإذا تجاوزنا هذا الغموض حكمتنا للمرقش بقوة الأسلوب وجماله ، ورونقه وحسنه ،

فأى جمال وقوة يفوقان جمال هذا البيت وقوته فى طباقه الهادى ، ولفظه الجزل ؟

ويسبق مطروداً ، ويلحق طارداً ويخرج من غم المضيق ويخرج

وبعد ، فإن المرقش شاعر قد جاء قبل أوانه ، وفرغ أهل زمانه .



نظرة فاحصة عن معاني الشعراء في وصف الفرس

أكثر أولئك الشعراء الذين اخترنا لهم بعض ما قالوه في وصف الفرس نجدون مقاما أو انتقالا ، ومن لم يكن منهم نجديا فقد طبع على أخلاق النجديين ، فأهل نجد في القديم والحديث أولونجدة وعزة ، وأصحاب فروسية وبطولة ، ولعل بلادهم العالية ، وإقليمهم الثابت أورثهم آيته ، وخلع عليهم طوله وعلياءه .

وإذن فليس عجيبا أن يجيدوا وصف الخيل ، وأن يبرعوا في نعت الجياد ، وأن يبرزوا غيرهم من الشعراء في رسم شياتها ، وتصوير سماتها ، فالخيل النجدية لاتزال مضرب المثل في الحسن ، وليس عجيبا ألا تتفق معانيهم ، وألا تتحد أفكارهم وأخيلتهم في وصفها ونعتها ، كما لمسنا ذلك في وصف الناقة — فإن محاسن النياق تكاد تكون محصورة في أجزاء جسمها ، وصلابة خلقها ، وليس الشأن كذلك في الخيل ، فمحاسن الخيل تتجاوز التكوين الخلقي ، والله در المتنبي إذ يعرف هذا المعنى فيقول :

وما الخيلُ إلا كالكرامٍ قليلةٌ وإن كثرتْ في عينٍ مَنْ لا يُجربُ

إذا لم تلاحظ غيرَ حُسْنِ شياتها وأعضائها فالحسنُ عنك مغيبُ

هناك وصفها بمداركة الصيد ، ومتابعة الطرد ، وهناك وصفها عند المباراة في الحلبة ، والسباق في الميدان ، وهناك وصفها في الحرب ؛ إذ تشارك في الضرب والطنن ، وهناك وصفها في اللهو ، وهناك تصوير عدوها ، وتشخيص جرائها ، ووصف حنانها وجيشانها إلى غير هذه المعاني التي سرت بنا ، وأفضنا القول في تبليانها .

وليس أولئك الشعراء الذين اقتبسنا قبسا من شعرهم في وصف الخيل بأقدر شعراء العصر الجاهلي على وصفها ، ولكنهم من أقدرهم ، كما أن أولئك الذين اخترنا لهم بعض شعرهم في وصف الناقة ليسوا بأبرع مَنْ وصفها ، ولكنهم من أبرعهم ، ولكننا رمينا إلى الإكثار من عدد الشعراء ، فلم نختَر لشاعر اخترنا له قبل في وصف الناقة ، وذلك لنظهر أن

هذا العصر غنى بالشعراء الذين أجادوا القول في كل مجال ، والذين سبقوا في كل ميدان ، ولو نهجنا غير هذا النهج لوجدنا أكثر من شاعر له في وصف الخيل الباع الأطول ، والقول الأفضل ، ومع ذلك ، ألم يفضل علقمة الفحل على امرئ القيس في نعت الخيل بصفة خاصة ؟ إننا لا نؤيد هذا الحكم ، ولكننا نسوقه دليلا على أن من الشعراء الذين تجاوزناهم من هم شعراء وصافون لا يشق لهم غبار .

وبحسب في هذا المجال نجمع ما تفرق من المعاني في التحليل ، لعل فيه ما ييسر على الناقد مهمته ، ويبصره بمنهج وغايته .

يكاد الشعراء الستة الذين اخترنا لهم يتفقون في وصف أجزاء الفرس وشيائه ، وإذا كان بينهم خلاف فهو في القدر والكيف ، ولكنهم يختلفون في تصوير شيء غير تصوير الجسم ، وغير شيائه ، ذلك الشيء هو خلقها وكرمها ، وحسنها ونبلها ، فإذا قال امرؤ القيس في وصف فرسه بالضخامة والجسامة :

وَقَدْ أَغْتَدَى وَالطَّيْرُ فِي وَكُنَاتِهَا
بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الْأَوَابِدِ هَيْكَلِ

وجدنا غيره ممن تقدمه في النشأة ، وسبقه إلى نعت الخيل بشر بن أبي خازم يقول :

يُضَمَّرُ بِالْأَصَائِلِ ، فَهَوَ نَهْدٌ
أَقْبَّ مُقَلَّصٍ فِيهِ اقْوِرَارُ

وألفينا من جاء بعدها قد تابعهما في نعت جواده بهذه الصفة ، فيقول عنتره :

وَلَرُبَّ مُشْعَلَةٍ وَزَعْتُ رِعَالَهَا
بِمُقَلَّصٍ نَهْدِ الْمَرَاكِ هَيْكَلِ

ولكننا نلمح في بيت بشر معنى لم يتناوله باللفظ هو عنايته بذلك الفرس ، ورعايته له

في قوله : يضمّر بالأصائل ، فذلك التضمير من مظاهر العناية والتكريم .

وإذا وصف امرؤ القيس جواده بحدة النشاط ، وقوة الركض ، وشدة العدو ، فقال :

مِكْرٍ مِفْرٍ ، مُقْبِلٍ مُذْبِرٍ مَعَا
كَجُلُودِ صَخْرٍ حَطَّ السَّيْلُ مِنْ عَلِ

وجدنا من تقدموه قد تناولوه على نحو يقارب هذا النحو ، فقال بشر بن أبي خازم :

مُحَارِشُهُ الْعِنَانِ كَأَنَّ فِيهَا
جَرَادَةَ هَبْوَةٍ فِيهَا اصْفِرَارُ

وقال سلمة بن الخرشب :

وَمُكِنَّا إِذَا نَحْنُ اقْتَنَصْنَا مِنْ الشَّحَاجِ أَسْلَهُ الْجَمِهُ
هُوَ عِقَابِ عَرْدَةٍ أَشَازَتْهَا بِذِي الضَّمَرَانِ عِكْرُشَةُ دَرُومُ

المعاني متقاربة ، ولكن التصوير متباعد ، والتشخيص مختلف ، فبنت امرئ القيس يشمر بالحدة في النشاط ، والقوة في العدو ، ويتخذ من الصخرة يسقطها السيل مادة تصويره في حين يتخذ بشر من مهارشتها عنانها مادته ، ويزيدها تصويرا بقوله : كأن فيها جرادة هبوة ... وسلمة لا يغنيه في هذا المعنى بيت بل يؤديه في بيتين ، يؤلف فيهما صورتين كاملتين دالتين على أقصى القوة ، وأوفر الحدة .

وامرؤ القيس يصف فرسه بالكمته ، فيقول :

كَيْتَ يَزِلُّ اللَّبْدُ عَنْ حَالٍ مَتْنِهِ كَمَا زَلَّتِ الصَّفْوَاءُ بِالْمُتَزَلِّ

فترى جميع من سبقوه ومن لحقوه وصفوا جيادهم بالكمته كأن الجياد العربية أو الخيل النجدية ليس فيها إلا هذا اللون ، فيقول سلمة بن الخرشب :

كَيْتٌ غَيْرُ مُحَلَفَةٍ ، وَلَكِنْ كَلُونِ الصَّرْفِ عُلَّ بِهِ الْأَدِيمُ
ويقول عوف بن عطية :

كَيْتًا كَحَاشِيَةِ الْأَنْحَمِ يَ لَمْ يَدْعِ الصَّنْعُ فِيهَا عَوَارًا
وقبل هؤلاء جميعا قال المرقش الأصغر :

أَسِيلٌ نَبِيلٌ لَيْسَ فِيهِ مَعَابَةٌ كَيْتٌ كَلُونِ الصَّرْفِ أَرْجَلُ اقْرَحُ

وهكذا نجد اتفاقا في أكثر الأوصاف الجسمية بينهم ، وبمنظرة عابرة يمكن الجمع بين هذه الأوصاف ، ولكنهم يختلفون في أدائها ، وقد يتباعدون في عرضها .

أما المعاني التي انفرد بها بعضهم دون بعض ، فليست من الكثرة بمنزلة المعاني التي اتفقوا فيها ، فمن هذه المعاني قول امرئ القيس :

مِسْحَرٌ إِذَا مَا السَّابِحَاتُ عَلَى الْوَنَى أَثَرْنَ الْفُبَارَ بِالْكَدِيدِ الْمَرَكِلِ

إنه في هذا البيت يجمع معنيين متضادين دون أن يسمى ذلك طباقاً ، وإذا كان الطباق جيلاً ، فالقدرة على مثل هذا النوع أجل ، إنه نمت فرسه بالاندفاع كالآتى ، والانصباب كالسيل ، ونمت السابحات الأخريات بالونى والكلال ، حتى ليثرن الغبار بضربهن الأرض الصلبة ، وهى صورة للفرس لا يصورها إلا من تقبّع حركات الخيل : كبيرها وصغيرها عظيمها وضئيلها ، وهكذا تفتت الخيل المجهدة بسنابكها الثقيلة الأرض الصلبة .

ومن تلك المعانى التى انفردها ، فلم يشاركه أحد فيها ، ممن تقدمه أو من جاء بعده قوله يصور الدماء المتطايرة من صيده ، والتى ضرج بها فرسه :

كَأَنَّ دِمَاءَ الْهَادِيَاتِ بِنَحْرِهِ عَصَارَةُ حَنَاءَ بَشِيبٍ مُرَجَّلٍ
فالمعنى فريد ، والتشبيه جميل ، والصورة كلها رائعة ، وقوله فى وصف السَّرب الذى عن له ، فارتاع لمراه ؛ لأنه يعرفه مطارداً عنيفاً ، وصياداً حصيفاً ، فتفرق زرافات ووحدانا :

فَقَنَّ لَنَا سَرْبٌ كَأَنَّ نَجَاجَهُ عَذَارَى دَوَارٍ فِي مَلَأَ مُدَيِّلٍ
فَأَذْبَرْنَ كَالْجَزَعِ الْمَفْصَلِ بَيْنَهُ بَحِيدٍ مُعِمٍّ فِي الْعَشِيرَةِ مُخَوِّلٍ
فَأَلْخَقْنَا بِالْهَادِيَاتِ ، وَدُونَهُ جَوَاحِرُهَا فِي صَرَّةٍ لَمْ تَزَلْ

ومن هذه المعانى التى لم يشاركه فيها أحد ، ولم يبلغ مبلغ جلالها شعر وصفه أيطلى الفرس وساقبه ، ثم وصف سيره فى إرخائه وتقريبه ، وذلك فى قوله :

لَهُ أُيْطَلَا ظَنِّي ، وَسَاقًا نَعَامَةٍ وَإِرْخَاءَ سِرْحَانٍ وَتَقَرِّبُ تَتَفُلِّ

ويعجبنا منه ذلك التقسيم البديع ، فهو فى الشطر الأول يصفه بصفتين جسميتين ، وفى الشطر الآخر ينعته بنعتين ليسا كذلك ، دون أن يضيق البيت بهذه المعانى ، فكان لكل هذا حامل لواء الوصف فى قديم الشعر وحديثه .

ومن المعانى الفريدة فى أبيات بشر بن أبى خازم قوله يصف شهبه فرسه حيناً يبس عليها عرقها ، وجف حميمها : درته وغراره :

تَرَاهَا مِنْ يَبَيسِ الْمَاءِ شُهْبًا مُخَالِطُ دِرَّةٍ مِنْهَا غِرَارُ
وقوله يصور أثر سنا بكها الصلبة في الأرض المطمئنة :

بِكَلِّ قَرَارَةٍ مِنْ حَيْثُ جَالَتْ رَكِيَّةُ سُنْبُكِ فِيهَا انْهِيَارُ
ولعنتره في وصف الفرس المقام الأول بعد امرئ القيس ، فله فيه معان جواد ، إن لم
نحط بها جميعا ، فحسبنا أن نشير إلى بعضها لندل على براعته .

من هذه المعاني وصفه الفرس حين ينهه من حدته ، ويحد من مراحه ، فلا يفتأ
يتلوى ويتثنى بالشارب الثمل ، والنشوان العجل ، وذلك في قوله :

وَكَاَنَّ مِشِيَّتَهُ إِذَا نَهْنَهَتْهُ بِالنَّكْلِ مِشْيَةُ شَارِبٍ مُسْتَعْجِلٍ
وكثير من الشعراء وصف قطاة الفرس وكفله ، ولكن أحدا منهم لم يصفه بذلك
الوصف الذي ترك في خيلة كل قارئ ربما للصخرة الناعمة المساء ، يغشاها السيل الجارف ،
فلا يستقر لها قرار ، وذلك في قوله :

نَهْدُ الْقَطَاةِ كَأَنَّهَا مِنْ صَخْرَةٍ مَلَسَاءٍ يَغْشَاهَا الْمَسِيلُ بِمَخْفِلٍ
فأما سلمة بن الخرشب ، فقد أبدع في وصف التحجيل إبداعا ، وأجاد في تصويره
أيما إجادة ، وذلك في بيته :

تَعَادَى مِنْ قَوَائِمِهِ ثَلَاثُ بِتَحْجِيلٍ ، وَقَائِمُهُ بِهِمْ
كَأَنَّ مَسِيحَتِي وَرَقٍ عَلَيْهَا نَمَتْ قَرْطِينِمَا أُذُنٌ خَدِيمٌ
فتصوير التحجيل في القوائم الثلاث بأنه كالأقراط المصنوعة من الفضة في الآذان المشقوقة
تصوير جميل ، فوق أنه يدل على سراء وثرء ، وحضارة ومدنية .

ولسكننا لا ندرى كيف تكون الآذان ثلاثا ، ولا تكون اثنتين أو أربعا ؟ أحسب
أن الصورة غير محدودة .

أما عوف بن عطية فقد جاءت أبياته كلها وصفا لأجزاء فرسه ، وهو قصير النفس
في الوصف ، ولا نجد له معنى مبدعا سوى قوله :

لَهَا حَافِرٌ مِثْلُ قَعْبِ الْوَلِيدِ يَتَخَذُ الْفَارُ فِيهِ مَفَارًا

أما المرقش الأصفر فقد قدمنا في نقده أنه نهج في وصف فرسه نهجا جميلا ، لا ندرى لماذا لم يتأثره فيه خلفاؤه ، ولعل عدم الاتجاه مبعضه أنه كان شاعراً فارساً ، فهو يجد المادة الغزيرة لوصف فرسه في حربه أكثر من وجود هذه المادة لسواه ، وأكثر من تأمله هو لها في أيام سلمه ، سيان بعد ذلك أن تكون هذه الحرب مع الوحوش الأوابد أم مع الجيوش الجحافل .

وعهدنا بما قدمناه عن جمال معانيه ، وطريف أخيلته وأفكاره قريب ، فلا نعيده مرة أخرى .

وبعد ، فيبدو واضحاً أن عناية العرب بالناقة والإبل كانت أعظم من عنايتهم بالفرس والخيل ، إذ شعرهم في وصف الأولى ونعتها أوفر ، وإذ معانيهم في تصوير نفعها وفضلها أكثر ، وإذ أنفاسهم في عد أياها أطول ، وإذن فنعمتهم ترقى برقى الانتفاع بالمنعوت ؛ إذ مما لا ريب فيه أن الناقة للفقير والغنى ، ولل فارس وغير الفارس ، وللأحرار والجداد ، وليس ذلك شأن الفرس ، فهذه أداة زينة ولهو ، وفروسية وحرب .

كما أنه مما لا ريب فيه أن الفرس أجمل من الناقة وأوسم ، ولكن الانتفاع بها عند الناس جميعاً أولى بالرعاية من الانتفاع الخاص .

وقد قدمنا أن الملاحظ أن الشعراء يختمون وصف الناقة أو يبدؤونه بوصف ما يشبهها من البقر الوحشى أو الحمار ، أو الظليم أحياناً ، ويتمون وصف الفرس بذكر الصيد والطرود ، فوصفهما سبيل إلى نعت سواهما ، فهما إذن — الناقة والفرس — الدعامة الراسخة لهذا الفن ، وعلى نهج الشعراء سنسير ، فنبدأ بوصف الأوابد .

(ح) وصف الأوابد

١ — قال لبيد بن ربيعة * في معلقته يصف البقرة الوحشية :

أَفْتَلَكَ أُمٌّ وَحْشِيَّةٌ مَسْبُوعَةٌ خَذَلَتْ وَهَادِيَةُ الصَّوَارِ قِوَامُهَا؟^(١)
خَنَسَاءُ ضَمِيعَتِ الْفَرِيرِ فَلَمْ تَرَمِ عُرِضَ الشَّقَائِقِ طَوْفُهَا وَبُغَامُهَا^(٢)
٢٨٥ : لَمْعَفَرٌ قَهْدٌ تَنَازَعَ شُلُوهَ غُبْسٌ كَوَاسِبٌ لَا يُمْنُ طَعَامُهَا^(٣)

* ترجمته الشاعر : هو لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر البكرى ، أحد فحول الشعر في العصر الجاهلي ، ونقول في العصر الجاهلي ، مع أنه عمر في الإسلام لأن مؤرخي الأدب يكادون يجمعون على أنه هجر بعد إسلامه الشعر استغفار الشائنة بعد أن سمع القرآن الكريم ، ويزعمون أنه لم يقل بعد إسلامه إلا بيتا واحدا هو :

الحمد لله إذ لم يأتني أجلى حق اكتسيت من الإسلام سربالا
أو هو قوله :

ما عاتب الحر الكريم كنفسه والمرء يصلحه المجلس الصالح
ومن مؤرخي الأدب الحديث من يعد هذه أسطورة ، ويذكر أن في ديوانه كثيرا من الشعر الديني .

التفسير اللغوي : (١) أفتلك : اسم الإشارة يعود على الأنان التي شبه بها ناقته في الأبيات السابقة لهذا البيت . الوحشية : يقصد البقرة ، فهي نعت لمنعوت محذوف . مسبوعة : أصابها السبع بافتراس ولدها . خذلت : تركت دون أن تنصر وتعان . الهادية : المتقدم أو للمقدمة . الصوار : القطيع من بقر الوحش ، والجمع الصيران . القوام : ما يقوم عليه الأمر ، أو الشيء . (٢) الخنساء : صفة من الخنس ، وهو تأخر أرنبه الأنف . الفرير : ولد البقرة الوحشية ، وجمعه الفرار . فلم ترم : فلم تبرح . عرض الشقائق : ناحية الشقائق ، والشقائق : الأرض الغليظة مفردا شقيقة . الطوف : الطواف والجولان . البغام : الصوت الرقيق الناعم . (٣) لمعفر : الملقى على التراب ، وهو صفة للوليد . القهد : الأبيض . تنازع : تجاذب . شلوه : عضوه ، والجمع أشلاء كأعضاء . غبس : جمع أغبس وغبساء ، وهو مالونه كلون الرماد وهو صفة لموصوف محذوف هو ذئاب . لا يمن : لا يقطع ، ومنه قوله تعالى : « وَلَا تَمَنَّيَنَّ تَسْتَكْثِرُ » .

صَادَفَن مِنْهَا غِرَّةً فَأَصْبَنَهَا إِنَّ النَّايَا لَا تَطْيِشُ سِهَامُهَا^(٤)
 بَاتَتْ وَأَسْبَلَ وَآكَفٌ مِنْ دِيمَةٍ يُرَوِّى الْحَمَائِلَ دَائِمًا تَسْجَامُهَا^(٥)
 يَعْلُو طَرِيقَةً مَتْنَهَا مُتَوَاتِرًا فِي لَيْلَةٍ كَفَرَ النُّجُومَ غَمَامُهَا^(٦)
 تَجْتَاوُ أَصْلًا قَالَصًا مُتَبَدِّدًا بِعَجُوبٍ أَنْقَاءَ يَمِيلُ هَيَامُهَا^(٧)
 وَتُضَى فِي وَجْهِ الظَّلَامِ مُنِيرَةً كَجُمَانَةِ الْبَحْرِىِّ سَلَّ نِظَامُهَا^(٨)
 حَتَّى إِذَا انْحَسَرَ الظَّلَامُ وَأَسْفَرَتْ بَكَرَتْ تَزَلُّ عَنْ الثَّرَى أَرْلَامُهَا^(٩)
 ٢٩٢ : عَلِمَتْ تَرَدَّدُ فِي نِهَاءٍ صَعَائِدِ سَبْعًا تَوْأَمًا كَامِلًا أَيَّامُهَا^(١٠)

(٤) الغرة : الغفلة . فأصبتها ، فأنهزتها . لا تطيش : لا تخطئ . سهامها : جمع سهم ، وهو النبل ، وما يرى به .

(٥) أسبل : أرسل وأسال . الواكف : المطر المنهل . الديمة المطرة التى تدوم نصف يوم على الأقل . الحمايل : جمع خيلة ، وهى كل رملة ذات نبت وشجر . التسجام : الانصباب .

(٦) طريقة متنها : خط ظهرها من الحارك إلى الكفل . متواترا : متتابعاً . كفر النجوم غمامها : ستر ضوء النجوم الغمام ، والكفر : هو الستر .

(٧) تجتاف : تدخل فى جوف ، والضمير يعود على البقرة الوحشية . أصلا : جذع شجرة . قالصاً : مرتفع الفروع . متنبذا : متنجيا . بعجوب أنقاء : العجوب جمع عجب بسكون الوسط : وهو أصل الذنب ، والأنقاء : جمع نقي وهو السكيب من الرمل . والمراد أطراف الرمال المتجمعة . الهيام : الرمل ما يزال ينال ولا يتماصك .

(٨) وجه الظلام : أوله ، لأن الوجه أول ما يستقبل الرأى . الجمانة : القطعة من الفضة ، أو اللؤلؤة ، وهى المرادة هنا لنسبتها إلى البحر ، ومنه يؤخذ اللؤلؤ ، لا الفضة . البحرى : للنسوبة إلى البحر أو البحرين ، إذ كان أهل إقليم البحرين مشهورين بالفوص على اللآلىء . سل نظامها : نزع خيطها .

(٩) انحسر : انكشف . أسفرت : أضاءت وظهرت . بكرت : غدت مبكرة . تزل : تزلق . أزلامها : قوائمها مفردها زلم .

(١٠) علمت : هلعت وفزعت . نهاء : جمع نهى وهو الغدير . صعائد : اسم مكان . سبعا : أى سبع ليال . توأما : جمع توأم أى بأيامها .

- حَتَّى إِذَا يَتَّبَعْتُ وَأَسْحَقَ خَالِقُ^(١١) لَمْ يُبْسَلِ إِرْضَاعُهَا وَفَطَامُهَا^(١١)
 فَتَوَجَّسْتُ رَزَّ الْأُنَيْسِ فِرَاعُهَا^(١٢) عَنْ ظَهْرِ غَيْبٍ وَالْأُنَيْسُ سَقَامُهَا^(١٢)
 فَفَدْتُ كِلَا الْفَرَجَيْنِ تَحَسَّبُ أَنَّهَا^(١٣) مَوْلَى الْخَافَةِ خَلْفُهَا وَأَمَامُهَا^(١٣)
 حَتَّى إِذَا يَتَسَّ الرَّمَاةُ وَأَرْسَلُوا^(١٤) غَضْفًا دَوَاجِنَ قَافِلًا أَعْصَامُهَا^(١٤)
 فَلَحِقَنَ وَاعْتَكَرَتْ لَهَا مَدْرِيَّةٌ^(١٥) كَالسَّمْهَرِيَّةِ حَدُّهَا وَتَمَامُهَا^(١٥)
 ٢٩٨: لَتَذُودَ دَهْنٍ وَأَيَقَنْتُ إِنَّ لَمْ تَذُ^(١٦) أَنْ قَدْ أَحْمَمَ مِنَ الْخُتُوفِ حِمَامُهَا^(١٦)

(١١) أسحق خالق : أخلق ضرع ممتلئ ، وليس ذلك هو المراد ، وإنما المراد ضرع مرتفع منضم إلى البطن لجفاف لبنه ، وقد استشهد اللسان على هذا المعنى بيت لبيد هذا . لم يبله : لم يخلقه .

(١٢) فتوجست : فتسمعت خفي الصوت . رز الأنيس : الرز الصوت الخفي ، ويقصد بالأنيس الناس . فراعها : فأفزعها . عن ظهر غيب : عن عدم رؤية لأصحاب الأصوات . سقامها : سبب سقامها وضعفها .

(١٣) ففدت : فصارت . كلا الفرجين : الفرج الواسع من الأرض وموضع الخفاة ، وما بين قوائم الدواب ، فما بين اليدين فرج ، وما بين الرجلين فرج ، وهو المقصود هنا . مولى الخفاة : أولى بالخوف ، فمولى بمعنى أولى ، وذلك كقوله تعالى « مأواكم النار هي مولاكم » .

(١٤) الرماة : الصيادون . غضف : جمع أغضف ، وهي الكلاب المسترخية الآذان . دواجن جمع داجن ، وهي المعودات على الصيد . قافلا : يابسا . أعصامها : جمع عصام ، وهي سيور الجلد توضع في أعناق الكلاب .

(١٥) اعتكرت : رجعت وعطفت . المدرية : طرف القرن . السمهرية : الرماح المنسوبة إلى ممهر ، وهو رجل من قرية خطأ إحدى قرى البحرين عرف بثقيف الرماح وكانت له زوجة تسمى ردينة تنسب إليها الرماح كذلك .

(١٦) لتذودهن : لتدفعهن . أحم : حان الموت . الختوف : جمع ختف وهو الموت حمامها : موتها .

فَقَصَّدَتْ مِنْهَا « كَسَابٍ » فَضُرِّجَتْ

بِدَمٍ ، وَغُودِرَ فِي الْمَكْرِ « سُخَامُهَا » (١٧)

فَبِتَلَكْ إِذْ رَقَصَ اللَّوَامِعُ بِالضُّحَا واجْتَابَ أَرْدِيَةَ السَّرَابِ إِكَامُهَا (١٨)

٣٠١ : أَقْضَى اللَّبَانَةَ لَا أَفْرَطُ رِيَّةَ أَوْ أَنْ يَلُومَ بِحَاجَةِ لَوَامُهَا (١٩)



(١٧) فَقَصَّدَتْ : فَقَصَدَتْ . كَسَابٍ : اسم كلبة الصيد . فَضُرِّجَتْ : نَحَضِبَتْ بِالْدم .
غُودِرَ : تَرَكَ . الْمَكْرَ : مَكَانَ الْكُر . سُخَامُهَا : اسم كلب الصيد ، ويظهر أنه كان أسود ، إِذْ
لِلسُّخَامِ السَّوَادُ .

(١٨) فَبِتَلَكْ : الْإِشَارَةُ إِلَى النَّاقَةِ الَّتِي تُشَبِّهُ الْبَقْرَةَ الْوَحْشِيَّةَ . رَقَصَ اللَّوَامِعُ : اهْتَزَتْ .
الْقِيَا فِي اللَّوَامِعِ ، فَالْوَامِعُ صِفَةٌ لِمَوْصُوفٍ مَحْذُوفٍ . اجْتَابَ : لَبَسَ . أَرْدِيَّةٌ : جَمْعُ رَدَاءٍ ، وَهِيَ
الْأَثْوَابُ . الْإِكَامُ : جَمْعُ أَكْمَةِ الْمَرْتَفَعَاتِ .

(١٩) اللَّبَانَةُ : الْحَاجَةُ . لَا أَفْرَطُ : لَا أَقْصِرُ . رِيَّةٌ : خَوْفًا . اللَّوَامُ : الْكُتَيْبُ الْعُتْبِ

وَالْقَوْمُ .

تحليل الأبيات :

هذه الأبيات من معلقة ليبد بن ربيعة ، وقد أظهر الشاعر في معلقته ضروبا من الافتنان في جميع فنون الشعر ، ولا سيما الوصف ؛ فقد تناول بالوصف الرائع الديار المقفرة ، والمنازل الدارسة ، والأمطار الواكفة ، ثم تغزل غزلا قصيرا ، وكأني بلبيد كان رجلا جادا كزهير ، إذ لم يلبث أن عاد إلى الوصف ، فوصف الناقة وصفا صافي النبعة ، غزير المادة ، وهذا الجزء أحد تلك التشبيهات ، فهو يشبهها بالبقرة الوحشية فيقول :

أفتلك الأنان « التي كان قد شبه بها ناقته قبل » أم البقرة الوحشية التي قد نكبتها السبع في ولدها ، حين غيبتها عنه ؟ إذ ذهبت ترعى مع صويحباتها من القطيع والصيران ؛ لتعود إليه وقد حفل باللبن ضرعها .

لقد خذلها زعيم القطيع وقائده ؛ إذ لم يستطع عن ولدها دفعا ، فهي هائجة نائرة ، تطلب ولدها ، فلن يستقر لها من دونه قرار .

تلك البقرة الجميلة الخنساء ، المضيفة للفرير ، المفقودة الصغير ، لا تريم عن تلك الأرض الغليظة ، ولا تبرح عرض الشقائق طائفة صائحة صياحا رقيقا حزينا ، وكأنها تناديه فلا يجيبها ، فهي تبكي ذلك الفرير الذي طواه الرغام ، وغطاه التراب ، ففر حسنه ، وغيب جماله ، تبكي ذلك الأبيض الناصع البياض الذي تنازعت الذئاب أشلاءه ، وتجادبت الغبس أعضائه ، فقد صادف من البقرة غفلة فاتهرزنها ، وأصبن منها غرة فاقنصن فريرها ، ولو لم يكن القضاء نافذا ، والقدر مبرما ما صادف الغفلة ، ولا أصبن الغرة ، ولكن « إن المنايا لا تطيش سهامها » .

ها قد ولى النهار ، وأقبلت جحافل الظلام ، فباتت باكية نائحة ، تشاركها في بكائها ديمة واكفة ، ويشاطرها عبراتها مزنة ماطرة ، تروى الخائل بمائها المنسكب ، ودمعها المنهر ، وهي في ليالها المكفهر يغطى طرائق ظهرها ، وخطوط متنها ذلك المطر المتواتر للمتتابع ، لا يقبها منه كن ، ولا يحجبها عنه كناس ، وقد ستر الغمام ضوء النجوم ، وكفر الركام نور الكواكب ، فكانت ليلة ليلاء اجتمع فيها هلى الخنساء الحزن والبرد والمطر ،

فإذا اشتد عليها التهطلال جهدت أن تنقيه بالاستتار تحت جذع شجرة مستطيلة الفروع ، ممتدة الأفنان ، وهذه الشجرة نائية عن غيرها من الأشجار .

إنها وقعت في كتيب من الرمل ينال ولا يتماسك ، ويتساقط ولا يتساند ، فهي لفقد فريرها في حزن ، ومن الطبيعة في صرَد ، ومن انهيار الرمل في فزع ، فما أشد ما نزل بها ! وما أعظم ما انتابها !

هذه البقرة بيضاء ناصعة ، فكأنها إذ تظهر في أول الليل ساطعة واضحة ، درة صدفية ، أولؤلؤة بحرية ، قد وهى عقدها ، وانفرط نظامها ، فهي لا تستقر في مكان .

فإذا ما انكشف الليل ، وولى الظلام ، وتنفس الصبح ، وأسفر النور ، أصبحت مبكرة تنزع من الثرى قوائمها ، وتزل من التراب أزلامها ، ثم ظلت كما كانت هلمة فزعة ، لم يزيلها هلمها ، ولا جانبها فزعها ، واستمر ذلك حالها في المكان المعروف بصعائد سبع ليال وثمانية أيام تبحث عن وليدها ، وكأنها تقدر أنه غائب وسيثوب :

وكل مسافر سيثوب يوما إذا منح السلامة والإيابا

وهي لم تر أحدا سلبه سلامته ، ولم تلاحظ عدوا انتهب من بين جنبه روحه ، وإذن فلا بد من إياب .

وها هي ذى - وقد قضت ثمانية أيام سويا تبحث عنه فلا تجده ، وتهيب به فلا يفد عليها - تياس من عودته ، ويجف ضهعها ، ويسحق خلفها ، وقد كان امتلاؤه أول الأمر باللبن من أسباب لوعتها وأسائها ؛ إن ضرعها جف لاعن إرضاع بل عن غياب ، وها قد سمعت صوتا خفيا ، وتوجست من الناس شرا ، فارتاعت ولم تر ما يروعها ، وفزعت دون أن تبين ما يفزعها ، ولكنها مع ذلك حقيقة بأن ترتاع وتفرع ، فالناس بسهامهم أسباب حتوفها ، وهم رسل منيتها ، فهي مضطربة محتاجة ، لا تدرى من أين يجيئها حينها ، أمن الأمام فتتقيه أم من الخلف ؟ وهذا مالا حيلة لها فيه ؛ لأنها لا تبصره ولا تراه ، وليس لها إلى دفعه من سبيل .

إنها لا تبين مصدر الصوت حتى تنقى المفاجأة ، وتتفادى المباغتة ، وهي قد فوتت

على الرماة أغراضهم ، فلم يصيبوا منها غرضا ، ولم يسددوا نحوها سهما ، فأرسلوا عليها كلابهم المسترخية الآذان ، المضرّاة على الصيد ، قد جملت بالقلائد في الأعناق ، وزينت بالأعصام في الأجياد ، فلحقت بها الكلاب ، فأبت إليهن تدافعها عن نفسها :

وإذا لم يكن من الموت بدءٌ فمن العجز أن تكون جباناً

كان ذلك منطق تلك البقرة قبل أن ينطق به التنبي ، وكان مستقيماً ، فلها تلك المدرية التي هي أشبه بالرماح السميرية في حدة نصلها ، وطول قناتها .

عظفت عليهن ، لتذودهن عن نفسها ، وهي واثقة أنها إن لم تستمت في الدفاع عن حياتها ، فإن الخلف سيكون مآلها ، قصدها تلك الكلبة الكسوب حتى سميت كساب فقاجاتها بضرة بقرنها ، فضرجت بدماؤها ، وأقبلت على سخام فتركتها مجدلاً ، فكان لها النصر ، وحقا قيل : « من طلب الموت وهبت له الحياة » .

بتلك الناقة القوية السريعة التي تشبه في قوتها وسرعتها البقرة الوحشية المسبوعة أقطع المغازات ، في ساعات الهجير ؛ إذ يلعب السراب ضحاً ، وإذا تلبس الآكام أردية الآل ، أقطعها لأقصى أوطاري ، وأدرك مآربي ، لا أفرط في طلبها خشية أو ارتياباً ، وما على أن يلومني اللأمون .

النقر :

لقد كان لبيد أطول الشعراء في وصف البقرة الوحشية نفساً ، وهذه الإطالة لم تهن من قوته ، بل جاء كالفرس الجواد ، كلما طال المدى ظهر كرمه ، وبدا عزمه ، ذلك شأن لبيد في وصفه يظهر قدرة فائقة ، ويبدى كفاية نادرة ، ويزجى فنونا من الافتنان ، ويسوق ضروباً من الإحسان ، لم يزجها شاعر جاهلي بعد امرئ القيس سواه ، ولا سيما في معلقته التي منها هذه الأبيات ، وفرق بينه وبين طرفه ، فإن طرفه وصف أعضاء الناقة وأجزاءها . أما لبيد فوصف شيئاً غير أعضائها ، وصف ماتمدح له الناقة ، فشبها بالغمامة الحمراء ،

إذ يقول :

فلها هبابٌ في الزمام كأنها صهباء خفّ مع الجنوب جهامها

ثم شبهها بالأتان الوحشية ، ثم شبهها بالبقرة المسبوعة ، وغرضه من جميع هذه الأوصاف السرعة .

وللبيد صور شعرية ناطقة ؛ محيطه كل الإحاطة بما يصوره ، فهي تنفذ إلى الأعماق ، وتصل إلى اللباب ، فانظر تلك الصورة البارة في وصف بياض البقرة :

وتُضِيءُ في وجهِ الظَّلَامِ منيرةٌ كجمانة البحرى سُلَّ نظامها

لم يكنه أن يصفه بالجانة ، فوصف ضوءها في الظلام ، ونسبها إلى موطنها ، ثم فرط عقدها ، لأن ذلك يصور حركتها الدائمة ؛ إذ ليس هناك ما يمسك هذه الحركة ، وانظر إلى قوله في وصف قرنها :

فلَحَقْنَ واعتكرت لهما مدريةٌ كالسمهرية جُدُّها وتماها

وصف القرن بأنه كالرمح ، وليعطينا صورة كاملة ذكر أنه كان محددا وطويلا ، وانظر إلى قوله يصف الفلاة يرقص فيها السراب :

فبتلك إذ رقص اللوامع بالضحا واجتأب أردية الظلام إكامها

إنها صور لا يجيد رسمها إلا شاعر مصور كلييد .

وميزة أخرى للبيد هي أنه يستطيع أن يجعل الوصف مجالا للحكمة والوعظ كقوله :

صادفن منها غيرةً . فأصبنا إن المنايا لا تطيش سهاها

وقوله :

لتدودهن وأيقنت إن لم تدد أن قد أحمر من الخوف حمامها

أليست هذه قدرة أخرى امتاز بها لبيد ، ولم يشاركه فيها إلا زهير بن أبي سلمى ، ولم نجد من الشعراء سواهما من هي له من التفوق في هذا الضرب ماهي زهير وللبيد .

٢ — وقال النابغة الذبياني * من قصيدته التي أولها :

يَا دَارَ مَيْمَةٍ بِالْعِلْيَاءِ فَالسَّنَدُ أَقْوَتُ وَطَالَ عَلَيْهَا سَافُ الْأُمَدِ^(١)

كَأَنَّ رَحْلِي وَقَدْ زَالَ النَّهَارُ بِنَا يَوْمَ الْجَلِيلِ عَلَى مُسْتَأْنِسٍ وَحِدِ^(٢)

مِنْ وَحْشٍ وَجَرَّةٍ مَوْشَى أَكَارِعُهُ طَاوَى الْمَصِيرِ كَسِيفِ الصَّيْقَلِ الْفَرْدِ^(٣)

سَرَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْجُوزَاءِ سَارِيَةٌ تُرْجَى الشَّمَالُ عَلَيْهِ جَامِدَ الْبَرْدِ^(٤)

٣٠٦: فَارْتَاعَ مِنْ صَوْتِ كَلَّابٍ فَبَاتَ لَهُ

طَوْعُ الشَّوَامِتِ مِنْ خَوْفٍ وَمِنْ صَرَدٍ^(٥)

ترجمة الشاعر : هو زياد بن معاوية أحد الشعراء الثلاثة الذين حكم لهم بالسبق في الشعر ، وزعيم نقاديه ، وذوى البصر به ، كانت تقام له قبة من جلد في سوق عكاظ : ليتحكم إليه الشعراء ، وكان من سرارة قومه ، ففض مدحه الملوك وأخذهم الصلوات من ذلك السراء ، وأجود شعره ما قاله في الاعتذار إلى النعمان بن المنذر ، وما ساقه في الوصف ، وقيل إنه لقب بالنابغة ، لنبوغه في الشعر بعد أن كبرت سنه توفي سنة ٦٠٤ م .

التفسير اللغوي : (١) مية : حليلته . العلياء : المرتفع من الأرض . السند : ما يقابل الإنسان من الجبل ، وهو فوق السفح . أقوت : خلت أو أفقرت . سالف الأمد : ماضى الدهر . (٢) الرحل : ما يوضع على ظهر البعير ، فيشبه السرج للفرس . زال النهار : حل وقت الزوال ، وهو الوقت الذي تتوسط الشمس فيه السماء . يوم الجليل : بذلك المكان الذي ينبت الجليل وهو الثمام . المستأنس : الذي ينظر بعينه كأنه يطلب الأنيس . وحد : منفرد (٣) وجرة : فلاة بين مكة والبصرة ، وهي قليلة الماء لذلك لا يسكنها أحد . موشى : منقط . أكارع : قوائمه ، ومفرده كراع كغراب . طاوى المصير : ضامر المصير ، وجمع المصير مصران ، وجمع الجمع مصارين . الفرد : الفريد الذي لا نظير له . (٤) سرت المسارية : سارت السحابة ليلا . الجوزاء : نجم يظهر صيفاً . سارية سحابة تسير بالليل . ترجى : تسوق برفق . الشمال : الريح تهب من جهة الشام . جامد البرد : الماء للتجمد قطعاً صفراً الشدة البرد . (٥) فارتاع : نفزع ، والضمير يعود على الثور الوحشى . كلاب : صاحب كلاب . طوع الشوامت : مطيع القوائم ، الشوامت جمع شامته . الصرد : البرد الشديد .

فَبَنُّنَ عَلَيْهِ وَاسْتَمَرَ بِهِ صُحْمُ الْكُمُوبِ بَرِيَاتٍ مِنَ الْحَرَدِ ^(٦)
 وَكَانَ «ضُرَانُ» مِنْهُ حَيْثُ يُوزَعُهُ طَعْنَ الْمَعَارِكِ عِنْدَ الْمَخَجْرِ النَّجْدِ ^(٧)
 شَكَّ الْفَرِيصَةَ بِالْمَدْرَى فَأَنْفَذَهَا شَكَّ الْمُبَيْطَرِ إِذْ يَشْفِي مِنَ الْعَضْدِ ^(٨)
 كَأَنَّهُ خَارِجًا مِنْ جَنْبٍ صَفَحَتِهِ سَفُودُ شَرْبٍ نَسُوهُ عِنْدَ مُفْتَأَدِ ^(٩)
 مَظَلٍّ يَعْجَمُ أَعْلَى الرُّوقِ مُنْقَبِضًا فِي حَالِكِ اللَّوْنِ صَدَقَ غَيْرِ ذِي أَوْدِ ^(١٠)
 لَمَّا رَأَى «وَاشِقُ» إِقْعَاصَ صَاحِبِهِ وَلَا سَبِيلَ إِلَى عَقْلٍ وَلَا قَوْدِ ^(١١)
 ٣١٣ : قَالَتْ لَهُ النَّفْسُ: إِنِّي لَا أَرَى طَمَعًا وَإِنْ مَوْلَاكَ لَمْ يَسْلَمْ وَلَمْ يَصِدِ ^(١٢)

(٦) فَبَنُّنَ : فَمَرَقَنَ ، وَالضَّمِيرُ يَعُودُ عَلَى الْكَلَابِ ، وَإِذَا هُنَاكَ غَيْرُ ضَمْرَانَ وَوَاشِقُ ، وَيُظْهَرُ أَنَّ هَذَيْنِ كَانَا أَمْهَرِ الْكَلَابِ . صُحْمُ الْكُمُوبِ : ضَوَامِرُ ، وَمُفْرَدٌ صَمْعٌ أَصَمْعُ ، وَهُوَ وَصْفٌ لِلْقَوَائِمِ الْمَلْسِ . بَرِيَاتٍ مِنَ الْحَرَدِ : بَرِيَّاتٌ مِنَ الْحَرَدِ وَهُوَ تَرْهَلٌ فِي الْمَفَاصِلِ .
 (٧) ضَمْرَانُ : اسْمُ كَلْبٍ . يُوْزَعُهُ : يَفْرِيه وَيَحْضُهُ . الْمَخَجْرُ : الْمَلْجَأُ . النَّجْدُ : الشَّجَاعُ مِنَ النَّجْدَةِ ، أَوْ الَّذِي يَعْزِقُ مِنَ الْكَرْبِ وَالشَّدَةِ ، وَالْأَبْلُ هُوَ الْمُرَادُ .
 (٨) شَكَّ الْفَرِيصَةَ : طَعَنَهَا وَأَنْفَذَ فِيهَا قَرْنَهُ . وَالْفَرِيصَةُ: قِطْعَةُ لَحْمٍ مِنْ مَرْجَعِ الْكَتِفِ إِلَى الْحَاصِرَةِ . الْمَدْرَى : الْقَرْنُ . الْمُبَيْطَرُ : الْعِضْدُ . الْعَضْدُ : بِالْفَتْحِ دَاءٌ يَصِيبُ الْعِضْدَ .
 (٩) كَأَنَّهُ : الضَّمِيرُ يَعُودُ عَلَى الْقَرْنِ . صَفَحَتِهِ : جَانِبُهُ . سَفُودُ شَرْبٍ : السَّفُودُ حَدِيدَةٌ يَشْوِي عَلَيْهَا اللَّحْمُ ، وَالشَّرْبُ جَمَاعَةُ الشَّارِبِينَ . نَسُوهُ : تَرَكَوهُ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : « نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ » أَيْ تَرَكَوهُ فَتَرَكَهُمْ : إِذْ اللَّهُ جَلَّ شَأْنُهُ لَا يَنْسَى شَيْئًا . الْمُفْتَأَدُ : مَوْضِعُ النَّارِ الَّتِي فِيهَا الشَّوَاءُ . (١٠) فَظَلَّ : فَاسْتَمَرَ الْيَوْمَ كُلَّهُ وَلَيْسَ مُرَادًا وَإِنَّمَا الْمُرَادُ فَاسْتَمَرَ . يَعْجَمُ : يَمْضَغُ . الرُّوقُ : الْقَرْنُ . مُنْقَبِضًا : مَنْطُويًا مُتَجَمِّعًا . الصَّدَقُ : بِالْفَتْحِ الصَّلْبُ . الْأَوْدُ : الْإِعْجَاجُ .
 (١١) وَاشِقُ : اسْمُ كَلْبٍ آخَرُ ، وَاسْمَى بِذَلِكَ لِأَنَّهُ يَشُقُّ اللَّحْمَ . إِقْعَاصُ صَاحِبِهِ : الْإِقْعَاصُ الْقَتْلُ السَّرِيعُ الَّذِي تَزِلُ بِصَاحِبِهِ ضَمْرَانَ . لَا سَبِيلَ : لَا طَرِيقَ وَلَا رَجَاءَ . إِلَى عَقْلٍ : إِلَى دِيَّةٍ ، وَلَا قَوْدَ : وَلَا قِصَاصَ . (١٢) قَالَتْ لَهُ النَّفْسُ : نَاجَتْهُ نَفْسُهُ وَحْدَتُهُ . وَلَهُ الضَّمِيرُ يَعُودُ عَلَى وَاشِقٍ . الطَّمَعُ : الرَّجَاءُ وَالْأَمَلُ . مَوْلَاكَ : سَيِّدُكَ . لَمْ يَسْلَمْ : لَمْ يَسْلَمْ مِنَ الْحَصَارَةِ .

تحليل الأبيات :

ناجى النابغة دار محبوبة مية متوجما متحسرا ؛ لأنه كان منها فى نيم ، وبعد أن
شنى قلبه بمناجاته إياها ، والتحسر عليها ، أخذ يصف ناقتة فى بيتين انتقل بعدها إلى وصف
الثور الوحشى ، والبيتان هما :

فمدَّ عما ترى إذ لا اِرتِجَاعَ لَهُ وأتمَّ القَتودَ عَلَى عَيْرَانِهِ أُجْدٍ
مَقْدُوفَةٍ بِدَخِيسِ النَّحْضِ بَازِلُهَا له صَريفٌ صَريفٌ القَعْوِ بِالمَسَدِ
كَأَنَّ رَحْلِي وَقَدْ زَالَ النَّهَارُ بِنَا

فهو يقول : كَأَنِّي إِذْ أَضَعُ رَحْلِي سَاعَةَ الزَّوَالِ ، فوق ظهر ثور وحشى غير محدود النشاط ،
فى ذلك المكان الوحش الذى لا أنيس لى فيه يزيل وحشى ، ويؤنس وحدتى .

إنه من وحش وجرة القليلة الماء ، المكدومة الغذاء ، وهو ضامر كالسيف المصقول ،
ليس له فى صقله نظير ، وهو إلى توجسه وخوفه ، وظمئه وجوعه قد أسرت إليه فى ليلة
ضريرة النجم مزنة شمالية لاتمل البكاء ، ولا تترك النحيب ، فهى تحمل إليه البرد والبرد ،
وتسوق له معها الخوف والحذر ، والجوع والظما .

لكل أولئك هو مضطرب الحس ، هلع النفس ، قد ضاعف ما هو فيه أنه سمع صوت
صياد جاء يغزوه فى عقر داره ، ويطارده فى فلاته بقوائصه ، ولكنه قدر أن الله منحه
أكارع ملساء ، وقوائم جرداء قد برئت من العيب ، وسلت من الحرد ، فهى كفيلة بأن
تدفع عنه هذه الكلاب المطاردة .

أقبل عليه زعيمها كما أراد منه سيده ، فإذا انصباب واندفاع ، وقفز ووثب ، ومداورة
ومراودة ، ومخادعة ومخاتلة ، ثم معركة حامية الوطيس طعن فيها الثور ضمران فى شجاعة
ونجدة طعنة أنفذ بها قرنيه فى بطنه ، فكان كأنه يبطار يشق عن داء ليفسله بالدواء ، وظهر
القرن من الجنب الآخر مضرجا بدم الكلب ، كأنه سفود تركه فوق النار جماعة الشارين ،
فاهر واشتمل ، فصار كأنه صمود من النار ، وأخذ الكلب فى ثورة ويأس يعض أعلى القرن

الحالك الأسود ، القوى الصلب ، المستقيم الممتد ، وهو متقبض الجسم ، مكفهر الوجه ، مما يشهر به من آلام الجراح والأوجاع .

وحين رأى واشق ماحل بأخيه من هزيمة وبوار ، واندحار وانكسار ، دون أن يحكم له أحد بدية يودى بها ، أو قصاص يقتص به من عدوه الفاتك ، حدثته نفسه ، وقد استولى عليها الفزع ، ونزل بها الجزع أنه لا يرى في ذلك الثور مطمعا ، ولا يرجو من وراء منازلته مغنا ، فعليه أن يرضى من الغنيمة بالإياب ، فهاهوذا سيده يعود وقد خسر خسارة فادحة ، دون أن يكسب شيئا ، فما أشقى جده ! وما أتعس يومه !

النقر :

كأنى بالنابغة الشاعر الوصاف القاص قد عمد إلى وصف قصة تخيلها ، وقص منظر تصوّره ، غنى بأن يصف الثور الوحشى في معركة حامية ، وبأن يقص علينا قصة حربية ، والنابغة يجيد القصص ويحسن التصوير .

أتاح له الإجابة في هذين النوعين خياله الواسع ، وشرفه الرفيع ، فقد هيأت له حماة المتحضرة ، ورحلاته المتعددة ، ومنادمته الملوك ، ومصاحبته الأقيال أن يتسع خياله ويجود تصويره .

اختار لهذه المعركة أسلحتها ، وأعد لها عتادها : الثور الوحشى ، والكلاب المبنونة ، والشك والفرائص ، والمدرى والروق ، والبيطر والعضد ، والسفود والمفتاد ، ثم رأى أن الصلح الشريف غير مستطاع فلا دية ولا قود ؛ فأى ألقاظ ميدان تنقص وصف ذلك الميدان ؟ وأى صورة للمعارك أدنى من تلك الصورة التى أعد لها ألوانها ، وهياً لها ميدانها ؛ إذ يقول :

وكانَ «مُضمران» منه حيثُ يُوزَعُه	طعنَ المَعارِكِ عِندَ الحَجَرِ النَّجِدِ
شكَّ الفَريصَةَ بِالْمِدرى فَأَنفَذَها	شكَّ الْمُبِيطِرِ إِذْ يَشْنِي مِنَ الْعَضْدِ
كَأَنَّهُ خَارجًا مِنْ جَنبِ صَفْحَتِهِ	سَفُودٌ شَرَبَ نَسْوَهُ عِندَ مُفْتَادِ

فَظَلَّ يَعْجُمُ أَطْلَى الرُّوقِ مُنْقَبِضًا فِي حَالِكِ اللَّوْنِ صَدَقَ غَيْرِ ذِي أَوْدٍ
لقد كانت معركة النابغة معركة أليمة أسالَ فيها الدماء ، وكأني به كان من تُجَّار الحرب
— كما يقالُ في الأساليبِ الحديثةِ — فعاشَ حياته داعياً إليها ، محرّضاً عليها ؛ حتى بينَ
أنواعِ الحيوانِ .

تلك معاني النابغة تدلُّ على بيئةٍ حربيّةٍ ، دلالتها على الخيلِ الخُصْرَى ، فليس
جميع العرب يعرفون : « سَفُودٌ شَرِبَ نَسُوهُ عِنْدَ مُفْتَادٍ » وإنما هذا خيال من ينادم
الملوك والأمرأ .

أما أسلوبه فمستقيم لا أمت فيه ولا عوج ، ولا تركيب ولا تعقيد ، وإنما هو يسير على
نمط عال من القول ، وقوة محكمة من الرصف . وأما الألفاظ فإن النابغة السهل العذب يجزل
ويصلب عند ما يتناول وصف معاني الحياة الجزلة الصلبة كالناقة والصحارى ، والأوابد
والفيافي ، وكأني به يريد محاكاة تامة للطبيعة ، وهذه إحدى نواحي قدرته وجلاله .



٣ — وقال سويد بن أبي كاهل الشكري * من يتيمته التي أولها :
بَسَطَتْ رَابِعَهُ الْحَبْلَ لَنَا فَوَصَّلْنَا الْحَبْلَ مِنْهَا مَا اتَّسَعَ^(١)

فَكَأَنِّي إِذْ جَرَى الْآلُ مُضْحًا فَوْقَ ذَبَالٍ بِمَجْدِيهِ سَفَعَ^(٢)
كُفَّ خَدَاهُ عَلَى دِيبَاجَةٍ وَعَلَى الْمَتْنَيْنِ لَوْ أَنَّ قَدْ سَطَعَ^(٣)
يَبْسُطُ الْمَشَى إِذَا هَيَّجَتْهُ مِثْلَمَا يَبْسُطُ فِي الْخَطْوِ الذَّرْعَ^(٤)
رَاعَهُ مِنْ طِيءٍ ذُو أَسْهَمٍ وَضِرَاءٍ كَنَّ يُبْلِينَ الشَّرْعَ^(٥)
٣١٩ : فَرَاهَنَ وَلَمَّا يَسْتَبِينَ وَكِلَابُ الصَّيْدِ فِيهِنَّ جَسَعَ^(٦)

* ترجمه الشاعر : سويد بن أبي كاهل الشكري ، شاعر مخضرم عمر طويل في الجاهلية ، ثم أدرك الإسلام ، فأسلم ، وقد عده نقاد الشعر من أجواد الشعراء ، وقصيدته التي منها هذه الأبيات من الرائع النفيس ؛ حتى كان العرب يسمونها باليتيمة لما تشتمل عليه من الحكمة الحكيمة ، والمثل الصادق ، ولا يحفظ التاريخ الأدبي للشاعر غير هذه القصيدة إلا القليل ، وإذن فإن يكن من المحيدين ، فقد كان من المقلين ، توفي سنة ٦١ هـ .

التفسير اللغوي : (١) بسطت : مدت . رابعة : اسم محبوبته . الحبل : يريد الوصل . فوصلنا الحبل : فأطلقنا حبل الوصل . ما اتسع : ما أمكن اتساع الوصل لنا . (٢) الآل : السراب . الذبال : الطويل الذيل من أي حيوان ويقصد هنا الثور الوحشي . سفع : السفع السواد المشرب بالحمرة . (٣) كف : ضم ، ومنه قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « أمرت ألا أكف شعراً ولا ثوباً » يعني في الصلاة . الديباجة : صفحة الحد . على المتنين . على جانبي الظهر . سطع : ظهر ووضع . (٤) يبسط المشى : يوسع الخطو ويمده . هيجته : أثره ، مثلاً يبسط : مثل بسط . الذرع : الطلا ، وهو ولد البقرة الوحشية .

(٥) راعه : أفزعه ، والضمير يعود على الذرع في آخر البيت السابق . لا على الثور . طيء : لإحدى القبائل العربية المنسوبة إلى قحطان ، وكان أبناؤها معروفين بالمهارة في الصيد . ذو أسهم : وصف لموصوف محذوف أي صياد صاحب أسهم ، والأسهم جمع سهم النبال . الضراء : الكلاب الضراء على الصيد ، ومفردا ضار . يبلين : يخلقن . الأوتار ، مفردا شرعة . (٦) فرأهن : ضمير النسوة عائد على الضراء ، والضمير الفاعل عائد على الثور : لما يستبين . لما يتحقق ويتبين . الجشع : الطمع وشدة الحرص على الصيد .

ثُمَّ وَلِيَّ وَجَنَابٍ لَهُ مِنْ غُبَارِ أَكْدَرِيٍّ وَاتَّدَعَ^(٧)
فَتَرَاهُنَّ عَلَى مَهْلَتِهِ يَخْتَلِينَ الْأَرْضَ وَالشَّاةُ يَلْعَ^(٨)
دَانِيَاتٍ مَا تَلْبَسْنَ بِهِ وَاقَاتٍ بِدِمَاءٍ إِنْ رَجَعَ^(٩)
يُرْهَبُ الشَّدُّ إِذَا أَرْهَقْنَهُ وَإِذَا بَرَزَ مِنْهُنَّ رَبَعَ^(١٠)
سَاكِنُ الْقَفْرِ أَخُو دَوِيَّةٍ فَإِذَا مَا آتَسَ الصَّوْتِ امْصَعُ^(١١)



(٧) ولي : مضى وفر . جنابان له : جانبان له . الأكدرى : للنسوب إلى الأكدر وهو وصف من الكدرة وهي الغرة . اتدع : تراخى في جريه ، ولم يجهد نفسه في عدوه ، لاطمئنانه إلى بعده .

(٨) مهلته : تمهله وتباطؤه . يختلين : يقطعن ، ومنه اختلى العشب : جزه وقطعه . للشاة : اسم للثور الوحشى . يلع : يستخف بهن ، ولا يجد في بعده عنهن .

(٩) دانيات : قريبات : ما تلبسن : لم يختلطن به . واقات : موقات . بدماء : بجريان دماء أو بحركة تسيل فيها الدماء . إن رجع : إن عاد إليهن وقرب منهن .

(١٠) يرهب الشد : يخيف العدو السريع فيطيعه . أرهقته : أتعبه وأعجله . برزمنهن : بعد عنهن ، ومنه برز الفرس إذا سبق الخيل في الميدان وبعد فلم يدركه . ربع : اطمأن فأقام ، يقال « اربع على نفسك » أى توقف مطمئناً على نفسك .

(١١) ساكن القفر : كناية عن الثور الوحشى ؛ لأنه يعيش في القفار ، ومثلها أخودوية . آتس : سمع وأحس . امصع : ولى ، يقال : مصع الفرس : مر مرا خفيفاً .

تحليل الآيات :

بدأ سويد قصيدته بالغزل ، فأخبر أن حبيبته قد بسطت له حبل وصلها ، ومدت له في مرضاتها ، فبادلها شعورها ، ثم سار بعد الغزل في أفانين من الوصف حتى بلغ وصف ناقته ، فشبهها بالثور الوحشى ، فقال :

كأنى فى تلك القلاة المقفرة — وقد برق فيها السراب ، ولمع أمام السائرين ، وتألّق وسطع فى عيون الناظرين ؛ إذ الشمس مشرقة ، والأشعة متألّثة — أركب ثوراً ضافى الذيل ، أسيل الخد ، نبيل الصفحة ، نخداه أسفعان فى سوادها حمرة تمدحهما حسنا ، وتكسوهما رونقا ، قد ضما على صفحة سوداء ، وجما على ديباجة سفاء . أما جانبها ظهره فناعصا البياض ، ساطعا الإشراق ، يبسط المشى ، ويوسع الخطو إذا ظهر له ما يهيجه ، أو لمح ما يثيره ، حينئذ يبدو للرأى ، وكأنه الطلا سرعة عدو ، وشدة ركض .

وهاهوذا يظهر له ما يحتاجه ويثيره ، ظهر له صياد ماهر ، من قبيلة طيئ المشهورة بالرماية ، المعروفة بالتسديد ، أسهمه لديه موفورة ، وكلابه معه مضراة ، فهى لكثرة استخدامها توهى أوتار الأسهم .

لقد رأى الثور هذه الكلاب ، ولم قد رآها من قبل ، ولم عرف صراوتها وقوة مراسها ؛ إنه يراها على مدى بعيد ، ومن بعد سحق ، يعرفها حريصة على صيده ، طموعا فى قنصه ، فولى دونهن مدبرا ، وقد اغبر جانباه ، واكدر متناه من الغبار المنتشر من كره وفرة ، ومن شدّه وعدوه ، وإذ وثق بنأيه عنهن ، وأيقن عدم قدرتهن على لحاقه سار فى تراخ وتباطؤ ؛ كأنه يشمت بهن ، ويسخر منهن ، فهن يقطعن الأرض عاديات ، ويختلن المفازة مسرعات ، أما هو فيسير متمهلا ، « فكأنه آس يحس عيلا » إنها تدنو ولكنها لا تلحقه ، وتقرب من مكانه ولكنها لا تدانيه ، حينما يزداد قربها منه يخيف العدو فيطيمه ، ويهيب بالشد فيجيبه ، فإذا هو عاد راكض حين يرهقنه لحاقا ، ويعجلنه إدراكا ، فإذا ما أبعد عنهن ، وقف ينظر إليهن مطمئنا إلى قوته ، مقتبضا بسبقه وتفوقه .

إن هذا الثور ابن الصحراء ، وأخو المفازات شديد الإحساس ، متوفز الإدراك ،

فإذا ما أحس نامة ذهب عدوا ، وإذا شعر بحركة راح ركضا ، فإذا هو عن الشر بعيد ، ومن عدوان العدو أمين .

النقر :

في هذه الأبيات صورة واضحة لطرد الكلاب للثيران الوحشية ، فهي تحاول أن تختلها عن نفسها ، وتجاهدها لتقتنصها ، ولكن الأخرى دأمة اليقظة ، شديدة الحرص على ألا تقع في أيدي أولئك المعتدين .

انظر إلى الحركات في تلك الصور الشعرية : يراها عن بعد ، فيترقبها ، ثم يبتعد عنها عدوا ، ثم يقف متراخيا ناظرا إليها ؛ ليراه إلى أين تسير وإلى أى جهة تقصد ؟ فهو يعرف في الكلاب الدهاء والخداع ، والمواربة والمناورة ، فإن سارت الكلاب يمينا سار هو شمالا ، وإن أقبلت تلك أدبر ذاك حتى يئأس الصياد من الصيد ، وتعجز الكلاب عن الطرد . إن الثور لا يطفرف له طرف ، ولا يغمض له لخط ، فذو الأسهم من ورائه حريص ، فإذا غفل عنه أصابه البوار .

كل هذه الصور رسمها سويد في أسلوب واضح قوى جميل ، فأى وضوح وقوة وجمال ينم عنها الشعر وتبدو في الصور يبرز قوله ؟

رأه من طيء ذو أسهم وضراء كنَّ يُبْلِينَ الشَّرْعَ
فَرَأَهُنَّ ، وَلَمَّا يَسْتَبِينَ وَكِلَابُ الصَّيْدِ فِيهِنَّ جَسَعُ
ثُمَّ وَلَى وَجَنَابَانِ لَهُ مِنْ غِبَارٍ أَكْدَرِيٍّ وَاتَّدَعُ
فَرَأَهُنَّ عَلَى مُهْلَتِهِ يَخْتَلِينَ الْأَرْضَ وَالشَّاءُ يَلْعُ

أى تصوير لساكن الصحراء أروع من ذلك التصوير ؟ وأى معانٍ لمركة باردة « على حد تعبير رجال السياسة في هذا العصر » أوفر من هذه المعانى ؟ وأى ألفاظ مؤدية لهذه المعانى أدق من هذه الألفاظ ؟

الألفاظ مؤدية للمعانى أتم الأداء لولا أن القافية فيها غرابة حيناً ، وتقل حيناً ،

ولعل ذلك لطول القصيدة ، ولقلة الألفاظ التي تناسب الوزن ، فمن الألفاظ الثميلة « ادع ، امصع » .

ويختلف سويد عن النابغة في أن النابغة أحال الحرب الباردة إلى حرب حارة، فسويد يكتفي عن المنازلة بالخطاة ، فحين يقول النابغة :

كَأَنَّهُ خَارِجًا مِنْ جَنْبِ صَفْحَتِهِ سَفُودُ شَرِبِ نَسُوهُ عِنْدَ مُقْتَادِ

يقول سويد :

دَانِيَاتٍ مَا تَلْبَسْنَ بِهِ وَاثِقَاتٍ بِدِمَاءٍ إِنْ رَجَعُ

لقد سلك كل منهما مسلكا أراداه ، ولكن النابغة كان أوعر مسلكا، وأجمل صورا، وهذا أمر عرف عن النابغة ، فقد كان أميل شعراء عصره إلى المبالغة وإلى التصوير .



٤ — وقال امرؤ القيس * يصف الحمار الوحشى :

كأَنَّ وَرَحْلِي فَوْقَ أَحْقَبَ قَارِحِ بَشْرَبَةً أَوْ طَاوٍ بِعِرْنَانَ مُوجِسٍ^(١)
تَعَشَّى قَلِيلًا ، ثُمَّ أَتَمَحَى ظَلُوفَهُ يُثِيرُ التُّرَابَ عَنْ مَمِيتٍ وَمَكْنَسٍ^(٢)
يُهَيِّلُ وَيُذْرِى تَرْبَهَا وَيُثِيرُهَا إِثَارَةَ نَبَّاشِ الْهَوَاجِرِ مُخْمِسٍ^(٣)
فَبَاتَ عَلَى خَدٍّ أَحْمَ وَمَنْكَبٍ وَضَجَعْتُهُ مَثْلُ الْأَسِيرِ الْمُكَرَّدَسِ^(٤)
وَبَاتَ إِلَى أَرْطَاةٍ حَقَفٍ كَأَنَّهَا إِذَا أَلْقَتْهَا غَنِيَّةٌ يَبْتُ مُعْرِسٍ^(٥)
٣٣٠ : فَصَبَّحَهُ عِنْدَ الشَّرُوقِ غُدِيَّةً كِلَابُ ابْنِ مُرٍّ أَوْ كِلَابُ ابْنِ سِنْبِسٍ^(٦)

* ترجمه الشاعر : انظر ترجمته فى وصف الفرس ص ١٠٩ .

التفسير اللغوى : (١) الأحقب: الحمار الوحشى الأبيض مكان الحقيية . القارح: الذى شق

نابه . شربة : اسم عين ماء . طاو : جائع غرثان . عرنان : اسم جبل . موجس : حذر خائف .

(٢) أتمحى ظلوفه : عدل أظفاره استعدادا للنبت . يثير : يسقى ويذرى :

المبيت : اسم مكان من بات مكان البيات . المكنس : الكناس والسكن .

(٣) يهيل : يسقط . يذرى : يطير ويثير . نباش الهواجر : النباش فى أوقات الظهيرة ،

وهذا الوصف يلب للضبعة . مخمس : خامس خمسة .

(٤) أحم : أسود أو أبيض فهو من أسماء الأضداد ، والوصف بالياض هو المراد ، إذ

وصفه فى أول بيت بأنه أحقب . المنكب : مجتمع الكتفين . المكردس : المقيد ،
والكردسة التقيد .

(٥) إلى أرتاة : إلى جانب شجرة أرتاة ، وثمر هذا الشجر يشبه الضاب . الحقف :

الرمل المجتمع . ألقتها : بللتها وندتها . غبية : الغبية الدفعة الشديدة من المطر . المعرس :
المتخذ له عرسا .

(٦) فصبحه : جاءه عند الصباح . غدية تصغير غدوة ، وبصبح غدية بفتح الغين ، فتكون

من غير تصغير . ابن مر وابن سنيس : صيادان ماهران من قبيلة طلي ، وقد قدمنا أن هذه
القبيلة معروفة بحسن الرماية ، وسداد الإصابة .

- مُغَرَّثَةً زُرْقًا كَانَ عُمُونَهَا مِنْ الذَّمْرِ وَالْإِيحَاءِ نُورًا عَضْرَسِ (٧)
 فَأَدْبَرَ يَكْسُوها الرِّغَامُ كَأَنَّهَا عَلَى الصَّمَدِ وَالْآكَامِ جَذْوَةٌ مُقْبِسِ (٨)
 وَأَيَقَنَ إِنَّ لَاقِيَنَّهُ أَنَّ يَوْمَهُ بِذِي الرِّمْتِ إِنْ مَاتَتْهُ يَوْمَ أَنْفُسِ (٩)
 فَأَدْرَكَنَّهُ يَأْخُذْنَ بِالسَّاقِ وَالنَّسَا كَمَا شَبَّرَقَ الْوَلْدَانُ ثَوْبَ الْمُقَدَّسِ (١٠)
 ٣٣٥: وَغَوَّزْنَ فِي ظِلِّ الْعَصَا وَتَرَكَنَّهُ كَقَرَمِ الْهَجَانِ الْفَادِرِ الْمُتَشَمِّسِ (١١)



التفسير اللغوي : (٧) مغرثة : مجاعة لتكون أشد فتكا ، وأقوى عدوا . الذمر : الإثارة واللوم والتجريح . الإيحاء : الإيحاء والإشارة . نور : زهر البات . العضرس : شجر له نور أحمر . (٨) فادبر : فرجع . يكسوها الرغام : يغطيها الغبار ، حق كأنه لها كالكساء . الصمد : المكان المرتفع . الآكام : جمع أكمة وهي كالصمد في المعنى . جذوة : شجرة . مقبس : طالب قبس من نار . (٩) أيقن : وثقن ، والضمير عائد على كلاب ابن مرو ابن سنيس . بذى الرمت : كناية عن مكان به من شجر الرمت الكثير . وهو شجر يشبه الفضا ، وترعاه الإبل . مواتته : صابرته وجالده حتى الموت . يوم أنفس : يوم زهاق أنفس . (١٠) يأخذن : يعضضن . الساق : ما بين الكعب والركبة . النساء : عرق من الورك إلى الكعب . شبرق : مزق . الولدان : الغلمان . المقدس : الرجل المطهر نفسه من الأدناس . (١١) غورن : سرن في الأرض المنحدرة . كقرم الهجان : كالفحل الكريم . الفادر : الناقة المنفردة . المتشمس : الشموس النفور .

تحليل الأبيات :

في هذه الأبيات صور نابضة بالحياة ، وصور ساكنة هادئة أحيانا ، فهي تمثل الحياة أروع تمثيل ، أليست الحياة حركة وسكونا ، وحياة وهمودا ؟

إنك إذ تقرأ هذه الأبيات تتمثل البادية بحمرها الوحشية ، وشجرها المنبت في أطرافها ونواحيها ، ورمالها الصفراء ، وصحرائها الفيحاء ، وكلابها المضرة ، وصيادها الختالين ، فهي صورة مرتبة واضحة ، أجزاءها متناسقة ، وألوانها متألقة ، لا تمجد في بعضها نبوا عن بعض ، ولا تسمع في حركة من حركاتها نشوزا ، وذلك هو الحس والخيال ، والروعة والجمال .

شبه امرؤ القيس ناقته من فوقها رحله بالحمار الوحشى الفتى ، ثم انصرف عنها إليه ، فهو ممتلئ نشاطا وعراما لأنه قارح ، أو لأنه طاوى الكشح ، أو لأنه قارح طاوى الكشح معا ، وهو قبالة عين ماء ، أو فوق جبل متباعد الأنحاء ، إنه هنا وهناك ؛ لأنه لا يسكن ولا يهدأ ، فهو خائف متوجس ، حذر متربص ، لم ينل من الطعام فى أمسيته ما يسد جوعته ، أو يمكك صلبه ، إنه جامع أظلافه يهيل بها التراب ، كأنه يبحث عن مكس أو مسكن ، مثله إذ يهيل الثرى ويذريه كمثل الضباع تنبش التراب ساعة الظهيرة ، فإذ هيا له مناما هدا عزمه ، وفتر نشاطه ، ونام على خد ومنكب أبيضين ، وهو فى ضجعته الهادئة كالأسير المقيد لا يبدى حركة ولا يحدث ضجيجا .

قد اتخذ كناسه إلى شجرة تجمع حولها الرمل ، فكأنها إذا بللتها دفعة من المطر ، أوندتها مرزنة من سحاب ، بيت رجل أعرس ، فهو هادئ ساكن ، ولكنه إذ ينفجر الفجر ، ويتنفس الصبح تصبغه كلاب مضرة على الصيد كأنها فى ضراوتها ودربتها « كلاب ابن مرأو كلاب ابن سنبس » .

وهى إلى هذه الضراوة مغرثة بمجاعة ؛ لتكون أشد فتكا وأقوى عراما ، فعيونها لقسوة ذمرها وحرصها ، وشدة ثورانها وهياجها حمراء مشتعلة كأنها نوار عفرس .
رأى الحمار هذا الكلاب يذمر كلابه ، فشذ يخلف من ورائه سحابا من الغبار ،

يكسو هذه الكلاب فكأنه - إذ يعلو الأصماد والآكام ، ويرتفع إلى الربا والنجد ، ويختلط الغبار المتطاير ببياضها ، فتغير لونها - جذوة من نار .

وكما أيقن أنه إن لاقى هذه الكلاب في وادي الرمث ، فإن نفوسا ستهلك ، ودماء ستهرق ، قد تكون نفسه إحداها ، وقد يكون دمه هو الدم المهرق سابق الريح ، وأمعن في شدة ؛ لا يبقى من عدوه على شيء .

ثم إنه يتصور أنها إن أدركته فستاخذ بساقيه ووركيه ، فتمزقها تمزيقا ، تمزيق الغلمان الأغرار ألقين الراهب المطهر ذا التقوى والبركات آثبا من بيت المقدس ، فهم يتبركون به ، فيمزقون ثيابه التماسا للبركة ، وطلبا للغفرة .

هذه الكلاب انحدرت إلى ظل أشجار النضا بعد أن يئسن من لحاقه ، وأيقن عدم القدرة على إدراكه ، وتركته قويا نشيطا لم يمسه نصب أو لغوب ، فهو كالفعول الهجان ، المنفرد في حظيرته ، الشمس لا يقوى أحد على مواجهته .

النقر :

في معاني امرئ القيس وسويد بن أبي كاهل تشابه كثير ، وليس عظيما على سويد أن يقبس من امرئ القيس ، فإننا لا نكاد نجد شاعرا لم يكن عالة على امرئ القيس في معانيه ، فإذا قال امرؤ القيس :

وَأَيَقِنَنَّ إِن لَّا قَيْنَهُ أَن يَوْمَهُ بَذَى الرَّمْثِ إِن مَآوَتْنَهُ يَوْمَ أَنْفُسِ

ألفينا سويدا يقول :

دَانِيَاتٍ مَا تَلَبَّسَنَ بِهِ وَاتَّقَاتِ بِدْمَاءِ إِبْنِ رَجَعٍ

ومع أن واجب الأخذ أن يزيد الأخذ عن أخذ منه في المعنى أو في الأسلوب ، فإن هذا الواجب لم يؤده سويد ، فبيت امرئ القيس أدق في المعنى ، فقد حدد المكان الذي يكون فيه التماوت ، وهو أجل في الأسلوب ، وإذا قال امرؤ القيس :

فَبَاتَ كُلِّي خَذٍ أَحْمَمَ وَمَنْكِبِ وَضَجَعْتَهُ مِثْلَ الْأَسِيرِ الْمَكْرَدَسِ

حاول سويد أن يتابعه ، فقال دون أن يبلغ تصوير امرئ القيس :
كُفَّ خَدَّاهُ عَلَى دِيْبَاجَةٍ وَطَلَى الْمُتَمَنِّينَ لَوْ أَنَّ قَدْ سَطَعَ
فبيت امرئ القيس فيه وصف وفيه صورة : الوصف في الشطر الأول والصورة في الشطر
الأخير ، أما بيت سويد فليس فيه غير الوصف .

وقد وصف امرؤ القيس الكلاب ، وهي عماد الصورة ، ولكن سويدا مر عليها
عدوا ؛ كأنه خشي إن تريت ليصفها أن تلحقه ، « وأدركه يأخذن بالساق والنسا »
أو يشبرقنه « كما شبرق الولدان ثوب المقدس » وتصور امرئ القيس الهدوء والسكون
بأنه كهدهو الرجل المعرس يرسل لنا شعاعا عما كانت عليه بيوت المعرسين بعد أن
ينفض السامرون .

لانبالغ فنقول : إن امرأ القيس أعظم شاعر عرفه العالم ، فقد نجد من يتعصب عليه ،
أو يرمينا بالتعصب له ، ولكننا نقول : إنه أعظم شاعر عرفته الأمة العربية ، ونحن على
ثقة أننا لن نجد معارضين ، حتى ولا أولئك الذين يقولون : « إن الشعر الجاهلي كان جنائية
على الأدب العربي » .



٥ — وقال علقمة الفحل * يصف الظليم من قصيدته التي أولها :

هل ماعلت وما استودعت مكتوم أم حبلها إذ نأنتك اليوم مصروم^(١)

كأنها خاضب زعر قوادمه أجنى له باللوى شرى وتنوم^(٢)

يظل في الحنظل الخطبان ينقفه وما استطف من التنوم مخدوم^(٣)

فوه كشق العصا لأيا تبينه أسك ما يسمع الأصوات مصلوم^(٤)

حتى تذكر بيضات وهيجه يوم رذاذ عليه الرياح مغيوم^(٥)

٣٤١ : فلا تزيد في مشيه نفق ولا الزيف دوين الشد مشوم^(٦)

* ترجمه الشاعر : انظر ترجمته في وصف الناقة ص ٩٨ .

التفسير اللغوي . (١) استودعت : أؤمنت . نأنتك : هجرتك . مصروم : مقطوع .

(٢) الخاضب : الظليم احمر ساقاه وجلده ، وخاضب صفة لموصوف محذوف : هو الظليم ، وهو ذكر النعام ، وهو يشبه ناقته به لسرعتها . زعر : جمع أزعر ، قليلة الشعر . قوادمه : جمع قادمة ، وهي الريشات الكبار في مقدم الجناح ، وفي رواية قوائمه . أجنى النبات : نضج وتهايا للجنى . اللوى : ما انعطف من الرمل . الشرى : شجر الحنظل . التنوم : شجر يشبه ورقة ورق الآس ، يسقط ورقه صيفاً ويترعرج شتاء . (٣) الحنظل الخطبان : هو الحنظل فيه خطوط تضرب إلى السواد ، وهو أشد ما يكون مرارة . ينقفه : يستخرج حبه . استطف : ارتفع وأمكن . مخدوم : مقطوع ليا كله . (٤) فوه : فم . لأيا : شدة وبطأ . تبينه : تراه . أسك : أصم ، وأذن سكاء : صماء صغير الأذن لاصقتها بالرأس : مصلوم : مقطوع . (٥) هيجه : أثاره . يوم رذاذ : يوم مطر خفيف ، عليه الرياح : فيه الهواء . مغيوم : ملبد بالغيوم . (٦) التزيد : السير السريع . النفق : بكسر الفاء السريع الانقطاع من كل شيء ، يقال فرس نفق أى لا يطيل الركض . الزيف : نوع من السير دون الشد . دوين : تصغير دون . الشد : المدو السريع . مشوم : مملول .

* هذا البيت منسوب في لسان العرب لذي الرمة ، ولكنه منسوب في شعراء النصرانية وفي المفضليات لعلقمة ، ثم إن لدى الرمة قصيدة من هذا الوزن والقافية ولكن البيت ليس فيها ، فلعل وزن القصيدة هو الذي خلط الأمر على صاحب اللسان .

- يَكَادُ مَنَسِمُهُ يَخْتَلُّ مُقْلَتَهُ كَأَنَّهُ حَازِرٌ لِلنَّخْسِ مَشْهُومٌ (٧)
وَضَاعَةٌ كَعِصَى الشَّرْعِ جُوجُوهُ كَأَنَّهُ يَتَنَاهَى الرَّوْضِ عُلْجُومٌ (٨)
يَأْوِي إِلَى حِسْكَالٍ زُغْرِ حَوَاصِلِهِ كَأَنَّهُنَّ إِذَا بَرَّكُنَّ جُرْثُومٌ (٩)
حَتَّى تَلَا فِي وَقَرْنِ الشَّمْسِ مُرْتَفِعٌ أَدْحَى عَرَسَيْنِ فِيهِ الْبَيْضُ مَرْكُومٌ (١٠)
يُوحِي إِلَيْهَا بِإِنْقَاضٍ وَتَنْقِفَةٍ كَمَا تَرَاظُنُ فِي أَفْدَانِهَا الرُّومُ (١١)
صَفْلٌ كَانَ جَنَاحِيهِ وَجُوجُوهُ بَيْتٌ أَطَافَتْ بِهِ خَرَقَاءُ مَهْجُومٌ (١٢)
تَحْفَهُ هِقْلَةٌ سَطْعَاءُ خَاصِصَةٌ تُجْبِيهِ بِزِمَارٍ فِيهِ تَرْنِيمٌ (١٣)

(٧) منسمه : ظفره ، والمنسم خاص بالبعير والنعام والفيل ونحوها . ويختل مقلته : يصيب عينه . حاذر : متأهب مستعد . النخس : غرز عود أو نحوه في جنب الدابة ، أو مقدمها أو مؤخرها لاستفزازها إلى الجري . المشهوم : الفزع المروع ، وأصله من شهم الفرس زجره ، وأيضاً المشهوم الذكي الفؤاد وليس مقصوداً .

(٨) وضاعة : صيغة مبالغة من الوضع ، وهو نوع من عدو الإبل السريع ، والتاء في وضاعة للمبالغة لأنه وصف للظلم . الشرع : الأثار مفردها شرعة . جُوجُوه : صدره . التناهى جمع تنهية ، وهى الأماكن المطمئنة ينتهى إليها الماء . علجوم العلجوم البعير الطويل المطلى بالقطران ، والوعل ، والثور المسن ، والشديد السواد ، ولعله يقصد الوعل .

(٩) يأوى : يلجأ . حسكل : الحسكل الصفار من ولد كل شيء ، وخص بعضهم بالحسكل ولد النعام أول ما يولد وعليه زغبه الواحدة حسكلة ، ورواية اللسان « يأوى إلى حسكل زغب حواصلها » والحواصل جمع حوصلة معدة الطائر . بركن . استنخن . حرثوم : جمع جرثومة وهى أصل الشجر . (١٠) تلافي : تدارك قرن الشمس : أول ما يبدو من قرصها . الأدحى : مبيض النعام . عرسين : يقصد الظلم ونعامته . مركوم : يجمع متراكم بعضه فوق بعض . (١١) يوحى إليها : يشير إليها ، ويصوت لها . الانقاض : التصويت ، أنقضت العقاب صوت ، ومثله التنقفة ، فهى صوت الظلم . التراظن : تفاهم الأعاجم . الأفدان : جمع فدن بفتح الفاء والدال ، وهى القصور . (١٢) الصعل : الدقيق الرأس والعنق من النعام أو النخل أو الناس ، والأول هو المراد . أطافت به : أحاطت به ، ودارت حوله . خرقاء : وصف لموصوف محدوف يقصد لامرأة خرقاء غير حازمة . مهجوم : ساقط مهدوم .

(١٣) تحفه : تحيط به . الهقلة : النعامة . السطعاء : الطويلة العنق . الخاضعة : التى تميل رأسها عند الرعى . الزمار : صوت أثنى النعام . الترنيم : الغناء والتنظيم .

تحليل الأبيات :

هذه الأبيات تكملة للأبيات التي اخترناها لملقمة في وصف الناقة ، فإنه بعد أن قال :

تلاحظُ السَّوْطَ شَزْرًا وهى ضامِزَةٌ كما توجَّسَ طاوَى الكَشْحِ مَوْشُومٌ

سار في وصف ذلك الطاووى الكشح ، فكان هذا البيت تمهيد الوصف العظيم .

ذلك العظيم الأحمر اللون ، حتى لكأنه قد خضب بالحناء ، قواده قصيرة الشعر ، إذ ذهبت أصولها ، وبقي شكيرها ، له في المكان الذى يعيش فيه نوعان من الطعام قد استوى نضجها أو كاد ، هما : الشرى والتنوم ، فهو يظل يومه الأطول فى استخراج حب شجر الحنظل ، فوق أنه يقطف ما يرتفع من شجر التنوم ليكون له غذاء .

ثم ذلك العظيم ضيق رقيق الشنتين لا يكاد يرى ، فكأنه شق فى عصا ، وهو أصم الأذنين لا يكاد يسمع ، أو هو مصلومهما ، وهو بهذا الوصف يشعرنا بأن أذنه صغيرة لاصقة برأسه ، وكأنه لم تخلق له أذن ، وفى المثل عن العظيم : « ذهب يطلب قرنين ، فعاد بلا أذنين » .

إذا تذكر بيضه فى أحديه ، وهو يرى الشرى والتنوم نار وهاج ، ويزيده احتياجا سقوط الرذاذ تزجيه الريح ، ويسوقه الهواء الملبد بالفيوم ، وهو إذ يتزايد ليدرك بيضه ويرف ، لا يستمه طول التزيد ، ولا دوام الزيف ، فلا ينقطع سيره ، ولا تنفق سرعته ، حتى يبلغ غايته ، يكاد خفه يصيب عينه ، وذلك عند ما يشتد عدوه ، فيرفع خفه ويخفض رأسه ، وهو فى خفض رأسه كأنه متأهب للنخس ، فهو مروع فزع .

هذا العظيم وضاعة سريع ، صدره فى تقوسه كعصى الأوتار ، كأنه فى الأماكن الآنسة بالسكان ، المنتهية بالماء بين الرياض وعل قد أنس ، فهو يلجأ إلى فراخه الصغار الزغب الحواصل ، التى تشبه - وقد برك بعضهن بجانب بعض - أصل النخيل ، فما زال يوضع حتى تدارك أحديه ، وقد برز قرن الشمس ، وارتفعت أشعتها ؛ أدركه - ومعه عرسه - مجتمعا متراكما لم يكسره أحد ، ولا سطا عليه كائن ، فشرع عندئذ ينقض

لها فتفهم إنقاضه ، وينتق فتجيب على تنقته دون أن يفهم أحد من إنقاضه وتنقته شيئا ، فكأنه وإياها روميان يتراطان في أحد قصور الروم .

ذلك الظليم دقيق الرأس والعنق ، تراه عند ما ينشر جناحيه حول صدره بيتا من الشعر تقيمه امرأة غير صناع ، فكلما أقامته سقط ، وهو بهذا يشير إلى أن الظليم ينشر جناحيه ثم ما يلبث أن يضمهما ، يصنع ذلك الصنيع مرات في أويقات .

إذا سار ذلك الظليم حفت به عرسه المديدة العنق ، الميالة الجيد ، ذات الصوت الرخم ، والتنعيم الجميل .

النقر :

هذا نوع فريد في تشبيه الناقة ، فقد رأينا أكثر الشعراء يشبهونها بالثور أو البقرة أو الحمار ، أما أن أحدا شبهها بالظليم ، فلا ، نعى ممن اخترنا لهم من الشعراء ، وإذن فلن نتاح لنا الموازنة بينه وبين من تقدموه .

وعلقمة حينما شبه ناقته بالظليم وصف الظليم بأوصاف حسية ، وبأخرى عاطفية ، والناحية العاطفة قليلة في الشعر العربي ، فنعت الظليم بالتوجس ، والوشم ، والخضب ، وبالزغب والرعى ، وبضيق الفم ورقة الشفتين ، وصغر الأذنين ، وبالسرعة والصبر على الشد والعدو ، وكل هذه صفات منتزعة من الحس .

أما الأوصاف العاطفية فهي هياجه وثورانه عند ما يتذكر وهو في مرعاه بيضاته ، فإنه ينسى كل شيء إلا أن يصل إلى ذلك البيض ليتفقد بعد أن يمر بمشكله الذي يشبه جراثيم النخل في تراكمه ؛ إنه لتصوير للعاطفة الروم جميل :

حَتَّى تَذَكَّرَ بِيضَاتٍ وَهِيَجَهُ	يَوْمُ رَدَاذٍ عَلَيْهِ الرِّيحُ فَمَيُومُ
فَلَا تَزِيدُهُ فِي مَشْيِهِ نَفَقٌ	وَلَا الزَّفِيفُ دُورِينَ الشَّدِّ مَسْثُومُ
يَكَادُ مَسْمِهِ يَخْتَلُ مُقْلَتَهُ	كَأَنَّهُ حَاذِرٌ لِلنَّخْسِ مَشْهُومُ
وَضَاعَةُ كَصِي الشَّرْعِ جُوجُوهُ	كَأَنَّهُ بِنَاهِي الرَّوْضِ عُلْجُومُ

يأوى إلى حِسْكِ زُعر حواصله كَأَنَّهُنَّ إِذَا بَرَّكُنَّ جُرُثُومَ
وأنت ترى إلى جانب الناحية العاطفية أوصافا وصورا كاملة ، كالصورة الأخيرة التى يشبه
فيها صغاره وقد بركن مجتمعات متراكبات فى أصل النخل .
ثم إن وصف مناجاة الظليم عرسه تصوير لا يصدر إلا عن عاشق متيم حديث للنساء ،
يعرف لغة القلوب ، ويفهم ومضات العيون :

يُوحى إليها بِإِنْقَاضِ وَتَقَنُّةٍ كَمَا تَرَاظُنْ فى أَفْدَانِهَا الرُّومُ
ولكن الذى لا أجد له مكانا فى الصورة التى رسمها لتخاطب الظليم وعرسه قوله :
- فى أفدانها - فهل الروم لا يتخاطبون إلا فى الأفدان ؟
ولولا أن من ألفاظ القافية ما هو ثقيل الوقع على السمع لبلفت القطعة الغاية فى الجودة ،
مثل تنوم ، وعلجوم ، على أن هذا الثقل ينسيه جمال الصور .



نظرة فاحصة عن معاني الشعراء في وصف الأوابد

كان العرب يأنسون إلى أوابد صحاريهم ، ولكنها لم تكن تأنس إليهم ، ويعجبون بها ، وهي لا تعجب بهم ، بل لا تحبهم ولا ترضى عنهم ، يعجبون هم بجمالها وحسنها ، وتكره منهم بغيتهم وعدوانهم ، ولا عجب أن نرى هواها مختلفا ، فيرون فيها الجمال ، وترى منهم العدوان ، ويشاهدون في شياتها الحسن ، وتشاهد في طباعهم الجحود والكفران ، فكلفوا بها وبحشا عنها ، وركبوا الصعب في صيدها ، ونأت دونهم وأعرضت ، فهم وإياها في نضال مستمر ، وعراك متصل .

وصفوا جمالها ، وكأنهم بتصوير هذا الجمال يُعذِّرون ، ثم طاردوها بكلابهم ، وحاولوا صيدها بقسيهم ، وهم جميعا يكادون يتفقون في هذه المعاني .

ومنهم من وصف طريقه إليها ، فوصف الصحراء وما يحف بها من عين جارية ، أو نبت ناجم ، أو سراب خادع ، فكانت معينا يستقون منه ، ومنهلا يصدرون عنه ، فسويد يصف الصحراء ، فيقول :

فَكَأَنِّي إِذْ جَرَى الْآلُ ضُحَا فَوْقَ ذِيَالٍ بِحَدِيدِهِ سَقَعُ

ويقول :

سَاكِنُ الْقَفْرِ أَخُو دَوِّيَّةٍ فَإِذَا مَا آنَسَ الصَّوْتُ امْصَعُ

والناطقة ينسب الوحوش إلى مواطنها التي نشأت فيها فيقول :

مِنْ وَحْشٍ وَجَرَّةٍ مَوْشِيٍّ أَكْرَعُهُ طَاوِي الْمَصِيرِ كَسَيْفِ الصَّيْقَلِ الْفَرْدِ

ولبيد يقول في وصف الصحراء ووصف سربها :

فِيَتَلَكُ إِذْ رَقَصَ اللَّوَامِعُ بِالضُّحَا وَاجْتَابَ أَرْضِيَّةَ السَّرَابِ إِكَامَهَا

ثم تزام جميعا يصورون المارك أدق تصوير ، فيثيرون الغبار ، ويسيلون الدماء ، ويصفون الأرواق ، وقد نفذت في الأحشاء ، وقل منهم من ارتضى بأن ينهى الطراد بدون أن

يكون هناك طعن وقتل ، وكلهم يصفون صيادهم بالمهارة ، وينسبونهم إلى قبيلة ،
فيقول سويد :

راعه من طيء ذو أنهم - وضراء كنَّ يُبلين الشرع
ويقول النابغة :

فارتاع من صوت كلاب فبات له طوع الشوامت من خوف ومن صرد
ويقول امرؤ القيس :

فصبَّحه عند الشروق غديَّة كلاب ابن مرٍّ أو كلاب ابن سنيس
وقد قدمنا أن ابن مروان سنيس صيادان طائيان اشترا بالحدق والمهارة . ويقول لبيد
يصف الذئاب والرماة والكلاب والقرون :

لمعري قهذ تنازع شلوه غبس كواسب لا يمن طعامها
حتى إذا يئس الرماة وأرسلوا غصفا دواجن قافلاً أعصامها
فلحقن واعتكرت لها مدرية كالسمهرية حذها وتماها
أما تصويرهم للمعارك فتصوير بارع لا نكاد نحكم لأحدهم بالفضل على الآخر ، ولعل
سويداً كان رجل سلام ؛ لأنه أنهى المعركة دون أن تجرى دماء ، فقال :

فراهن ولما يستين و كلاب الصيد فيهن جشع
ثم ولّى وجنابان له من غبار أ كدرى واتدع
فتراهن على مهلتيه يخلين الأرض والشاة يلع

أما النابغة فيثير الحرب عنيفة ، والمركة حامية الوطيس تنتهى بفرائص تشك ، وبدماء
تسيل ، وبروق يعجم ، فيبلغ بتصويره مبلغاً رائعاً ، وذلك إذ يقول :

وكان (ضمران) منه حيث يوزعه طعن الممارك عند الحَجَر النجد
شك الفريصة باليدرى فأنفذها شك المبيطر إذ يشي من العصد

كَأَنَّهُ خَارِجًا مِنْ جَنْبِ صَفْحَتِهِ سَقُودُ شَرَبٍ سَوَاهُ عِنْدَ مَفْتَأِ
 فَظَلَّ يَعْجُمُ أَعْلَى الرُّوقِ مُنْقَبِضًا فِي خَالِكِ اللَّوْنِ صَدَقٍ غَيْرِ ذِي أَوْدٍ
 أَمَّا امْرُؤُ الْقَيْسِ فَأَوْقَدَ نَارَ الْحَرْبِ ثُمَّ أَطْفَأَهَا ، وَاكْتَفَى بِالْجُرْحَى دُونَ الْقَتْلِ ، فَقَالَ :
 فَأَذَرَ كَنَّهُ يَأْخُذُنِ بِالسَّاقِ وَالنَّسَا كَمَا شَبَّرَقَ الْوَلْدَانُ ثَوْبَ الْمُقَدَّسِ
 وَغَوَّزْنَ فِي ظِلِّ الْغَضَا وَتَرَكَنَهُ كَقَرَمِ الْهَجَانِ الْغَادِرِ الْمُتَشَمِّسِ
 وَلَبِيدٌ يَجْرِي دِمَاءُ كَسَابٍ وَسَخَامٍ ، يَقُولُ :

فَتَقَصَّدَتْ مِنْهَا « كَسَابٍ » ضُرِّجَتْ بِدَمٍ ، وَغَوَّدِرَ فِي الْمَكْرَرِ « سُخَامُهَا »

وَيُظْهِرُ أَنَّ أَحْلَاقَ كُلِّ شَاعِرٍ تَنْطَبِعُ فِي مَعَانِيهِ ، وَتَتَضَعُ مِنْ أَمْكَارِهِ ، فَالْشُعْرَاءُ الْمَغْرَمُونَ
 بِسَفْكِ الدِّمَاءِ ، وَالتَّمَتُّعِ بِرُؤْيَا الْأَشْيَاءِ ، وَشَهْوَةِ أَكْلِ لَحُومِ الْأَعْدَاءِ يَثِيرُونَ الْمَارِكَ ،
 وَالَّذِينَ طَبَعُوا عَلَى الرَّحْمَةِ ، وَأَشْرَبَتْ قُلُوبُهُمُ الْعُطْفَ وَالْحَنَانَ ، تَنَاضَى بِهِمْ نَفُوسُهُمْ عَنِ الْقَتْلِ ،
 فَيَنْهَوْنَ مَعَارِكَهُمْ دُونَ قَتْلِ أَوْ مَصَابِينِ .

وَبَعْدَ بَابِ أَجْلَى الصُّورِ تَظْهَرُ فِي وَصْفِ هَذِهِ الْمَارِكَ الَّتِي تَتَمَدَّدُ أَسْلِحَتُهَا ، فِيهِ الْقَسَمُ
 وَالرَّمَاحُ ، وَالْخَالِبُ وَالْأَنْيَابُ ، وَالْأُرُوقُ وَالْمَدَارِي ، وَجَمِيعُ هَذِهِ الْأَسْلِحَةِ لَهَا فِي الصُّورِ
 الشَّعْرِيَّةِ مَكَانٌ أَيْ مَكَانٌ .



(د) صور متنوعة لمظاهر الطبيعة الحية

١ — قال زهير بن أبى سلمى * يصف معركة مع الجر الوحشية من قصيدته التى أولها:

صَحَا الْقَلْبُ عَنْ سَلْمَى وَأَقْصَرَ بَاطِلُهُ وَغُرَّتْ أَفْرَاسُ الصَّبَا وَرَوَّاحِلُهُ^(١)

إِذَا مَا غَدَوْنَا نَبْتَغِي الصَّيْدَ مَرَّةً مَتَى نَرَهُ ، فَإِنَّا لَا نُخَاتِرُهُ^(٢)

فَبَيْنَا نُبْقَى الْوَحْشَ جَاءَ غُلَامُنَا يَدِبُّ وَيُخْنِي شَخْصَهُ وَيُضَاثِلُهُ^(٣)

فَقَالَ : شَيْأَهُ رَاتَعَاتُ بِقَفْرَةٍ بِمَسْتَأْسِدِ الْقُرْيَانِ حُورٍ مَسَائِلُهُ^(٤)

ثَلَاثُ كَأَقْوَاسِ السَّرَاءِ ، وَنَاشِطٌ قَدْ اخْضَرَ مِنَ لَسِّ الْقَمِيرِ جَحَافِلُهُ^(٥)

٣٥٤ : وَقَدْ خَرَّمَ الطَّرَادُ عَنْهُ جِحَاشَهُ فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا نَفْسُهُ وَحَلَالَتُهُ^(٦)

* ترجمه الشاعر : انظر ترجمته فى وصف الناقة ص ٨٨ .

التفسير اللغوى : (١) عرى أفراس الصبا : مثل ، ويريد أن يقول : عرى أفراس قد

كنت أركبها فى صباى ، فلم يعد هناك ما يدعونى لإسراجها بعد أن كبرت سنى .

(٢) غدونا : بكرنا . نبتغى : نطلب . لا نخاتله : لا نخادعه لثقتنا من إدراكه .

(٣) يدب : يمشى على هيئته كثنى الطفل والضعيف والنمل . يضائله : يصغره لثلايفزع الصيد .

(٤) الشياه : الجر الوحشية . راتعات : راعيات لا عبات . بمستأسد القرينان : المستأسد

من النبت الذى طال وتم ، والقرينان مجارى الماء إلى الرياض الواحد قرى . الحو : النبات

يضرب إلى السواد لشدة خضرته . مسائله : يقصد مسايل الماء ، والأصل عدم الممزة لأن

الباء أصلية ، ولكنهم توهموها زائدة ، فهمزوها كما همزوا مصائب . (٥) أقواس

السراء : السراء شجر تتخذ منه القسى ، فهو يصف الثلاثة بالضمور . ناشط : يخرج من بلد

إلى بلد . اللس : الأخذ بمقدم الفم . القمير : نبت يطول ثم يصيبه مطر ، فيخرج تحته نبت

أخضر ، فيكون غميرا لهذا الطويل أى مغمورا . الجحافل : جمع جحفلة ، وهى لدى الحافر

كالشفة للإنسان .

(٦) خرم : فرق . الطراد : الصيادون : جعاعه : صغاره : حلالته : آتته .

- وقال أميرى : ماترى رأى ما نَرَى اُنْخِثِلْهُ عَنْ نَفْسِهِ أَمْ نُصَاوِلْهُ ؟ (٧)
 فَبَقْنَا غُرَّةً عِنْدَ رَأْسِ جَوَادِنَا يُزَاوِلُنَا عَنْ نَفْسِهِ وَزَاوِلْهُ (٨)
 فَتَضْرِبُهُ حَتَّى اطْمَأَنَّ قَذَالُهُ وَلَمْ يَطْمَئِنَّ قَلْبُهُ وَخَصَائِرُهُ (٩)
 وَمُلْجِمُنَا مَا إِنْ يَنَالُ قَذَالُهُ وَلَا قَدَمَاهُ الْأَرْضَ إِلَّا أَنَامِلُهُ (١٠)
 فَلَا يَا بِلَاىِ قَدْ حَمَلْنَا غُلَامَنَا عَلَى ظَهْرِ مَحْبُوكٍ ظِمَاءَ مَفَاصِلِهِ (١١)
 فَقَلْنَا لَهُ : سَدِّدْ وَأَبْصِرْ طَرِيقَهُ وَمَا هُوَ فِيهِ عَنْ وَصَاتِي شَاغِلُهُ (١٢)
 وَقُلْتُ : تَعْلَمْ أَنَّ لِلصَّيْدِ غُرَّةً وَإِلَّا تُضِيعُهَا فَإِنَّكَ قَاتِلُهُ (١٣)
 فَأَتْبَعَ آثَارَ الشَّيْءِ وَلِيَدُنَا كَشُوبُوبٍ غَيْثٍ يَحْضِنُ الْأَكْمَ وَابِلُهُ (١٤)
 ٣٦٣ : نَظَرْتُ إِلَيْهِ نَظْرَةً فَرَأَيْتُهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ مَرَّةً هُوَ حَامِلُهُ (١٥)

(٧) أميرى : الذى يؤمرنى ويستشيرنى . نساوله : نجاهره الحرب .

(٨) عرافة : مؤتررين . يزاولنا ويزاوله : يعالجننا ونعالجه .

(٩) قذاله : موضع العذار من رأسه ، وهو أعلى جزء فيه . اطمأن : سكن
 خصائله : جمع خصلة وهى كل لحمة فى عصب .

(١٠) ملجمنا : واضع اللجام فى قذاله . أنامله : أطراف أصابعه .

(١١) فلايا بلاى : فبطا بعد ببطء ، وجهدا بعد جهد . محبوك : مدمج . ظماء مفاصله :
 عطاشا مفاصله ، والمفصل مجمع كل عظمين ، وإذا كان ظمآن كان أيبس له .

(١٢) سدد : قوم صدر فرسك . أبصر طريقه : تبين خطة صائبة . وصاتى : وصيتى .

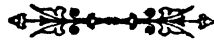
(١٣) تعلم : اعلم . غرة : غفلة ، وأن يؤتى من حيث لا يشعر . وإلا تضيعه : وإن لم
 تضيع ما أوصيتك به من أن لاصيد غرة فعليه أن ينتهزها .

(١٤) فأتبع : فتبّع غلامنا . كشوبوب غيث : كدفعة من المطر . يحضن : يقشر .

الأكم : جمع أكمة المرتفعات . وابله : مطره الغزير .

(١٥) إليه : الضمير يعود على الفرس . حامله : الضمير يعود على الغلام .

- يُثْرَنُ الْحَصَى فِي وَجْهِهِ وَهُوَ لَاحِقٌ سِرَاعٌ تَوَالِيهِ صِيَابٌ أَوَائِلُهُ (١٦)
 فَرْدٌ عَلَيْنَا الْـمَيْرَ مِنْ دُونِ إِلَهِهِ عَلَى رَغْمِهِ يَدْمَى نَسَاءُ وَفَائِلُهُ (١٧)
 وَرُحْنًا بِهِ يَنْضُو الْجِيَادَ عَشِيَّةً مُخَضَّبَةً أَرْسَاغُهُ وَحَوَامِلُهُ (١٨)
 ٣٦٧ : بِذِي مَيْعَةٍ لَا مَوْضِعَ الرُّمَحِ مُسْلِمٌ لِبَطْءٍ ، وَلَا مَاخَلْفَ ذَلِكَ خَاذِلُهُ (١٩)



- (١٦) يَثْرَنُ: الضمير يعود على الحر. وجهه: الضمير يعود على الفرس. تواليه: أواخره،
 يربد رجليه وعجزه. صياب: قاصدة مفردا صائب كصاحب وصحاب. أوائله: بداءه وصدوره.
 (١٧) فرد علينا العير: فقطعه عن إلفه، ورجمه إلينا. من دون إلفه: من غير أمانه.
 يدمى: يسيل دمه. النسا: عرق من الورك إلى الكعب. فائله: الفائل عرق في الفخذ.
 (١٨) ورحنًا به: وأمسينا بذلك الفرس. ينضو: ينسلخ وينخلع. مخضبة: ملطخة
 بالدم. أرساغه: جمع رسغ وهو القدم. حوامله: قوائمه، مفردا حاملة.
 (١٩) الميعة: النشاط، وهي هنا الدفعة من السير. موضع الرمح: الكائبة، وهي قدام
 القربوس. قال النابغة «إذا عرض الحطى فوق الكوائب» معناه أن مقدمه لا ينجذل ومؤخره،
 ومؤخره لا ينجذل مقدمه.

تحليل الأبيات :

هذه القصيدة من جواد شعر زهير ، قالها يمدح بها حصن بن حذيفة الفزاري لامتناعه على عمرو بن هند ، ولكن المدح أضعف أدواتها ، وأقل أسباب جودتها .

فطلعها أبرع مطلع تبدأ به قصائد في الثناء على الأبطال ، وتحذث الرجال عن الرجال . عزف عن اللهو والهوى ، وصحا القلب عن سلمي ، وأقصر عن امتطاء باطل الصبا والشباب ، وعريت أفراس كنت أركبها في الصبا .

وبعدئذ عرض للأطلال عرضا يسيرا ، ثم أخذ يصف فرسه ، يخرج به للصيد ، وكان وصف الصيد هو غايته الأولى من القصيدة ، إذ صورته في ثمانية عشر بيتا ، فقال :

حينما نغدو مبكرين نطلب الصيد ، نظاهره الصيال ، ونجاهره النضال ، لانعرف مخاتلة ؛ لأن المخاتلة ضعف ، ولا ترتضى لأنفسنا المخادعة فالحداغ لؤم ، هذا إلى ثقتنا أن فرسنا كريم لا يفوته الصيد ، وإذا نبحت عن الوحش نصيده أقبل خادمنا يمشى على هينته ، ويضائل جسمه ، ويخفى شخصه ، خوف أن تراه الشياه ، فتعطى ساقها العنان ، فأنبأنا أن شياها ترتع وتلعب ؛ فهي تعيش في مرعى خصب ، قد استأسد نبتة ، وطال عشبها ، واسودت مسایل مائه ، مسایل القرى إلى الرياض .

إنها ثلاث شياه ضامرات كالقسي تصنع من شجر السراء ، منطويات ، لأنهن اجتزأن بالطرب عن الماء ، فلم يضحمن وتمدد كدتهن ، وناشط لا يستقر في مكان ، ولا يقيم في بلد ، قد اخضرت جحافلها من أكل الثبت المغمور ، وقد فرق الصيادون عنه جحاشه ، وأخذوا منه صفاره ، فهم يطردونه فيدعها ، فيقنصونها ، فلم يبق من حوله إلا نفسه وآتته .

وقال صديقه وأميره يؤامره ويشاوره : ألا ترى الراى الذى نراه ؟ أنخذعه ونختله أم نصاله ونناضله ؟ فبتنا عراة مؤتررين عند رأس فرسنا الصعب الذى يحاول الجوح ؛ لما هو فيه من حدة ونشاط ، فيجذبنا ونجذبها ، ويعالجنا ونعالجها ، فضر بناه حتى سكن

رأسه ، دون أن يطمئن قلبه ، أو تسكن خصائله ، وإذا ما أقبل خادمنا ليلجمه ؛ لم يتهيا له ذلك إلا إذا وقف على أنامله ، فهو فرس نهدي ، هيكلي ضخم .

فبعد جهد ومشقة حملنا وليدنا عليه ، حملناه على فرس مدمج محبوبك ، لم يكتنز أو يترهل ، ومفاصله عطاش ظماء ، فهن صلد صلاب ، فقلنا لفارسه ناصحين : قوم صدر فرسك ، ولا تمل يمنة أو يسرة ، وتبين طريقك الذي تسير فيه ، ولا يشغلك عن وصاتي التي أوصيك بها نشاط الفرس وعلاجه ، وحدته ومراسه .

قلت له : اعلم أن للصيد غرة فاهتبلها ، وفيه - أحيانا - غفلة فانتهازها ، فإذا لم تضعيها فإنك دون ريب قاتله .

فتتبع الوليد آثار تلك الحمر ، مثله في اندفاعه إليها ، وانصبابه عليها كمثل دفعة المطر يقشر وابل هذه الدفعة الأكم ، ويزيل تراها فيظهر نباتها ، نظرت إلى الفرس نظرة تأمل ، فألفيت الوليد يحمل الفرس على الأمر الذي يريد ، فأخذت الحمر الوحشية تثير في وجه ذلك الفرس الحصى ، وهولاحق بها مدرك لها ، وأواخره سراع ، وأوائله صياب ، فلا مقدمه يخذله ، ولا مؤخره يسلمه ، فأمكننا من المير ، ورجعه إلينا من غير أليفه ، رده علينا مرغما مهورا ، قد سال الدم من عرق النساء والفائل ، فقد طعنه فسد الطعنة ، فرحنا بذلك الفرس يتقدم الجياد وينسأخ منها عشية ، وقد خضبت من دماء المير أرساغه ، وضرجت بدمائه قوائمه ، فلم يكسر من حدة نشاطه مطاردته ، ولم ينل من شدة عرامه مناضلته .

كان ذلك الطرد بفرس ذي مية ونشاط لايسلم كاثبته مؤخره ، ولا يخذل مؤخره كاثبته ، فأجزأوه بسند بعضها بعضا .

النقد :

بدأ زهير وصفه بطريقته في الصيد ، فهو لا يخادع لأن فرسه كريم يقيد الأوابد ،
ثم وصف خروجهم ، وفي هذا الوصف صور غلامهم تصويراً ناطقاً ، فهو يدب ديباً ،
ويخفي شخصه إخفاءً ، ويضائل جسمه ضئلاً ، وهو مصور بارع ، فذلك شأن كل من
يريد أن ينال شيئاً على غرة ، ويدركه في غفلة . ولكنه لا يتفق مع البيت الأول ، إلا إذا
قيل : إن الفارس لا يخاتل ، ولكن غلامه يخاتلون ، وهو عذر واه ، فالغلمان يأتمرون
بما يؤمرون ، ثم وصف المكان أدق وصف ، وفي وصفه إياه إغراء بالصيد ، فالشياه
في مرعى خصب ، فهي من غير شك سمينة غير مترهلة ، على أنه أكد هذا المعنى في البيت
الثاني إذ يقول :

ثلاث كأقواس السراء ، وناشط قد اخضر من آس الغمير جحافله

ثم سار في وصف الناشط ، فقال :

إنه قد فرق الطراد عنه صفاره ، وحرموه جحاشه ، فلم يبق إلا هو وأنته ، وأخذ
يشاور أميره ، والأمير يؤامر غلامه في صيده ، أليخاتلونه أم يجاهرونه ؟ ويظهر أن للغلام
رأياً غير رأى الأمير ، فالأمير من طبعه أنه إذا رأى صيدا مرة ، فإنه لا يخاتله ، ووصف بعد
التشاور فرسه القوى النشط بأنه لا يسكن من حدته ، ولا يهدأ لشدته ، فقال :

فَبِتَنَّا عُرَاةً عِنْدَ رَأْسِ جَوَادِنَا يُرَاوِلُنَا عَنْ نَفْسِهِ وَزَاوِلُهُ
فَنَضْرِبُهُ حَتَّى اطْمَأَنَّ قَذَالُهُ وَلَمْ يَطْمِئَنَّ قَلْبُهُ وَخَصَائِلُهُ

وتلك صورة لما بين الفارس والفرس أتمها بأن الفرس مع أنه قد اطمان قذاله
إلا أن سائسه أقصر من أن يبلغ قذاله ، فهو لا يلجمه إلا إذا وقف فوق أنامله ، ثم وصف
بعدئذ الصيد ، والحديث الذي جرى بينه وبين الغلام ، وهذا الحديث يؤيد التناقض
الذي وقع فيه زهير في أول بيت من أبيات الوصف ، فوصاته هي :

وَقُلْتُ : تَعْلَمُ أَنَّ لِلصَّيْدِ غِرَّةً وَإِلَّا تَضِيعُهَا فَإِنَّكَ قَاتِلُهُ

ثم وصف الطراد ، فوصف الغلام وصفا يدل على قوته ، وينبئ عن منته ، وصوره صورة تنم عن حنكته وحكمته ، فهو يندفع على الشياخ : كَشَوْبُوبٍ غَيْثٍ يَحْضُنُ الْأَكْمَ وَابِلُهُ ، وأحكم وصف المطاردة ، فالشياخ تثير التراب في وجه الفرس ، وهو لاحق لها ، ففؤخرتاه تلحق مقدمتيه أو أواخره - يقصد الرجلين والعجز - تلحق أوائله يعنى اليدين والصدر وأدرك الغلام ما كان يرجو فقد أبلغه حصانه غايته :

فَرَدَّ عَلَيْنَا الْعَيْرَ مِنْ دُونِ إِلْفِهِ عَلَى رَنْغِهِ يَدْمَى نَسَاءُ وَفَائِلُهُ
وَرُخْنَابُهُ يَنْضُو الْجِيَادَ عَشِيَّةً مَخْضِبَةً أَرْسَاغُهُ وَحَوَائِلُهُ

في هذه الأبيات جمال مبعثه حسن التصوير ، وروعة التعبير ، فقافية الأبيات ذات جرس موسيقى صاف هادئ ، ولكن أيناسب هذا الهدوء الصيد والطرْد ؟ إنه يناسب لأن المحادثة التي نفاها في أول بيت هي التي اعتمد عليها في الصيد ، وترى هذا الجمال في تلك الدقة في تصويره « يدب ، ويخفى شخصه ، ويضائله » لم يكتف بالدبيب ، ولم يكتف به مع إخفاء شخصه بل لا بد من تمام الصورة بالمضائلة ، كما تراه في قوله :

ثَلَاثَ كَأَقْوَامِ السَّرَّاءِ ، وَنَاشِطٌ قَدْ اخْضَرَ مِنْ لَسِّ الْقَمِيرِ جَحَافِلُهُ

ثلاث متشابهات ، وواحد منفرد بصورة ، فلا بد أن يصفه ، فهو لا يقيم في بلد ، وهو كثير الرعي ؛ حتى قد اخضرت جحافله من أكله بمقدم فمه ؛ وذلك لأنه لا يستقر عند ما يأكل .

٣ — وقال امرؤ القيس * يصف حرباً ناشبة بين عقاب وذئب :

كَأَنَّهَا حِينَ فَاضَ الْمَاءُ وَاحْتَمَلَتْ فِتْنَاهُ لَاحَ لَهَا بِالْقَفْرِ الذِّيبُ^(١)
فَأَبْصَرَتْ شَخْصَهُ مِنْ فَوْقِ مَرْقَبَةٍ وَدُونَ مَوْعِيهَا مِنْهُ شَنَاخِيبُ^(٢)
فَأَقْبَلَتْ نَحْوَهُ فِي الْجَوِّ كَاسِرَةً يَحْتَنُهَا مِنْ هَوًى اللُّوحُ تَصْوِيبُ^(٣)
صُبَّتْ عَلَيْهِ وَلَمْ تَنْصَبْ مِنْ أَمٍّ إِنَّ الشَّقَاءَ عَلَى الْأَشْقَيْنِ مَصْبوبُ^(٤)
٣٧٢ : كَالدَّلْوِ بَتَّتْ عُرَاهَا ، وَهِيَ مُثْقَلَةٌ إِذْ خَانَهَا وَذَمُّ نِيهَا وَتَكْرِيْبُ^(٥)

* تَرْجُمَةُ الشَّاعِرِ : انظر ترجمته في وصف الفرس ص ١٠٩ .

التفسير اللغوي : (١) كأنها : الضمير يعود على الفرس التي كان يصفها قبل بقوله :

وَالْيَدُ سَابِجَةٌ ، وَالرَّجْلُ ضَارِحَةٌ وَالْعَيْنُ قَادِحَةٌ ؛ وَالْمَنْ مَلْحُوبُ
وَالْمَاءُ مُنْهَمِرٌ ، وَالشَّدُّ مُنْخَدِرٌ وَالْقَصْبُ مُضْطَمِرٌ ، وَاللَّوْنُ غَرِيبُ

الاحتمال : الانتقال . فتخاء : لينة الجناحين عريضتهما ، وهى وصف للعقاب قال الشاعر :

كَأَنِّي بِفِتْنَاءِ الْجَفَا حَيْنِ لِقْوَةٍ دَفُوفٍ مِنَ الْعِقْبَانِ طَاطَأَتْ شِمْلًا لِي

وفى رواية : « واحتفلت صقعاء » فى رأسها بياض .

(٢) المرقبة : المكان المرتفع يعاوه الرقيب . الشناخيب : مفردتها : شنخاب أو شنخوب

أعلى الجبل ، وأعلى الكاهل ، وفقر الظهر ، والأول هو المراد .

(٣) كاسرة : منقضة تكسر جناحها ، أو تكسر ما تصيده كسرا . يحتنها : يدفعها .

هوى : يسقط . اللوح : بضم اللام الهواء بين السماء والأرض . تصويب : انحدار .

(٤) صبت عليه . اندفعت إليه . من أمم ، من قرب .

(٥) بتت عراها : قطعت مقابضها ، وهى جمع عروة . مثقلة : ممتلئة ثقيلة . الوزم :

سيور بين آذان الدلو ، ويجمع على وذوم ، وأوذام ، وأوذم . التكريب : جعل الكرب وهو
الجبل فى الدلو .

لا كَالْتَى فِي هَوَاءِ الْجَوِّ طَالِبَةٌ ولا كَهَذَا الَّذِي فِي الْأَرْضِ مَطْلُوبٌ^(٦)
 كالْبَرْقِ وَالرَّيْحِ مَرَاتَاهُمَا عَجِبٌ ما فِي اجْتِهَادٍ عَلَى الْإِصْرَارِ تَغْيِيبٌ^(٧)
 فَأَدْرَكَتْهُ ، فَتَالَتْهُ مَخَالِبُهَا فَاَنْسَلَّ مِنْ تَحْتِهَا ، وَالدَّفُّ مَقْنُوبٌ^(٨)
 يَلُودُ بِالصَّخْرِ مِنْهَا بَعْدَ مَا فَتَرَتْ مِنْهَا وَمِنْهُ عَلَى الصَّخْرِ الشَّائِبُ^(٩)
 ثُمَّ اسْتَفْثَاتٌ بِمَتْنِ الْأَرْضِ تَعْفَرُهُ وَبِاللِّسَانِ وَبِالشَّدَقَيْنِ تَتْرِبُ^(١٠)
 مَا أَخْطَأَتْهُ الْمَنَآيَا قَيْسُ أُنْمُلَةٍ وَلَا تَحْرَزَ إِلَّا وَهُوَ مَكْتُوبٌ^(١١)
 ٣٧٩ : يَظَلُّ مُنْجَحَرًا مِنْهَا يَرِاقِبُهَا وَيَرْقُبُ اللَّيْلَ إِنَّ اللَّيْلَ مَحْبُوبٌ^(١٢)

(٦) كالتى فى هواء الجو : كناية عن العقاب . طالبة : باغية صيدا وحرًا . كهذا : اسم الإشارة عائد على الذيب . مطلوب : مرغوب صيده . رويت هذه الأبيات لامرئ القيس رواها الجوهري ، ووهبه ابن برى ، وزعمها لإبراهيم بن عمران الأنصارى ، ولكن صاحب كتاب شعراء النصرانية نسب بعضها لامرئ القيس .

(٧) كالبرق : يقصد العقاب . الريح : يقصد الذئب ، وهو يكنى عن وصفهما بالسرعة فى الطيران والإرخاء . مراتاهما ثنية مرآة بمعنى منظراهما . عجب . عجب غريب . الإصرار . التصريم . التغييب : التقصير . وفى حديث هشام : كتب إليه يغيب عن هلاك المسلمين أى لم يخبره بكثرة من قتل منهم مأخوذ من القب الورد ، فاستعاره لموضع التقصير فى الإعلام بكنه الأمر . (٨) مخالبها : جمع مخلب أظفارها . فانسَل : فزع نفسه برفق . الدف مقنوب : الجنب مقنوب . (٩) يلود : يلجأ ويحتمى . فترت : تراخت . منها ومنه : من العقاب ومن الذئب : الشائب : جمع شؤبوب : يريد شدة اندفاع كل منهما .

(١٠) استفثات : استعانت ، والضمير يعود على العقاب ، وهى رواية الحيوان تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون ، ولعلها استعاث ليعود الضمير على الذئب فهو المغلوب المحتاج إلى العون ، وهو أقدر على إثارة العفر ، والشرط الأخير من البيت يؤكد هذا ، تريب : تراكم التراب فوق الشيء . (١١) المنايا : جمع منية ، وهى الموت . قيس : مثل قيد يعنى قدر آكلة ، والأعلة : رأس الأصبع . تحرز : تحصن . مكثوب : مكرور عليه ، مهجوم نحوه من كذب إذا كر . (١٢) يظل : يبق طوال يومه . منجحراً . محتبثاً فى الحجر . يراقبها : يلاحظها . يرقب الليل : ينتظره . محبوب : مرغوب فيه لأنه منقذه .

تحليل الأبيات :

سواء أصحت هذه الأبيات لامرئ القيس أم لم تصح فإنها شعر جاهلى ، وإن كنا نكاد نشق أنها لامرئ القيس ، فإن روحه ظاهر فيها ، فهو أقدر من سواه على وصف مثل هذا المنظر لكثرة ما شاهد في الصحارى ، ولأن فى الأبيات كثيرا من خصائصه التى تبدو فى تسلسل الصور ، وتنوع التشبيهات والكنايات ، وجمال التقسيم .

وصف فرسه بأنها عند انهمار الماء ، وانحدار الشد ، وانضمام الخصر ، ولحوب المتن كالعقاب ظهر لها فى الأرض القفر ذئب ، ثم تأكد رؤيتها إياه بعد أن تأملته من قفة لا يجذب الناظر منها حاجب ، ولكن بينها وبينه ربا ونجادا ، فلم تخش قطعها ، بل أقبلت نحوه منفضة ، تكسر فى انقضاضها إليه جناحيها ليشدد طيرانها ، يُضاعف هويها فى ذلك الجوانح تنفض منحدرة ، اندفعت إليه من مكان بعيد ، وهوت عليه من مرقب سحيق ؛ لتنزل عليه سخطها ، وتنشب فيه مخالها ، فما أشقاه ! إن الشقاء ليفد عليه من حيث يدرى ولا يدرى ، وحقا : « إن الشقاء على الأشقيين مصبوب » أو « إن الشقى بالشقاء مولع » .

هوت عليه قوية دافقة ، وانصبت نحوه عازمة عارمة ، كأنها الدلو المثقلة بالماء قد انبثت عراها ، وخانها وذمها وتكرهها ، فسقطت كجمود الصخر ، ليس كهذه التى تهوى من الجو تطلب صيدا فى قوتها وعرامها طالب ، ولا كذلك الذى يرخى فوق الأرض خوف ذلك الطالب مطلوب .

ما أشبه الطالب والمطلوب بالبرق والريح ، فالريح يعصف من ورائه البرق يلعب ، فنظراهما عجيب ومرآتاها غريبة ، إذ كلاهما يصير على الاجتهاد دون تقصير فيه ، ويعزم على أمر لا يحيد عنه ، هى تعزم على الفتك ، وهو يصير على الخلاص منها ، فما فى عزميهما تغيب . ولكنها أنفذت إصرارها ، وأدركت ما عزمت عليه ، فنالته مخالبها ، وأنشبت فيه أظافيرها ، ولكنه استطاع أن ينسل من تحتها ، وأن يتخلص من برائتها ، وقد نقب جنبه ، وثقب دفه ، وأخذ يلجأ إلى الصخور يحتجب تحتها ليحتمى بها منها ، وكان الصراع

قد ثبط من همتيهما ، والنضال قد أوهى من قوتيهما ، فانتقل الهجوم والدفاع ، والسكر والفر فوق ذلك الصخر الذى لجأ إليه ، ولاذ به ، فلجأ إلى غير الصخر ، فاستعان بمتن الأرض يثير غباره ، ويهيج غفره ليحجب بذلك التراب عن العقاب شخصه ، فترب لسانه وشذقيه ، دون أن تخطئه المنايا ، أو يغلط الموت فى معرفة مكانه ، لم يخطئ الموت قيد أعملة ، ولا نفعه التحرز والتحصن وهى كارة عليه ، مندفة إليه ، فهو يظل يومه مختفيا فى الأججار ، مختبئا بين الصخور ، مترقبا الليل المحبوب ليحميه من ذلك العدو الجبار .

النقر :

وقفت العقاب على إرم ، فرأت الذئب بينها وبينه قمم الجبال والربا والنجاد ، فاندفعت إليه تهوى « يحثها من هوى اللوح تصويب » تلك أول الصور التى رسمها امرؤ القيس فى هذه الأبيات .

انصبت عليه كما تسقط الدلو المنعمة بالماء قد انبتت عراها ، وخانها وذمها وتكريها ، وهذه صورة أخرى ، وأجل من هاتين الصورتين تشبيههما بالبرق والريح ، وحقا إن مرآتهما عجب ، وبلغ هذه الصورة وتكوينها فى كلمتين أغرب وأعجب ؛ ووصف المعركة ، وأن العقاب قد أنشبت فى الذئب مخالبا ، وأنه ينسل من تحتها منقوب الجنب لائذا بالصخر ، وصف بلغ القمة فى تصوير الحقيقة ، وصدق الوصف .

إنك واجد فى هذه الأبيات صورا خلاصة متسقة ، كما أنك واجد فى هذه الصور حياة دفاقة ، وأى صورة تتدفق بالحياة أوضح من هذه :

فأدركته ، فنالت — مخالبا فأنسل من تحتها ، والدف منقوب

يلوذ بالصخر منها بعد ما قترت منها ومنه على الصخر الشايب

أدركته ، تصور عدوها وملاحقتها إياه ، فنالت مخالبا ، تصور قبضها عليه وإنشاب مخالبا فيه ، فأنسل من تحتها ، تصور محاولته الإفلات من مخالبا حتى استقطاعه ، والدف منقوب

تصور الحال التي أفلت عليها ، يلوذ بالصخر ، تصور اختباءه بين الصخور ، بعد فتورها
ونمود تدافعهما .

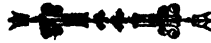
أما جمال الأسلوب فيبدو في أكثر الأبيات بل في جميعها ، فمن الجمال الفتان قوله :

صبت عليه ، ولم تنصب من أمم إن الشقاء على الأشقين مصبوب

يمعجبك دون شك هذا الطباق السلي ، كما يمعجبك ذلك الاحتباس في قوله من أمم .
أما الحكمة ، فهي أخلد الحكم « إن الشقاء على الأشقين مصبوب » وأجل ما فيها كلمة
مصبوب ، لأنها توحى باندفاع الشقاء إليه ، وسقوط البلاء عليه ، ومن جمال الأسلوب
قوله :

كالبرق والريح مرآتاها عجب ما في اجتهدا على الإصرار تغيب

وبعد فالأبيات جميلة من جميع النواحي ، وكلما زدتها تأملا زدت شعورا بجمالها .



٣ — وقال عبيد بن الأبرص * يصف العقاب تصيد ثعلبا :

كَأَنَّهَا لَقَوَّةٌ طَلُوبٌ تَيَبَّسُ فِي وَكْرِهَا الْقُلُوبُ^(١)
 بَاتَتْ عَلَى إِرْمٍ عَذُوبَا كَأَنَّهَا شَيْخَةٌ رَقُوبُ^(٢)
 فَأَصْبَحَتْ فِي غَدَاةٍ قُرَى يَسْقُطُ عَنْ رِيشِهَا الضَّرِيبُ^(٣)
 فَأَنْصَرَتْ ثَعْلَبًا سَرِيعًا وَدُونَهُ سَبَبٌ جَدِيبُ^(٤)
 فَانْفَضَّتْ رِيشَهَا وَوَلَّتْ وَهِيَ مِنْ نَهْضَةٍ قَرِيبُ^(٥)
 ٣٨٥ : فَاشْتَالَ وَارْتَاعَ مِنْ حَسِيسٍ وَفَعَلَ يَفْعَلُ الْمَذْءُوبُ^(٦)

* ترجمه الشاعر : هو عبيد بن الأبرص بن حنتم بن مالك بن زهير الأسدي أحد خول الشعر في العصر الجاهلي ، ويقال : إنه لم يكن يقول الشعر إلى أن هجاء وهجا أخته شاعر ، فرفع يديه إلى السماء مبتهلا ، وهو يقول : اللهم إن كان فلان ظلمي ورماني بالبهتان ، فأدلى منه ، وانصرتني عليه ، ثم نام ، فأثامه آت في المنام بكبة من شعر ، وألقاها في فمه ، فقام وهو يرتجز هجاء في خصمه ، وقد مات قتيلا ، قتله المنذر بن ماء السماء سنة ٦٠٥ م .

التفسير اللغوي : (١) كأنها : الضمير يعود على الفرس التي كان يصفها في الأبيات السابقة . اللقوة : العقاب ؛ سميت بذلك لأنها سريعة التلقي لما يطلب . طلوب : كثيرة الطلب ، تيبس : تجف من الخوف والفرع . القلوب : يعنى قلوب الطير في أوكارها عند سماع خيف جناحيها .

(٢) الإرم : العلم من الأرض ، العذوب : التي لا تأكل شيئا ولا تشرب ماء . الشبيخة : العجوز . الرقوب : التي لا يبق لها ولد .

(٣) القر . البرد . الضريب : الجليد .

(٤) دونه : أمامه . سبب جديب : فلاة قاحلة مجربة .

(٥) نفضت : حركت وهزت . وات : طارت مبعدة . هي من نهضة : من طهران .

(٦) اشتال : رفع ذنبه . ارتاع : فزع . حسيس : صوت . المذءوب والمزءود : الخائف

الفرع .

- فَنَهَضَتْ نَحْمُوهَ حَيْثَا وَحَرَدَتْ حَرْدَهُ تَسِيبُ^(٧)
 فَدَبَّ مِنْ خَلْفِهَا دَيْبًا وَالْعَيْنَ حِلَاقُهَا مَقْلُوبُ^(٨)
 فَأَدْرَكَتْهُ فَطْرَحَتْهُ وَالصَّيْدُ مِنْ تَحْتِهَا مَكْرُوبُ^(٩)
 فْجَدَلَتْهُ مَطْرَحَتْهُ فَكَدَحَتْ وَجْهَهُ الْجَبُوبُ^(١٠)
 يَضْفُو وَغَلَبَهَا فِي دَفِّهِ لَا بُدَّ حِزْوُمَا مَنَقُوبُ^(١١) : ٣٩٠



-
- (٧) حَيْثَا : سَرِيعَةً . حَرَدَتْ : قَصَدَتْ . تَسِيبُ : تَنْسَابُ عَلَى الرَّمْلِ .
 (٨) فَدَبَّ : فَسَارَ فِي خَفَاءٍ وَحَذَرٍ . الْحِلَاقُ : بَاطِنُ الْجَفْنِ أَوْ عُرُوقُ الْعَيْنِ .
 (٩) فَطْرَحَتْهُ : فَرَمَتْهُ . الصَّيْدُ : يَقْصِدُ التَّغْلِبَ . مَكْرُوبُ : مُصَابٌ بِالْكَرْبِ وَالشَّدَةِ
 (١٠) فَجَدَلَتْهُ : قَفَلَتْهُ ، وَأَصْلُهُ طَرَحَتْهُ بِالْجِدَالَةِ وَهِيَ الْأَرْضُ . فَكَدَحَتْ : فَخَدَشَتْ
 الْجَبُوبُ : الْأَرْضُ الصَّلْبَةُ .
 (١١) يَضْفُو : يَصِيعُ . غَلَبَهَا : ظَفَرَهَا . دَفُّهُ : جَنْبُهُ . حِزْوُمَا : صَدْرُهَا .

تحليل الأبيات :

شرع عبيد يصف فرسه ، فلم يطل ؛ إذ لم يتجاوز في وصفه إياها هذه الأبيات :

فذاك عصرٌ وقد أراني تحملي نهدةً سرحوبُ
مضبرٌ خلقها تضيبرًا ينشق عن وجهها السبيبُ
زيتيةٌ نائمٌ عروقها ولينٌ أمرها رطيبُ

ثم انتقل إلى تشبيه فرسه في شدة عدوها ، وسرعة شدها بعقاب خفيفة ، سريعة التلقى لما تطلب ، إذا أبصرتها الطيور في أوكارها أدركها حينها ، وبلغها حتفها ؛ إذ تبيس قلوبها الرطبة ، وتحف أفئدتها الطرية ، لأن الدماء لا تجرى فيها ، وذلك لكثرة ماتصيد منها .

قد باتت هذه العقاب فوق رابية عالية ، ومرتبة مرتفعة ، وإرم مستطيل ، عذوبا عن الأكل ، عزوفا عن الطعام ، كأنها شيخة عجوز ، بلغ منها اليأس كل مبلغ ، فلا رجاء لها في عقب ، فقد أدركتها سن الإياس ، لقد ثكلت تلك الشيخة وليدها ، وأصابها الدهر في وحيدها ، فلم يقر لها في ليلها الأطول قرار ، ولا مس جفניה هجوع ، فأصبحت مبكرة في جو بارد ، وبرد قارس ، تجمد له الماء ، فصار جليدا متساقطا عن ريشها .

وإذ هي على تلك الحال من انقباض النفس وجمود الحس ، أبصرت ثعلبا يستحث قوائمه ، وبينه وبينها فلاة قاحلة ، ومفازة مجذبة ، فنسيت ما كانت فيه من انقباض وخود ، ونفضت ريشها نفضا ، ووثبت وثبة قوية ، إذ رأت الصيد مواتيا ، وطارت تجاهه ، فأصبح منها جد قريب ، فشال ذنبه ليهم بالفرار ، بعد أن أفعم قلبه بالارتياح والفرح من ذلك الزيف المفاجئ ، والصوت المباغت ، وصنع ما يصنع الخائف المذعوب ، والفرع المزود ، فأقبلت عليه مسرعة حثيثة ، وانسابت إليه انسياب الماء الدافق ، فتحول من خلفها حذرا ينظر إليها شررا . ليتبين ما قدتهم به ، فكان حلاق عينه مقلوب ؛ لأنه ينظر في اتجاه للعقاب .

ولكن هذا الديب الخفى لم ينفعه ، والدوران من حولها لم يجده شيئا ، والتوجس والحدزر لم يدفع عنه قضاء ، فقد أدركته فطرحته على الأرض ، وهى من فوقه جائمة ، وهو من تحتها فى كرب وقنوط ، فقتلته بعد أن طرحته بالجدالة لا يقوى على دفاع ، ولا ينهض بمقاومة ، وخدشت وجهه بمخالبا الحادة ، وبالأرض الصلبة التى رمته فوقها ، وأخذ قبل أن يودى به يصيح ، وكأنه يتضرع ويستغيث فمخالبا فى جنبه تنقبه ، وأظفارها فى صفحته تنقبها ، ولكن من ذا يستمع للضراعة ، وأنى يجد المغيث ؟ وأعياء الصباح ، فقد تقبت عن صدره ، فثلث به أسوأ تمثيل .

الفقر :

فى هذه الأبيات دقة وصف ، وجودة تصوير ، وعلم بطبائع جوارح الطير ، فهى تبدو ساكنة هادئة ؛ حتى إذا أتاحت لها الفرصة فريسة نفضت عنها غبار الممود ، وخلعت ريش الهدوء ، ونهضت فى وثبة المرح النشيط ، وليس كل إنسان يعرف ذلك الطبع فى العقبان ، وإنما يعرفه رجل البيداء ، وأخو الصحراء .

كما أجاد الشاعر تسلسل العرض ، وأبدع فى تصوير خطوات كل من العقاب والثعلب ؛ فالعقاب ينهض طائرا ، ويشد فى الطيران ، ويقف على مرقبة من الثعلب ، وكأنه يرسم طريق الهجوم عليه ، ويراها الثعلب فيدبر لنفسه مخلصا ، ويقدر له منفذا فيهم بالفرار ، فيفر ، يتلفت ذات اليمين وذات الشمال .

ولسكها وقد قاست الطرق إليه ، وقدرت أقربها نحوه ، تنساب انسياب الأنفى فتدركه فتطرعه فتجدله ، فتنقب جنبه وصدره .

صور حية ، وتمثيلية كاملة لا ينقصها منظر ؛ ولا تحتاج إلى مزيد ، كل ذلك فى أسلوب متسق ، فبعض الألفاظ يصور معانيه ، ويشعر باختيار الشاعر إياه ، فسبب أفضل من غيرها من الألفاظ الدالة على الصحارى ، ويظهر أنه آثر الإكثار من بعض الحروف لعلام

الموقف من هذه الحروف السين والباء ، فتيس ، ويسقط ، سريعا ، وتسيب وحسيس كلها ألفاظ مقصودة لذاتها، ومن الألفاظ الموحية بالمعاني: فاشتال وارتاع فإن زيادة التاء في الفعلين تشعرك باشتداد اشتياله ، وقوة ارتياعه .

والذى لانكاد نستريح إليه البحر الذى اختاره عبيد لقصيدته ، ويشاركنا فى نظرنا إلى ذلك البحر المضطرب الأمواج ، المختل الأوزان أو العلاء المعرى ، فيقول :

وقد يخطئ* الرأى امرؤ وهو حازم كما اختل فى وزن القريض عبيد

على أن مما يغفر له هذا الاضطراب أنه كان ذا نفس شاعرة ، وإن لم تكن وازنة ؛ فالشعر كما قدمنا فى أول هذه الفصول إثارة الشعور ، وإهاجة الوجدان ، لا ترتيب الألفاظ ، وتنسيق الأوزان .



٤ — وقال زهير* يصف صقرا يطارد قطاة :

كأنها من قطا الأجبابِ حانَ لها ورْدٌ وأفردَ عنها أختها الشَّبثُ^(١)
 جُونَيْةٌ ، كحصاةِ القَمَمِ مرْتَمَا بالسِّى ما يُنْبِتُ القَفْعاءُ والحَسَكُ^(٢)
 أهوى لها أسفعُ الحَدَّينِ مُطَرِّقٌ ريشَ القوادِمِ لم يُنْصَبْ له الشَّرْكُ^(٣)
 لاشئْ ، أجودُ منها وهى طيِّبَةٌ نفساً بما سَوَفَ يُنْجِيها وتَتَرَكُ^(٤)
 دونَ السَّماءِ وفوقَ الأرضِ قَدْرُها عِنْدَ الذَّنابَى فلا فَوْتَ ولا دَرَكُ^(٥)
 عِنْدَ الذَّنابَى لها صَوْتُ وَأَزْمَلَةٌ يكادُ يَخْطُفُها طُورًا وتَهْتَلِكُ^(٦)
 حتَّى إذا ما هَوَتْ كَفَّ الغَلامُ لها طارتْ وفي كَفِّهِ مِنْ ريشِها بِنْتُكَ^(٧)

* ترجمه الشاعر : تقدمت في وصف الناقة ص ٨٨ .

التفسير اللغوى : (١) كأنها : الضمير يعود على الفرس فى الآيات قبل ، إذ يقول :

وصاحي وردة نهـد مراكلها جرداء لا فحج فيها ولا صكك
 الأحباب : جمع جب مواضع الآبار . حان لها . ظهر لها . ورد : الورد القوم يردون
 الماء ، أو هو ورود الماء ، وهو أنسب . (٢) القطا : الجوى والكدرى . وفى كليهما
 سواد ، والعطا عبرا ، أو هو ما اسود جانب أجنحته وطالت أرجله ، واغربت ظهوره غبرة
 ليست بالشديدة ، وعظمت عيونه . حصاة القسم : الحصاة التى يقسم عليها الماء إذا قل مع
 المسافرين ، فيصبون عليها الماء حتى يغطيها ولا تكون إلا ملساء مجتمعة ، ولذلك تشبه القطاة
 بها فى شدتها واحتجاج خلقها . السى : ما استوى من الأرض . القفعاء : بقلة ذات نور أحمر .
 الحسك : ثمر الفل تشبه القث ولها نور أصفر . (٣) أهوى : انقض . أسفع الحدين :
 أسمر الحدين يشوبهما حمرة . مطرق : مجتمع الريش . القوادِم : الريش مقدم الجناح ، وهو ريش
 كبير . لم ينصب له الشرك : كناية عن أنه وحشى لم يؤخذ ولم يذل . (٤) أجود : أسرع :
 طيبة نفسا : راضية مطمئنة . تترك : تترك وتدع . (٥) دون السماء : تحت السماء .
 الذنابى : الذنب . فلا فوت : فلا بعد عن الصقر . ولا درك . ولا لحاق منه لها .

(٦) عند الذنابى : عند الذنب . لها صوت وأزمله : لها صوت مختلط مضطرب من الفزع .
 تهلك : تجتهد فى الإسراع . (٧) هوت : سقطت . بتك : قطع وزنا ومعنى .

ثم استمرت إلى الوادى فألجأها منه وقد طمع الأظفار والحنك^(٨)
 حتى استغاثت بماء لا رشاء له من الأباطح فى حافاته البرك^(٩)
 مكلل بأصول النجم تنسجه ریح خريق لضاحى مائه حُبك^(١٠)
 كما استغاث بسني فز غيطة كما خاف العيون فلم ينظر به الحشك^(١١)
 ٤٠٢ : فزل عنها ، وأوفى رأس مرقبة كنصب العتر دمي رأسه النسك^(١٢)



- (٨) استمرت : أى فى الطير والهيب . فألجأها : فحملها على الوادى خوفها منه ، لأن بالوادى شجرا يمكن أن تختفى فيه . الأظفار : المحالب . الحنك : المنقار .
- (٩) استغاثت : استعانت والتجأت . لا رشاء له : لا حبل ينزح به الماء ، وفيه كناية عن أنه ز . الأباطح : جمع أبطح ، الأرض المستوية . فى حافاته : على شواطئه . البرك : جمع بركة وهى طيور من طيور الماء ، أو هى الضفادع .
- (١٠) مكلل : محيط به النبات كالإكليل . النجم : النبات الذى يقال له التيل ، قيل : إنه لا ينبت إلا على ماء ، أو فى موضع تحته ماء . ریح خريق : ریح شديدة . لضاحى مائه . لبارز مائه . الحبك : طرائق ، مفردا حبيك .
- (١١) السني : اللبن الذى فى الضرع قبل أن يدر . الفز : ولد البقرة . الغيطة : الشجر الملتف أو القرة وهو المراد . خاف العيون : خاف الناس وخشيم . الحشك : احتفال الضرع باللبن .
- (١٢) فزل عنها : فسقط الصقر عن القطة . أوفى : بلغ . المرقبة : المكان المرتفع ينظر منه الرقيب . المنصب : الحجر يعثر عليه . العتر : والعتيرة الذبيحة تذبح تعبدا ونسكا . أو العتر الصنم . دمي : أسال دمه . النسك : جمع نسيكة ما يذبح عليه .

تحليل الأبيات :

كأن فرسى تلك من قطا أرض ذات عيون وآبار ، فيفد عليها الواردون ، فهى منهم حذرة وجلّة ، ولا سيما وقد قنص أختها شبك الصائد ، وحباله القانص ، تلك القطاة جونية الشكل ، مستوية الخلق ، فظهرها أكدر ، وباطن جناحيها أسود ، وریش حلقها أصفر ، واستواء خلقها يحكى استواء حصاة القسم ، يتقاسم عليها السفر ماءهم ، وقد أوشك أن ينفد ، وهى تحيا فى خصب ، وتعيش فى رتاع ، فلها فى سياتها نوعان من الغذاء : بقلة من أحرار البقل ، وثمره من ثمر النّقل .

وإذ هى سعيدة بوطنها ، متمتعة برغد عيشها انقض عليها صقر ذو خدين أسفمين ؛ أشربت حرتهما بسواد ، وانضم ريش قوادمه بعضه على بعض ، وهو صقر كاسر ، لم يذله قانص ، ولا قنصه أسر ، فهو قوى مخيف .

وبدأت المطاردة ، فليس أجود من القطاة سرعة ، وهى ليقينها بسرعة طيرانها طيبة النفس ، مطمئة الفؤاد ، عالمة أن جناحيها سيهبان لها النجاة ، فهى تترك بعض ما تستطيعه ؛ لقد حلقا فى الجو ، بين السماء والأرض ، فهى أمامه ، وهو من خلفها ، يكاد يبلغ ذنبا ، فلا هو يدركها ، ولا هى تفوته ، وحينما تركت طيرانها أهوت إليها كف الغلام لتقبض عليها ، فاستجمعت قوتها ، وتخلصت من كفه ، وقد بقى فيها قطع من ريشها ، حتى بلغت الوادى ذا الشجر ، فهى تقدر على الاختفاء فى أغصانه ، أو الاختباء بين جذوعه وأفئانه ، بعد أن طمع ظفره فى القنص ، ومنقاره فى الخش والنقر ، ولم تزل تجتهد فى الطيران ؛ حتى استغاثت بماء يجرى على سطح الأرض ، فليس له غور ، ولا يحتاج إلى رشاء ينزح به ، لأنه فى أبطح مستو يتجمع حول حافات البرك ، هذا الماء يكلله النجم ، وتحوطه أصول النبات الذى لاسوق له ، فإذا مرت به ريح الشمال الشديدة جعلت فى ظاهر ذلك الماء طرائق وأمواجا كأنها أجزاء النسيج ، وكانت استغاثتها بذلك الماء كاستغاثته ولد البقرة بالضرع الذى لم يحتفل بعد باللبن ، وهو يخاف أن ينظره الراعى ، فلا يدعه يشرب حتى ذلك السبىء .

قد أجهد الصقر ، واختفت عن عينيه القطاة ، فسقط عن مطارقتها مرغما ، ولكنه وقف فوق مرقبة ينتظر أن تبدوله مرة أخرى كحجر العتر الذى يدمى رأسه بدم ذلك العتر .
النقر .

يمتاز زهير بتصوير كثير من مناظر البيئة العربية الدقيقة ، وبرسم عديداً من عادات العرب التى لا ترد على خواطر أكثر الشعراء ، ولعل مصدر هذا أمران : أولهما تجويد شعره ، فذلك التجويد يبعث على التأمل الطويل ، والتدبر فيما يقول ، والآخر طول عمره ، واستمداده حكمته من حياته وحياة أمته ، انظر إلى قوله يصف القطاة باستواء الخلق ، واملاس الظهر :

جونية كخصاة القسم مرتعها بالسي ماتنتب القفء والحسك
لقد ذكر لنا عادة من عادات العرب فى أسفارهم ورحلاتهم ، هى قسمهم الماء بينهم ، وذكر هذه العادة يوحى إلينا بقلّة الماء فى بلاد العرب ، وقلة الماء يتبعها قلة العشب ، وندرة النبات . ولكنه فى هذا البيت بالذات أشعرنا أن من بلاد العرب أرضا ذات مراعى خصبة ، ومزارع فسيحة .

ثم هذه صورة أخرى من الصور الجميلة التى تستطيع أن ترسم منها مصورا لجزء من بلاد العرب دون أن تخاف الخطأ أو توصف بالتجاوز فى الرسم ، تلك هى :

حتى استغاثت بماء لا رشاء له من الأباطح فى حافاته البرك
مكمل بأصول النجم تنسجه ريح خريق لضاحى مائه حبك
وصف الماء الذى استغاثت القطاة به بأنه لا يحتاج إلى رشاء ؛ وإذن فهو نجل وأنه ينزّ فى أرض مستوية ؛ ليس فيها أغوار ؛ وأن على حافاته ذلك الطير الأبيض من طيور الماء ؛ أو الضفادع وهو أنسب فى هذا المقام ، ثم إن النبت الصغير يلف ذلك الماء ويحوطه ، وقد تنسج الريح فوق الماء الظاهر طرائق وحبكا .

ثم هذه النظرة الدينية التى صوّر لنا فيها إحدى عاداتهم فى عبادتهم ، وهى الذبح فى شهر رجب للأصنام تنسكا وتعبدا ، وتلك النظرة فى قوله :

فزّل عنها وأوفى رأس مرقبة كنصب العتر دى رأسه النسك
أما أسلوب زهير فهو الأسلوب المصفى الذى قل أن تجد فيه ما يميمه ، فقد كان من عبید الشعر ، فكيف يخون سيده ، أو يهمل شأن أميره ؟

ه — وقال أبو ذؤيب الهذلي * يصف صيد الجر الوحشية :

فوردنَ والعَيُوقُ مَقْعَدُ رَائِي الضُّرْبَاءِ خَلْفَ النَّجْمِ لَا يَتَقَلَّعُ^(١)

فَشَرَعَنَ فِي حَجَرَاتٍ عَذْبٍ بَارِدٍ حَصْبِ الْبَطَاحِ تَقِيبُ فِيهِ الْأَكْرَعُ^(٢)

فَشَرِبْنَ ، ثُمَّ سَمِعْنَ حَسًّا دُونَهُ شَرَفُ الْحُجَابِ وَرَيْبُ قَرَعٍ يُقْرَعُ^(٣)

وَنَمِيمَةً مِنْ قَانِصٍ مُتَلَبِّبٍ فِي كَفِّهِ جَشٌّ أَجَشُّ وَأَفْطَعُ^(٤)

٤٠٧ : فَنَكَّرْنَاهُ ، فَفَرَّقْنَاهُ فَامْتَرَسَتْ لَهُ سَطْعَاءُ هَادِيَةٌ ، وَهَادٍ جُرْشَعُ^(٥)

* ترجمه الشاعر : أبو ذؤيب كنية اشتهر بها الشاعر ، واسمه خويلد بن خالد بن محرز

الهذلي ، كان شاعراً جلاً ، أدرك الإسلام فأسلم ، سئل حسان بن ثابت عن أشعر الناس ، فقال : حيا أم رجلاً ؟ قال سائله : بل حيا ، فقال : حيا هذيل ، ورجلاً أبو ذؤيب ، وهذه الأبيات من قصيدته التي يرثي بها بنيه الخمسة الذين اغتالهم الطاعون في عام واحد بعد أن صاروا رجال بأس ونجدة وأول القصيدة هو :

أمن النون وريها تتوحد ؟ والدهر ليس بعتب من يجزع

التفسير المفرد : (١) فوردن : نون النسوة تعود على الجر الوحشية . العيوق : كوكب

يظهر بإزاء الثريا . رايب الضرباء : الرايب الرجل فوق الضرباء ينظر ما يفعلون ، والضرباء :

جمع ضريب الصاربون بالقداح . لا يتقاع : لا يتقدم ولا يرتفع . (٢) فشرعن : ضمير

النسوة يعبد على الجر ، فددن أعناقهن ليشربن . الحجرات : النواحي ، مفردها حجرة .

الحصب : الماء فيه الحصباء ، وهو أصفى ما يكون . البطاح : بطون الأودية ، مفرده أبطح .

الأكرع : جمع كراع مستدق الساق ، ويريد أكرع الحمير . (٣) حسا : صوتا . دونه :

بينه . شرف الحجاب : منقطع أرض الحرة ، وقيل : إنما يريد حجاب الصائد ؛ لأنه لابد أن

يستتر بشيء . ريب قرع : قرعا ريب ويفزع ، ويريد قرع القوس وصوت الوتر .

(٤) نميعة : يريد نميعة القانص ، وهي ما تم عنه ، المتلب : المتقلد كنياته . الجش : :

القضيب من النبع تصنع منه القسي . الأجش : الغليظ الصوت . أقطع جمع قطع ، وهو النصل

العريض القصير .

(٥) فنكرنه : فأنكره . فامترست له : فأقبلت عليه ولصقت به . السطعاء : الطويلة

العنق . الهادية : المقدمة . الجرشع : الغليظ الممتلئ الجبين .

فرى ، فَأُنْفَذَ مِنْ نَجُودٍ عَائِطٍ سَهْمًا نَحْرًا ، وَرِيشُهُ مُتَصَمِّعٌ^(٦)
فَبَدَا لَهُ أَقْرَابُ هَادٍ رَائِعًا عَنْهُ فَعِثَّ فِي الْكِنَانَةِ يَرْجِعُ^(٧)
مَرَى ، فَأَلْحَقَ صَاعِدِيًّا مُطَحَّرًا بِالْكَشْحِ ، فَاشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ الْأَضْلَعُ^(٨)
فَأَبْدَهُنَّ خَتُوفَهُنَّ : فَهَارِبٌ بِذِمَائِهِ ، أَوْ بَارِكُ مُتَجَمِّعٌ^(٩)
٤١٣ : يَعْثُرْنَ فِي عُلُقِ النَّجِيعِ كَأَنَّمَا كَسَيْتُ بَرُودَ بَنِي تَزِيدَ الْأَذْرُعُ^(١٠)



-
- (٦) النجود : العلة الطويلة . العائط : التي اعتاطت رحمها فبقيت أعواما لا تحمل . متصمغ : منضم بعضه فوق بعض من الدم المتجمد عليه .
- (٧) الأقرب : الخواصر ، والذي بدا له قرب واحد لجمعه بما حوله . رائعا : مصرفا مائلا . عيث : مديده إلى كنيانته ليأخذ سهما . يرجع : يمديه .
- (٨) الصاعدي : نسبة إلى بنات صعدة على غير قياس وهي الحمر الوحشية ، وقيل الأسهم ، والأول رأى اللسان . مطحرا : سهما بعيدا . الكشح : ما بين الخاصرة إلى الضلع من الخلف .
- (٩) فأبدهن ختوفهن : فأعطاهن ختفهن وهلاكهن . بذمائه : ببقية نفسه . المتجمع : الساقط على الأرض .
- (١٠) علق النجيع : متجمد الدم . بنو تيزد : بطن من قضاة تنسب إليه البرود .

تحليل الأبيات :

وردت الحمر الوحشية الماء وكوكب العيوق يبدو خلف الثريا ، كما يظهر الرقيب خلف لاعبي الميسر بنظر ما يفعلون ، فإذا نهذ قدح حفظه خشية التبديل ، ولا يكون العيوق كذلك إلا آخر الليل في شدة الحر ، فشرعت الحمر تشرب من جميع نواحي الماء ، تشرب ماء عذبا خصرًا ، حصب البطاح ، جاريا ليس نجلا ، بل هو فياض تغيب فيه أكرع هذه الحمر ، فما زلن يشربن هادئات هادئات ، حتى أزال هدوءهن ، وأقصدن هناءتهن ، صوت بينه وبينهن شرف مرتفع ، فهن لا يتبين مصدره ، فاشتد منه ريبن ، وعظم فزعهن ، فهو يريب كما يريب قرع القوس أو صوت الوتر ، سمعن صوت وتر ذلك الصياد المتقلد كنانته ، المتلبس بأسهمه ونباله ، الحامل في يده قوسه ، وهو إلى كل هذا ذو صوت أجش ، ونصل عريض قصير .

فأنكرن هذا الصوت ، وكان إنكارهن له سبب نفورهن منه ، وبعدهن عنه ، وأخذ بعضهن يمترس بالآخر ، فتنضم السطعاء الطويلة العنق إلى الجرشع الغليظ الجنبين ، كأنها تطلب حمايته ، ويمترسها هو كذلك ؛ كأنه يلتمس حمايتها .

وكان هذا الامتراس قد أضربهن ، فقد رمى الصياد سهمه ، فأنفذته في أتان عبلة طويلة ، قرية مكتنزة ، إذ لم تحمل ولم تلد فتفى قوتها ، فسقط السهم المريش فيها ، وقد انضم ريشه وتجمع ، فكان أقتل وأفتك .

وظهر لذلك الصائد الماهر خاصرة حمار رائغ عن إخوانه ، منصرف عن رفاقه ، فأمال يده إلى كنانته يستخرج منها سهمًا ليرمي به ذلك النافر الشارد ، ورمى فأدرك سهمه البعيد الرمي حماراً صاعدياً ، أصابه في خصره ، فاشتملت على ذلك السهم المسدد أضلاع ذلك الحمار ، وفرق الموت عليهن ، ووزع المنون فيهن ، فمنهن من أصيب إصابة غير قتالة فهو هارب بذمائه ، ومنهن من إصابته قاتلة فهو بارك في مكانه لا يستطيع حراكاً ، وهذه الأثن الماربات تتعثر في طريقهما ، والسهم في أذرعها ، والدم المتجمد يعلوها ، فطرائق الدم في تلك الأذرع كطرائق برود بنى تزيد ، كلاهما يشتمل على خطوط حمر تضرب إلى السواد .

النقر :

الناظر في أبيات أبي ذؤيب يجد صوراً متتابعة متعاقبة ، يأخذ بعضها بأعناق بعض ؛ فالجر ترد الماء سحرا ، فيشرعن يشرن من نواح مختلفات ، وبعد أن شر بن سمعن حسا يحجبه عنهن شرف الحجاب ؛ ونغمة قانص متقلد كنفاته ، فنكرن الصوت والنيمة ، فنفرن فتلاصقن ، وهكذا يسير في تصويره كأنه قطار إبل .

وتلك الصور صادقة صدقا واضحا ، ليس للغلو فيها نصيب ، فالجر ترد الماء سحرا إذ الميوق يتخذ له مرقبة خلف الثريا التي تقف دون أن تسير ، وتثبت لا تتلغ ، ثم صورها ترد الماء ملتفات حول شاطئه ، دائرات عند حجراته ، وليس هذا الماء نزا بل تغيب فيه الأكرع .

وكأنك تتأمل الصائد ، وهو يرمى سهمه ، فيصيب هدفه ، فيخر ذلك الهدف ، وقد تصمع ريش السهم من آثار الدم ، وذلك في قوله :

ورمى ؛ فأنفذ من محود عائط سهماً ، فخر ، وريشه متصمع
وها هو ذا يصف لك الصيد ، فهو أتان عبلة طويلة حرمت الحمل ، فهي فتية قوية ، ويظهر أن فقد أبي ذؤيب بنيه الخمسة جعله يستهين بالحياة ، ويستخف بالبقاء ، فهو في أبياته يصف الصائد بأنه تابع الرمي حتى كاد يفنى الجر ، وينوع مواطن الإصابات ، وهاك قوله يثبت ما نقول :

فرمى ، فألقى صاعديا مطحرا بالكشح ، فاشتملت عليه الأضلع
فأبدن حنوفهن : فـارب بدمائه ، أو بارك متجممع
ولا بد أن الصورة في آخر الأبيات ستعجبك ، فهي صورة حقيقية صادقة ، إذ ذلك شأن كل ما يطارده الصائدون ، هروب وإلا فحتوف .

أما الأسلوب فجزل قوى ملائم لموضوعه تشيع فيه حروف تكسبه هذه الجزالة مفردة أو مركبة مع غيرها كحرف الشين مثلا ، وهناك حروف تتابع ، فلا تحدث تنافرأ كقوله : فنكرنه فنفرن ، فقد تكررت في هاتين الكلمتين الفاء ، والنون والراء ، دون أن يشعر القارئ بثقل ، بل لعله شعر برضا عن الشاعر .

وبعد فالأبيات من قصيدة حكم لها بالجمال ، وهذه الأبيات من أروع أسباب جمالها .

٦ — وقال تأبط شراً * يصف الغول ، وقد تقاطلا :

- ألا من مبلغٌ فتیان فهمٍ بما لاقیت عند رَحَى بَطانٍ^(١)
 بأنى قد لقيتُ الغولَ تهوى بسهبٍ كالصَّحيفةِ مَحْصَحَانٍ^(٢)
 فقلت لها : كلانا نضوؤا أين أخو سفر ، غفلى لى مكاني^(٣)
 فشدتْ شدةً نحوى فأهوى لها كفى بمصقولٍ يمانى^(٤)
 فأضربها بلادَ دهشٍ ، غفرتْ صريعاً لليدين وللجِرَانِ^(٥)
 فقالت : عد ، فقلتُ لها : رويداً مكانك إبنى ثبتُ الجنانِ^(٦)
 فلم أنفك متكِداً عليها لأنظر مضجعاً ماذا أتانى^(٧)
 إذا عينانِ فى رأسٍ قبيحٍ كرأسِ الهرِّ مشقوقِ اللسانِ^(٨)
 ٤٢١ : وساقا مخدج ، وشواة كلبٍ وثوبٌ من عباء أو شُنان^(٩)

* ترجمه الشاعر : هو ثابت بن جابر بن سفيان التيمى ، ولقب بتأبط شراً ؛ لأنه تأبط سيفه وخرج ، فسلت عنه أمه ، فقالت : تأبط شراً وخرج ، وهو من صعاليك العرب الفتاكين ، ومن لصوصهم العدائين ، هذا إلى أنه كان أسمع العرب وأبصرهم ، وأكيدهم وأعداهم ، قيل عن عدوه : إن الخيل لم تكن تدركه ، والظباء لم تكن تفوته ، وله شعر جيد ، توفى سنة ٥٣٠ م .

التفسير اللغوى : (١) فهم : أبوحى وابن عمير بن قيس بن عيلان . رحى بطان : أرض بالبادية ، (٢) الغول : حيوان لا وجود له ، تخيله العرب فوصوه ، ومن معانى لفظ العول الحية . تهوى : تنقض . بسهب : بفلاة . الصصححان : الأرض المستوية الجرداء . (٣) نضوؤاين : سقيم نصب . أخو سفر : كثير الأسفار . غفلى : فاتركى . (٤) فشدت شدة : فوثبت وثبة فأهوى : فأسقط . بمصقول يمانى : بسيف محدد مرهف منسوب إلى اليمن . (٥) دهش : تحير واضطرب . غفرت : سقطت . صريعاً : مصروعة مقتولة . للجران : لمقدم عنق البعير . (٦) عد . ارجع للقتال . رويدا : تمهلا . مكانك : الزمى مكانك . ثبت الجنان : ثابت القلب . (٧) متكثا : معتمدا . مصبحا : عند تنفس الصبح . (٨) الهر : القط . (٩) ساقا مخدج : ساق حيوان ناقص الخلق لم تتم أيام حمل أمه به . الشواة : قحف الرأس وجلده . العباء : الشنان : السحاب .

تحليل الأبيات :

انتصر تأبط شرا على الغول . قال الجاحظ عنها : إنها اسم لكل شيء من الجن يعرض للسفار ، ويتلون في ضروب الصور والثياب ، ذكر أكان أو أنثى إلا أن أكثر كلامهم على أنه أنثى ، وإذا كان ذلك أمره ، فهو فيما يرى لا ينتصر عليه إلا الأبطال الأشداء ، فمن حق تأبط شرا إذن أن يذيع نصره لا في قبيلة بنى فهم فحسب ، بل له أن يذيعه في الآفاق ، فهو نصر مؤزر ، وفوز مظفر .

لاقي تأبط شراً - في فلاة مستوية جرداء ، لاماء فيها ولا نبات ولا حيوان - غولا تنقض عليه انقضاض الصاعقة . وملتفض إليه انتفاض الجنان ، وتهوى نحوه هوى الصخرة من شاطئ الجبل ، فلم يأخذه انقضاضها وهويها ، بل قال لها باغيا لنفسه ولها السلامة : لا عليك بأس ، فكلانا نضو أين ، وسقيم نصب ، وأخو سفر ، تخلى عنى أخلى عنك ، واتركنى لشأنى أتركك لشأنك ، ولكن كيف لها أن تدعه ؟ وأنى لها أن تخلى عنه ؟ لم تصخ إليه ، ولم تستمع له ، ومتى استمع القوى للضعيف أو لمن ظنه ضعيفا ؟

لقد شدت عليه شداً شديداً ، وعدت نحوه عدواً بعيداً ؛ حتى دانت فصارته منه قاب قوسين أو أدنى ، فهو على بسيفه المصقول دون أن يصيبه من هجومها دهش ، أو يلحقه من انقضاضها خور ، فسكانت الضربة حاسمة ، فخرت على الأرض مصروعة بخائفة ، سقطت على يديها وجراحها ، فأثارته الضربة التي لم تعرفها من قبل ، وأزعجت الوثبة التي لم تكن تتوقع لها ذلك الأثر .

كيف تهزم ، وقد تعودت الانتصار ؟ لقد صاحت به أن عد ، فسأريك كيف يكون القتال ، فأجابها ، وقد أفرخ روعه ، واطمأن لضربته فؤاده ، مهلاً ورويداً ! قفى مكانك ، وأنا منك حيث تشائين ، إننى ثبت الجنان ، لا أفر من ميدان .

واتكأت عليها بظبة سيفي حتى لانهرب بجراحها فتنجو منه ، بعد أن التمت إليها المسألة فأبتها ، وطلبت إليها الهادنة ، وكلانا في حال تدعو إليها فمصتنى ، اعتمدت عليها

بسمي إلى أن يتنفس الصبح ، لأتحقق من ذلك العدو الباسل ، ولأتبين في الصباح ماذا أحد من سُراى .

إذا حيوان غريب ليس له في أنواع الحيوان ضريب ، إن عينيه مختلفتين مختلفتين
في رأس مستدير كأنه رأس الهر ، وهو مشقوق اللسان ، وذو ساقين قصيرتين ، كأنهما
الحيوان لم يتكامل خلقه ، ولم يتم تكوينه ، وشواة رأسه كشواة رأس الكلب ، وجلده
ناعم أزرق كأنه في نعمته عباءة ، وفي زرقته قطعة من سحاب .
فذلك الحيوان الصريع قد أخذ من كل حيوان أقيح ما فيه ليكون بشع المنظر ،
قبيح الشكل ، مخيف لكل ناظر إلا إذا كان تأبط شرا .

النقد :

لا يشعر الناقد البصير بقوة هذه الأبيات ، ولو أنه زعم أنها أبيات موضوعة لما عد
مجاوزا الصواب ، فليست فيها القوة التي يمتاز بها الشعر الجاهلي ، فهو قد هوّل تهويلا عظيما
في عجز البيت الأول بذلك الإبهام « بما لاقيت عند رحي بطن » ولكن هذا التهويل
مالبث أن توارى ، ولو أنه أراد الاستمرار فيه لمبالغ في وصف الغول ، وفي تصوير اعتدائها
عليه ، ولكنه لم يزد على أن قال : « بأنى قد لقيت الغول تهوى » وليس من اللازم
اللازم أن يكون هويها إليه ، ثم إنه أخذ يحاورها ، فقال لها ولم تقل له ، وليس مثل
هذا من الأسلوب الجاهلي .

بقى أنه انتظر إلى الصباح حتى يعرف ما هي ، ويتبين حقيقتها ، وإذن فقد كان قتله
إياها عن جهل بها ، وعدم معرفة لها ، وهذا المعنى يهون من شأنها .

أما الأسلوب فلا نكاد نجد فيه الجزالة البدوية ، ولا القوة الجاهلية ، ولا سيما في مثل
هذا الغرض ، وشعر تأبط شرا في غير هذه الأبيات يفيض بالجزالة ، وينعم بالقوة .

ويكاد البيتان الأخيران من الأبيات يشهدان بالصنعة ، وهو إذ يصف فيهما الغول
يصنفها وصفا لا ينبئ بقبح ، فيتم الوصف بالقبح ، وكأنني به لم يستطع أن يحدد لون الجلد
بقوله : وثوب من عباء ، فعطف عليه بقوله أو شنان .

٧ — وقال الشنفرى * يصف الذئب من قصيدته المعروفة بلامية العرب ، وأولها :

أَقِيمُوا بَنِي أُمِّي صُدُورَ مَطِيٍّ كُمْ فإني إلى قومٍ سِوَاكُمْ لَأَمِيلُ^(١)

وَأَغْدُو عَلَى الْقُوتِ الزَّهِيدِ كَمَا غَدَا أَزَلُّ تَهَادَاهُ التَّنَائِفُ أَطْحَلُ^(٢)

غَدَا طَاوِيًا يُعَارِضُ الرَّيِّحَ هَافِيًا يَخُوتُ بِأَذْنَابِ الشَّمَابِ وَيَعْسِلُ^(٣)

وَلَمَّا لَوَاهُ الْقُوتُ مِنْ حَيْثُ أُمَّةَ دَعَا فَاِجَابَتْهُ نَظَاثُرُ نُحْلُ^(٤)

٤٢٦: مَهْلَمَةٌ شَيْبُ الْوُجُوهِ ، كَأَنَّهَا قَدَحٌ بِكَفِّي يَاسِرٌ تَتَقَلَّقُلُ^(٥)

* ترجمه الشاعر : هو من بنى الحرث بن ربيعة بن الأواس بن الحجر من الأزدي ، شاعر من أهل اليمن معدود في العدائين الذين لا تلتحقهم الخيل ، وكانت فيه شجاعة وحذق ، والشنفرى اسمه . وقيل لقبه ، وهو ابن أخت تأبط شرا الشاعر السابق ، وقيل عن قتله : إنه حلف ليقتلن مائة رجل من بنى سلامان ، فقتل تسعة وتسعين ، ثم احتالوا عليه فأمسكه رجل منهم اسمه أسيد بن جابر ، ثم قتله ، فمر به رجل من أعدائه . فرفس حمجمة الشنفرى ، فدخلت شظية منها برجله فمات فتمت القتل مائة ، وهى أسطورة طريفة ، توفى سنة ٥١٠ م .

التفسير اللغوى : (١) أقيموا : ارفعوا . بنى أُمى : كناية عن الإخوة ، والنسباء به يشعر بالعطف والرحمة . صدور مطيئكم : صدور المطايا هواديا وحراها .

(٢) أغدو : أصبح مبكراً . القوت : الطعام . الزهيد : القليل اليسير . الأزل : القليل لحم الوركين : تهاده : تتدافعه . التنايف : جمع تنوفة ، وهى الغلاة . الأطحل : الذئب فى بياضه عبرة .

(٣) طاويا : خيضا جائعا . هافيا : مسرعا . يخوت : ينقض . الشعاب : جمع شعب ، وهى المنحنيات فى الجبال . يعسل : يسرع بهتزاز . (٤) لواه القوت : أماله البحث عن الطعام وأعجزه . أمه : قصده . دعا : عوى . نظائر : جمع نظير انداد . نحل . جمع ناحل . الهزلى .

(٥) مهلمة : قليلة اللحم . شيب الوجوه : كناية عن بياضها . الياسر : اللاعب بسهام الميسر يحركها بين يديه ، وقداح الميسر سهامها ، مفردها قدح ، وهو أيضا للسهم قبل أن يرش .

- أو الخشرمُ المبعوثُ حَنَحَتْ دَبْرَهُ مَحَابِيضُ أَرَادَهُنَّ سَامٍ مُعَسِّلٌ^(٦)
 مُهَرَّتَةٌ ، فَوَهُ كَأَنَّ شُدُوقَهَا شَقُوقُ الْعِصَى كَالْحَاتٍ وَبُسِّلٌ^(٧)
 فَضِجٌّ وَضَجَتْ بِالْبَرَّاحِ ، كَأَنَّهَا وَإِيَاهُ نُوحٌ فَوْقَ عَلِيَاءِ تُكَلِّلُ^(٨)
 وَأَغْصَى وَأَغْضَتْ ، وَأَتَسَى وَأَتَسَتْ بِهِ مَرَامِيلُ عَزَّاهَا وَعَزَّتُهُ مُرْمِلٌ^(٩)
 شَكَوْشَكَّتْ ، نَمِازُ عَوَى بَعْدُ وَارْزَعُونَ وَلِلصَّهْبِ إِنْ لَمْ يَنْفَعِ الشَّكْوَى أَجَلٌ^(١٠)
 ٤٣٢ : وفاء وفاءت بادراتٍ ، وكُذِّبَا عَلَى نَكْظٍ مِمَّا يُكَانِمُ مُجْمِلٌ^(١١)



- (٦) الخشرم : رئيس النحل . المبعوث : المبعث للسير . حنحت : حث وحض . الدبر : جماعة النحل . المحابيض : جمع محبض ، وهي عيدان يتخذها مشتار العسل ، فيثير بها النحل . أَرَادَهُنَّ : مخفف أَرَادَهُنَّ أى ثبتهن وركزهن : سام : رجل عال مرتق . معسل : مشتار العسل .
 (٧) مهرة : مشقوقة الأفواه . فوه : جمع أفوه المفتوح الفم . كالحات : عابسات الوجوه . البسل : جمع باسل وهو الكريه المنظر .
 (٨) البراح : الأرض الواسعة لا نبات فيها . نوح : جمع نائحة باقيات صائحات . ثكل : جمع ناكل ، وهي الفاقدات الأولاد .
 (٩) اتسى : امتثل واقتفى . مراميل : جمع مرميل ، وهو الذى لا زاد معه . عزاهَا : سلاها ، وأصل التركيب : عزاهَا مرميل ، وعزته مراميل .
 (١٠) ارعوى : رجع . الشكو : الشكوى . أجل : أحسن وأفضل .
 (١١) فاء : رجع . بادرات مسرعات : شدة الجوع . المجمل : المحسن حاله .

تحليل الأبيات :

بنى أمى : أقيموا صدور مطاياكم للرحيل ، واستنفضوها من مناخها للسفر ، أما أنا فدعوني أبحث عن قوم سواكم أعيش بينهم ، وأقضى بقية أيامى معهم ، فإنى إلى غيركم أميل . ثم انتقل بعد أغراض عدة إلى وصف الذئاب متخذاً من تشبيه نفسه بذئب تمهيداً لوصفها . فقال : إنى أعيش على أيسر الطعام ، وأحيا على أزهد القوت ، شأى شأن الذئب الأزل الأطلح ، تتقاذفه التناثف ، وتتهاداه المفاوز ، يغدو طاوى المصير ، خميص البطن ، يسابق الريح ، وبعارض العاصفة ؛ ينقض فى مؤخرات الشباب ، ويهوى فى طرق الجبال ، باحثاً عن طعامه ، ساعياً إلى قوته ، وإذا امتنع عليه الطعام حيث قصد ، وعز عليه القوت فى مسعاه عوى بأئسا ، وناح يائسا ، فأجابته ذئاب نحل ، ونظائر هزل ، ذئاب خفيفة اللحم ، هزيلة الجسم ، بيضاء الوجوه ، شيب الرءوس ، كأنها خلقتها قداح يحركها ياسر ، ويقلقها قاسر ، وكأنه يعسوب النحل قد انبعث للسير ، ودعا جماعات النحل للطيران معه عيداناً أثارت تلك الجماعات قد ركزها مشتار العسل .

تلك الذئاب مشقوقة الأفواه ، مفتوحتها ، كأن أشداقها فى اتساعها شقوق العصى ، وهى عابسات الوجوه ، كريهة النظر ، بشعة المرائى ، فضج الذئب البائس ، وأجابته الذئاب البائسات فى أرض واسعة لا يسمع فيها إلا الصدى ، ولا يرى إلا السراب ، فكأن الذئاب معه نساء فوق مرزق من الأرض ، تكن أبناءهن ، فهن ينحن عليهم ويعولن . وأغضى على الجوع والقذى وأغضت معه ، وامثل ما أريد عليه ، وامثلت ، واتخذت منه أسوة ، وجعلته لها قدوة ، فكلها مراميل سلاها عن فقدان زادها أخ مرملة ، وعزاها عن جوعها أخ جائع .

لقد شكوا وشكون ، وانصرفنا عن العواء وانصرف ، ورأين أن الصبر أجل بهن ، والتجملد أحسن منهن ، ورجع إلى العدو ورجعن إليه بعد أن لم تجد صيداً تطعمه ، ولا قوتاً تأكله ، وهن على شدة جوعهن يكتمن أمرهن ، ويتجملن بالصبر .

النتمة .

فى هذه الأبيات جمال من وجوه عدة ، فعمانيها واضحة تدل على أن الشاعر عالم بما

يقول ، متمكنا مما يصور ، فالشاعر الذى يعيش فى البادية هو الذى تبهره صورة الذئب ،
يعوى من الجوع ، ويصيح من الفرث ، فما تمضى هنية على عوائه وصياحه ، حتى تجاوبه
ذئاب أخرى هى أيضا غرنى جياع ، فأى جمال أبدع من قوله ؟

غدا طاويا يعارض الريح هافيا يخوت بأذئاب الشعاب ويعسل
فلما لواه القوت من حيث أمه دعا فأجابته نظائر نحل

ثم من هذا الذى يستطيع وصف الذئاب ذلك الوصف الدقيق لإلرجل عاش فى التنايف
وعاشر الأطالس ، ولا حظ أعضاء جسمها عن قرب ، فأعجب بها ، أو نفر منها ؟ وأى دقة
وصف تعلو دقته ، إذ يقول ؟

مهللة ، شيب الوجوه ، كأنها قداح بكفى ياسر تتقلقل
أو الخشرم المبعوث حثث دبره محايض أرداهن سام معسل
مهرته فوه كأن شـدوقها شقوق العصى ، كالحات وبسل

هذه بعض معانى هذا الشاعر أفاضتها عليه حياته البدوية فأجاد عرضها ، وأبدع
فى تصويرها ، فأى عرض أجود من عرضه ، وأى تصوير أبدع من تصويره إذ يقول ؟

فضج وضجت بالبراح كأنها وإياه يوح فوق عيلاء ثكل
وأغضى وأغضت ، واتسى واتست به مراميل عراها وعزته مرمل
شكا وشكت ، ثم ارعوى بعد وارعوت وللصبر إن لم ينفع الشكو أجمل
وفاء وفاءت بادرات ، وكلها على نكظ مما يكاتم مجمل

إن الأسلوب ليفرع أقوى الأساليب الجاهلية ، وقد كساه جمالا ذلك التنسيق والتتابع ،
فضج وضجت ، وأغضى وأغضت ، واتسى واتست ... الخ .

لقد نالت القصيدة التى منها هذه الأبيات عناية الأدباء فى القديم والحديث ، فى الشرق
والغرب ، وهى جديرة بتلك العناية ، وأجدرها بها تلك الأبيات التى لم يعرف الشعر العربى
لها نظيرا فى وصف الذئاب ، وقد روى عن الرسول الكريم أنه خاطب أصحابه بقوله :
« علموا أولادكم لامية العرب ، فإنها تعلمهم مكارم الأخلاق » .

٨ — وقال المرقش الأكبر* يصف ذئبا نزل به فأطعمه :

ولمّا أضانا النارَ عند شِواننا عرانا عليها أطلسُ اللونِ يابسُ^(١)
 نبذتُ إليه حَزّةً مِنْ شِواننا حياءَ، وما خُشى عَلَى مَنْ أَجالِسُ^(٢)
 ٤٣٥ : فَأَضَّ بِهَا جَذْلانَ يَنْفُضُ رَأْسَهُ كما آبَ بالنَّهْبِ السَّكْمِيُّ الْمُحَالِسُ^(٣)
 تحليل الأبيات :

أوقدنا ناراً ، وأرسلنا ألسنتها تطاول السماء ، وتتساحل إلى الجوزاء ، وتدعو الحياض
 الغرى ، والسابلة الخصاص ، ليشاركونا في شواننا ، ويقاسمونا زادنا ، فنزل بنا ضيف أطلس
 اللون ، بأس الخال ، خميص البطن ، فرق له قلبي ، وإن يكن هو غليظ القلب ، ورث
 لبؤسه نفسى ، وإن يكن هو خبيث النفس ، فرميت إليه بقطعة من الشواء حياء أن يقال:
 بجمل عن حيوان جائع ، وإن يكن ذلك الحيوان ذئبا ، وخشية أن يتحدث الناس عنى أنى
 ضننت على طارق ، وإن يكن ذلك الطارق من ضواري الوحوش .

لست بالبذئ على المجلس ، وإن لم يكن لى بالأنيس . فرجع بهذه الحزة جذلان
 فرحا ، ينفض رأسه من الفرح ، ويهزه من الغبطة ، مثله في غبطته وسروره كمثل الكمي
 المقاتل لا يترك الميدان ؛ حتى يقضى على خصمه ، ويعود بالنف* الكثير .

النقد :

هى أبيات تصور كرم العربي ، وأنه في سبيل حسن الأحداث ، وجميل السيرة ،
 لا يفرق في إهداء معروفه بين الإنسان والحيوان .
 ولا أرى فيها من الجمال الفني ما يبهير الناظر إلا في تصويره لجذله ، فإن ذلك التصوير
 يوحى بأن الشاعر من كاة الحرب ، وأحلاس الجياد .

* ترجمه الشاعر : هو عمرو بن سعد بن مالك بن ضبيعة البكري ، والمرقش لقبه ،
 وهو عم المرقش الأصغر ، ولكن الأصغر أشعر منه ، وهو مع ذلك شاعر فحل مجيد
 في غزله وحماسه ، توفي حوالي سنة ٥٥٢ م .

التفسير اللغوي : (١) أضانا النار : أوقدناها . عرانا : نزل بنا . أطلس اللون :
 أغبر ، والطلس : النبرة إلى سواد . (٢) نبذت له : رميت إليه . الحزة . القطعة . خشى .
 عيى وبذائ . (٣) فأض : فصار . جذلان : فرحان . ينفض رأسه . يهزه مظهرا جذله
 آب : رجع . الكمي : الفارس في كامل عدته . المحالس : الشديد الذي لا يريح مكانه في الميدان
 (١٤)

٩ — وقال النابغة * يصف أثر سم الحية ، ويصف خبثها :

فَبِتُّ كَأَنِّي سَاوَرْتَنِي ضَيْلَةٌ مِّنَ الرُّقَشِ فِي أُنْيَابِهَا الشَّمُّ نَاقِعٌ ^(١)
يُسَهِّدُ مِنْ لَيْلِ التَّمَامِ سَلِيمُهَا لِحْلَى النِّسَاءِ فِي يَدَيْهِ قَعَاقِعُ ^(٢)
٤٣٨ : تناذرها الرّاقون من سوءِ سُمِّهَا تُطْلِقُهُ طَوْرًا وَطَوْرًا تَرَاجِعُ

تحليل الأبيات :

يصف النابغة مازل به من هم وأسى، حينما علم ما وعده به أبوقاوس، وما أذره إياه ؛ إذ بات ليله الأطول مسهداً كأنما لدغته أفعى دقيقة الجسم، رقصاء اللون، السم الزعاف في أنيابها. يسهر الليل الأطول ، ليل التمام ملدوغها ، لا يتقابل جفناه ، ولا تعرف طريق النوم عيناه ، قد جعل الحلى والخلخال في يديه ، دأمة الجرس ، مستمرة الصوت ؛ حتى لا ينام لديغها ، فيسرى السم في أجزاء جسمه ، ويدب الموت في مفاصله .

يخاف الرفاة منها ، ويتناذرون عقباها ؛ إذ ليست لهم بمطوعة دائماً ، حينما تجيهم ، وحينما تعصيهم ، وطوراً تطلق الراقى ، فليس له بها شأن ، وطوراً تراجعهم ، فتدعن لأمره .

النقد :

أجاد النابغة تصوير حال الرجل المهدد ، ينذره من يقدر على صره ، كما أجاد في تصوير حال السليم عند العرب ، وفي رسم تطييبهم سليهمهم ، فهم يلبسونه الحلى ويحكونها ؛ لسمع جرسها فلا يغلب عليه النوم، فيدب السم في جسمه، وتناذر الرقاة إياها، ينبئ أنها رقصاء تقتول. أما الأسلوب ؛ فيبدو جماله في اتساق ألفاظه ، وانتظام حروفه، وملاءمة بعضها لبعض ؛ فالسين في البيت الثانى يشعر تكرارها بوسوسة الحلى ، وجرسها ، على أن السين أكثر من سواه في البيتين الآخرين ، وجعل خبر بات الجملة الاسمية التشبيهية قوى المعنى وجملة .

ترجمته الشاعر : انظر الترجمة في وصف الأوابد ص ١٥٤ .

التفسير اللغوى : (١) ساورتني : واثبتني ، أو وثبت على . ضئيلة : رقيقة الجسم . الرقش : جمع رقصاء . وهى الحية فيها نقط سود وبيض . الناقع : البالغ القاتل . (٢) يسهد : يمنع من النوم . ليل التمام : أطول ليالى الشتاء ، والتمام مثلث التاء والفتح أكثرها . السليم : اللسوع ، وسمى كذلك تضاؤلا بسلامته . القعاقع . الأصوات مفردة قعقة .

١٠ - وقال عنقرة بن عمرو بن شداد العبسي * يصف الثعبان الأسود :

أُتْرَجُو حَيَاةً يَابْنَ بِشْرِ بْنِ مِسْهَرٍ وَقَدْ عَلِقَتْ رِجْلَاكَ فِي نَابِ أَسْوَدَا^(١)
أَصَمَّ جِبَالِيٍّ إِذَا عَضَّ عَضَّةً تَزَابَلْ عَنْهُ جِلْدُهُ قَبْدَدَا^(٢)
يَسْلَعُ صَفَاً لَمْ يَبْدُ لِلشَّمْسِ بَدْوَةٌ إِذَا مَرَّاهُ صَاحِبُ الْيَمِّ أُرْعَدَا^(٣)
لَهُ رِبْقَةٌ فِي عُنُقِهِ مِنْ قَيْصِهِ وَسَائِرُهُ عَنْ مَقْنَعِهِ قَبْدَدَا^(٤)
رَقُودٌ خُفَّيَّاتٍ كَأَنَّ لِسَانَهُ إِذَا سَمِعَ الْأَجْرَاسَ وَكَحَالَ أُرْمَدَا^(٥)
٤٤٤ : يُفَيْتُ النَّفُوسَ قَبْلَ أَنْ تَقَعَ الرُّثَى وَإِنْ أَبْرَقَ الْحَاوِي عَلَيْهِ وَأُرْعَدَا^(٦)

* ترجمه الشاعر انظرها في وصف الفرس من ١٢٢ .

التفسير اللغوي : (١) ابن بشر بن مسهر : لم تقع له على ترجمة ، وهو كما يبدو أحد أعداء عنقرة . علقت رجليك : قيدت . أسود : يقصد نفسه ، فهو يصف نفسه شعبان أسود .
(٢) أصم : لا يسمع ، وهو وصف المذكور من الحيات غالباً . جبالى : نسبة لاجل ، ورواه اللسان أصم قطاري ، والقطاري : النخع . زيد : نسايط . قبتد : فتمرق ، ورواه اللسان « تزل على جلده فتزدا » (٣) السلع : بالكسر : الشق في الجبل الصفا : جمع صفاة : الحجارة الصلدة . صاحب اليم : الرابي . اليم : الحية كما ورد في لسان العرب . أرعد : أصابه الرعدة .
(٤) الربقة : بالكسر الجبل . قيصه : يعنى به جلده المنسلخ عنه . سائرته : جميعه أو باقيه . منته : ظهره . قبتد : تفرق أو جفّ ويس (٥) رفود ضحيات : كثير الرقاد في الضحا . الأجراس : جمع جرس إذا فتحت الهمزة الأصوات ، وكسر الهمزة التصويت . المكحال : ما يكتحل به ، وهو طبعاً أسود من أثر الكحل . الأرمد : النوجوع العين . ومن طريف ما جاء في وصف لسان الحية بالسواد قول الآخر :

كأنما لسانه على فيه دخان مصباح ذكت ذواكيه

قال أبو العباس ثعلب : « يقال إنه لم يسمع في صفة الحية أحسن من هذا البيت » .

(٦) يفيت النفوس : يميتهن فجأة . تقع الرق : تحدث الرق التي ترقى بها جروحه . أبرق الحاوِي وأرعد : تهدد وتوعد بما يتلو من العزائم .

تحليل الأبيات :

يهدد عنقرة أحد أعدائه بأن حياته صارت مما يرجى ، وأن بقاءه عاد مما يتمنى ، ولكن هل يجاب الرجاء ، وتحقق الأمانى ؟ أتحقق الأمانى وقد اتصلت رجلاك بنباب ثعبان أسود ؟ إنه لن يستمع إلى ندائك ، ولن يلبي دعاءك .

والشاعر يقصد بذلك الأسود نفسه ، ثم انصرف إلى وصف الثعبان شأن غيره من الشعراء ، فإذا في أذنيه وقر ، وفي مسمعيه صم ، وإذا هو أسود جبلى ، استمد من الجبل غلظته ، وأخذ عنه خشونة طبعه ، وإن يكن ناعم الملمس ، إذا عض مساوره عضه تساقط عنه جلده ، وتبدد منه لحمه ، يعيش ذلك الأسود فى سلوع الجبال ، وشقوق الصفا ، ينام نهاره ، ويصحو ليله ، فلا يبدو للشمس إلا قليلا ، فإذا مارآه الحاوى صديق الحيات ارتعد جسمه ، واصطكت أسنانه ، لأنه لم يرم قبله مثله ، ولا عرف له نظيرا ، فيملأ قلبه الخوف ، ويستولى على فؤاده الرعب ، وإن كان هو الذى يخيف الأفاعى ، ويرعب الأسود .

هذا الثعبان مطوق العنق ، فكأن له فى عنقه حبلا صنع من جلده المنسلخ عنه ، ووثبه الأبيض الذى يخلمه بين الحين والحين ، لقد خلع سائر هذا الثوب عن ظهره ، ولم يبق منه إلا ما نطق به عنقه ، وهو كثير الرقاد فى الضحا إذ تسطع عليه أشعة الشمس فتسرى الحرارة فى جسمه ، وتدب الحياة المتدفقة بالسّم فى أجزائه ، فإذا أيقظه جرس ، أو نبهه صوت أخرج لسانه الأسود الذى يشبه فى شدة حلكته مكحال الأرمد ، الذى لا يفتأ يذّر به الكحل على عينه الرمداء .

يقضى على النفوس ، ويقبض الأرواح فى مثل سرعة البرق ، أو ومضة الطرف ، قبل أن يبلغ الراقى برقيته غايته من الشفاء ، وقبل أن يبذل الطبيب لسليمه الدواء ، وسيان عنده بعدئذ أن يبرق الحاوى ويرعد ، وأن يتهدد ويوعد ، فقد قضى لباتته ، وبلغ غايته .

النقد :

ليست الأبيات من الناحية الفنية في قوة شعر عنقرة ، حينما يصف الخليل أو الحرب ، فهي أولا غير مترابطة الأجزاء إذا تجاوزنا البيت الثاني ، فالشطر الأول من البيت الثالث لاتناسب بينه وبين الشطر الآخر ، فالشطر الأول يذكر فيه أن وطن ذلك الثعبان سلع صفا ولم يبد للشمس في حين أن الشطر الآخر « إذا مارآه صاحب اليم أرعدا » والعلاقة بين الشطرين معدومة أو تكاد ، وهذا نفسه يقال عن البيت الخامس .

أما الأسلوب فمستقيم واضح ، وإذا كان فيه جمال فإنه يستمد من البيت الثاني والرابع والسادس ، فالبيت الثاني استخدم في الشرط إذا المفيدة لليقين ، أى أنه يتبدد جلد من يلدغه إذا لدغ دون أن يرجى لللدوغ شفاء ، أو ينتظر له دواء ، وقد مهد لهذا الشرط بالوصف « أصم جبالي » .

وجمال البيت الرابع في وصف الثوب المنسلخ عن جلد الثعبان ، وأنه يتفرق عن سائر ماعدا عنقه ، وهي ملاحظة لا يتنبه إليها إلا أبناء التنايف والمفاوز .

وجمال البيت الأخير في قوله : يفيت النفوس فهو تعبير بليغ بإيجازه ؛ وفي استخدام إن الشرطية التي تفيد الشك فقد لا يبرق الحاوى ولا يرعد خشية أن تكون عاقبة الإراق والإرعاد الثورة والعصيان ، وكذلك في ذلك الطباق الوهمي بين أبرق وأرعد .

وعلى أى فئنترة أقدر من يصف الأسود ، فله من صفاتها حظ أى حظ .

١١ — وقال عروة بن الورد العبسي * يصف الأسد :

تَبَغَّيْنَ الْأَعْدَاءَ إِمَّا إِلَى دَمٍ
وإِمَّا عُرَاضُ السَّاعِدَيْنِ مُصَادِّرًا^(١)

يَظَلُّ الْأَبَاءُ سَاقِطًا فَوْقَ مَتْنِهِ
لَهُ الْعَدُوَّةُ الْأُولَى إِذَا الْقِرْبُ أَضْحَرَ^(٢)

كَأَنَّ خُوتَ الرَّغْمِ دِرْزَمَ زَيْبِهِ : ٤٤٧
مِنْ اللَّاءِ يَسْكُنُ الْعَرِينَ بَعَثَرًا^(٣)

* ترجمه الشاعر : هو عروة بن الورد بن زيد بن عبد الله بن ناشب بن هرم العبسي ، شاعر لخم ، وفارس صنيدي ، وصعلوك معدود ، وجواد معروف ، كان يلقب بعروة الصعاليك لجمعه إياهم ، وقيامه بأمرهم إذا أخفقوا في غزواتهم ، وقيل لقب بهذا اللقب لقوله :
لحى الله صعلوكا إذا جن ليله مصافى المشاش ألفا كل مجزر
قال عبد الملك بن مروان في حديث عنه : « ما سرنى أن أحد العرب ممن ولدنى لم يلدنى إلا عروة بن الورد » .

التفسير اللغوي : (١) تبغى الأعداء : تبغى كابتغى : طلب وتنى . إما إلى دم : إما إلى قوم أصبتهم بدم ، فلهم عنى ثار . عراض الساعدين : عريض الساعدين ، وهى كناية عن موصوف هو الأسد . المصدر : من نعوت الأسد العريض الصدر .

(٢) الأباء : القصب واحده أباءة . المتن : الظهر . العدو الأولى : الوثبة الأولى . القرن : النظير . أضحر : خرج إلى الصحراء للبارزة .

(٣) الخوات : الصوت والدوى . الرزم : بضم الراء وكسرهما : المصيبة . العرين : بيت الأسد فى الأجمة . عثر : مأسدة قبل تبالة .

تحليل الأبيات .

تمنى أعدائى أن يثأر منى سوامى ، وأن ينزل بى الحين من غيرهم ؛ لأنهم أضعف من أن يدركوا منى ثأرا ، أو ينالوا منى ترة ، فإن لم يبلغوا هذه الأمنية فأمنيتهم الأخرى أن يلقانى أسد غضنفر عريض الساعدين ، منبسط الصدر ، يسكن أجمة كثيفة الأشجار ، يغطى متنه قصبها ، ويستتر ظهره أبواها ، فلا تتحرز منه قافلة ، ولا تحترس من فتكه جماعة ، فإذا رز منها إلى الصحراء كانت له الوثبة الأولى على عدوه فيدعه مجدلا .

هذا الأسد دوى صوته كدوى الرعد ، أو أن الرعد من زئيره ، وخواته رزه يصاب به سامعه ، فهو يكاد يصم الآذان ، وهو يسكن مأسدة عثر التى عرفت أسودها بالعرامة ، وشهرت بالشراسة والفظافة .

النقد :

البيت الأول من هذه الأبيات الثلاثة جميل بإشاراته ، رائع بكناياته ، إذ أشار الشاعر إلى أن أعداءه لا يتطاولون إلى سمانه ، ولا يتسامون إلى مصاولته ومعاداته ، فناية قوتهم أن يتمنوا أن يخلصهم الله منه بأعداء يقتلونه بعد أن قتل منهم ، أو بأسد قوى غشوم يستطيع أن يصصره ، فالبيت يجمع بين الفخر والهجاء والوصف ، وتلك قدرة أى قدرة ، والإيجاز لم يبعث فيه غموضا ، فالقرائن الموحية بالمعنى بارزة واضحة .

وكذلك البيت الثانى جميل ، وإن لم يبلغ جمال البيت الأول ، فقد وصف حلق الأسد وأنه يمكن حتى يتمكن ، وحينئذ يثب وثبته فتكون القاضية ، والبيت الأخير أقل الأبيات جمالا ، فوصف صوته أنه كالرعد معنى تنقصه الطرافة ، وكذلك نسبته إلى مأسدة عثر ، وإن يكن أوحى بهذه النسبة إلى أنه ضيفم جبار ، فإن القارىء قد يحمله الوهم إلى أن الشاعر اختار هذه المأسدة بالذات لتستقيم له القافية بحسب .

١٢ — وقال النابغة* يصف الحية أيضا :

صِلُّ صَفًّا لَا تَنْطَوِي مِنَ الْقَصْرِ طَوِيلَةَ الْإِطْرَاقِ مِنْ غَيْرِ خَفَرٍ^(١)
 دَاهِيَةٌ قَدْ صَغُرَتْ مِنَ الْكِبَرِ كَأَنَّمَا قَدْ ذَهَبَتْ بِهَا الْفِكْرُ^(٢)
 ٥٠ : مَهْرُوتُهُ الشَّدَقِينَ حَوْلَهُ النَّظَرُ تَقَتَّرُ عَنْ عُوجِ جَدَادٍ كَالْإِترِ^(٣)

تحليل الأبيات :

وحية خبيثة عاتية تتخذ من الصخر الصلد لونا لها ؛ حتى لا يتبينها الراى ،
 ولا تلتوى على نفسها ؛ لقصر جسمها ، تطيل الإطراق ، وتمعن فى التهويم دون أن يكون
 إطراقها لحياء أو طأطأة رأسها لخبيل ، وإنما هو لاهتبال الفرصة ، والاستعداد للعدوة .
 وهى داهية دهياء ، ومصيبة نكراء قد طال أجلها ، فمعظم خبثها ، وإن صغر جسمها ،
 حتى لكان كثرة الفكر هى سبب سقمها ، وأصل ضآلتها ، ولم لا ؟ أليست تفكر
 فى المدوان ، وتنطوى على الغدر والخيانة ؟
 وهى واسعة الشدقين حولاء العينين ، تفتح شديقها الأهرتين عن أسنان عوج حداد
 كأنها الإبر .

النقر :

أجاد النابغة وصف الحية حتى إنها لتخيف دون أن ترى ، فالصورة التى رسمها لها
 صورة نكراء ، وكذلك أبدع فى وصف خلقها فهى خبيثة داهية « طويلة الإطراق من
 غير خفر » .

وأسلوب النابغة هو أسلوبه الجميل الرائع ، العذب السائغ ؛ فالحية : « لا تنطوى من
 القصر » وهى « طويلة الإطراق » وهى « قد صغرت من الكبر » .

* ترجمه الشاعر : انظر ترجمته فى وصف الأوابد ص ١٥٤

التفسير اللغوى : (١) الصل : الحية الخبيثة جدآ ، الصفا : الحجر الصلد مفردة صفاة .
 الإطراق : إرخاء العينين إلى الأرض . الخفر : الحياء . (٢) داهية : مصيبة . ذهبت
 بها الفكر : كناية عن صفة هى السقم . (٣) مهروثة الشدقين : واسعة الشدقين .
 قتر : تكشف . جداد : الجداد بالفتح والكسر صرام النخل .

نظرة في شعر الطبيعة الحية عند العرب

عرضنا فيما تقدم صوراً متنوعة لوصف الطبيعة الحية في الشعر العربي ، وقد تناولت هذه الصور أكثر ما خص الله به البيئة العربية من حيوان ، سواء في ذلك الأنس منها والمستوحش ، وإذا كنا قد تركنا من حيوان الجزيرة العربية بعضه ، فليس ذلك لأن الشعراء أهملوه ، وإنما لأننا لم نقصد استقصاء ما قالوه ، ولو قصدناه لبلغ الأمر منا حد الإطالة ، ثم إن بعض ما تناولوه بالوصف عبوه عبراً ، فلم يتجاوزوا فيه البيت أو البيتين أو الثلاثة ، وقد رمينا في هذا الكتاب إلى عرض نماذج كاملة وصور تامة ، إلى أن بعض هذا الذي تركناه ليس بذى أثر عظيم في حياتهم ، فاستمددنا قلة عنايتنا به من ضالة احتفالهم له ، فلم نذكر من الأوانس غير الناقة والفرس والكلاب ، وإن كنا قد ذكرنا الهر فقد جاء ذكره عرضاً لا عمداً ، وذلك لأن الهر ليس له عندهم من نفع ، وإذا كان فهو قليل لا يؤبه له ، وإذا كان بينهم من وصف غير الناقة والفرس ففي بيت أو بيتين ، وذلك كقول امرئ القيس يصف المعز :

إذا ما لم تكن إبل فعزى كأن قرون جلَّتْها العمى

٤٥٢ : فتملاً بيتنا أقطا وسمنا وحسبك من غنى شبع ورى

ولكننا ذكرنا من الأوابد أكثر ما في بلاد العرب ؛ وذلك لأن الشعراء أكثروا

القول في وصفها ، حسياً وعاطفياً وإن لم يرض قولنا هذا زعماء الأدب في هذا العصر ، وإلا فهاذا نفس وصف متمم بن نويرة حزنه حين يشبهه بوجد الأظفار الروائم في قوله :

وما وجد أظفار ثلاث روائم أصبن مجراً من حوارٍ ومصرعا

يذكرن ذا البث الحزين بيته إذا حنت الأولى سجعن لها مآ

إذا شارف منهن قامت فرجعت حيناً فأبكي شجوها البرك أجمعا

٤٥٦ : بأوجد منى يوم قام لمالك منادٍ بصير بالفراق فاسمعا

أليس هذا الشعر من أروع ما يمكن أن يكون عليه الوصف العاطفي ؟ وإن كان هذا الضرب من الوصف قليلا نادرا .

وتركنا القليل من حيوان الصحارى وأوابدها ؛ إما لأن الشعراء لم يعيروه اهتماما ، وإما لأننا لم نجد فيه الروعة التي تحملنا على اختياره وتحليله ونقده ، وإما لغير هذا وذلك ، لأننا رأينا من أوصافه ما يمكن أن يندرج تحت غيره ، أو لأننا وجدنا القدر الذى قيل لا يحتمل التحليل ، فلم نقف عند الضبعة لضآلة شأنها عندهم . وإن كانوا قد وصفوها ، من هذا قول متمم بن نويرة حين تذكر أنه سيموت ، وأن الضبع ستأكله دون أن يدفع عنه سيفه :

يالهف من عرفاء ذات فليلة جاءت إلى على ثلاث تجمع
ظلت ترأصدنى وتنظر حولها ويربها رمق وأنى مطمع
وتظل تنشطنى وتلجج أجريا وسط العرين وليس حى يدفع
٤٦٠ : لو كان سيفى باليمن ضربها عنى ، ولم أؤكل وجنبى الأضيع

ومن هذا الذى لم تذكر أوصافه لأن غيره من فصيلته يغنى عنه الوعل ، وقد أجاد وصفه فى قصيدة رثاء المرقش الأكبر فقال :

لو كان حى ناجيا لنجى من يومه المزم الأغم
فى باذخات من عماية أو يرفعه دون السماء خيم
من دونه بيض الأوق وفو فطويل المنكبين أشم
٤٦٤ : يرقاه حيث شاء منه وإم ما تنسه منية يهزم

وسنورد بعد أن نعرض صوراً للطبيعة الساكنة صوراً للطبيعة المختلطة الجامعة بين المتحركة والساكنة ، لتكون قد بلغنا غاية ما نبغى من كمال لهذا الفن .

ولعل من الخير لنا أن نبدي ملاحظات عن الصور الكثيرة التي عرضناها للطبيعة الحية ، نلمّ بها إلما لتكون مفتاحاً لمفاتيح هذا الفن ، فيعبره من شاء أن يتبسط فيه :
١ — أكثر الصور التي أوردها الشعراء الجاهليون صور حسية خالصة ، والقليل منها عاطفي متصل بالحسي ، وتعليل ذلك عندي هو أن كثرتهم كانت تعتمد على حواسهم أكثر مما تعتمد على إحساسهم الباطني ، وشعورهم الداخلي ، إلا في الرثاء فالعاطفة فيه متحركة .

٢ — أغلب هذه الصور واضح التصوير ، كامل التكوين ، وإذا وجدنا في خلال قراءتنا صوراً غير واضحة أو غير كاملة حكمنا بأن رغبتهم في الإيجاز ، وشغفهم بالإكثار من الصور والمعاني هي سبب ذلك الغموض أو القصور .

٣ — كل شعرهم خال من التكلف ، وهو فطري كطبيعتهم ، صادق كفطرتهم ، بعيد عن الغلو والمبالغة إلا قليلاً ، ومن أولئك الذين كانوا يعتمدون إلى المبالغة المحدودة النابغة ، وقد ذكرنا ذلك عنه عند تحليلنا شعره

٤ — كانوا يرسلون أنفسهم على سجيته فلا يرعون في أوصافهم ترتيباً ، وإما يحییء كما يفد على خواطرهم ، فقد يبدءون بالتأفف ، ويتركون الجليل الشأن ، وقد ينظرون إلى الذنب ويتركون الرأس ، لأن ذلك ورد على خواطرهم دون الآخر ، أو لأن له في نفس أحدهم شأناً أقوى من شأن ذلك الذي أخره أو أهمله ، وعليك أن تنظر وصف طرفه لناقته لتؤمن بهذا الرأي ، فمع أنه لم يترك من دقائق أعضائها شيئاً فقد أهمل وصف سنامها ، مع أن السنام من أعظم أجزاء الناقة نفعا وقيمة .

٥ — نكاد معانهم تتفق فيما يعرضون له ، وإن اختلفت الصور ، وذلك لأنهم — كما قدمنا — يعتمدون على الحواس أعظم الاعتماد ، فإذا قال الشنفری فی وصف أشداق الذئاب :

مُهْرَنَّةٌ مَوْهٌ ، كَأَنَّ شُدُوقَهَا شُقُوقُ الْعِصَى كَالْحَاتٍ وَبُسْلُ

قال علقمة بن عبدة الفحل :

فَوْهٌ كَشَقِّ الْعَصَا لَأَيَّا تَبَيَّنَتْهُ أَسْكُ مَا يَسْمَعُ الْأَصْوَاتَ مَصْلُومِ

وإذا قال النابغة الذبياني :

سَرَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْجُوزَاءِ سَارِيَةٌ تُزْجِي الشَّمْلُ عَلَيْهِ جَامِدَ الْبَرَدِ
قال لبيد بن ربيعة :

بَاتَتْ وَأَسْبَلَتْ وَكَفَتْ مِنْ دِيمَةٍ يُرَوِّى الْخُمَائِلَ دَائِمًا تَسْجَامُهَا
وما قدمناه من ذلك التشابه يغنى عن عديد الأمثلة .

٦ — لبيتهم عليهم أعظم الفضل إذ استمدوا منها جميع صورهم وتشبيهاتهم ، وقد قدمنا الكثير من هذه الأنواع ، أليس صفاء سمائهم ، ورقابتهم نجومها وكواكبها هو الذى أوحى إلى أبى ذؤيب الهذلى قوله ؟

فَوَرَدَنَ وَالْعِثْقُ مَقْعَدُ رَاجِي الضُّ ضُرْبَاءَ خَلْفَ النَّجْمِ لَا يَتَتَلَعُ
وأليست طبيعة بلادهم ، وما فيها من بحار ووهاد ، وصخور ورمال ، وجذب وخصب هى التى هيات لاسرى القيس أن يقول ؟
يَلُودُ بِالصَّخْرِ مِنْهَا بَعْدَ مَا فُتِرَتْ مِنْهَا وَمِنْهُ عَلَى الصَّخْرِ الشَّائِبُ
ثم يقول :

يَظُلُّ مُنْجَجًا مِنْهَا يُرَاقِبُهَا وَيَرْقُبُ اللَّيْلَ ، إِنَّ اللَّيْلَ مَحْبُوبُ
وأن يقول زهير :

حَتَّى اسْتَفَانَتْ مِمَّا لَأَرِشَاءَ لَهُ مِنَ الْأَبَاطِحِ فِي حَافَاتِهِ الْبُرْكَ
مُكَلَّلٍ بِأَصُولِ النَّجْمِ تَنْسِجُهُ رِيحٌ خَرِيقٌ لُضَاحَى مَائِهِ حُبُكُ

٧ — كانوا حينما يصفون ينتقلون من المشبه إلى المشبه به ثم ينصرفون إليه ، ولا يعودون إلى المشبه ، وقد تقدمت لنا فى هذا الأمثلة الكثيرة فى الانتقال من وصف الناقة إلى وصف البقرة الوحشية ، ومن وصف الفرس إلى وصف الصيد والطرود أو العقاب أو سواها مما يشبهه الفرس فى عدوه وشده .

٨ — كان وصفهم لأوانس الحيوان ، أطول من وصفهم لأوابده لإلفهم إياه ، وعشرته

لحم ، ومقامه بينهم ، وعظم استفادتهم منه ، وكان نعتهم للناقة أحفل من وصفهم للفرس ، وقد عللنا ذلك قبل بأنهم كانوا ينظرون إلى القيمة النفعية للحيوان ، ولأنهم نظروا إلى الجمال والحسن دون غيره لكان وصفهم للفرس أكثر .

على أنهم ليسوا جميعا كذلك ، فالشعراء الفرسان احتفلوا بنعت الفرس أى احتفال ، ونظروا إليه نظرة الحب يرى في كل حركة من معشوقه حسنا وجالا .

٩ — للتشبيه عندهم المنزلة الأولى بين ضروب البیان ، وأكثر ما يستخدمون من أدواته « كأن » فهى أول ما ينظرون إليه عند إرادة التشبيه ، على أنهم لجأوا إلى المجاز والاستعارة حيناً ، وإلى الكناية الجليلة ، والإيماء الطريف أحياناً ، فن الاستعارة قول الشنفرى :

فلما لواه القوتُ من حيث أمه دَعَا ، فأجابته نظائرُ نُحُلٍ
مُهْلَهْلَةٌ ، شيبُ الوجوه ، كأنها قِدَاحٌ بكفى ياسرٍ تَتَقَلَّقُلُ
ومنها قول عنتره :

له رِبْقَةٌ فى عُنْقِهِ من قيصه وسائره عن متنه قد تقدَّدا
ومن الكناية البليغة قول المرقش الأكبر :

نبذتُ إليه حَزَّةً من شوائنا حياءَ ، وما غشى على من أجالسُ
فَاضَ بها جَدْلانٌ يَنْفُضُ رأسه كما آب بالنَّهْبِ الكمى المحالسُ
ومنها قول زهير :

أهوى لها أَسْفَعُ الحَدَّيْنِ مُطَرِّقٌ ريشَ القوادم لم يُنْصَبْ له الشَّرْكُ
لاشئٍ أجودُ منها وهى طيِّبَةٌ نفسا بما سوف يُنْجِها وتتركُ

١٠ — كانوا يؤثرون فى هذا الفن بالذات الألفاظ الجزلة ، والكلمات الضخمة التى تستمد جزالتها من صخور صحاريهم ، وتنال ضخامتها من جلاميد جبالهم ، فإذا انصرفوا عن هذا الفن إلى سواه رقت الألفاظ ، ولانت الكلمات ، فاستمع إلى هذه الأبيات من قصيدة النابتة يصف بها الناقة :

فمدّ عما ترى إذ لا ارتجاع له وأنهم القتود على غير أنقأ جُد
مقدوفة بدخيس النخض باز لها له صريف صريف القعو بالمسد
كأن رحلي وقد زال النهار بنا يوم الجليل على مستأنس وحيد
من وحش وجرة موشى أكارغهُ طاوى المصير كسيف الصيقل الفرد

فاذا ما انتقل إلى غير ذلك الفن رق وعذب ، قال :

فتلك تبليغنى النعمان إن له مضلاً على الناس فى الأدنى وفى البعد
ولا أرى فاعلاً فى الناس يشبههُ ولا أحاشى من الأقوام من أحد
إلا سليمان إذ قال الإله له : قم فى البرية فاخذوها عن القند
٤٦٨ : وحيس الجنّ إني قد أذنت لهم يبنون تدمر بالصّفّاح والعمد

١١ — كانوا يؤثرون مطالع القصائد وأوائلها بهذا الفن ، فهم إذا أرادوا الغزل بدءوا بوصف الأطلال ، ومنهم القليل الذى يعدو وصف الأطلال إلى النسب ، وهذا قلما يطيل فى نسيبه ، وهاك المثل :

بات سعاد فأمسى القاب معمودا وأخلفتك ابنه الحرّ المواعيدا
كأنها ظمية بكر أطاع لها من حومل تلعات الجو أو أودا
قامت ترك غداة البين مُسدّلا تخاله فوق متنها العناقيدا
وبارداً طيباً عذبا مُقبّله مُحَيِّفاً نبتة بالظلم مشهّدا
٤٧٣ : وحرّ حرج تدمى مناسمها أعملتها بى حتى تقطع البيدا

١٢ — قلما تخلو قصيدة من الوصف معناه الخاص أى وصف الطبيعة الحية أو الهامدة ، وقدّمنا أجزاء من الوصف هى بعض قصائد الباعث عليها الرثاء ، وفى ذلك الدليل على عنايتهم به ، والحجة على احتفالهم له ، وأنه يكاد يبلغ ثلث شعرهم ، وقد قدّمنا فى الفصول ما يثبت ذلك .

١٣ — كانوا يسمون الأشياء بأسمائها مهما تكن تلك الأسماء مستهجنة مستقبحة ،

ولا يعدلون إلى السكناية لأنهم لا يعدون ذلك خروجاً على الآداب ، ولا مجافاة للأذواق السليمة ، وليس عليهم في ذلك عاب ، فإن الذى يحملنا الآن على السكناية والإيماء والإشارة عاملان : الدين الذى أدبنا بأدب القرآن ، وأخذنا بأسلوبه العفّ الرفيع ، والمدنية التى علمتنا التحرز في الأقوال دون التحفظ في الأعمال .

وقد تجنبنا عرض شعر فيه الصريح من هذه الألفاظ ، بل قد عدلنا عن نماذج بالغة الروعة تجنبنا لهذه الصراحة المقيمة في هذا العصر .

١٤ — قل الوزن القصير في شعر العصر الجاهلى ، ولعل من أبرز الدوافع إلى اختيار البحور الطويلة من الوصف ، لتكون الصور التى يصورونها كاملة التكوين في البيت ؛ إذ أنهم كانوا يكرهون التضمن ، ولا يعدون إليه إلا مضطرين ، ومعلقة عبيد بن الأبرص - وهى من مخلع البسيط ، وبعضها مضطرب الوزن - على الرغم من روعة بعض صورها منظورة فيها إلى تلازم بعض الصور لبعض ، وإن لم يكن ذلك تضميناً ، فانظر إلى قوله :

فَأَذَرَ كَتَمَهُ فطَرَ حَتَمَهُ وَالصَّيْدُ مِنْ تَحْتِهَا مَكْرُوبُ
فَجَدَلَتْهُ فطَرَ حَتَمَهُ فَكَدَحَتْ وَجْهَهُ الْجَبُوبُ
يَضْغُو وَخَلْبُهَا فِي دَفِّهِ لَا بُدَّ حَيْرَومِهِ مَنْقُوبُ

١٥ — لم ياجئوا إلى الزخرفة اللفظية متمعدين . ولم يريدوها متكلفين ، ولكن ذلك لا ينفى أنهم جملوا أساليبهم بالطباق ، وبغير الطباق مثل قول امرئ القيس :

مِكرٌ مِفرٌ ، مُقبلٌ مُدبرٌ معاً كَجَلُودٍ صَخِرَ حِطُّهُ السَّيْلُ مِنْ عِلٍ
ومثل قول الشنفرى :

مُهِرَّةٌ فَوْهُ ، كَأَنَّ شُدُوقَهَا شَقُوقُ الْعِصَى كَالْحَاتِ وَبُسْلُ

وقد لفتنا النظر إلى كثير من تقسيماتهم التى تروع بحسنها ، وتخلب بفنها ؛ مثل :

وَأَغْضَى وَأَغْضَتْ ، وَأَتَسَى وَأَتَسَتْ بِهِ مَرَامِيلُ عَزَّاهَا ، وَعَزَّتْهُ مَرِمِلُ
شَكَا وَشَكَتْ ، نَمِازَعَوِى بَعْدُ وَازَعَوْتُ وَلَلصَّبْرُ إِنْ لَمْ يَنْفَعِ الشَّكْوُ أَجَلُ
وَفَاءُ وَفَاءَتْ بَادِرَاتِ وَكَلَّمَهَا عَلَى نَكَطٍ مِمَّا يُكَاتِمُ مَجْمِلُ
وبعد فهذه نظرة لنا بعدها نظرة أخرى في نهاية الكتاب إن شاء الله .

إفصيل السّائس

الطبيعة الساكنة

الطبيعة الساكنة تنظم جميع الأشياء التي يجري فيها ماء الحياة في السماء والأرض ، فتشمل أجرام السماء وأفلاكها ، ونجومها وكواكبها ، وسحبها وغيوثها ، ورعودها وبروقها ، كما تشمل صحارى الأرض ورياضها ، ووهادها ونجادها ، وجديها وخصبها ، وبحارها وأنهارها ، وكل ما تبتكره عقول العلماء ، وتصنعه يد الإنسان .
وإذن فإنها تنقسم إلى قسمين : الظواهر الطبيعية ، والآثار الإنسانية .

الطبيعة الساكنة عند العرب :

لم يول العرب الطبيعة الساكنة العناية التي أولوها الطبيعة المتحركة ، وليس ذلك معناه أنهم قصرُوا فيها أو صدّوا عنها ، فإن لهم في تصويرها ونعتها ما يخلد به أدب أى أمة فى أى عصر ، ولكننا نقيس هذه بتلك فحسب .

كانت حياة العرب قائمة على الانتجاع والارتحال ، والتحمل والانتقال سعياً وراء الكلأ ، وبجنا عن الماء الذى ينبت الكلأ ، فيقيمون حيث يحلون خيامهم ، وينصبون أثافيهم ، ويوقدون نيرانهم ، ويجمع فتيانهم بفتياتهم ؛ إذ لم يكن هناك حجاب مضروب ، ولا شرك منصوب ؛ فالقلوب - فى أغلب أمرها - نقية ؛ والنفوس سامية عن الصفائر أئبة ، فتنشأ صلوات ود وحب ، أكثره حب غفيف عفيف ، وبعضه حب ماجن هازل ، ثم يكون عود إلى الأوطان بعد أن جف الزرع ، وامتلأ الضرع ، واشتد القيظ ، ورمضت الأرض ، فيذكر الشعراء تلك الساعات السعيدة ، والذكرى تهيج لذى الهوى ، يذكرون ما كان بينهم من لقاء وفراق ، وقرب ونأى ، ثم يصفون الأماكن التي نزلوا بها ،

والديار التي رحلوا عنها ، والملاعب التي لعبوا فيها ، ويكون الأطلال التي خلفوها ، والآثار التي تركوها ، يصلون هذه النعوت بالنسيب ، ويربطون الوصف بالتشبيب ، وقل أن تجد نسيبا ليس مسبوقا بوصف للأطلال ، ومشفوعا بوصف للظلمة .

لذلك كان وصف الأطلال أهم أوصاف الطبيعة الساكنة ، وأكثرها في شعرهم تناولاً ، وقد يدفعهم الشوق إلى الحبيب ، والوله بالمعشوق إلى وصف الليل وطوله ، والسهد وأثره ، والنجوم ووقوفها ، والشهب وثباتها .

وإذن فإننا نستطيع أن نحكم بأن النسيب ، وهو من الأغراض الأولى في الشعر العربي كان أحد بواعث وصف الطبيعة الساكنة .

والعرب يعيشون على الغيث ، فهو منبت كلثمهم ، وباعث زروعهم ، وحياة ضرعهم ، بل الغيث حياة بلاد العرب ، إذ ليس فيها أنهار جارئة ، ولا عيون ثرور ، فإذا مض البرق ، أو قصف الرعد ، أو سقط الغيث ، أو كسا السحاب السماء عباة السوداء آذنتهم السعادة ، وواتاهم رغد العيش ، قفاضت قرأخ الشعراء ، وجرت خواطرم بنعت هذه الظواهر ، فكان وصفهم لها أقوى من وصف مظاهر الأرض عدا الأطلال .

أما وصف الصحراء ، وما تشتمل عليه ، وما يظهر فيها فإنه يجيء تبعا لوصف الطبيعة الحية التي تسكن الصحارى ، وتعيش في التناثف ، فهم يصفونها حينما يعرضون لوصف حيوانها ، فيصفون امتدادها ، أو رمالها ، أو سرابها ، وقد يصفون جوها : بردها وحرها في أبيات قليلة ، ومعان محدودة .

ولأن بلاد العرب ليس فيها أنهار ولا بحار ، فوصف هذين القسمين من أقسام الطبيعة الساكنة ضئيل أو يكاد يكون معدوماً إلا إذا جاء عارضا ، كوصف الليل بموج البحر ، أو كوصف نهر الفرات في شعر النابغة ، وقد كان من الشعراء الرحالين ، أو النبل في شعر الأعشى .

فإذا ما انتقلنا إلى وصف الآثار الإنسانية ألقيناهم أو ألقينا أكثرهم أهل قصف ومجون ، وهو وعبت ، فرأينا الخمر أهم ما عنوا به من وصف هذه الآثار ، يصفونها ، ويصفون (١٥)

كثوسها ، ويصفون سقاتها ، وندمانها ، بل يصفون آثارها في شاريها ، ويولونها
الحظ الكبير من العناية والتقدير .

والعرب شعب حربي أوتى أبناؤه صلابة وجلدا ، وعرامة وعزما ، ومنحتهم يثتهم
شراسة ونخوة ، وحرية ومروءة ، فهم لا يقيمون على ضيم ، ولا يرضون بالهون ، فلا تهدأ
سواكنهم ، ولا تخمد خواطرهم ، فخروبهم مشتملة ، وغارات بعضهم على بعض متصلة ،
وأيامهم متلاحقة ؛ وعدوانهم على جيرانهم مستمر ؛ فلا غرو أن يصفوا أسلحتهم ؛ وأن
يتغنوا بعثادهم ؛ بل أن ينسبوا إلى أوطانها ؛ أو إلى صياقلتها ومثقفها اعتزازا بها ؛
وافتخارا بصنعها .

ولا غرو كذلك أن يصفوا الجيوش وكثاتها ؛ والأبطال وأيامها ؛ والحروب وآثارها ؛
سيان في ذلك من يدعو إليها ؛ ومن ينفر منها .



صور الطبيعة الساكنة

(١) وصف الأطلال

قال امرؤ القيس* في مطلع معلقته :

قفا نَبَكٍ مِنْ ذِكْرَى حَيْبٍ وَمَنْزِلٍ بَسَقَطِ اللَّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمِلِ^(١)
فَتَوْضَحَ فَاِلْمَقَرَّةَ لَمْ يَعْفُ رَسْمُهَا لِمَا نَسَجَتْهَا مِنْ جَنُوبٍ وَشَمَالِ^(٢)
تَرَى بِمَرِّ الْآرَامِ فِي عَرَصَاتِهَا وَتَقِيعَانِهَا كَأَنَّهُ حَبٌّ فَلَقْلُ^(٣)
كَأَنَّ غَدَاةَ الْبَيْنِ يَوْمَ تَحْمَلُوا لَدَى سَمَرَاتِ الْحَى نَاقِفُ حَنْظَلِ^(٤)
وُفُوقًا بِهَا تَحْبِي عَلَى مَطْطِيئِهِمْ يَقُولُونَ : لَا تَهْلِكْ أَسَى وَتَجَمَّلِ^(٥)
٤٧٩: وَإِنَّ شِئْنًا عِبْرَةً مُهْرَاقَةً فَهَلْ عِنْدَ رَسْمٍ دَارِسٍ مِنْ مُعَوَّلٍ؟^(٦)

* ترجمه الشاعر : اقرأ الترجمة في وصف الفرس ص ١٠٩ .

التفسير اللغوي : (١) قفا : يحاط رفيقه . ذكرى : تذكر . سقط اللوى : منقطع الرمل . الدخول وحومل : موضعان ، وكان الأصمى يروى البيت «الدخول وحومل» ويقول : لا يقال المال بين زيد وعمرو ، إنما يقال بين زيد وعمرو . (٢) توضح والمقرة : موضعان ، وهذه المواضع الأربعة ما بين إمرة إلى أسود العين وأسود العين جبل ، منازل كلاب . لم يعف رسمها : لم يمح أثارها . نسجت الريح : أسفت الريح ، الجنوب والشمال : ريحان متضادتان تهب الأولى من الجنوب ، وتهب الأخرى من الشمال . (٣) الآرام : جمع رثم ، وهو الظبي الأبيض الخالص البياض ، والآرام مقلوب آرام . عرصات : ساحاتها مفردتها عرصة . القيعان : جمع قاع وهي الأرض المستوية لا بناء فيها . (٤) غداة البين : صبيحة الفراق . يوم تحملوا : يوم ارتحلوا . لدى سمرات الحمى : عند أشجار الطلح التي لأهل حمى ناقف حنظل : حاني حنظل ، والناقف هو الذي يستخرج الحب ، وناقف الحنظل تدمع عيناه لحرارة الحنظل . (٥) محبي : جمع صاحب محبابي . مطيهم : لإبلهم ، مفردتها مطية . أسى : حزننا . تجمل : تزين بالصبر . (٦) عبرة : دعة . مهراقة : مراقة مسالة . ومهراقة لغة بني أسد يقولون بدل أراق هراق . رسم دارس : أثر زائل . من معول : من معتمد أو من اعتماد .

تحليل الأبيات :

أيها الخليلان الوفيان : قفا فأسعداني بالبكاء ، من تذكر حبيب عزيز علىّ ،
ومنزل كريم لدىّ ، لقد تذكرت حبيباً تساقينا معا أفويق الهوى ، ومنزلاً تبادلنا فيه
أسباب اللهو ، ذلك المنزل الكريم عند منقطع الرمل بين الدخول وحومل ، وتوضع
والقراءة . تلك الدار لم ينجح أثرها ، ولم يعف رسمها لنسيج الرياح السافيات لحسب ، ولكنها
انمحت لمرّ الدهور ، وغفت لسكر الأيام ، ترى في مكان تلك الدار بحر الظباء الصافية
البياض يملأ عرصاتها ، كأنه في سواد لونه ، واستدارة شكله ، وصغر حجمه حب الفلفل .

كأنى صبيحة احتمالم وغداة ارتحالم عند شجر الطلح الذي يستنبتة أهل الحى أنقف
الحنظل ، وأستخرج منه حبه ، فتسيل مآقىّ ، وتجري عبراتى ، لقد وقف أخلاى مطاياهم
على تلك الدار يشاركونى فى أساى ، ويسلوننى عن وجدى ، قائلين : صبرا وجلدا ، وتحملا
وتجملا ، لا يهلكك الأسى ، ولا يقض عليك الوجد ، وتجمل بالصبر وتحمل بالجلد .

إن دوائى مما ألقى من وجد دمة تراق ، وشفائى مما أجد من أسى عبرة تصب ،
ومع ذلك فما جدوى البكاء على الرسوم ؟ وما فائدة إراقة الدموع على الأطلال ؟ .

النقد :

عدّ النقاد هذه القصيدة أروع ما قال الجاهليون ، وعدوا مطلعها أروع المطالع فى الشعر
العربى ، وكانوا صادقين ، وقالوا عن امرئ القيس : « إنه وقف واستوقف ، وبكى
واستبكى ، وذكر الحبيب والمنزل فى شطر واحد ، وهذا يعجز جميع فحول الشعر ، وقد حدد
الشاعر دار المحبوبة تحديدا جغرافيا دقيقا ؛ لأن قلبه معلق بها ، فكيف ينسى دارها ؟ .

ثم جاء تصويره لأرامها وبعرها تصويراً صادقا لمبالغة فيه ولا غموض ، وتصويره
لساعة الرحيل إذ وقف لدى شجرات الطلح يسفح الدمع تصوير جميل ، وقد أخذ معنى
البيت الأخير الشعراء بعده ، فقال ذو الرمة :

لعل انحذار الدمع يعقب راحة من الوجد أو يشفى شجى البلابل

وبيت امرئ القيس أجمل من وجوه : تأكيد شفاء الدمع للنفس ، ونفى المعول على الرسم
الدارس فى حين أن ذا الرمة جعل انحذار الدمع مرجواً منه الراحة ، وهذا هو كل معناه .

٢ — وقال زهير بن أبى سلمى * فى مطلع معلقته :

أَمِنْ أُمِّ أَوْفَى دِمْنَةٌ لَمْ تَكَلِّمْ بِحَوْمَانَةِ الدَّرَاجِ فَلَمْتُسَلِمٌ^(١)
 وَدَارَ لَهَا بِالرَّقَتَيْنِ كَأَنَّهَا مَرَّاجِعُ وَشَمٍ فِى نَوَاشِرٍ مِعْصَمٍ^(٢)
 بِهَا الْعَيْنُ وَالْآرَامُ يَمُشِينَ خَلْفَةً وَأَطْلَاؤُهَا يَنْهَضْنَ مِنْ كُلِّ مَجْمَمٍ^(٣)
 وَقَفْتُ بِهَا مِنْ بَعْدِ عَشْرِينَ حِجَّةً فَلَأَيَّا عَرَفْتُ الدَّارَ بَعْدَ تَوْهَمٍ^(٤)
 أَنَا فِي سُقْمَا فِى مُعَرَّسٍ مِرْجَلٍ وَنُؤْيَا كَحِذْمِ الْحَوْضِ لَمْ يَتَلَمَّ^(٥)
 ٤٨٥ : فَلَمَّا عَرَفْتُ الدَّارَ قُلْتُ لِرَبْعِمَا أَلَا نَعَمَ صَبَاحًا أَيُّهَا الرَّبْعُ وَاسْلَمْ^(٦)

* ترجمه الشاعر : انظر ترجمته فى وصف الناقة ص ٨٨ .

التفسير المفصّل : (١) أم أوفى : زوج زهير طلقها ، وأراد مراجعتها فأبت ، فكان يذكرها فى شعره . الدمنة : ما اسود من آثار الديار . لم تكلم : لم تتكلم ، وترد على من يخاطبها . الحومانة : الأرض الغليظة . الدراج فالتسلم : موضعان بالعالية . (٢) بالرقتين : بين الرقتين ، والرقتان إحداها قرب البصرة ، والأخرى قرب المدينة ، وهما متباعدتان . مراجع : أو مراجيع جمع مرجوع وهو المحدد . الوشم : الفرز بالإبر حتى يسيل الدم ، ثم يذر عليه الكحل ليسود . النواشر : جمع ناشرة عروق المعصم . والمعصم : موضع السوار من اليد . (٣) العين : جمع عيناء ، وهى البقرة الوحشية الواسعة العينين . الآرام : الظباء الخالصة البياض : خلفه : متتابعة يخلف بعضها بعضا . الأطلاء : جمع طلا وهو ولد الظبي . مجمم : مكان الجثوم . والتلبد بالأرض . (٤) بها : بالدار أو يقصد بمكانها إذ هى قد زالت . حجة : سنة . فلأيا : فجهداً ومشقة . بعد توهم : بعد تفرس وطول تأمل . (٥) أنافى : جمع أنفية ، والأنافى ثلاثة أحجار توضع عليها القدر ، ويقال : رماه الله بثلاثة الأنافى أى بدهاية عظيمة كالجبل ، لأنهم كانوا إذا لم يجدوا أنفية جعلوا الثلاثة الجبل يسندون عليه القدر . المعرس هنا : موضع الرجل ، والأصل مكان النزول ليلا . النوى : حاجر من تراب يرفع حول البيت لتلايدخله الماء . الجذم : الأصل . لم يتلم : لم يتهدم . (٦) الربع : مكان الإقامة فى فصل الربيع ، ثم أطلق على كل منزل . انعم صباحا : طب صباحا ، ومثله عم صباحا وتقدير الماضى منه وعم يعم ولا ينطق به ، وكان دعاء للملوك ، ويخص الدماء بالصباح ، لأن الفارات كانت تبدأ صباحا . اسلم : من النكبات والنوازل .

تحليل الأبيات :

أمن دمن زوجى الغالية التى قلتنى عن حب ، وهجرتنى عن ودّ ووجد ، دمنة أسأله
فلا تجيب سؤلى بعد طول العهد ، وأناجيها فلا تبادلنى النجوى مع حرقه البعد ؟ تلك
الدمنة فى حومانة هذين الموضعين .

كان لأم أوفى أكثر من دار ، فلها أخرى بين الرقتين : رقتى البصرة والمدينة ،
قد انمحت أعلامها ، ودرست آياتها ، فصارت الرسوم والآثار بعد أن جرى عليها السيل
والطر كالوشم المجدد فى عروق المعصم ، بعد أن كانت تحمل هذه الدار الزوجة الغالية ، والحبيبة
الغانية صارت مرتع البقر الوحشى الواسع العيون ، والآرام الخالصة البياض ، ينتقلن فيها
من مكان إلى مكان ، ويتبع بعضها بعضا من مناخ إلى مناخ ، وأطلاء هذه البقرات
والظبيات ينهضن من مجاثمهن مرحات نشيطات . وقفت على تلك الدمن أترّف موطن
الحبيبة ، وأتبين دار القاتنة الغالية بعد فرقة طالت دون أن أنسى ذكرها ، إنها فرقة
عشرين عاما ، فبعد جهد ومشقة ، وطول تفرس وتأمل عرفت موقع الدار ، وموطن الأحباب .
ماذا رأيت ؟ رأيت أنافى سودا ، قد اختلطت الحمرة بسوادها فى مكان الرجل مها ،
وتبينت النوى الذى كان يحجز عنها الماء عندما يفيض السيل ، كأنه أصل الحوض لم يهدم ،
وإذ كانت هذه الأشياء هى التى دلتنى على آثار الدار ، فقد أخذت أدعو لها بالخير والسلام .

النقر :

بدأ زهير قصيدته بذلك الاستفهام التحسرى ، فكان قويا فى مطلعها ، وإن ضاقت
ألفاظ البيت عن معناه ، وفى بيته الثانى أشعرنا أن أم أوفى من ذوات الثراء والسراء ، فلها
أكثر من دار تنقل فيها كلما أرادت النقلة ، وكذلك جاءت ألفاظ البيت أضيق من معناه ،
وإن تسكن الصورة التى صورّ بها فعل الأمطار والسيول فى ذلك المكان صورة واضحة ،
دلت فيما دلت على أن عادة الوشم عادة بعيدة القدم ، وأوضح من هذه الصورة وأجمل ،
الصورة فى البيت الثالث فهى صورة كاملة لا ينقصها من أسباب الحسن والجمال شىء ، أما
الصورة فى البيت الخامس فصورة غير دقيقة وإن حاول الشاعر أن يهب لها الدقة بذلك
الاحتراس فى آخر البيت ، ولم يفت الشاعر أن يدعو للدار بالنعمى ، وأن يتنى لها السلامة
من الغارات والنكبات .

٣ — وقال لبيد بن ربيعة العامري* في مطلع معلقته :

عَفَتِ الدِّيَارُ تَحْلُلَهَا فُقَامُهَا بِمَنَى تَأْبَدَ غَوْلُهَا فِرْجَامُهَا^(١)
فَدَافِعُ الرِّيَّانِ عُرِّيَ رَسْمُهَا خَلَقًا كَمَا ضَمِنَ الْوَحْيَ سَلَامُهَا^(٢)
دِمْنٌ تَجْرَمُ بَعْدَ عَهْدٍ أُنَيْسِهَا حَجَجٌ خَلَوْنَ حَلَالُهَا وَحَرَامُهَا^(٣)
رُزِقَتْ مَرَايِيعَ النُّجُومِ وَصَابِهَا وَذُقَ الرِّوَاعِدِ جُودُهَا فَرُهَا^(٤)
مِنْ كُلِّ سَارِيَةٍ وَغَادٍ مُدِجِنٍ وَعَشِيَّةٍ مُتَجَابِئٍ إِرَازَامُهَا^(٥)
٤٩١ : فَعَلَا فُرُوعَ الْأَيْهَقَانِ وَأُطْفَلَتْ بِالْجُلْهَتَيْنِ ظِلْبَاوُهَا وَنَعَامُهَا^(٦)

* ترجمه الشاعر : انظر الترجمة في وصف الأوابد ص ١٤٦.

- التفسير اللغوي : (١) عفت الديار : درست وزالت معالمها . المحل : الوضع يحل به القوم أيا ما ، ثم يرتحلون . المقام : ما طالت الإقامة به فهو ضد المحل . منى : موضع في ديار بني عامر . غولها فرجامها : موضعان . تأبد : توحش .
- (٢) مدافع : مجارى الماء جمع مدفع بفتح الميم . الريان : اسم جبل . الحلق : البالى . الوحي : الكتاة ، وجمعه بضم الواو . سلامها : حجارتها جمع سلمة .
- (٣) دمن : جمع دمنة ما اسود من الآثار . تجرم : انقضى بتمامه . حجج : سنوات . خلون : مضين . حلالها وحرامها : أشهر الحل والحرم .
- (٤) مراييع النجوم : الأنواء الربيعية مفردها مريع . الودق : المطر . الجود : الغزير من المطر . الرهام : الطر اللين .
- (٥) السارية : السحابة الممطرة ليلا . القادى : السحاب الممطر غدوة . المدجن : السحاب المطبق يغطي آفاق السماء . الإرزام : الصوت ، ويقصد صوت الرعد .
- (٦) الأيهقان : نبت يطول عريض الورق أحمر الزهر يؤكل واحده أيهقانة ، أو هو الجرجير البرى . أطفلت صارت ذوات أطفال . الجلهتان : مثنى الجلهة وهى جانب الوادى .

والمعينُ ساكنةٌ عَلَى أَطْلَافِهَا عُوْذًا تَأْجِلُ بِالْقَضَاءِ بَهَا مُهَا^(٧)
 وَجَلَا الشَّيْوَلِ عَنِ الطَّلُولِ كَأَنَّهَا زُبُرٌ تَجِدُ مُتَوْنَهَا أَقْلَامُهَا^(٨)
 أَوْ رَجْعُ وَاشْمَةٍ أَسْفٌ نَثُورُهَا كَيْفَ تَعْرِضُ فَوْقَهُنَّ وَشَامُهَا^(٩)
 ٤٩٥ : فَوْقَتْ أَسَافَهَا ، وَكَيْفَ سُوءُ النَّا صُمًّا خَوَالِدَ مَا يَبِينُ كَلَامُهَا؟^(١٠)



(٧) العين : البقر الوحشي الواسع العيون ، مفردها عيناء . الأطلاء : أولاد البقر الوحشي . العوذ : جمع عأذ الحديثة النتاج . تأجل : تصير آجلا جمع إجل ، وهو القطيع من بقر الوحش . البهام : جمع بهمة بفتح الباء ولد الضأن ، والمقصود هنا ولد البقرة الوحشية .
 (٨) جلا : كشف . زبر : جمع زبور الكتاب . تجد : تجدد . المتون : الظهور جمع متن .

(٩) الرجع : التريد . أسف ثورها : ذرخلها . الكفف : جمع كفة . تعرض : ظهر .
 الوشام : الوشم .

(١٠) الصم . الصلاب الواحد أصم . خوالد : بواق . الدارات .

تحليل الآيات .

عفت ديار أحبابي ومحيت آثارها ، لافرق بين ديار يحل فيها للاستراحة والاستراحة ، ثم يرحل عنها ، وبين ديار يقام فيها ، ويطول السكن إليها ، تلك الديار بمنى قد توحشت وتوحش مايجاورها ، فتوحش غولها ورجامها ومجارى المياه في جبل الريان ، عرت رسمها السيول ، وكشفت آثارها الأمطار ، حتى أصبحت تلك الرسوم بالية ، وهذه الآثار خلقة ، وإن كان لا يزال للرسوم بقية ضئيلة تشبه الكتابة فوق الأحجار .

هذه الدمن السود انقضى عليها من يوم رحيل أهلها عنها حجج كثيرة ، وسنوات عدة ، اشتملت هذه وتلك على الأشهر الحل والحرم ، وهذا تأكيد للمعنى ، إذ السنة الواحدة تشتمل عليهما ، ولقد رزق الله تلك الآثار من أنواء الربيع المطر الغزير ، الذى يصحبه الرعد القاصف ، فأمرعت تلك الحلة وأعشبت ، وكيف لا تمرع وتمشب ، والأمطار تنسكب عليها بالليل والنهار ، فى المساء والصباح ، تتجاوب رعودها ، ويتسامع الناس قصفها ، فاستطال النبات ، وأطلقت الظباء ، وباض النعام فأفرخت فى جانبي الوادى ، إذ خلا المكان من السكان ، فأمن على أطفالهن وفراخهن ، والأبقار الوحشية ساكنة إلى أطلالها ترضعها ، إذ هى حديثة عهد بالتناج ، وأولادها تصبح قطعانا فى تلك الفلاة التى أصبحت مرتع الأوباد بعد أن كانت مرتع الأوانس .

وكان من آثار هذه الأمطار الغزيرة ، والسيول المهمة أن كشفت السيول عن تلك الطلول ، التى غطاها التراب ، حتى لكأنها كتب خفيت سطورها لطول عهد كتابتها ، فجاء كاتب فجدها بأقلامه ، أو كان هذه السيول فى كشفها الآثار امرأة واشمة عمدت إلى وشم قد وهى أثره فى اليد ، وضعف ظهوره ، فأعادته بالفرز وبذر الكحل عليه ، فمادت داراته واضحة كما كانت .

وقفت أتفرس هذه الرسوم وأتأملها ، ثم أخذت أناجيها وأسائلها ، وكيف لى بمناجاة الصم الصلاب ؛ وكيف بمساءلة أحجار لا يبين كلامها ، ولا يظهر حديثها ؟ أسأل من لا يجيب عن أولئك الأحباب ؟ أناجى من لا يبين بحديث الحب والشوق ، والوجد والهوى ؟ إن الوجد يذهل العقل ، وإن الهوى يسلب اللب .

النقد :

ألقى الشاعر الخبر دون تأكيد كأن المخاطب مؤمن بصدقه ، موقن بصحة حديثه ، لذلك كان هذا الخبر أوثق من الإنشاء حديثاً ، وزاد الكلام حسناً ذلك التفصيل بعد الإجمال ، محلها فقامها ، وغولها فرجامها ، وإذن فالبيت الأول قوى كل القوة ، وتشبيهه ما بقى من الآثار بما بقى من الكتابة فوق الأحجار تشبيه بديع غريب على الشعر العربى لم نقرأه لشاعر آخر غير لبيد ، قرأنا تشبيه زهير وطرفة وهما :

ودار لها بالرقتين كأنها مراجع وشم فى نواشر معصم

نخولة أطلال ببرقة ثممد * * * تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد

وقد أورد هو هذا المعنى فى قوله .

أورجع واشمة أسف نثورها كففا تعرض فوقهن وشامها

أما البيت الثالث :

دمن تجرم بعد عهد أنيسها حجج خلون حلالها وحرامها

فيشبهه دول زهير :

وقفت بها من بعد عشرين حجة فلأيا عرفت الدار بعد توهم

وبيت زهير أجل ، وعندى أن « حلالها وحرامها » حشولاً أن كل سنة تشتمل على هذه

الأشهر ، وجميل منه ذلك الطباق « من كل سارية وغاد مدجن » أو ذلك التقسيم

فى البيت نفسه :

من كل سارية وغاد مدجن وعشيرة متجاوب إرزامها .

إن هذه الأبيات أو فى معانى ، وأكثر صوراً ، وأدق تصويراً من قطعتى امرئ

القيس وزهير ، ولعل ذلك أنه كان أشد منهما تأثراً بموضوعه ، ولولا بعض كلمات فيها ثقل

كقوله : الأيهقان ، وبالجلهتين ، واجتماعهما فى بيت واحد لقلنا إنه بلغ غاية السكال .

٤ — وقال النابغة الذبياني* في مطلع معلقته :

يادارَ مِيَّةَ بالعلياءِ فالسَّندِ أَقَوْتُ وطالَ عليها سالفُ الأَمَدِ^(١)
 وَقَفْتُ فيها أَصِيلًا أُسائِلُها عَيَّتْ جَوَابًا، وما بِالرَّبْعِ من أَحَدِ^(٢)
 إِلَّا أَوَارَى لَأَيًّا ما أَبَيْتُها والنَّوْى كالحَوْضِ بِالْمَظْلُومَةِ الجَلَدِ^(٣)
 رَدَّتْ عليه أَقاصِيه وَلَبَّدَه ضَرَبُ الوليدةِ بِالمِسْحَةِ في الثَّأَدِ^(٤)
 خَلَّتْ سَبِيلَ أُنَى كانَ يَحْبُسُـه وَرَفَعَتْهُ إلى السَّجْفَيْنِ فالنَّضْدِ^(٥)
 ٥٠١: أَصَحَّتْ خَلَاءً، وَأَضْحَى أَهْلُها اِحْتَمَلُوا أَخْنَى عليها الَّذي أَخْنَى حَتَّى لُبْدِ^(٦)

ترجمة الشاعر : انظر ترجمته في وصف الأوابد ص ١٥٤ .

التفسير اللغوي : (١) مية : اسم محبوبته . العلياء : مكان مرتفع من الأرض . السند : ما قالك من الوادي ، وعلامن السمع . أقوت : أفقرت من أهلها . سالف الأمد : ماضى الدهر . (٢) أصيلا : الأصيل الوقت قبيل المغرب ، وأصيلا البدل ، إذ تصغيره على أصيلان ، فأبدل بالنون اللام ، وأصيلان أصلها أصلان الذى هو جمع أصيل كـ رغيف ورغفان ، وخطئوا من قال بهذا ؛ لأن الجمع لا يصغر إلا إذا كان من جموع القلة ، وهى :

أفعلة أفعل ثم فعله ثم أفعال جموع قلة

وقالوا بل هو مصدر مثل التكلان والغفران . عيت : عجزت .

(٣) الأوارى : مفردها آرى ، وهو معلق الدابة ومحبسها . لأيا : جهدا ومشقة . أينها : أستبينها . النووى : الحاجز من التراب يجعل حول البيت والخيمة لينع وصول السيل . الظلم : وضع الشيء فى غير محله ، والمظلومة : الأرض التى قد حفر فيها فى غير موضع الحفر . الجلد : الأرض الغليظة الصلبة من غير حجارة . (٤) أقاصيه : جمع أقصى ، وهو ما بعده ، وضده أدنى . لبده : ألصق التراب بعضه ببعض . الوليدة : الحادى الشابة . الثأد : المكان الذى التراب . (٥) خلَّتْ : تركت . الأنى : السيل يأتى من بلد إلى بلد . يحبسـه : يمنعه . السجفين : مثنى سجع ، وهو الستر يكون فى مقدم البيت . النضد : مانع ونسق من متاع البيت .

(٦) أمست : يريد صارت . خلاء : خالية من السكان . احتملوا : ارتحلوا . أخنى عليها . غيرها وأفسد آياتها . لبـد : آخر نسور لقمان بن عاد ، وهو غير لقمان الحكيم الوارد فى القرآن الكريم ساء لبدا لأنه ظن أنه أبـد فلا يموت ، ولا يذهب ، وزعموا أنه حين كبر ، قال له : انهض لبـد فأنت نسر الآبد .

تحليل الأبيات :

يناجي الشاعر الديار ، ويتمنى أن تشاطره المناجاة ، تلك الديار الواقعة بين العلياء
فالسند ، أقفرت من أهلها ، وطال إقفارها ، وبعد العهد بسكانها ، لقد وقفت في رسوم
هذه الديار ساعة الأصيل ، وقد تراحمت في نفسى الذكريات ، وتجاوبت العواطف والأفكار ،
وقفت أسائلها عن الأحباب الذين كانوا يسكنونها ، والأصدقاء الذين تساقينا وإياهم كئوس
الهوى ، فلم تخر جوابا ، فمجزت عن التعبير ، وكيف تعبر وقد خلت من الأنيس ؟
ليس في رسوم هذه الدار إلا محابس الدواب ومعالف الحيوان ، وحتى هذه لا يكاد
الرأى يتبينها ، وإلا النوى الذى كانوا يقيمونه مانعا للسيل ، فهو كالخوض فى الأرض
الصلبة السماء ، لبد تراه ، حتى يستقر بعضه على بعض .

خلت الخادم السبيل للسيل المنهمر ، والأنى المنسكب الذى كان ذلك النوى يحبسه عن
الدار ، وبلغ سجفا البيت ، بل تجاوزها إلى متاعه المنضد ، وأساسه المنسق ، فليس ما يدعو
إلى حجز الماء عنها ، فقد أضحت خالية من قاطنيتها الذين احتملوا عنها ورحلوا منها ؛ فغيرها ،
وأذهب آياتها القادر على تغيير كل شيء ، وإزالة آثار كل شيء ، «أخنى عليها الذى أخنى على لبد»

النقد :

النابة فى هذه الأبيات دون قدره ، وقد دفعه الإيجاز إلى تحميل شعره معانى أكثر
مما تحتمل ، فقد نادى الدار ثم لم يذكر سبب النداء ، إنه يريد أن يتحدث إليها عن
حبيبته ، أين ذهبت بها الأيام ؟ وكيف كان حالها عند احتماها ؟ إلى آخر هذه المعانى التى
ترد بخاطر من يريد إلى الدار خطابا ، وكأنى بالنابة ناقض نفسه ، فقد نادى الدار ، وأخذ
يسائلها فميت بالجواب ، وما بالربع من أحد ، فهو يعلم هذا قبل سؤالها إذ يقول :

« أقوت وطال عليها سالف الأمد » وإذن فما كان ينتظر الجواب من السكان بل من
الدار ، والأبيات الثلاثة الأخيرة ليس فيها جمال إلا ذلك الذى يدل على شرفه وسرانه ،
فالوليدة تضرب بالمسحاة فى الثأد ، ورفعته إلى السجفين ، وليس كل الناس لديارهم
سجوف ، والشرط الأخير جماله أنه جرى مجرى المثل .

٥ — وقال المرقش الأكبر* من قصيدة أولها :

هل تعرف الدارَ عفاً رسمها إلا الأثافي ومبنى الخيم^(١)
 أعرفها داراً لأسماء فالذ دمع على الخدين سح سجم^(٢)
 أمست خلاء بعد سكاها مقفرة ما إن بها من إرم^(٣)
 إلا من العين ترعى بها كالفارسين مشوا في الكمم^(٤)
 ٥٠٦ : بعد جميع قد أراهم بها لهم قبابٌ وعليهم نعم^(٥)

* ترجمته الشاعر : انظر ترجمته في وصف ديب أطعمه من ٢٠٩

التفسير اللغوي : (١) عفا رسمها . زال أثرها . الأثافي : جمع أنفية ، وهي ثلاثة أحجار نوضع فوقها القدر . الخيم : جمع خيمة وهي بيت يبني من عيدان الشجر ، فإذا كان من صوف أو شعر فهو بيت ، وقيل : تطلق الخيمة على جميع ذلك .

(٢) أسماء : هي معشوقته ، وكانت ابنة عمه عوف بن ضبيعة . سح : مصبوب . سجم : سائل .

(٣) أمست : صارت ويصح أن يراد بها معناها الحقيقى ؛ إذ كانوا يرحلون ليلاً ؛ ليكون ذلك أطيب للسفر ، وأيسر على الطعائن . خلاء : خالية . من إرم : من أحد ، أو من إرم من علم يدل عليها .

(٤) العين : جمع عيناء البقر الوحشى ، ولقب بهذا السعة عيونه . ترعى . ترعى ، والتشديد يزيد الفعل قوة ، فكأنه يقول ترعى كثيراً . السكم : جمع كمة القلائس .

(٥) بعد جميع : بعد حى . قد أراهم بها : قد كنت أراهم بها . قباب : جمع قبة وهي بناء سقفه مستدير مقعر . عليهم النعم والرغد وهناء العيش .

تحليل الأبيات :

يناجي الشاعر قلبه ويسأله : أهو يعرف الدار التي محيت آثارها ، ودرست رسومها ، وطمست معالمها ، ولم يبق منها إلا الأنافي ، وما أضال شأنها وأهون أمرها ، وإلا أصل الخيام ؟ وقد أجابه قلبه الجياش بالحب الفياض بالحس ، إنه يعرفها ؛ لأنها دار أسماء العزيزة عليه ، الأثيرة لديه ، فشعوره الباطني يوحى إليه بمكانها ، وإن لم يبق من تلك حتى الأنافي ، ولذلك فدموعها على خديها منصبة ، وعبراتها من مقلتها منهمة .

وأأسفاه ! لقد أمتت تلك الدار خالية من سكانها ، مقفرة من قطانها ، فليس بها من أحد ، لقد احتملوا ليلا ؛ لأنهن منعمات مرفهات لا يحتملن سفر النهار ، ولا يستطعن الظن في حرارة الشمس .

أهقرت تلك الدار من الإنس فعمرها الوحش ، كانت تسكنها أسماء الحسنة ، فأضحت تسكنها البقرة العينة ، ترعى عشها ، وتمرع في مراعيها ، فالبقر لا يختيلهن بجملهن ، وليباضهن ، واستدارة قروهن حول رءوسهن يشبهن الفرس يختالون في قلائسهم . بعد حتى أقننا فيه حيناً ثم تركناه قد أراهم يجتمعون بهذه الدار مرة أخرى ، لهم قباب مرفوعة ، وخيام منصوبة ، وعليهم نعمة سابعة ، وفيهم هناء صافية .

النقر :

معاني المرقش فيها جدة وطرافة لم ترد في شعر من عرضنا بعض أوصافهم للأطلال ، من ذلك مناجاته قلبه ، وادعاؤه أن قلبه هو الذي عرف دارها ، هو لم يذكر قلبه صراحة ، ولكن السياق يعينه ، ثم هذا التشبيه في البيت الرابع فيه صورة جميلة :

إلا من العين ترعى بها كالفارسيين مشوا في الكمم

فتصوير القرون تتلاقى فوق رءوس البقر بالقلانس فوق رءوس الفرس تصوير لم يقع لشاعر سواه ، وإذا كان لنا ما نأخذه عليه ، فهو الغموض في البيت الأخير ، وقد شرحناه كما هدانا إليه فكّرنا ، وشرحه غيرنا غير هذا الشرح ، ولعلنا أن نكون أقرب إلى الصواب .

٦ — وقال بشامة بن الغدير* من قصيدته التي أولها :

لَيْنَ الدِّيَارُ عَفُونٌ بِالْجَزْعِ بالدَّوْمِ بَيْنَ بُحَارٍ فَالشَّرْعِ^(١)
 دَرَسَتْ وَقَدِيقَتْ عَلَى حَجَجٍ — بعد الأنيسِ عَفُونَهَا — سَمِعَ^(٢)
 إِلَّا بَقَايَا خَيْمَةٍ دَرَسَتْ دَارَتْ قَوَاعِدُهَا عَلَى الرَّبْعِ^(٣)
 فَوْقَتْ فِي دَارِ الْجَمِيعِ وَقَدْ جَالَتْ شَتُونُ الرَّأْسِ بِالذَّمْعِ^(٤)
 كَمَرُوضٍ فَيَاضٍ عَلَى فَلَجٍ تَجْرَى جَدَاوُلُهُ عَلَى الزَّرْعِ^(٥)
 ٥١٢ : فَوْقَتْ فِيهَا كِي أُسَائِلَهَا غَوَجَ اللَّبَانِ كَطَرَقِ النَّبْعِ^(٦)

* ترجمه الشاعر : انظر ترجمته في وصف الناقة ص ٧٤ .

- التفسير اللغوي : (١) عفون : درسن وزلن . الجزع : منعطف الوادى حيث انحنى .
 الدوم ، وبحار ، والشرع : أسماء أمكنة .
 (٢) درست : زالت . حجج : جمع حجة سنوات . بعد الأنيس : بعد السكان المؤمنين .
 عفونها : محونها . سبع : صفة لحجج ، والفصل بين الموصوف والصفة قبيح .
 (٣) تقدم أن قلنا : إن من رجال اللغة من يقول الخيمة بناء من شجر ، فإذا كان من صوف
 أو شعر مسمى بيتاً ، وقد يطلق على الجميع . دارت قواعدها : مالت قواعدها وأسسها . الربع :
 دار الربيع ، ثم أطلقت على كل دار .
 (٤) دار الجميع : الدار التي يجتمع فيها الحى . جالت : دارت واضطربت . شتون : جمع
 شأن ، وهو العرق الذي يجرى منه الدمع .
 (٥) العروض : النواحي . الفياض : الماء الكثير الفيضان . الفلج : النهر العظيم .
 الجداول : النهرات الصغيرة مفردا جدول .
 (٦) غوج اللبان : اللبان الصدر ، وغوج واسع الجلد ، فهو يضرب لسعته . كطرق النبع :
 كالقضيب من شجر النبع .

تحليل الأبيات :

يتساءل الشاعر في لهفة الفزع الجزع عن أصحاب هذه الديار المقامة بمنعطف الوادى من الدوم بين بحار والشرع فقد عفون ، وزال أثرهن ، وطمست آياتهن ، درست واستمر دروسها سبع سنوات ، ليس بها أنيس تسكن النفس إليه ، وتقرّ العين به ، ويطمنن القلب له .

لم يبق من هذه الديار شيء حتى البقية الباقية من جذوعها درست وعفت ، ومالت قواعدها ، ودارت قوائمها التي كان يقوم عليها ذلك الربع ، فوقفت في الدار التي كانت مجتمع الحى ، ومنتدى القوم ، فأخذتني العبرات ، وجالت في شئوني الدموع ، فإذا دموعى تجري في مجارى الدمع فياضة غزيرة ، فتمتدّ وتتفرق كالنهر يفيض بمائه الغزير في نواحيه وعروضه ، فتجرى منه جداول ذات اليمين وذات الشمال فوق الزرع .

وقفت في آثار هذه الديار أمتطى فرسا قد ضمر جسمه ، واتسع جلد صدره لأسائلها أحاديثها عن ساكنيها ، ولأبادلها النجوى عن كان يحمل بها من أولئك الذاهبين .

النقد :

لا أظن بشامة بن الغدير وهو يسأل عن أصحاب الديار العافية يجهل هؤلاء الأصحاب ، وإنما هو تجاهل العارف بعثه في نفسه أنه لا يرى أولئك الأصحاب الأخلاء ، كما لا أظن أنه يعنى بهؤلاء الأخلاء صاحبة أو خليلة ، فقد أعفاه الله من العشق ، ولكنه يعنى الأخلاء والخلصاء ، أولئك الذين كان يجتمع بهم في حيمهم ومنتدياتهم ، أليس قوله ؟
موقفت في دار الجميع وقد جالت شئون الرأس بالدمع

دليلا على هذا ؟

وليس في الأبيات من المعانى ما يبهز ، ولا من الصور ما يسحر ، وأحسب أن تشبيهه الدفع بالنهر الكبير يتفرع إلى جداول تسقى الزروع تشبيه ليس فيه دقة الصور ، ومراعاة أجزاء الصورة .

٧ - وقال الحارث بن حلزة اليشكري * :

لَمَنِ الدَّيَّارُ عَفُونٌ بِالْحُبْسِ ؟ آيَاتُهَا كَمَهَارِقِ الْفُرْسِ (١)
 لَأَشْيءٌ فِيهَا غَيْرُ أَصْوَرَةٍ سَفَعِ الْخُدُودِ يَلْحَنُ كَالشَّمْسِ (٢)
 أَوْ غَيْرُ آثَارِ الْجِيَادِ بِأَغْرَاضِ الْجِمَادِ وَآيَةِ الدَّعْسِ (٣)
 خَبَسْتُ فِيهَا الرِّكَبَ أَحْدَسُ فِي كُلِّ الْأُمُورِ وَكُنْتُ ذَا حَدَسٍ (٤)
 حَتَّى إِذَا التَّفْعُ الظُّبَاءُ بِأَطْرَافِ الظَّلَالِ وَقَلْنُ فِي الْكُنْسِ (٥)
 وَيُسْتُ مِمَّا قَدْ شَغِفَتْ بِهِ مِنْهَا وَلَا يُسْلِيكَ كَالْيَاسِ (٦)
 أُنْمِي إِلَى حَرْفٍ مُذَكَّرَةٍ تَهْصُ الْحَصَى بِمَوَاقِعِ خُنْسٍ (٧)

٥١٩ :

* ترجمته الشاعر : هو الحارث بن حلزة بن مكروه بن يزيد بن عبد الله بن مالك اليشكري من شعراء العراق ، وهو شاعر غل يضرب به المثل في الفخر ، فيقال أخفر من الحارث بن حلزة ، وهو من أصحاب المعلقات ، وزعموا أن معلقته ارتجلها بين يدي عمرو بن هند ، وقال الأصمعي إنه ارتجلها وهو ابن مائة وخمس وثلاثين سنة وقد توفي حوالى سنة ٥٧٠ م .

التفسير اللغوي : (١) عفون : درس . الحبس : اسم موضع . آياتها : علاماتها وأعلامها . مهاريق : جمع مهرب بضم الميم وفتح الراء ، قال في اللسان وهي الصحيفة البيضاء تكتب فيها ، فارسي معرب ، والجمع المهارق قال حسان :

كم للنازل من شهر وأحوال لآل أسماء مثل المهرق البالي
 وقال الحارث بن حلزة : « آياتها كمهاريق الحبس » وهو خطأ من ابن برى إذا الروي
 السين كما ترى . (٢) الأصورة : جمع صوار بضم الصاد وكسرها قطعان البقر .
 سفح : جمع أنسفع وهو الأسود المشرب بالحمرة . يلحن : يظهرن .
 (٣) الأغراض : جمع عرض بضم العين النواحي . الجماد : مفردة جماد مثل رمح ورماح
 المرتفع من الأرض ، واستشهد اللسان بقول امرئ القيس :

كأن الصوار إذ يجاهدن غدوة على جماد خيل تجول بأجلال

الدعس : الوطء . وآيته : أثره ، علامته . (٤) أحدس : أظن . (٥) قلن :
 من القيولة ، وهي نوم نصف النهار . الكنس : جمع كناس ، وهي بيت الطي يحفره في أصل
 الشجرة ليستريح بها . (٦) شغفت به : أغرمت به . لا يسليك : لا يخفف عنك .
 (٧) أنمي : أرتفع . الحرف : الناقاة الماضية المذكورة : التي تشبه الفحل في صلابتها .
 تهص الحصى : تدق الحصى فتكسره . المواقع : المطارق مفردة ميقعة . الخنس : القصار
 الأنوف ، مفردة خنساء .

تحليل الأبيات :

لمن هذه الديار التي غفت آثارها ، واحت أعلامها بالحبس ؟ إن أعلامها البيض ، وآياتها الواضحات كانت تبدو كالصحف البيضاء التي تنسب إلى أبناء الفرس ، أضحت وليس فيها إلا قطعان البقر الوحشي السفع الخدود ، البيض الظهور ، التي تبدو كأشعة الشمس سطوعا ، وليس فيها غير آثار الجياد ، تبدو في نواحي تلك الديار ، وفي جِدادها ومرتفعاتها ، فترى آثار وطئها ، ومظاهر ركضها .

لقد وقفت عند تلك الديار أحسن وأخبر ، وأتفرس وأنجم ، أين أولئك الذين عمروها ؟ أين الخنس الجوارى الكنس اللأى ملأها جمالا وفتنة ؟ أين ملاعبهم وملاعبين التي كنا نقضى فيها أوقات الهوى ، وسويغات اللهو ، أين وأين ؟ وماذا ينفع التساؤل ؟ إنه يجدد الحسرات ، ويبعث دفان الهموم والأحزان . وحين توسطت الشمس كبد السماء ، وفاءت الظباء إلى الظلال ، وقلن في الكناس ، ويئست من بعث الذكريات التي شغفت بها ، وأيقنت أنها لا ترد ماضيا ، ولا تعيد ذاهبا ، كان ذلك اليأس سلواتي ، « ولا يسليك كاليأس » وإذن فلأرفع رحلى فوق نانة جمالية ترق الحصى بمناسمها .

النقد :

اتفق بشامة بن الغدير والحارث بن حلزة في المطلع ، والتساؤل عن أصحاب الديار ، والاستفهام عن كان يقطنها ، معنى تواردت عليه خواطر الشعراء ، فليس هناك بينهم آخذ وماخوذ منه ، ويظهر فضل الحارث على بشامة في أنه شبه آثار الديار وأعلامها بصحف الفرس وهو تشبيه جميل يدل على اتساع ثقافة ، وبعد خيال ، كما تظهر حكيمته في قوله :
« ولا يسليك كاليأس » . وجميل من الحارث كذلك وصف الأصورة بأنهن يلحن كالشمس ، فمن من الشعراء منحها هذا الجمال ، والجناس قليل في الشعر الجاهلي ؛ وقلته تضفي عليه الحسن . وقد أبدعه الحارث في قوله :

أو غير آثار الجياد بأعراض الجراد وآية الدعس

وكذلك حبسه الركب ليحدث ويخمن ، وتركه إياك لتحديث فيما كان يحدث به ، وتخمن ما كان يخمنه جمال أى جمال ، وبعد فالأبيات جميعها من رائع الشعر .

٨ — وقال عميرة بن جميل * من قصيدته التي أولها:

ألا ياديار الحى بالبردان خلت حجاج بعدي لمن نمان^(١)
 فلم يبق منها غير نؤي مهّدم وغير أواري كالر كى دفان^(٢)
 وغير خطوبات الولائد ذذعت بها الرّيح والأمطار كل مكان^(٣)
 قفار مرورات يحاربها القطا يفلّ بها السبعان يعتركان^(٤)
 يثيران من نسج التراب عليهما قيصين أسماطاً ويرتديان^(٥)
 وبالشرف الأعلى وحوش كأنها على جانب الأرجاء عوذ هجان^(٦) : ٥٢٥

* ترجمه الشاعر : هو عميرة بن جميل بن عمر بن مالك بن الحارث بن حبيب التغلبي شاعر جاهلي يعد من الشعراء البرزين ، وهو فيما يظهر من الشعراء المقلين كذلك ، توفي حوالى سنة ٥٧٠ م .

التفسير اللغوى : (١) الحى : البطن من بطون العرب . البردان : اسم موضع . خلت : مضت .

(٢) النؤى : الحاجز من التراب يقام لمنع السيل عن البيت . الأوارى : جمع آرى وهى معالف الدواب ومحابسها . الركى : جمع ركية ، وهى البر . دفان : جمع دفين ، مندفئات .

(٣) الخطوبات : جمع خطوبة ، وهى ما احتطب الإمام وجمعه . الولائد : جمع وليدة الإمام . ذذعت : فرقت .

(٤) قفار : جمع قفر ، وهى الأرض القاحلة الخالية من الزرع . المرورات : التى لا تنبت شيئاً لانعدام الماء فيها . السبعان : مثنى سبع وهو كل ما يفترس من الحيوان : يعتركان : يلتمس كل منهما أكل الآخر لما هما فيه من جذب دفع غيرها من الحيوان إلى ترك ذلك . (٥) أسماطاً : غير محشوة ، وهو أن يكون القميص طاقاً واحداً .

(٦) الشرف : الارتفاع من الأرض . الأرجاء : النواحي مفرداً رجا . العوذ : الإبل أو الخيل أو الظباء الحديثة التاج مفرداً عأذ ، وجمعه عوذ وعوذان ، وجمع الجمع عوذات . الهجان : السكرام يستوى فيه الذكر والنؤث ، والفرد والجمع .

تحليل الأبيات :

ألا ياديار قومي وخيام أهلى بالبردان ، لقد مضى على تركهم إياك ونزوحهم عنك ثمانى
حجج ، وهو زمن طويل يغير الأحوال ، ويبدل الأوضاع ، وإذن فليس غريبا ألا يبقى
منك غير نوى مهدم ، وحاجز مثل ، وغير معارف الدواب ومحابسها التى صارت لطول العهد
وبعد الأمد كالآبار المطمورة ، وغير الخطوبات التى جمعتها الإماء من بقايا الجذور ومتساقط
الأغصان ؛ ليحملن منها وقودهن فى قارس البرد ، لقد فرقتهما الرياح السافيات ، وجرت بها
الأمطار الغزيرة كل مجرى .

واحرّ قلباه ! لقد أصبحت تلك الديار التى كانت تقيه بأعز الناس ، وأكرم الأجناس
قفارا لا نبت فيها ولا ماء ، ولا إنس فيها ولا وحش ، فهى تناثف يضل فيها القطا ، فلو أن
بها سبعين لأخذنا يقتتلان حتى يتفانيا فى سبيل الطعام .

وما فى تقائلهما يثيران التراب فينسج فوق ظهريهما ثوبين رقيقين ، لو هبت عليهما
الريح لأزالتهم .

ولكنّ بأعلى هذه الصحراء وحوشا ضارية كأنها لاستيحاشها فى مختلف النواحي
وجوانب الأرجاء إبل هجان من خلفها سقابها ، أو ظباء خنس من ورائها أطلاؤها .

النقد :

جرى الشاعر على ماجرى عليه غيره من الوقوف بالديار بعد حجج يعدها ، ثم غير
الأشياء التى لا تزال دالة على أنه كان فى المكان ديار ، وكان فى هذه الديار سكان وقطان .
ولكنه ذكر فيما بقى من الآثار ما لم يذكره سواه ، ذكر الخطوبات ، والحق أن بقاء الخطوبات
بعد حجج ثمان أمر غير منظور ، فالوحوش التى لا تجد غذاء من حق نفوسها عليها أن تأكل
كل ما تجد ، ثم إنه وقع فيما يكاد يكون تناقضا : السبعان يمتزكان فيتفانيان ، لأنهما
لا يجدان الغذاء ، وبالشرف الأعلى وحوش كأنهما عوذ هجان . أليس هذا تناقضا ؟
إنه كذلك .

وعلى أى فالأبيات معانيها كمعاني أى شعر آخر فى وصف الأطلال .

٩ — وقال ثعلبة بن عمرو المبدى * في مطلع قصيدته :

لَمَنْ دِمْنٌ كَأَنَّهُنَّ صَحَائِفُ قِفَارٌ خَلَامُنِهَا الْكَثِيبُ فَوَاحِفُ^(١)
فَمَا أُحَدِّثُ فِيهَا الْعُهُودَ كَأَنَّمَا تَلْعَبُ بِالسَّمَانِ فِيهَا الزَّخَارِفُ^(٢)
أَكَبَّ عَلَيْهَا كَاتِبٌ بِدَوَاتِهِ يُقِيمُ يَدَيْهِ تَارَةً وَيُخَالِفُ^(٣)
رَجَا صُنْعَهُ مَا كَانَ يَصْنَعُ سَاجِيًا وَيَرْفَعُ عَيْنِيهِ عَنِ الصَّنْعِ طَارِفُ^(٤) : ٥٢٩



* ترجمته الشاعر : هو ثعلبة بن حزن بن زيد مناة بن الحارث بن ثعلبة المبدى ، وهو شاعر قصير النفس فيما يبدو ، مغمور بين الشعراء ، وإن كان له من القصائد قصيدتان اختارهما المفضل الضبي ، كما اختار له البحتري في حماسته ، وشعراء الجاهلية .

التفسير اللغوي : (١) الدمن : جمع دمنة ، وهي آثار الناس وما سودوا بالرماد . صحائف : جمع صحيفة يقصد ما فيها من النقش . قفار : جمع قفر ، الأرض المجربة . الكثيب وواحف موضعان .

(٢) العهود : جمع عهد يقصد الأمطار التي يعهد بعضها بعضا . السمان : الأصباغ التي يزخرف بها في السقوف وغير السقوف ولا واحد لها .

(٣) أكب : أقبل . تارة : مرة .

(٤) ساجيًا : ساكنًا هادئًا . الطارف : ما يطرف العين .

تحليل الآيات :

يسائل حاتم قلبه ، أتعرف هذه الأطلال الدوارس ، والآثار الطوامس ، والنوى المهدم ، والجذم المثلث ؟ إن الأرض تبدو كالرق ، وهذه الآثار فوقه كالخط المزخرف ، والرسم المزركش ، لقد نشرت الأرواح في هذا المكان عواصفها بعد أن فارقه قاطنوه ، وتركه ساكنوه ، تركوه أياما طويلا ، وشهوراً عدة ، هذه الأرواح تنقلت من مكان إلى مكان ، ودرجت من موضع إلى موضع ، فغيرت ظاهر تربه ، وكسته ترابا غير ترابه الذى كان له ، وأزالت الأيام معالمه ، وطمست أعلامه .

ليست الرياح فحسب هى التى غيرت المعالم والأعلام ، ولكنه طول البلى ، وقدم العهد ، حتى أصبحت لا أعرف الأطلال إلا بالوهم والظن ، ولا أتبين الآثار إلا بالحس والشعور .

النقد :

المعاني التى أوردها حاتم فى أبياته تلك معان قليلة ، وليس فيها معنى يمكن أن يقال إنه افرد به ، ولا أحسب أن الحول يفعل فى الديار هذا الذى صورته حاتم ، فقد استقصرنا ثمانى حجج فى قصيدة عميرة بن جمل ، ورأينا أن تأثيرها لا يبلغ تصويره ، فكيف بالعام الواحد ؟ هل نقول : إنهم قلدوا زهيراً لم يجيدوا التقليد ؟ وذلك فى قوله :
وقفت بها من بعد عشرين حجة فلأيا عرفت الدار بعد توهم
وكذلك قال حاتم :

وغيرها طول التقادم والبلى فما أعرف الأطلال إلا توها

ولكن بعدكم كان ذلك التقادم والبلى ، إنه بعد :

أذاعت به الأرواح بعد أنيسها شهوراً وأياماً وح—ولا محرما

قد يقال إنه لا يقصد حولا واحدا ، ونقول بل يقصده ، فلو أراد غير ذلك لاستبدل بأيام أعواما .

المعاني المشتركة وغير المشتركة في وصف الأطلال

يكاد الشعراء يتفقون في وصف الأطلال ، ولهم في هذا عذرهم ، فالبيئة التي توحى إليهم بأفكارهم واحدة ، والمعين الذي يمتحنونه واحد ، والمصر الذي يعيشون فيه واحد ، وكل هذه عوامل توجب اتفاق الأفكار .

إذا قال امرؤ القيس محمداً دار محبوبته :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل
بسقط اللوى بين الدخول فخومل
فال زهير مراعيًا ذلك التحديد :

أمن أم أوفى دمنمة لم تكلم
بحومانة الدراج فالمتشـلم ؟
وقال ليبد :

عفت الديار محلها فقامها
ببنى تأبد غولها مرجامها

وعلى هذا النمط سار أكثر الشعراء بعدهم ، لم يحيدوا عنهم إلا قليلاً .

ثم إذا قال امرؤ القيس إن هذه الدور بعد أن كانت ملعباً للأوانس أصبحت مرتما للآرام . في قوله :

ترى بحر الآرام في عرصاتها
وقيعانها كأنه حب فلفل
قال زهير :

بها العين والآرام يمشين خلفه
وأطلاؤها ينهضن من كل محجم
وقال ليبد :

والعين ساكنة على أطلالها
عوزاً تأجل بالقضاء بهامها
وقال المرقش الأـكبر قبلهم :

إلا من العين ترعى بهم
كالفارسيين مشوا في الكم

وكلمهم أسكنوا هذه الدور العين والظباء والوحوش ، حتى وإن تكن هذه الدور قد صارت إلى فناء وبلى ، وأصبحت صحارى جرداء ، كقول عميرة بن جمل :

قفار مرورات يحاربها القطا يظل بها السبعان يعتركان
يثيران من نسج التراب عليهما قيصين أسماطا ويرتديان
وبالشرف الأعلى وحوش كأنها على جانب الأرجاء عوذ هجان
وأكثرهم وصف فعل الأمطار بها ، وأثر الودق والساريات فيها ، ولكنهم أوردوه
في صور مختلفة ، كلها صور قوية جميلة ، وبخاصة صور لبيد والنايفة ، كما وصفوا فعل الرياح
في تلك الآثار فأجادوا التصوير .

ولكن لبعض هؤلاء الشعراء معاني سبقوا إليها فاتبعوا فيها ، أو لم يتبعوا لشهرة
نسبتها إلى أصحابها ، فمن هذه المعاني قول امرئ القيس :

قما نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحول
فكثير من الشعراء جرى في غباره ، ولكنهم لم يبلغوا شيئاً وإن أجادوا ، ومن سبقه
منهم جاء بجزء من المعنى ، لم يسقه مساق امرئ القيس في إحاطته وشموله ، وحسنه وجماله ،
قال بشامة بن الغدير :

فوقفت في دار الجميع وقد جالت شئون الرأس بالدمع
وقال المرقش الأكبر :

أعـرفها داراً لأسماء فالد مع على الخدين سح سجم
ومن المعاني التي انفرد بها الحارث بن حنظلة تشبيه ظهور البقر الوحشي بالشمس في قوله :
لا شيء فيها غير أصورة سفع الخدود يلحن كالشمس
حقاً إنه لم يجد هذا الذي بلوح ، ولكن التأمل يدفع إليه ، فأول ما يلوح الظهور . ومنها
حبسه الركب ليحدث ويخمن ، وذلك في قوله :

فحبست فيها الركب أحدس في كل الأمور ، وكنت ذا حدس
وقد أجاد ثعلبة بن عمرو العبدى في وصف المصور ، ولم يشاركه أحد في معناه وهو قوله :

فما أحدثت فيها المهود كأما تلعب بالسمان فيها الزخارف
أكب عليها كاتب بدواته يقيم يديه تارة ويخالف

رجا صنمه ما كان يصنع ساجيا ويرفع عينيه عن الصنع طارف
ومنهم من دلت تشبيحاته وصوره على بيئته وثقافته ، ومن هؤلاء النابغة في قوله :
خلت سبيل أتى كان يحبسه ورفضته إلى السجفين فالنفد
وقول المرقش الأكبر :

إلا من العيين ترعى بها كالفارسيين مشوا في الكمم
وقول الحارث بن حنظل :

لمن الديار عفوف بالحبس آياتها كمهارق الفرس
وقول حاتم الطائي :

أتعرف أطلالا ونويا مهديا كخطك في رقّ كتابا منمما

وبعد فحسب الشعراء قدرة وتفوقا أنهم حببوا إلينا الأطلال ، وإن تكن ظاهرة فراق ،
وشغفونا بالآثار ، وإن تكن رمز جذب وقحط وإفقار ، وهذه عبقرية هي الغاية عند
العباقرة والنابغين .



(ب) وصف الليل

١ - قال مهلهل بن ربيعة * :

أَلَيْتَنَابَذِي حُصْمَ أَنْـيَرِي إِذَا أَنْتِ انْقَضَيْتِ فَلَا تَحْوَرِي ^(١)
فَإِنْ يَكُ بِالذَّنَابِ طَالَ لَيْلِي فَقَدْ أَبَاكِ مِنَ اللَّيْلِ الْقَصِيرِ ^(٢)
وَأُنْقَذَنِي بِيَاضُ الصُّبْحِ مِنْهَا لَقَدْ أَنْقَذْتُ مِنْ شَرِّ كَبِيرِ ^(٣)
كَأَنَّ كَوَاكِبَ الْجَوَازِ عُوذٌ مُعْطَفَةٌ عَلَى رَبْعِ كَسِيرِ ^(٤)
كَأَنَّ الْفَرَقْدَيْنِ يَدَا بَغِيضٍ أَلَحَّ عَلَى إِفَاضَةِ قَبِيرِ ^(٥)
أَرَقْتُ وَصَاحِبِي بِجَنُوبِ شَعْبٍ لَبَّرَقَ فِي تَهَامَةٍ مِنْـسْتَطِيرِ ^(٦)

* ترجمه الشاعر : هو أبو ليلى عدى بن ربيعة بن الحارث بن زهير بن جشم بن بكر التغلبي شاعر نجدى مجيد ، قيل عنه إنه أول من قصد القصائد وهلهل الشعر ، وحسبه خفراً أن يكون امرؤ القيس وارث شاعريته ، وقابض عبقريته ، ولقب مهلهلا لقوله :
لما نزل في الكراع هجينهم هلهلت أنار مالكا أو صنبا
وحدثوا عنه أنه كان من أصبح أهل زمانه وجها ، وأفصحهم لسانا ، وأشدهم بأسا ، وقد لقبه أخوه كليب بزير النساء لأنه كان صاحب لهو ، كثير الحادثة للنساء ، وفي هذه القصيدة يقول :

ولو نشر المقابر عن كليب لأخبر بالذنائب أى زير
توفي حوالى سنة ٥٠٠ م

التفسير اللغوى : (١) حسم : موضع بالبادية ، ويظهر أنه أقام به فى أحد أيامه . لا تحورى : لا ترجى . (٢) الذنائب : موضع بنجد على يسار الطريق إلى مكة . (٣) كواكب الجوزاء : أحد أبراج السماء ، واسم نجم يعترض فى جوز السماء ، والأول هو المراد . عوذ : جمع عائذ ، وهى الناقة يعوذ بها ولدها ، وكل أثنى إذا وضعت لمدة سبعة أيام لأن ولدها يعوذ بها . معطفة : منحنية مائلة . الربيع : الفصيل ينتج فى الربيع ، وهو أول النتاج ، فإذا نتج فى آخره فهو هبع ، يقال : « ما لهم ربع ولا هبع » . كسير : مكسور . (٤) الفرقدان : نجمان قريبان من القطب الشمالى يهتدى بهما ، وأحدهما أقل نورا من الآخر . بغيض : مبغض . إفاضته : دفعه إلى اللعب . قبىرى : مقامر . (٥) أرقت : سهرت . الشعب : الطريق فى الجبل ، أو مسيل الماء ، أو الحى العظيم أو الناحية ، والأول هو المراد . تهامة : أرض منخفضة ، وبلاد جنوبى الحجاز . مستطير : منتشر .

تحليل أبيات :

أيتها الليلة الليلاء التي قدر على أن أقضيها بذى حسم ، لينحسر ظلامك ، وليذهب سوادك ، وليسفر صبحك ، ولينفلق وضحك ، فإذا ما زلت من الأفق فلا تعودى مرة أخرى .
لقد طال ليلي بالذنائب حيث قتل أخى ؛ إذ جافانى النوم ، ولا زمنى السهاد ، وإن يسؤنى هذا فكم من ليال بكيت من قصرها ، وشكوت سرعة كرها ، وأنقذنى من بكائى عليها بياض صبحها ، وإشراق شمسها ، لقد أنقذت من شر كبير ، وأنجيت من ألم كثير .

أما ليلتى تلك فقد وقفت مجومها ، فكأن كواكب الجوزاء متجمعاتٍ متلبثات نياقٍ عائذات ، قد كسر ربعهن ، فهن لا يرمن دونه ، ولا يتحوان عنه ، أو كأن هذين النجمين المعروفين بالفرقدين يدا رجل مكروه ، مبغوض مقامر ، فهو يلح فى إفاضته ويبالغ فى دفعاته ، فيداه لا تفتتان تتحركان فى مكان بعينه .

لقد أرقى وصاحي الذى يشاطرنى آلامى وأوصابى بجنوب ذلك الشعب ، لبرق لمع من أرض تهامة ، وهو منتشر الضوء ، متباعد اللعان .

النقد :

كان قتل كليب المعين الذى فاضت منه شاعرية مهلهل ، والمنبع الذى انبثق منه شعره ، فهو أول من وصف الليل بالطول هذا الوصف الذى جرى عليه الشعراء من بعده ، ومعانيه وإن كانت مكررة إلا أنها بالنسبة إليه مبتكرة ، فهو يقول من قصيدة أخرى ما يشبه أبياته فى هذه القصيدة :

وصار الليل مشتملا علينا كأن الليل ليس له نهار
وبت أراقب الجوزاء حتى تقارب من أوائلها انحدار

ويقول فى قصيدة أخرى :

بات ليلى بالأنعمين طويلا أرقب النجم ساهراً لن يزولا

وهكذا فتح الطريق لمن جاء بعده من الشعراء ، وعلى رأسهم امرؤ القيس وارث شعره ومعانيه .

٢ — وقال امرؤ القيس* في وصف الليل :

وليلٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ أَرْخَى سُدُولَهُ طَلَى بِأَنْوَاعِ الْهُمُومِ لِيَبْتَلِي^(١)

فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ وَأُرْدَفَ أَحْجَازاً وَنَاءَ بِكُلِّ كَلٍ^(٢)

أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلَا انْجَلِي بِصُبْحٍ وَمَا الْإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمْثَلٍ^(٣)

فِيَالِكَ مِنْ لَيْلٍ كَأَنَّ نُجُومَهُ بِكُلِّ مُغَارٍ الْفَتْلُ شَدَّتْ بِبِذْبُلٍ^(٤) !



* ترجمه الشاعر : انظر الترجمة في وصف الفرس ص ١٠٩ .

التفسير اللغوي : (١) ليل : ورب ليل طويل قضيته مسهداً . أرخى : أسبل وأسدل .

سدوله : جمع سدل ستوره ، ليبتي : ليختبر ويمتحن .

(٢) لما : حين . تمطى : تمدد . بصله : بظهره . وأردف أحجازاً : وأطال مآخيره ،

من قولهم أردف الراك غيره أركبه ورائه على مطيته ، والأحجاز جمع عجز مؤخر الدابة . ناء بكلكل : تهاً لينهض صدره فيثقل مقدمه .

(٣) ألا : حرف تنبيه . انجلى : انكشف . الإصباح : ظهور الصباح . بأمثل :

بأفضل وأحسن .

(٤) يالك : أسلوب تعجبي ، فهو يتعجب من طوله وامتداد ساعاته . مغار الفتل : محكم

الفتل موثق البرم . شدت : ربطت وربطاً محكماً . يبذل بذلك الجبل الراسخ من جبال نجد .

تحليل الأبيات :

يشكو امرؤ القيس من ليله الذى طال أمده ، فزاد فيه ألمه ، فيقول :
رب ليل كموج البحر المتلاطم أسدل على ظلمته ، وسط فوق وحشته ، وأرسل إلى
ألوانا من الهموم ، وأسدل على أنواعا من الأحزان ، ليختبر منى ، ويمتحن قوتى ، ويتبين
جلدى وصبرى ، فقلت له وقد رأى منى صبرا وعزما ، وقوة ومنة :

أيها الليل الطويل أتمنى عليك بعد أن عرفت عزيمتى أن ينفلق صبحك ، وينكشف
ضوءك ، وأن تزول غياهبك ، وتهتك أستارك ، وإن يكن ذلك الصبح المأمول ليس بأوضح
منك وجها ، ولا بأمثل منك حسنا ، فكلا كما مبعث هم ، ومصدر غم وكره ، ولكنه
التغير قد يشعر ببعض الراحة .

ما أعجبك ليلا ثابتا لا يتزعزع ! راسخا لا يتزعزع ، حتى لكأن نجومه السائرات شدت
إلى راس من الجبال بمغار القتل من الأبراس والجبال ، فليس لها مسير وإن طال
بها الأمد .

النقد

امرؤ القيس أقدر من وصف الليل ، وهذه الأبيات أروع ما قاله فى وصفه ، ومبعث
روعتها تصويره الليل فى نكره ووحشته ، وهوله ورهبته ، بأمواج البحر تطوى ما يصادفها ،
وكذلك مناجاته الليل مناجاة تتم عن الصبر مع اليأس ، وهذه قدرة لا يؤتاها إلا امرؤ القيس
« وما الإصباح منك بأمثل » وتصوره الليل بالجلل يمتلئ بصلبه ، ويردف بأعجازه ،
وينوء بكل كلفة تصوير جميل لتشبيهه المعنوى بالحسى ، وتصوره النجوم قد ثبتت فى السماء
لا تريم عن مكانها بأنها مشدودة بأبراس تصور مستمد من البيئة ، أخذ ببراعته
فى التصور والتصور .

هذا ومن القدماء من عاب على الشاعر التضمين ، بتعليق معنى البيت الثانى بالبيت
الثالث ، ولا نرى فى ذلك عيبا ، وإنما العيب أن نتكلف جمع معنى فى بيت لا يتحمله .

٣ — وقال النابغة الذبياني * في وصف الليل أيضا :

كَلَيْنِي لِمَ يَا أُمَيْمَةَ نَاصِبٍ وَلَيْلٍ أَقَاسِيهِ بَطِيءُ الْكَوَاكِبِ ^(١)

تَطَاوَلَ حَتَّى قَلْتُ : لَيْسَ بِمُنْقَضٍ وَلَيْسَ الَّذِي يَرعى النُّجُومَ بَأَثْبٍ ^(٢)

٥٤٦ : وَصَدِرٍ أَرَا حَ الْبَلِّ عَازِبَ هَمِّهِ تَضَاعَفَ فِيهِ الْحُزْنُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ^(٣)



* تَرْجُمَةُ الشَّاعِرِ : انظر الترجمة في ص ١٥٤ .

التفسير اللغوي : (١) كَلَيْنِي : اتركيني ودعيني . أُمَيْمَةُ : ابنته ، يصح فيها الفتح والضم ، والضم أحسن ، والفتح أشهر ، قال الحليل بن أحمد : من عادة العرب أن ترخم عندما تنادى المؤنث ، فلما لم يرخم « بسبب الوزن » أجرى الترخيم على لفظها ، فأثني بالفتح . نَاصِبٍ : متعب منصب ، كقوله تعالى : « في عيشة راضية » أى عيشة مرضية ، أولهم ذى نصب . أَقَاسِيهِ : أكابده . بَطِيءُ الْكَوَاكِبِ : كناية عن صفة هى الطول والامتداد .

(٢) تَطَاوَلَ : امتد وطال . لَيْسَ بِمُنْقَضٍ : ليس بمنته . يَرعى النُّجُومَ : قيل أراد النجم الذى يتقدم النجوم ، فهو منها بمنزلة الراعى لها ، ويؤيد هذا المعنى رواية : « وليس الذى يهدى النجوم بَأَثْبٍ » وإذا غاب الراعى ضل المرعى ، وقيل : أراد يراعى النجوم يقصد نفسه ، وقيل : أراد به الصبح . بَأَثْبٍ : براجع .

(٣) وَصَدِرٍ : ورب صدر ، يقصد صدر نفسه . أَرَا حَ : أعاد ورد من راحت الإبل إلى مناخها عشيّاً إذا ارتدت . العازب : النائي البعيد . تَضَاعَفَ : تكاثُر . مِنْ كُلِّ جَانِبٍ : من جميع النواحي .

تحليل الأبيات :

دعيني يا بنيتي لهومي وأوصابي ، دعيني لهم ناصب ، واتركيني لليل قد طال ، حتى أمل ، وامتد إلى أن أثقل وأسأم ، فكوا كبه بطيئة المسير ، ونجومه كأنها لاتتحول .
لقد استطال ذلك الليل لما نزل بي من الهموم والأوجاع ، حتى حسبت أنه لن ينتهي ، وظننت أنه مقيم لا يريد أن ينقضى ، وأن الراعى الذى يرعى النجوم ويهديها سواء السبيل ، ويسوقها إلى غايتها من الأفق البعيد ، قد ذهب إلى غير أوبة ، وتركها دون أن ترجى له رجعة ، وإذن فسنبقى تلك النجوم حيرى لاتعرف لها قراراً .
دعيني يا أميمتى لصدر قد أثقلته الهموم ، ورد له الليل ما استطار منها فى النهار ، فتضاعف حزنه ، وتكاثف شجنه .

التقير .

هذه الأبيات من أروع ما نظمته فى وصف الليل شاعر ، وهوفيهما تابع لامرئ القيس ، وإن اختلف القدماء فى تفضيل أيهما على الآخر ، فبالغ امرؤ القيس على غير عهد الأدب به ، فسوى بين النهار والليل فى الهم ، فقال أنصاره : إن المبالغة هنا أجدى وأفضل ، وقصد النابغة على غير عهد الأدب به أيضاً فى قوله :

وصدر أراح الليل عازب همه تضاعف فيه الحزن من كل جانب
واقتردى به الشعراء إيماناً بحال معناه ، فقال أحدهم :

أقصى نهارى بالحديث وبالمنى ويجمعنى والهم باليسل جامع

وقال أنصاره فى سبب تفضيله : « إنه جعل صدره مراحا للهموم ، وجعل الهموم كالنعم السارحة تسرح نهارا ، ثم تأتى إلى مكانها ليلا ، وهو أول من استثار هذا المعنى ، ووصف أن الهموم مترادفة بالليل لتقيد الأحاظ عما هى مطلقة فيه بالنهار ، واشتغالها بتقيد اللحظ عن استعمال الفكر » .

ومناجاة فتاته من آيات جماله ، فالبت أشد شعوراً بمصائب أيها ، وأوفر عاطفة نحوه ، يشجبها شجوه ، ويحزننها همه ، فهى منه قلبه وكبدته .

(ح) وصف السحاب والبرق والغيث

١ — قال امرؤ القيس * يصف ديمة :

دِيمَةُ هَظْلَاءٍ فِيهَا وَطْفُ طَبَقِ الْأَرْضِ تَحْرِي وَتَذُرُ^(١)
تُخْرِجُ الْوَدَّ إِذَا مَا أَشْجَذَتْ وَتَوَارِيهِ إِذَا مَا تَشْتَكِرُ^(٢)
وَتَرَى الضَّبَّ خَفِيفًا مَاهِرًا ثَانِيًا بَرُّنُهُ مَا يَنْغَفِرُ^(٣)
وَتَرَى الشَّجَرَاءَ فِي رَيْقِهَا كَرُّهُ وَسِ قَطَعَتْ فِيهَا خُرُ^(٤)
سَاعَةً ، ثُمَّ انْتَحَاهَا وَابِلٌ سَاقِطٌ لَا كَنَافٍ ، وَاهٍ ، مُنْهَمِرٌ^(٥)
رَاحَ تَمْرِيهِ الصَّبَا ، ثُمَّ انْتَحَى فِيهِ شَوْبُوبٌ جَنُوبٌ مُنْفَجِرٌ^(٦)
نُجْجٌ حَتَّى ضَاقَ عَنْ آذِيهِ عَرُضٌ خِيمٌ ، فَخَفَافٌ ، فَيُسِرُّ^(٧)

* ترجمه الشاعر : اقرأها في وصف الفرس ص ١٠٩

التفسير اللغوي : (١) الديمة : المطر يدوم في سكون دون رعد ولا برق . الوطف :

استرخاء السحابة ، وتدلى ذيلها ، ودنوها من الأرض . تحرى : تتحرى المكان وتثبت فيه . تذر : تمتلي .

(٢) الود : اسم جبل . أو هو الود في لغة أهل نجد ، كأنهم سكنوا التاء فأدعموها في الدال ، وكلا اللغتين ذكره اللسان . أشجذت : أقلت وسكنت . تواريه : تخفيه . تشتكر : هطل بالمطر ، وفي رواية تعتكر .

(٣) الضب : حيوان زاحف يشبه الجرذون ذنبه كثير العقد ؛ حتى ضرب به المثل ، فقيل : « أعقد من ذنب الضب » . البرن : الخلب . ما ينغر : لا يصيبه العفر ، وهو التراب . (٤) الشجراء : الأرض ذات الشجر . ريقها : أولها . خمر : جمع خمار ، وهو للمرأة كالعمامة للرجل .

(٥) انتحاه : قصدها . وابل : مطر شديد يصدر عنه السيل . ساقط الأكناف : ثابت النواحي . واه : ضعيف يتشقق منه الماء ، وينخرق عنه للمطر . منهمر : شديد الانصباب .

(٦) راح : سار عشيأ . تمريه : تستدره . وأصله من مرى الضرع إذا مسحه ليدر ، الصبا : ريح باردة تهب من الشمال . شوبوب : دفعة من مطر . الجنوب : ريح تهب من الجنوب . (٧) نج : سال وصب . آذيه : موجه . عرض : ناحية أو اتساع . خيم وخفاف ويسر :

أسماء أمكنة قريية من الدهناء ، أو في بلاد بني يربوع .

نحويل الأبيات :

هذه مطرة دأمة التسكاب ، ومزنة ماضية الانصباب ، غايتها ملء أطباق الأرض بدموعها الغزار ، فترى أوتاد الأخبية بادية ظاهرة عند ما تطلع عن السكب ، وخافية متوارية عند ما يحتفل المطر ، ويشتد الغيث ؛ فهي تبدو إذا هدأت ، وتتوارى إذا غضبت ، وترى الضب ؛ وقد أبرزه المطر من جحره سابجا ماهرآ ، خفيفا نشيطا ، يثنى برثنه ويسطه ، كما يثنى السابح ذراعه ويمده ، فلا ينغفر بالتراب ، فقد أذهبه طول الانسكاب ، وترى الأرض ذات الأشجار ، وقد غطاها المطر أول دفعاته ، فليس يبدو منها إلا رؤوس أشجارها ، فظهرت وقد علاها الزبد كرهوس انفصلت عن أعناقها ، وغطتها خمرها ، استمر هذا الغيث ساعة ، ثم اعتمدها وابل منهمر ، وسيل منحدر ، يعم وواحيها ، ويفعم أكنافها ، فالسحاب متشقق بالماء .

راح ذلك السحاب عشيا - وقد استدرته ريح الصبا ، ومراه بردها - راح يتكاثف ويتراكم ، ثم قصده ريح الجنوب وافدة من بحر الهند مثقلة بالقطار ، فأضافت إليه دفعة أخرى ، فإذا هو ينصب انصبابا حتى ضاق عن آذيه المضطرب وموجه المصطخب عرض هذه الجهات مع اتساع آفاقها ، وامتداد أكنافها

النفر :

في هذه الأبيات جمال تحدث عنه القدماء ، فقالوا : « إن هذا أشعر ماجاء في وصف الغيث » وسأل أبو عمرو بن العلاء ذا الرمة : أى الشعراء الذين وصفوا الغيث أشعر ؟ فقال امرؤ القيس وأنشد الأبيات .

ولكنهم تركوا حكمهم دون تحليل شأنهم في جميع تقديم ، ومواطن الجمال التي أجملوها هي تلك الصور المتعاقبة ، فالديمة مسترخية الذوائب ، والأوتاد عارية حيناً ، ومغطاة حيناً ، والضب سابح حاذق يثنى برثنه ويسطه شأن السباح الماهر ، إذ يبسط ذراعيه ويثنيهما ، والأرض الشجراء غطيت ، فليس يبدو منها غير رؤوس أغصانها يغطيها الزبد الأبيض ، كأنه الحمر ، وهي صور فيها الكثير من مظاهر البادية ، فيها وتد الخباء ، والضب ، والبرثن والحمر .

٢ - وقال الأعشى * في معلقته يصف السحاب والمطر :

بل هل ترى عارضاً قد بت أرمقه كأنما البرق في حافاته شعل^(١)
له رداف وجوز مقيم عمل^(٢) منطق بسجال الماء متصل^(٣)
لم يلهني اللهو عنه حين أرقبه^(٤) ولا اللذاة من كأس ولا شغل^(٥)
فقلت للشرب في درنا وقد تميلوا : شيموا ، وكيف يشيم الشارب الثمل^(٦) ؟
قالوا : نمار بطن الخال ، جادها^(٧) فالسجدية ، فالأبلاء ، فالرجل^(٨)
فالسبح يجرى ، فخير بر ، فبرقه^(٩) حتى تدافع منه الربو ، فالجبل^(١٠)
حتى تحمل منه الماء تكلفة^(١١) روض القطا ، فكثيب الغينة السهل^(١٢)
٥٦١ : يسقي دياراً لها قد أصبحت غرضاً زوراً تجانف عنها القود والرسل^(١٣)

* ترجم الشاعر : هو ميمون بن قيس بن جندل بن بكر بن وائل أحد أعلام الشعر

في العصر الجاهلي وأقدر الوصافين للخمر ، وكان لشعره جرس جميل فغنى به ولقب بصناعة العرب ، أدرك الرسول الكريم ، وأراد الإسلام نخدعه عنه بالمال أبو سفيان مات على غير دين سنة ٦٢٩ م .

التفسير اللغوي : (١) العارض : السحاب يعترض الأفق . أرمقه : أنظر إليه . حافاته :

جمع حافة أطرافه . شعل : جمع شعلة قطع الشرر .

(٢) رداف : سحاب قد ردفه من خلفه . جوز : جوز كل شيء وسطه . المقام : العظيم

الواسع . عمل : دائم : منطلق : قد أحاط به فصار بمنزلة المنطقة . سجال : جمع سجل وهو

ملء الدلو ماء . (٣) لم يلهني : لم يشغلني . أرقبه : ألاحظه . اللذاة . الاشياء . من

كأس : يعني من خمر (٤) الشرب : جماعة الشاربين كالركب والسفر . درنا : أحد

منافذ فارس ، وهي دون الحيرة ، وقيل : إنها باليامة : تملاوا : انتشوا . شيموا : انظروا

إلى البرق . (٥) نمار وبطن الخال : موضعان . جادها : أمطرها . العسجدية ، والأبلاء :

موضعان . الرجل : مسایل الماء ، واحدها رجلة . (٦) السفح . منحدر الجبل .

البرقة : الأرض الغليظة فيها حجارة ورمل وطين . الربو : ما نشز من الأرض ، وهو هنا

اسم موضع . الجبل : موضع باليامة . (٧) تحمل : احتمل . تكلفة : مشقة . روض

القطا : اسم مكان ، قيل : إذا خرجت تريد البصرة فأول ما تظا السفح ثم الحربة ، ثم قارات

الجبل ، ثم بطن السلي ، ثم عيان ، ثم روض القطا ، ثم العرمة ، وهذه كلها من أرض اليامة . الغينة .

الأرض الشجراء ، وهي هنا اسم موضع . (٨) غرضاً : هدفاً . زوراً : ميلاً . تجانف :

تباعد . القود : الخيل . الرسل : الإبل .

تحليل الأبيات :

أيها الخليل : هل تبصر عيناك ذلك العارض الذي يمتد في الأفق ، لقد ملك عيناي ، فما تحولان عنه ، وأخذ قلبي فما ينصرف دونه ، فكأنه إذ يتألق برقه ، فيلتمع نوره ثم ينطفئ شعله تومض ثم يذهب وميضها ، وشرارة تلمع وما يلبث أن يختفي لمعانها .
لذلك السحاب العارض رداف متتابع ، وركام متكاثف ، ظلمات بعضها فوق بعض ، لا فرق بين أطرافه وأجوازه ، فجميع أجزائه عظيم ، وكل أقسامه مديد ، فهو دائم السح والتسكاب ، قد اتخذ من امتلائه بالماء في أطرافه ، واتصاله في أنحائه منطقة يتنطق بها .
لم يشغلني عن رقبته هو أقطع به صبحي ومساءي ، ولا لذاذة كأس أغتبق بها وأصطبغ ، ولا أعباء فوادح تصرف من يرزح تحتها عن كل شيء سواها ، فكل ذلك دونه عندي منزلة وتقديرا .

لقد دعوت ندمائي في دربا بعد أن ملك الشراب عليهم حواسهم ، واستولت الراح على ألبابهم ، دعوتهم أن ينظروا إلى ذلك العارض العريض ، وأن يتأملوا هذا السحاب المديد ، وأن يشيخوا برقه ، ولكن أنى للشم أن يشيم ؟ وكيف للنشوان أن يتأمل ؟ وكأني بهم قد أفاقوا من سكرتهم حين رأوا برق ذلك العارض ؛ فقالوا : لقد أجرى السحاب غيثه على مواضع (نمار ، وبطن الخال ، والمسجدية ، والأبلاء ، والرجل) وهو ذلك يجري بالسفح وخنزير وبرقة ، ولقد تجاوز الحد فتدافع الماء بالربو فالجبل ، وبلغ الغاية في روض القطا وكثيب الغينة السهل .

إن هذا المطر يسقي دياراً في هذه الأماكن قد أصبحت له هدفا ، ولما نه غرضا ، إنها أرض خشى المسير فيها الخليل والإبل ، والقود والرسل .

النقد

وصف الأعشى السحاب وصف البصير ، وصوره تصوير التقدير ، في بيتيه الأولين ، فرض لنا صورة لا ينقصها تحيير ، ثم انصرف إلى بيان أثره في محلته ، وإراز فضله على قرى اليمامة ، فبالغ في ذكر القرى ، وكأنه عالم جغرافي يرسم لتلاميذه مسير السحاب في تلك البلاد ، فأجاد الشرح وأحسن التفصيل . ولولا مبالغته في ذكر البلاد لكان قد بلغ غاية الإحسان .

٣ - وقال عبيد بن الأبرص * يصف السحاب .

إِنِّي أَرَقْتُ ، وَلَمْ تَأْرَقْ مَعِيَ صَاحِرُ لِمُسْتَكْفٍ بُعِيدَ النُّومِ لَوَّاحِ^(١)
يَا مَنْ لَبَزَقِ أَيْتُ اللَّيْلِ أَرْقُبُهُ ! فِي عَارِضٍ كَمُضِيءِ الصُّبْحِ لَمَّاحِ^(٢)
دَانَ مُسِيفٌ فَوْقَ الْأَرْضِ هَيْدَبُهُ يَكَادُ يُمَسِّكُهُ مَنْ قَامَ بِالرَّاحِ^(٣)
كَأَنَّ رَيْقَهُ لَمَّا عَلَا شُطْبًا أَقْرَابُ أَبْلَقَى يَنْبِيءِ الْخَيْلِ رَمَّاحِ^(٤)
٥٦٦ : فَمَنْ بِحَوَازِهِ ، كَنْ بِعَقْوَتِهِ وَالْمُسْتَكْنُ كَمَنْ يَمْشِي بِقِرْوَاحِ^(٥)

* ترجمته الشاعر : اقرأها في وصف العقاب ص ١٨٩ وهذه الأبيات منسوبة أيضا

لأوس بن حجر .

التفسير اللغوي : (١) أرقط : سهرت . صاح : مرخم صاحب . لمستكف : لسحاب مستدير كالسكفة . بعيد : تصغير بعد . لواح : شديد الوميض والالوان .

(٢) العارض : السحاب المعرض في الأفق . كمضيء الصبح : كناية عن الشمر لملاح : لماع .

(٣) دان : قريب . مسيف : مار على وجه الأرض . هيدبه : خيوطه . بالراح : بالكف .

(٤) ريقه : أوله . لما علا : حين ارتفع . شطبا : جمع شطبة ، وهي الطريقة أو الخط في

متن السيف ونحوه . الأقرباب : جمع قرب وهي الحاصرة . الأبلق : الأبيض فيه سواد . رماح : صاحب رمح ، وينبئ الخيل كناية عن سبقة إياها ، وتفوقه عليها .

(٥) الحوزة : الناحية ، وحوزة الملكة مابين تخومها ، وفي رواية بنجوته . والنجوة

المكان المرتفع . العقوة : الساحة ، وما حول الدار والمحلة ، وكلها تصلح للدعى وجمع العقوة

عقاء . المستكن الساكن الخفي في مسكنه . بقرواح : بأرض بارزة للشمس ، قال في اللسان :

« والقرواح يكون أرضاً عريضة نحو الدعوة ولا نبت فيه ولا شجر ، بل طين وسهال .

والقرواح أيضا : البارز الذي ليس يستره من السماء شيء ، وقيل هي الأرض البارزة للشمس »

ثم أورد البيت .

تحليل الأبيات :

عرف عبيد بن الأبرص بالإجادة في وصف الطبيعة بنوعها : حيا وهامدها ، ومن الأدباء من ينسب القصيدة التي منها هذه الأبيات إلى أوس بن حجر ، ولكنها بشعر عبيد أشبه ، إذ أنه أورد معانيها تلك في غير هذه القصيدة . كقوله :

ودنا يضيء ربابه غابا يصمره حريقه
حتى إذا ما ذرعه بالماء ضاق فما يطيقه
هبت له من خلفه ريح يمانية تسوقه

فاستمع إليه يقول : إني أرتقت وصاحبني السهاد ، ولكنك لم تشاركني أيها الصاحب في سهادي ، ولم تقاسمني أرقى لتنظر معي ذلك السحاب الملتف ، وتشيم ذلك البرق المضيء ، ما أجمل هذا البرق الذي يهتك حواشي الظلام ، فأنا لذلك أقضي ليلي الحظله إذ يلعب في سحاب يعترض وجه السماء ، فكأنه الشمس تبدو من الجانب الشرق فتبدد أسداف الظلام . لقد دنا دنوا شديدا ، وأسف إلى الأرض إسفا عظيما ، فكأن مطره حيوط تنساقط على الأرض يوشك الإنسان أن يدفنه براحتيه ، ويزيحه بكفيه ، كأن أوله حينما ارتفع في طرائق وخطط أصول لأفخاذ فرس أبلق قد غلب سواده بياضه يتقدم خيولا أخرى ، وينفي عن طريقه القود الجياد ، من فوق صهوته الفارس الرماح .

النقد :

قلنا : إن عبيداً من أقدر وصافي الطبيعة ، وشعره على قلته يزخر بوصفها ، وهو يعتبر زعيم الوصاف الواقعيين . فتصويره دقيق صادق ، لا تكلف فيه ولا مبالغة ، وصوره واضحة بارزة « يكاد يلمسها من شاء بالراح » وبيته « دان مسف . . . » رائع التصوير صادق التعبير ، وقد كرر معنى قوله : « كأن ريقه لما علا .. » في قصيدة أخرى فقال :

كأما بين أعلاه وأسفله ربط منشرة أوضوء مصباح

إلا أن هذا البيت أوفر معنى ، وأدق وصفاً ، وأصنى أسلوباً .

وبعد فعبيد شاعر معجب بالطبيعة ، فأولته آياتها ، ومنحت شعره محاسنها .

فالناس جميعا في خياله سواء ، لافرق بين من يقيم في حوزة أو بحجة ، ومن يلزم ساحة أو عقوة ، ومن يستكن في قرار مكين ، ومن يسير في أرض تسطع عليها أشعة الشمس ، فلا يحجبها عنها حجاب .

٤ - وقال حنظلة الطائي * في وصف القمر :

ومهما يكن من ريبٍ دهرٍ فإنني أرى قمرَ الليلِ المَعْدَبِ كالنقْى^(١)
يَهْلُ صغيراً ، ثمَّ يَعْظُمُ ضَوْؤُهُ وصورته حتى إذا ماهو استوى^(٢)
وقربَ يَخْبُو ضَوْؤُهُ وشِماعُهُ ويَمْصَحُ حتى يسنسرَ فما يرى^(٣)
٥٧٠ : كذلك زيدُ الأمرِ ، ثمَّ انتِقامُهُ وتكراره في إثره بعد ماضى

تحليل الأبيات :

مهما ينزل بي من أحداث الزمان ، وصروف الحداث ، فإنني صابر له ، راض به ، لأنني أعلم أن هذه سنة الكون حياة وموت ، وبقاء وفناء ، حتى القمر يعذب كما يعذب الفتى ، ويهنا كما يهنا ، فتصيبه النعماء والبأساء ، ويلقى الهناء والشقاء ، أراه يهل صغيراً لا يكاد يرى ، ثم يتعظم ضوؤه ، وتكامل استدارته شيئاً فشيئاً ، حتى يستوى على عرشه بدراميرا ، ويتألق في سمائه نوراً وضاء ، ولكنه ما يلبث أن يعود إلى حاله الأولى ، فيأخذ ضوؤه في الخبو ، وشماعه في الانطفاء ، ونوره في الانحفاء ، حتى يغيب عن الوجود ليلة أو ليلتين ، كما تغيب الحياة عن الإنسان فلا يرى ، ويطويه ما يطوى جميع الكائنات . ذلك شأن المرء يرتفع ثم يهوى ، ويكمل ثم ينقص ، سنة الله في خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

القمر :

الأبيات تصوير دقيق لحال الخلائق في هذا الوجود ، فكل كان يعتوره ما يعتور القمر ، وينزل به ما ينزل بالإنسان ، وفي الأبيات فلسفة غريبة عن العصر الجاهلي .

* ترجمته الساعر : هو حنظلة بن أبي عفراء بن النعمان بن حبة بن سبعة الطائي ، وروى عنه حديث مع النعمان وأنه كان السبب في تنصر النعمان وقومه ، وقصته طويلة ذكرتها كتب الأدب ، وهى إلى الأساطير أقرب منها إلى الحقائق التاريخية ، ولم يبق من شعره إلا القليل الذى لا يبل غليلاً ، وكانت وفاته حوالى سنة ٥٩٠ م .

التفسير اللغوي : (١) ريب الدهر : صرفه وحده .

(٢) يهل : يظهر . استوى : تكامل . (٣) يخبو : ينطفئ . يَمْصَحُ : ينمحي ، يقال : مصحت الدار انمحي أثرها . استسر القمر : اختفى ليلة أو ليلتين ، وهو من السرَّار بفتح السين .

(د) وصف الصحراء والبرد والحر

١ — قال الأعشى * من معلقته يصف الصحراء .

وبلدةٍ مثلِ ظَهرِ الترسِ موحِشَةٍ لِلْجِنِّ بِاللَّيْلِ فِي حَافَاتِهَا زَجَلٌ^(١)

لَا يَنْتَمِي لَهَا فِي الْقَيْظِ بِرَكْبِهَا إِلَّا الَّذِينَ لَهُمْ فِيهَا أَتَوَا مَهْلٌ^(٢)

٥٧٣ : قَطَعْتُهَا بِطَلِيحٍ جَسْرَةً سُرُحٍ فِي مِرْقَيْنِهَا إِذَا اسْتَعْرَضَتْهَا فَتَلٌ^(٣)

تحليل الأبيات .

رب صحراء مستوية ملساء تشبه في استوائها وملوستها ظهر الترس ، موحشة مقفرة لانبثاقاتها فيها ولا ماء ، ولا إنسان ولا حيوان ، فما يسكنها إلا الجان ، يبدون في الليل إذ يشمل السكون السكون ، فيلعبون ويصخبون ، ويلهون ويصيحون ، فرحاً بوطنهم الذي لا يشاركهم فيه أحد ؛ لا يعتمد السير فيها إلا بالهجير ، ولا يسمو إلى قطعها حين القيظ إلا القوم الفطاريق ، والسادة الأشراف الذين يقدمون على الهول ، ولا يعبثون بالخطر .

قطعت هذه البلدة جريئاً مقدماً بناقية قد أعياها السير ، وأضناها الرحيل ، وهي مع هذا جسر ماضية ، لاتهن ولا تنى ، سيرها هين لين ، إذا تأملت أطلتها وجدت فيها جمالاً وحسناً ، فهي بعيدة ما بين المرققين ، منفردة الجانبين .

النقد :

تشبيه الصحراء بالترس تشبيه جميل ؛ إذ أن الترس فوق استوائه فيه لمعان يشبه لمعان السراب في الصحراء ، واستعارة عزيف الجن بالليل بالزجل معنى رائع .

* ترجم السَّاعِر : اقرأ ترجمته في ص ٢٦٠ .

التفسير اللغوي : (١) الترس : صفحة من الفولاذ تحمل للوقاية من السيف ونحوه ، جمعه أتراس ، وتراس ، وتروس ، وترسة . حافاتها : جوانبها جمع حافة . زجل : الزجل : المصخب واللعب والصجيج والطرب .

(٢) لا ينتمي : لا يعتمد ، ولا يسمو . المهل : بالتحريك التقدم وفلان ذو مهل ذو تقدم إلى ما فيه الخير والشرف .

(٣) الطليح : العيا الذي أضناه السفر ، ويطلق على الذكر والمؤنث . الجسرة : الناقية الضخمة الطويلة القوية . سرح : لينة في سيرها . الفتل : تباعد ما بين المرققين عن الجنبيين .

٢ - وقال سويد بن أبي كاهل* في وصف الصحراء :

وفلاةٍ واضحٍ أقرابُها بالياتٍ مثلُ مُرْفَتِ القَزَعِ^(١)
يسبحُ الآلُ على أعلامها وعلى البِيدِ إذا اليومُ مَتَعَ^(٢)
٥٧٦ : فَرَكَبْنَاهَا عَلَى نَجْهَوِهَا بِصَلَابِ الْأَرْضِ فِيهِنَّ شَجَعٌ^(٣)

تَحْدِيلُ الْأَبْيَاتِ :

رب مومة مقفرة ، وفلاةٍ موحشة ، قد وضحت أقرابها ، وظهرت جوانبها وأطرافها ، فطرقها باليات لكثرة السير فيها ، فهي لبلاها تشبه المرت المحطم مما يبقى في الجوانب من شعر الرأس ، يجرى الآل على جبالها ، ويسبح السراب فوق أعلامها ، ويلعب في بیدائها ، عند ما ترتفع أشعة الشمس ؛ وتنتشر في الآفاق خيوطها البيض ، فركبنا هذه الصحراء على جهلنا مسالكها دون أن نخشى فيها ضلالا ، فحسبنا بها علما أقرابها وجوانبها الظاهرة الواضحة ، ركبناها بخيل صلاب الخوافر ، متوفرة النشاط ، متوافرة المراح .

النقد :

الأبيات الثلاثة فيها حسن وروعة ، وتشبيه الحصى المحطم المكسر بالشعر المتجمع في جوانب الرأس فيه عمق فكرة ، وإن لم يستواء التشبيه كل الاستواء ، وملاحظته السراب فوق الأعلام ملاحظة الرجل البدوي الذي تخلبه مناظر البادية .

* ترجمه الشاعر : اقرأ ترجمته في ص ١٥٩ .

التفسير اللغوي : (١) الفلاة : الصحراء الواسعة ، وتجمع على فلات وفلا ، وفلى . أقرابها : خواصرها ، مفردهما قرب بضم القاف وسكون الراء وضما ، والقصود هنا الجوانب والأطراف . باليات : رثات خلقات . مرفت : محطم . القزع : جمع قزعة بقايا الشعر في الرأس .

(٢) الآل : السراب . الأعلام : الجبال مفردا علم . البید : الصحارى المقفرة مفردا بيداء . متع اليوم : ارتفعت شمس .

(٣) صلاب الأرض : كناية عن الحيل ذات الخوافر للصلابة . الشجع : جنون النشاط .

٣ — وقال المرقش الأكبر يصف الصحراء أيضا :

ودويّة غبراء قد طال عهدُها تهالك فيها الورد والمره ناعس^(١)
 قطعتُ إلى معروفها منكراتها بعينهامة تنسلّ والليل دامس^(٢)
 تركتُ بها ليلاً طويلاً ومنزلاً وموقد نارٍ لم ترمه القوايس^(٣)
 ٥٨٠ : وتسمعُ ترغاء من البوم حولنا كما ضربت بعد الهدوء النواقيس^(٤)



* ترجمه الشاعر : اقرأ ترجمته ص ٢٠٩ .

التفسير اللغوي : (١) الدوية : الصحراء . تهالك في مشيه : تمايل . الورد : مكان الورد ، وكنى به عن الإبل . ناعس : غالطه النعاس .
 (٢) معروفها : طريقها للمهودة . منكراتها . طريقها المجهولة . العينامة : الناقة القوية . تنسل : تسير في هدوء . دامس : مظلم شديد الظلمة .
 (٣) تركتُ بها ليلاً طويلاً : قطعتُ بها . منزلاً وموقداً : مكان نزول السفر وإيقاد ناره . لم ترمه : لم تقصده . القوايس : طالبو القيس ، والقيس شعبة من ناز .
 (٤) الترغاء : الصياح . الهدوء : من الليل متصفه . النواقيس : الأجراس .

تحليل الأبيات :

وصحراء مقفرة قد اسودَّ لونها لبعد عهدها بالنبات والماء تنهالك فيها الإبل ، وتمایل في مسيرها من الآن ، وتأخذُ السنّة السائر فيها ، ويخالط النعاس عابرها لهموده وخود نفسه ، قطعت مجهولها إلى معروفها ، ومنكراتها الغامضة إلى مسالكها الواضحة بناقة قوية جريئة ، تنسل في جنباتها انسلال الأرقم ، والليل دامس ، والظلام طامس .

تركت بهذه الدوية ليلا طويلا سهرته ، ومنزلا طيبا أقمته ، وأنا في نار لم يجرؤ على اقتباس النار منها القابسون ، وكنت تسمع في تسيارك زقاء اليوم وصياحه ، كأنه دق النواقيس بعد أن هدا كل كائن ، وسكن كل متحرك .

النقد :

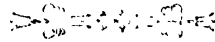
اتفق المرقش مع الأعشى وسويد في بعض المعاني ، وزاد عليهم معاني أخرى ، فوصفه الإبل بالتهالك ، والسفر بالنعاس معنى استقل به ، ووصفه الليل بالطول ، والمنزل الذي نزل به والموقد الذي أوقد فيه ناره معنى آخر لم يشارك فيه ، ووصفه زقاء اليوم وتشبيهه إياه بضرب النواقيس معنى ثالث ؛ وإذن فإن المرقش كان أقدر على وصف الصحراء من زميليه ، ومعانيه أجمل من معانيهما ، وصوره أكمل من صورهما ، ولا بد أنك مشاركي في الرأي .

فوق أن في أسلوبه جمالا ملحوظا ، يظهر في ذلك الطباق في قوله :

« قطعت إلى معروفها منكراتها »

٤— وقال عمرو بن قتيبة * يصف البرد :

ليس طمعى طعم الأنامل إذ قلص درّ القحاح في الصنبر^(١)
ورأيت الإماء كالجعنين البالي عكوفاً على قرارة قذر^(٢)
ورأيت الدخان كالودع الأهـ جنيباً من وراء السـتر^(٣)
٥٨٤ : حاضر شرّكم ، وخيركم دز زخروس من الأرناب بكر^(٤)



* ترجمه الشاعر : هو عمرو بن قتيبة بن ذريح بن سعد بن مالك بن ضبيعة ، شاعر جاهلي عاصر امراً القيس وصاحبه ، ودخل معه بلاد الروم ، وفيها هلك ، فلقب بعمرو الضائع ، وهو الذي يقول عنه امرؤ القيس .

بكي صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
قلقت له لا تبك عينك إنما نحاول ملكاً او نموت فنعدرا
وقد توفي حوالى سنة ٥٣٠ م .

التفسير المفرد : (١) الأنامل : هكذا وردت ، ولعلها الأرامل . الطعم : الطعام . قلص در القحاح : ارتفع لبن الناقة الحلوب . الصنبر : البرد الشديد .
(٢) الإماء : جمع أمة الرقيقات . الجعنين : أصل الشجر الواحدة جعنة . البالي : القديم . عكوفاً : مستديرات حولها . القرارة : مائزق بأسفل القدر من مرق أو حطام تابل محترق ، أو سمن أو غيره .

(٣) الودع : حرز أبيض مشقوق كشق النواة . الأهجن : الأبيض . ينباع : ينثى ويتلوى .
(٤) الدر : اللبن . الخروس : النفساء ، والبكر أول ولادتها .

تحليل الأبيات :

ليس طعامى رديئاً دنيئاً كطعام الأرامل عند ما يقر البرد ، ويشد الصنبر ، وتتقلص اللقاح ، ويرتفع اللبن من الضروع ، وعند ما تبدو الإمام عظاماً لالحم فيهن ، فكأنهن جذوع الأشجار انقطعت من أصولها ، فنضب ماؤها ؛ وجف أصلها ، تبدو أولئك الإمام مستديرات حول القدور يستخلصن ما لزق بها ، ولصق بقاراتها وحافاتهن من حطام محترق ، أو تابل ملتصق ، وعند ما ترى الدخان أبيض قد زال أثر وقوده فكأنه ودع الأصداف يتثنى وراء الأستار .

إنكم قوم شركم حاضر ، وحيركم ذاهب ، مثلكم فى نضوب خيركم ، وجفاف مائكم كمثل لبن الأرنب النفساء البكر لما يدر لبنها ، ويمتلئ ضرعها .

التفرد :

الأبيات فى الفخر بالكرم ، وهجاء أعدائه ووصفهم بالبخل ، ولكنه انحرف إلى وصف البرد وأثره فى الكائنات فأحسن الوصف وأجاد التصوير . ولا سيما فى وصف استدارة الإمام حول القدور ، فهو تصوير واقعى دقيق ، وتصويره الدخان بالودع الأبيض يتثنى ويتلوى تصوير جميل .



٥ — وقال النابغة الذبياني * يصف الفرات :

فَما الفراتُ إذا هبَّ الرِّياحُ له تَرى أواذِيه العَبْرَينِ بالزَّبدِ^(١)
 يُمدُّهُ كُلُّ وادٍ مُتَرَعٍ لِحَبِّ فيه رُكَّامٌ مِنَ اليَنْبُوتِ وَالْخَضِ^(٢)
 يَظُلُّ مِنَ خَوْفِهِ المِلاحُ مُعْتَصِماً بالخِيزُرَانَةِ بَعْدَ الأَينِ والنَّجْدِ^(٣)
 ٥٨٨ : يَوْمًا بِأَجُودَ مِنْهُ سَيْبَ نَافِلَةٍ وَلَا يَحُولُ عَطَاءُ اليَوْمِ دُونَ غَدِ^(٤)



* ترجمته الشاعر : انظر ترجمته في وصف الأوابد ص ١٥٤

التفسير اللغوي (١) الأوادي . الأمواج للفرد آذى . العبران : الشاطئان .
 الزبد : رغاوى الماء .
 (٢) يمدّه : يزيد في مائه . المترع : الممتلئ . اللجب : دى الصوت : الركام : الحطام
 التكاثف المتراكم . اليبوت : شجر الخشخاش واحده ينبوتة . الخضد : ما خضد وتكسر .
 (٣) يظل : يستمر طول يومه . الملاح : صاحب السفينة . معتصماً : ممتنعاً . الخيزرانة .
 السكان ، وهو دفة السفينة ، ويروى الحيسفوجة ، وهو الشراع . الأين : التعب والإعياء .
 النجد : العرق والكرب .
 (٤) بأجود منه : بأكثر منه عطاء . السيب : العطاء . النافلة : الزيادة .
 لا يحول : لا يمنع .

تحليل الأبيات :

ليس نهر الفرات ، وقد هبت عليه الرياح العواصف ، فثارت أمواجه ، وتراعى آذيه
على شاطئه بالزبد ، تمدد الوديان المترعة ، اللجة بالماء الغزير ، يتناثر فيه الحطام ،
ويتجمع من الينبوت والخصد الركام ، فيخشاه الملاح ، ويخافه النوى ، فيتيه بسكان
سفينه ، ويعتصم منه بدفة مركبه بعد أن بلغ منه الأين والإعياء كل مبلغ ، ونال منه
الكرب والشدة كل منال ، ليس الفرات وتلك حاله ، وهذا وصفه عند مايفيض فيروى ،
ويطمو فيغنى ، بأجود منك يدا ، ولا بأكثر منك مدا ؛ إذ الفرات لايفيض فى كل آن ،
وفيضك لايمحد بزمان .

النقد :

جاء وصف الفرات عرضا حين أراد النابغة أن يصف النعمان بالكرم والسخاء ،
فصور فيضان الفرات حينما تهب عليه الريح ، وتتلاطم الأمواج ، ويضطخب الآذى ،
وصور مده ، وما يحمله معه من حطام وركام ، كل ذلك فى أسلوب قوى قوة الماء حين
يشور ، والنهر عند مايفيض ، وقد اصطفى الألفاظ التى لاينوب عنها غير هافى معانيها . فالآذى ،
والمبرين ، والزبد واللجب ، والركام والينبوت كلها ألفاظ تشعرك بالروعة والقوة ، وبالغ
كما كان ذلك شأنه ، فلم نشعر إلا أنه صادق فيما روى ، وهذا خير ما يرجى من شاعر .

وصف الآثار الإنسانية

(١) وصف السفينة

١ — قال طرفه* في وصف السفينة من معلقته:

كَأَنَّ حُدُوجَ الْمَالِكِيَّةِ غَدَوَةٌ خَلَايَا سَفِينٍ بِالنَّوَاصِفِ مِنْ دَدٍ^(١)
عَدُولِيَّةٌ أَوْ زَيْنَ سَفِينِ ابْنِ يَامِنْ يَجُورُ بِهَا الْمَلَّاحُ طَوْرًا وَيَهْتَدِي^(٢)
٥٩١ : يَشُقُّ حَبَابَ الْمَاءِ حَيْزُومَهَا بِهَا كَمَا قَسَمَ التُّرْبَ الْمَفَايِلُ بِالْيَدِ^(٣)

* ترجمه الشاعر : اقرأ الترجمة في صفحة ٦١ .

التفسير اللغوي : (١) حدوج : جمع حدج وهو المركب من مراكب النساء . غدوة . صباحا . خلايا : جمع خلية ، وهي قرارة السفينة ، من خلية النحل ، وهي موضع غسلها ، أو هي السفينة العظيمة ، أو السفينة التي تسير بدون ملاح . النواصف : جمع ناصفة : وهي الرحبة الواسعة تكون في الوادي . دد : اسم موضع .

(٢) عدولية : وصف لموصوف محذوف هو سفينة ، وعدولية نسبة إلى عدولي إحدى جزائر البحر الفارسي ، وقيل إنها نسبة إلى قوم كانوا ينزلون بهجر . ابن يامن : ملاح من أهل هجر . يجور : يميل . يهتدي : يعضى للقصد .

(٣) حباب الماء : طرائفه وأمواجه . الحيزوم : الصدر كالقيدوم . المفايل : الذي يلعب لعبة القفال ، وهي تراب أو رمل يكومونه ، ثم يخبثون فيه خبيثاً ، ثم يشق المفايل تلك الكومة بيده ، فيقسمها قسمين ، ثم يقول : في أي الجانبين خبأت ، فإن أصاب ظفر ، وإن أخطأ قر .

تحليل الأبيات :

كأن مراكب تلك الخليفة الحسبية المنسوبة إلى بنى مالك - وهي تظعن صباحا في عظمتها
وضخامتها تقطع ذلك الوادى الواسع من دد - سفائن عظيمة ، كأنها سفينة عدولية أو من
سفن ذلك الملاح الماهر ابن يامن ، فهي في مسيرها تميل إلى الشاطئين حيناً ، وتهتدى
في مسيرها ، فتستقيم ولا تنحرف يمنة ولا يسرة حيناً .
هذا الملاح الماهر يشق بصدرها طرائق الماء ، ويقطع أمواجه ، كما يقسم لاعب الفيل
الرمل براحته .

النقد :

تشبيه هوداج النساء بالسفن تشبيه دقيق ، فلهو هوداج كما للسفن قرارات و بطون يجلس
فيها السفر ، والهوداج في امتدادها تشبه السفن في تتابعها ، والوادى الواسع تسير فيه مراكب
النساء أشبه ما يكون بالبحر ، وانصرف عن حدود المالكية إلى وصف السفينة العدولية ،
فقال : إن ملاحها يميل بها ويقصد على حسب الريح ، وهو حيماً يقصد في مشيه فيشق
حيزومها الماء يشبه المفاليل عند ما يقسم الرمل ، وقد قال القدماء إن هذا التشبيه من أروع
ما تخيله شاعر .



٢- وقال عنقرة* يصف الروضة من معلقته :

أُورَوْضَةٌ أَنْفَا تَضْمَنَنَّ نَبْتَهَا غَيْثٌ قَلِيلُ الدِّمَنِ لَيْسَ بِمُعْلَمٍ^(١)
جَادَتْ عَلَيْهِ كُلُّ بَكْرٍ حُرَّةٍ فَتَرَكْنَ كُلَّ قَرَارَةٍ كَالدَّرَمِ^(٢)
سَحَّاءُ وَتَسْكَابُ فَكُلُّ عَشِيَةٍ يَجْرِي عَلَيْهَا الْمَاءُ لَمْ يَتَصَرَّمِ^(٣)
وَحَلَا الذُّبَابُ بِهَا فَلَيْسَ بِيَارِحٍ غَرَدَا كَفَعَلِ الشَّارِبِ الْمُتَرَنِّمِ^(٤)
هَزَجًا يَحْكُ ذَرَاءَهُ بِذِرَاعِهِ قَدَحَ الْمُسْكَبِ عَلَى الرَّنَادِ الْأَجْذَمِ^(٥) : ٥٩٦



* ترجمه الشاعر : اقرأ الترجمة في ص ١٢٢ .

التفسير اللغوي : (١) الروضة في الأصل : المكان المظنن يجتمع إليه الماء فيكثر نبتة .
الأنف : التام من كل شيء ، وقيل هو أول كل شيء ، وروضة أنف لم يرعها أحد . الدمن :
جمع دمنة السرجين ، وقيل معناه قليل اللبث لم يدمن عليها . ليس بمعلم : ليس بمعروف .
(٢) جادت : سحت . البكر : من السحاب الذي لم يطر . الحرة : الخالصة ، وقيل الكثيرة
للطر ، وفي رواية عين ثرة ، والثرة : الكثيرة الماء . القرارة : الموضع المظنن من الأرض
يجتمع فيه السيل .

(٣) السح : الصب والانسحاب ، والتسكاب : السكب . لم يتصرم : لم يقطع .

(٤) غردا : مغردا . الشارب : السكران : المترنم : المتغنى .

(٥) هزجا : مصوتا تصويتا مسرعا . المسكب : القبيل على الأمر . الأجزم : المقطوع اليد .

تحليل الأبيات :

وصف عنقرة في بيت يسبق هذه الأبيات رائحة ثغر عبلة بأنه :

٥٩٧: وكان فارة تاجر بقسيمة سبقت عوارضها إليك من الفم
أو أن رائحته كرائحة روضة تامة النبات ، موفورة الأزهار ، تسقى سقيا خفيفا ، فلا يضر
الماء الدائم نباتها ، ولا ينال من جمالها ، ولا يقطف الزوار الكثيرون أزهارها ، فعبيرها
محبوس عليها ، وزهرها يفوح في جنباتها .

جاءت على هذا الموضع سحب بكر كثيرة الغيث ، سخية بالماء ، فتركت تلك السحب
المطمئن من أرض ذلك المكان مفعما بالماء ، فإذا به في استدارته ولمعانه كالدرهم ، وكأني
بالشاعر رجع يصف الروضة قبل أن ينجم نباتها ، فوصف الموضع بأن الماء فاض عليه ؛
حتى اشتعلت أرضه نباتا .

ينصب المطر عليه انصبابا ، وينسكب الغيث في جميع نواحيه انسكابا ، ففي كل
العشايا يقد عليه المزن ، فيجري بين جنباته ، ويفيض على حواشيه وطرقاته ، فيهب لنبته
النمو والزكاة .

وحينا نضرت أزهاره ، وينعت أثماره خلا الذباب بتلك الروضة ، فهو يفردها فيها
تغريدا مستمرا ، مثله في تغريده وترنمه كمثل الشارب المثل قد أفاضت عليه النشوة السرور
والمرح ، فأخذ في الغناء والتنغيم ، لا يقفه عن الغناء سبب ، ولا يمنعه من الترنم مانع .
ذلك الذباب يغني غناء متتابعا ، ويفرد تغريدا مستمرا ؛ فهو يحك ذراعا بذراع ؛
ويقدح جناحا بجناح ؛ مثله في قدحه كمثل رجل ناقص اليد يقدح النار من الزندين .

النقد :

هذه الأبيات في وصف الروضة وذبابها من أروع ما نظم شاعر جاهلي فوصفه قرارة
الماء بالدرهم تصوير رائع جميل ؛ ووصفه الذباب في تغريده تصوير رائع جميل كذلك ؛
ولقد حكم له زعماء الأدب القديم بأنه أجاد في تصويره كل الإجابة . ولولا الفصل بين
الموصوف والصفة في البيت الأخير لكانت الأبيات آية الجمال

٣ — وقال الأعشى * يصف روضة من معلقته:

ماروضة من رياض الحزن معشبة^(١) خضراء جاد عليها مسبل^(٢) هطل^(٣)
يضاحك الشمس منها كوكب مشرق^(٢) مؤزر^(٢) بهميم النبت مكتهل^(٢)
٦٠٠ : يوما بأطيب منها نشر رائحة^(٣) ولا بأحسن منها إذ دنا الأصل^(٣)

تحليل الأبيات :

ضمن الأعشى غزله وصف الروضة فعبره عبدا كما فعل عنبرة قبله ، فإنه ليصف محبوبته
هريرة بطيب النشر ، فيقول :

٦٠١ : إذا تقوم يضع المسك أصورة والزنيق الورد من أردانها شمل
إذ يرى أن الروضة دونها نشرا ، وأقل منها عطرا ، فيقول :

ليست روضة مثفاف من رياض الحزن والربا قد أعشبت فنضرت ، واخضرت
فأزهرت ، بما جاد عليها المطر الهطل ، والغيث المنسكب ، فزهرها المبتسم ، ونورها الريان
المتفتح يصاحك الشمس وتضاحكه ، يبدو لها في ثوب ضاف من النبت ، وإزار سابغ
من الزرع . ليست روضة هذا شأنها بأطيب من محبوبته نشرأ ، ولا بأحسن منها
ساعات الأصيل عطرا .

الفرد :

الأعشى في وصفه الروضة أكثر دقة من عنبرة ، ويظهر أن حياته أكسبته معارف
أوسع ، فعرف أن رياض الحزن أنضر من رياض الخفض ، وأن الزهر يفوح عبيره ويذكو
أريجيه في ساعات الأصيل عنه في غيرها من ساعات النهار لتباعد الشمس والفي عنه ،
كما أن تصوره الزهر يضاحك الشمس تصور يدل على حضارة ومدنية .

* ترجمه الشاعر : اقرأ الترجمة في ص ٢٦٠ .

التفسير اللغوي . (١) الحزن : الأرض المرتفعة . وضدها الخفض . معشبة : منبثة .
مسبل : منسكب . هطل : كثير الانسكاب .

(٢) الكوكب : نور الروضة . الشرق : الريان : مؤزر : مؤثر بالنبات .
مكتهل : متكامل .

(٣) النشر : الرائحة الطيبة . دنا : قرب . الأصل : جمع أصيل ، وهو من العصر إلى العشاء .

(ح) وصف الخمر وسقاتها وندمانها

١ — قال الأعشى * يصف المنادمة :

وأبيضَ مُختلطٍ بالكِرا مـ لا يَنْغَطِي لِإِنْفَادِهَا^(١)
أَتَانِي يُؤَامِرُنِي فِي الشُّمُو لـ لَيْلًا ، قُلْتُ لَهُ : غَادِهَا^(٢)
فَرُحْنَا نَبَا كَرُّ جَدِّ الصُّبُو حـ قَبْلَ الْفَنُوسِ وَحُسَّادِهَا^(٣)
فَقَمْنَا وَلَمَّا يَصْحُ دَيْكُنَا إِلَى جَوْنَةٍ عِنْدَ حَدَّادِهَا^(٤)
تَنْخُلُهَا مِنْ بَكَارِ الْقَطَا فـ أَزْرِقُ آمَنُ أَكْسَادِهَا^(٥)
فَقُلْنَا لَهُ : هَذِهِ هَاتِهَا بِأَدْمَاءٍ فِي حَبْلِ مُقْتَادِهَا^(٦)
فَقَامَ ، فَصَبَّ لَنَا قَهْوَةً تَسْكُنُنَا بَعْدَ إِرْعَادِهَا^(٧)
كَمَيْتًا تَكْشِفُ عَنْ حَمْرَةٍ إِذَا صَرَّحَتْ بَعْدَ إِزْبَادِهَا^(٨) : ٦٠٩

* ترجم الشاعر : أقرأ ترجمته في ص ٢٦٠ .

التفسير اللغوي : (١) مختلط بالكرا : مصادق لهم . لا يغطي : لا يتساكر . لإنفادها : لإنهاؤها .
(٢) يؤامرني : يشاورني . الشمول : الخمر الباردة . غادها : باكرها .
(٣) الصبوح : الخمر تشرب صباحاً ، وضدها الغبوق .
(٤) لما : لم . ديكنا . أى ديك الفجر الذى يؤذن بالصبح . الجونة : الحايية المطلوبة
توضع فيها الخمر . حدادها : سعى الخمار حدادا لمنع الخمر وحفظه إياها وإمساكها لها حتى يينزل
له ثمنها الذى يرضيه ، وفى بعض الكتب جدادها بالجيم ، قال الأزهري : هذا حق التصحيف
الذى يستحي من مثله من ضعف معرفته ، فكيف بمن يدعى للمعرفة الثاقبة ، وصوابه بالحاء .
(٥) تنخلها : تخيرها . بكار القطاف : مباكرة القطف والجنى . أزرق : تصغير أزرق
وهو صاحبها ، ويكنى به الرومى لأنه أزرق العينين ... أكسادها : بوارها .
(٦) بأدماء : بناقة يخالط يياضها سمره . مقتادها : صاحب قيادها .
(٧) قهوة : خمرة . تسكننا : تهدئنا . إرعادها : يقصد إزبادها وفورانها .
(٨) كيتا : خمرة يغطي حرمتها سواد . صرحت : صفت . إزبادها : فورانها وانتشار
الحب فوقها .

فَجَالَ عَلَيْنَا بِأَبْرِيْقِهِ مُخَضَّبٌ كَفٍ بِفِرْصَادِهَا^(٩)
 فَرُحْنَا تَنَعُّمًا نَشْوَةً تَخَوَّرُ بِنَا بَعْدَ قَصَادِهَا^(١٠)
 فَقَالَ: تَزِيدُونَنِي تِسْعَةً وَلَيْسَتْ بِعَدْلٍ لِأَنْدَادِهَا^(١١)
 فَقُلْتُ لِمُنْصَفِنَا: أَعْطِهِ فَلَمَّا رَأَى حِرْصَ شُهَادِهَا^(١٢)
 أَضَاءَ مِظْلَتَهُ بِالسَّارَا جِ، وَاللَّيْلُ غَامِرٌ جُدَادِهَا^(١٣)
 دَرَاهِمُنَا كُلُّهَا جِيْدٌ فَلَا تَحْبِسْنَا بِنَقَادِهَا^(١٤)
 فَبَاتَتْ رَكَابٌ بِأَكْوَارِهَا لَدَيْنَا، وَخَيْلٌ بِالْبَادِهَا^(١٥) :٦١٦

-
- (٩) فجال : فطاف . مخضب كف : مصبوغ الكف بخضاب الحناء . بفرصادها : بصيغها الأحمر ، ويطلق على التوت الأحمر ، وهو شديد التأثير فيما يمسح به .
- (١٠) تنعمنا : تبعث فينا الشعور بالنعماء . نشوة : أول السكر . تخور بنا : تذهب بقوانا .
- (١١) تسعة : أي تسعة أباريق . بعدل : بمعادلة . لأندادها : انظرأها .
- (١٢) لمنصفنا : لساقينا وخادمنا .
- (١٣) المظلة : الحيمة . غامر : مغط وشامل . الجداد : الأهداب .
- (١٤) تحبسنا : تؤخرنا في انتظار التقاد : التقاد النقد ، وتبين الجوهر السليم من البهرج الزيف .
- (١٥) ركاب : جمع رك الإبل . الأكوار : جمع كور القطيع منها أو أداتها . الألباد : جمع لبد وهو الحلس تحت السرج .

تحليل الأبيات :

كان الأعشى زعيم المدمنين ، فلا غرو أن يكون للخمر زعيم الوصافين ، ولقد تأثره من جاء بعده من الشعراء في جميع العصور : العصر الجاهلي والأموي والعباسي ، وأبياته هذه قصة شرب كاملة ، فهذا صديقه المشرق الوجه ، النبيل الأصل ، المصادق للسكرام الذي لا يتساكر حتى إذا نفدت الخمرة ، قد أقبل يشاوره في الشراب ، ويؤامره على الراح ، أيعاقرها في المساء أم يعاقرها في الصباح ؟ فيشير عليه بأن يغاديرها ، وحينئذ يذهبان لمباكرة الصبح قبل أن يصحو النيام ، ويستيقظ العذال والحساد . قبل أن يصيح الديك مؤذنا بانفلاق الفجر وتنفس الصبح ، يذهبان إلى خابية مترعة يحفظها من الشرب راع أمين ، وخمار حريص ، فهو لا يقدمها إلا لمن يثق من وفائه ، ويطمئن إلى سرائه وثرائه ، ومن حقه أن يفعل هذا فقد تحير كرمها ، واصطفى قطفها رجل رومي خير بصناعته ، فهو آمن كسادها ، مطمئن إلى سرعة نقادها .

قللنا له : هات كئوسك ، وأترع أباريقك ، ثمنا تلك الناقة الأدماء يسوقها لك راعيها إذا لم ترض ثمنها دراهم جيادا ، فقام إلى جونتته فصب لنا منها قهوة معتقة ، تهدي النفوس الثائرة ، وتسكن الأجسام المرعدة ، صب لنا خمرة كميتا تبدو حررتها عند ما تزول رغوتها ، ويتكشف صريحها عن زدها ، وأخذ يجول علينا بإبريقه ، ويطوف بكئوسه فتى مخضب الكف ، مصبوغ الراحة ، كأنما قد خضبها بالقرصاد ، فصرنا ننعيم بالنشوة ، ونهنا بأول السكره ، حتى خارت منا القوى ، وهمدت الأجسام بعد أن كثر في طلبها القاصدون ، ولكن ذلك الصديق لم تكن قواه قد خارت ، ولا جسمه قد همد ، فقال : تزيدوني تسعة أباريق وليست بمعادلة لمثيلاتها ، بل هي أعظم امتلاء ؛ وكأنه يخاطر ويراهن أنه أقدر الشرب على الشراب ، فراهناء على احتسائها ، وقلت لساقينا : أعطه إياها ، وحين رأى حرص الشاهدين على هزيمته أضاء خيمته ، وأشعل سراجيه ، فقد أقبل الليل شاملا السكون بظلامه ، مغطيا الدنيا بستاره ، قللنا للخمار هاك دراهمك ، وكلها جيد ، فلا تحبسنا حتى تنقدها فسا بها من زيف ، وما فيها من بهرج ، فباتت ركابنا من فوقها أكوارها ، وأمست خيولنا تملوها ألبادها ، قد شغلنا الشراب النهار ووهنا من الليل.

النقر :

هذه قصة شراب لا يستطيع ترتيب فصولها ، وتنسيق مناظرها إلا رجل عاقر الخمر ،
وعشق الشراب ، فهو القدير على تأليف المناظر ، وتنظيم المشاهد ، فصديقه يؤامره
في الشمول ، فيشير عليه بأن يشربها صبوحة ، ويرسم لك بعدئذ يوما كاملا للمدمنين ،
فيحسن رسمه ، ويجيد الحوار ، ويصور لك أحاديث النشأوى ، حينما تتحكم فيهم الراح :

فقال تزيدوننى سمعة وليست بعدل لأندادها

فقلت لمنصفنا : أعطه فلما رأى حرص شهادها

أضاء مظلمته بالسراج والليل غامر جدادها

لقد ذهبت السكره ، وجاءت العكرة ، فحسبه ما احتسى ، وكافيه ما استقى ؛ والأبيات مفعمة
بالمعاني ، مترعة بالصور ، زاخرة بالجمال ، جمال الأسلوب ، وجمال النغم ، وجمال القافية ،
فأى صورة يستطيع أن يصورها فنان قدير أصدق من تصوير الأعشى الخمر إذ يحتسيها
المحتسى فتخور قواه بعد أن يعلوها الزبد ، وذلك في قوله :

فقام فصب لنا قهوة تسكننا بعد إرعادها

كميتا تكشف عن خمة إذا صرحت بعد إزبادها

وأى جمال فى الطباق أوضح من « تسكننا بعد إرعادها » ؟

وأليس يروق القارى ذلك الوزن الراقص الذى اختاره الشاعر لخمرته ؟ .

ولا غرو فناظمها هو صناجة العرب ، وزعيم المدمنين .

٢ — وقال عمرو بن كلثوم * في مطلع معلقته:

أَلَا هُبِّي بِصَحْنِكَ فَاصْبَحِينَا وَلَا تُبْقِي خَوَرَ الْأَنْدَرِينَا^(١)
مُسْعِشَةً كَأَنَّ الْحُصْنَ فِيهَا إِذَا مَا الْمَاءُ خَالَطَهَا سَخِينَا^(٢)
تَجَوَّرُ بِذِي اللَّبَانَةِ عَنْ هَوَاهُ إِذَا مَا ذَاتُهَا حَتَّى يَلِينَا^(٣)
٦٢٠ : تَرَى اللَّحْزَ الشَّحِيحَ إِذَا أُمِرْتَ عَلَيْهِ لِمَالِهِ فِيهَا مُهِينَا^(٤)

* ترجمته الشاعر: هو أبو عباد عمرو بن كلثوم بن عمرو بن مالك بن عتاب التغلبي، كان أبوه من سادات قومه، فتزوج ليلي بنت مهامل بن ربيعة، فولدت له عمرا، فهو شريف من ناحيته، فشب عمرو مزهوا بنفسه، محتالا بقومه؛ حتى قيل إنه سادهم وسنه خمس عشرة سنة، ولا يعرف الأدب له من الشعر غير هذه القصيدة إلا أبياتا قليلة ولكنه عد بها من فحول الشعراء توفي حوالي سنة ٥٧٠ م.

التفسير اللغوي: (١) هبي: استيقظي. بصحنك: بقدحك الكبير. اصبحينا: اسقينا الصبوح، وهو شراب الصباح. الأندرين: قرية في جنوبي حلب على مسيرة يوم للراكب. (٢) مسعشة: ممزوجة، يقال شعشع الشراب إذا مزجه بالماء. الحص: بنت له زهر أحمريمل إلى الصفرة يشبه الزعفران. سخينا: حال من الماء أي حارا، وهناك من يرى أن سخينا فعل وفاعل بمعنى جدنا، والأول أولى لوجهين الأول أن أندرين كانت للروم حينئذ ومن عادتهم أن يشربوا الخمر ممزوجة بالماء السخين، والآخر أنها فعلا وفاعلا تعيب الشعر بالسناد، وهو اختلاف الحركة قبل الروي.

(٣) تجور: تميل. بذى اللبانة: بصاحب الحاجة. عن هواه: عن حاجته ولبائته.

(٤) اللحز: الضيق الصدر السيء الخلق. الشحيح: البخيل. أمرت: أديرت.

مهينا: محقرا.

تحليل الأبيات :

ألا استيقظي أيتها الساقية من غفوتك ، واصحي من سنتك ، فأديري علينا الراح ،
وطوفي بالصبوح ، ولا تدخري من خمر أندرين كأسا ، ولا تبقي من قهوتها صحنا ، أديريها
علينا مشعشة ممزوجة ، فكأنها إذا ما مزجت بالماء السخين قد خلطت بالزعفران ،
فهي حمراء صفراء ، هذه الخمر تنسى صاحب اللبانات لبانته ، وتصرف ذا المهام عن مهامه ،
فهو ينصرف عند ما يذوقها إليها ، ولا يفكر فيما سواها .

وهي القديرة على تغيير الشئ ، وتبديل الطبايع ، فتجعل الرجل الضيق الصدر ،
السيء الخلق سمحا وديعا ، سهلا لنا ، وتصير من الرجل الكز الشحيح ، الضنين البخيل ،
سخيا كريما ، لا يبقى على مال ، فإذا أديرت عليه كثوسها أسرف في إنفاق دراهمه
ودنانيره ، ولم يبق لها وزنا ، ولا عرف لها صونا .

النقد :

عمرو بن كلثوم هو الشاعر الأوحى الذى افتتح معلقته بوصف الخمر ، وخالف بذلك
سنة الشعراء فى عصره ، ولعله فيما صنع كان متأثرا بها ، مشغوبا بشرايها ، ومن الأدباء من
يرى أن خلطا أصاب نظم القصيدة ، فقدم متأخرا ، وآخر متقدما ، ويزعم أن مفتتح
القصيدة هو :

٦٢١ : قفى قبل التفرق ياظعينا نخبرك اليقين وتخبرينا

وأيا كان الأمر فقد عمرو الخمر فى إيجاز وصفا بارعا فى بيته :

مشعشة كأن الحص فيها إذا ما الماء خالطها سخينا

ووصف أثرها فى النفوس ، وفعلها فى الندامى وصفا لانهاية الجمال ، ولا غاية لحسن تصويره :

تجور بذى اللبانة عن هواه إذا مذاقها حتى يلينا

ترى اللحر الشحيح إذا أمرت عليه لماله فيها مهينا

وقد كشف لنا عن بعض عادات أهل الروم فى معاقرتهم الخمر ، وأنهم لا يشربونها شمولاً ،
بل يشربونها حارة كما ذكر ذلك أبو العلاء فى رسالة الفجران .

٣ - وقال علقمة الفحل * يصف مجلس شراب:

- قد أشهد الشرب فيهم مزهر رنم^(١) والقوم تصرعهم صهباء خرطوم^(٢)
 كأس عزيز من الأغاب عتقها^(٣) لبعض أحيائها حانية حوم^(٤)
 تشفى الصداع ولا يؤذيك صالبها^(٥) ولا يخالطها في الرأس تدويم^(٦)
 عانية قرقف لم تطلع سنة^(٧) يحنّها مدمج بالطين مختوم^(٨)
 ظلت ترقق في الناجود يصفقها^(٩) وليد أعجم بالسكتان مفدوم^(١٠)
 كأن إريقهم ظبي على شرف^(١١) مقدم بسبا السكتان مرثوم^(١٢)
 أبيض أبرزه للضح راقبه^(١٣) مقلد قصب الريحان مفغوم^(١٤)

* ترجمه الشاعر . انظر الترجمة في ص ٩٨ .

التفسير اللغوي : (١) الشرب : جماعة الشاربين . المزهر الرنم : العود المترنم

الصهباء : حمر من عصير العنب الأبيض . الخرطوم : أول ما ينزل منها صافية .

(٢) العزيز : الملك . عتقها : جعلها قديمة معتقة . حانية : قوم خمارون نسبوا إلى الحانة

الواحد حانى . الحوم : الطائفون حولها من حام يحوم كدار يدور وزنا ومعنى .

(٣) الصداع . وجع الرأس ، ومثله الصالب . التدويم : الدوران .

(٤) العانية : المنسوبة إلى عانة ، وهى إحدى قرى الجزيرة . القرقف : الحجر ترعد

الشارب . لم تطلع سنة : مكثت في خابيتها سنة دون أن يكشف عنها . يحنّها : يسترها . المدمج :
 الدن طين بالطين . مختوم . معلم عليه .

(٥) ترقق : تضطرب وتهتز . الناجود : الباطية العظيمة . يصفقها : ينقلها من ناجود

إلى ناجود . مفدوم : مغطى فمه عند السقى . وكان الأعاجم يغطون فم الساقى ، ومثلها مفدم .

(٦) شرف : مرتفع من الأرض . مقدم : مغطى فم الإبريق . بسبا السكتان : بسبائب

السكتان ، لحذف جزءا من الكلمة ، والسبائب الشقق . مرثوم : المكسور أنفه .

(٧) أبرزه : أخرجه لتصبيه الريح . الضح : الشمس . راقبه : مراقبه وحافظه . مقلد :

معلق . مفغوم : مسدود بالريحان .

تحليل الأبيات :

يفخر علقمة بالخر ويزهو بشربها ، فيقول : إنه قد يشهد جماعة الندامى ومجلس الشراب والغناء ؛ إذ تصرع القوم الصهباء ، وتستولى على عقولهم الراح ، فتدار علينا كأس العزيز ، قد عصرت عقارها من الأعناب ، وعتقها خارون ماهرون ، فهم يطوفون حولها ، كأنها معبودهم ، ويدورون على بواطيلها ، كأنهم يقدسونها ، هذه الخمر المعتقد تشفى الصداع ، وتزيل الدوار ، وإن يكن شأن الخمر غير ذلك ، فتأثيرها لنفاسها غير تأثير سواها ، وكيف لا يكون ذلك أثرها ؟ وهى المنسوبة إلى عانة ، وهى إن أرعدت الجسم فإنها ترن الرأس ، فقد بقيت فى دنها سنة كاملة ، لم يفضّ ختامها ، ولا رفع غطاؤها ، فهى مدججة بالطين ، تضطرب فى جوتها ، وتترقق فى ناجودها ، ينقلها من باطية إلى أخرى فتى أعجمى ، ووليد رومى برع فى صناعة الخمر ؛ لأنه يسقى الملوك ، فهو يسقيهم مغطى الفم ، حتى لا يشاركهم فى استنشاق عبيرها ، وهو أدب تأدب به فى قصور الأمراء والملوك ، إبريق أولئك الشرب يشبه فى بياضه وصفائه وطوله وامتداده ظلياً مستشرفاً من أعلى ، مغطى بشقق من السكتان ، وقد كسر أنف ذلك الظلي .

أبرز الوليد الإبريق الأبيض ليرى أشعة الشمس ، وتصيبه ريح الشمال ، وهو يراقبه ويحافظ عليه ، فله عنده الإكبار والإعزاز ، فهو كالمغطى بأغصان الريحان ، وذلك لطيب ريحه ، وأرج عبيره ، يفعم الأنوف برائحته العابقة .

النقد :

وصف علقمة الشرب وقد صرعتهم الصهباء فأحسن وصفهم ، كما أنه صور تفتيق الخمر فأحسن التصوير ، ونفى عن الخمر أبرز ما تعاب به وهو أنها تصدع الرأس ، وتذهب العقل ، ولكنه لم يوفق إلى دليل يقيمه على ذلك الأثر ، ثم إنه وصفها بأنها قرقف ، وهذه ترعد الجسم فوق أن اللفظ قبيح ثقيل ، ويظهر أن عانة كانت معروفة بالخر فى المصر الجاهلى إلى جانب بابل .

٤ — وقال الأسود بن يعفر النهشلي * يصفها ويصف ساقها وندمانها :

ولقد لهوت وللشباب لذاذة^(١) بسلافة مزجت بماء غوادي^(٢)
 من خمر ذي نطف أغن منطقي^(٣) وافي بها لدرام الإسجاد^(٤)
 يسعى بها ذو تومتين مشمر^(٥) قنأت أنامله من الفرصاد^(٦)
 والبيض تمشي كالبدور وكالدُمى ونواعم يمشين بالأرفاد^(٧)
 والبيض يرمين القلوب كأنها أدحى بين صريمة وجاد^(٨)
 ينطقن معروفا ، وهن نواعم^(٩) بيض الوجوه رقيقة الأكباد^(١٠) : ٦٣٤

* ترجمه الشاعر : هو الأسود بن يعفر بن عبد الأسود بن جندل بن نهشل ، أحد شعراء الجاهلية الفحول كان من ندماء النعمان بن المنذر ، قال عنه ابن سلام الجعفي : « كان يكثر التنقل في العرب يجاورهم فيدم ويحمد ، وله في ذلك أشعار ، وله واحدة طويلة رائعة لاحقة بأول الشعر لو كان شفعا يمثلها قدمناه على أهل مرتته ، وهو يريد القصيدة التي منها هذه الأبيات . نوفي حوالى سنة ٦٠٠ م .

التفسير اللغوي : (١) اللذاذة : اللذة . السلافة : خالص الشراب وأوله . الغوادي : جمع غادية السحب تنشأ غدوة .

(٢) النطف : الأقراط مفردتها نطفة . الأغنى : الذى يخرج صوته من خياشيمه . منطق : لابس المنطقة . وافي بها : أقبل بها . درام الإسجاد : درام الأكاسرة كانت عليها صور يكفرون لها ويسجدون .

(٣) التومتان : اللؤلؤتان . قنأت أنامله : اشتدت حمرة أنامله فضربت إلى السواد . الفرصاد : صبغ أحمر أو هو التوت الأحمر .

(٤) البيض وصف لموصوف محذوف يقصد الغايات . الدمى : جمع دمية التماثيل المصنوعة من الرخام ونحوه . الأرفاد : جمع رفد الأقداح العظيمة .

(٥) الأدحى : المكان تبيض فيه النعامة . الصريمة : القطعة من الرمل . الجاد : ما غلظ من الأرض وارتفع .

(٦) معروفا : قولنا لينا . رقيقة الأكباد : كناية عن حسن الخلق ولين الجانب .

تحليل الأبيات :

يصف الشاعر نفسه بأنه من أهل اللهو والمجون ، فكم قد لها ومجن ، واللهو شهوة ، وللمجون لذة ، ومن أدوات لهوه سلافة ممزوجة بماء النوادي ، وشمول مشعشة بابن السحاب يديرها فتى اتخذ من الحسن كساء ، ومن الجلال لباسا ، فأذناه مشنفتان بالنطف ، وصوته محلى بالغنة ، وخصره مزين بالمنطقة ، فهو يضم إلى جماله الطبيعي جميع أسباب الحسن والزينة ، أقبل هذا الفتى على جماعة أثرياء يدفعون ثمن الراح من دراهم الأكَسرة التي نقشت عليها صور آلهتهم ، وزينت برسم معبوداتهم .

يطوف ذلك الساقى على الندامى وقد زين بلؤلؤتين ثمينتين ، مشمرا عن ساعدين كأنهما صيفا من العاج أو سويا من البلور ، وكأن أنامله وقد صبغتها الخمر مخضبة بالفرصاد . يدع الفتى دونه لتلا منهُ الكؤوس قيان روائع يدرن كأنهن البدور جمالا ، والدمى قواما ، وفي أيديهن الأقذاح المترعة ، والكؤوس الفعمة يدرنها على الشرب ، فيرميهم بمحاجرهن ، ويصبنهم بعيونهن ، فيشققن قلوبهم ، فسكأنها وقد نقبتا هذه النظرات أداحى نعام بين صريم وجاد ، فهن ينطقن كلاما لينا ، ويسقن حديثا عذبا ، في نعومة ورقة ، إلى أنهن « بيض الوجوه رقيقة الأكباد » .

النقد :

أجاد الشاعر وصف الساقى والساقيات ، وأحسن تصوير مجلس الشراب ، وصوره تصويرا كاملا الأجزاء ، تام العناصر ؛ حتى إنه ليحجب إلى أولى الزهد والعبادة أن يشهدوا ذلك المجلس الذى يظهر فيه ذلك الساقى ذو التومتين و :

والبيض تمشى كالبدور وكالدمى ونواعم يمشى ————— ين بالأرفاد

والبيض يرمين القلوب كأنها أداحى بين صريمة وجاد

وأسلوب الشاعر رقيق عذب ، وكأنه اقتبس رفته من راحه ، وأخذ عذوبته من رحيقه ، لا بل من بيضه ونواعمه .

- ٥ — وقال عدى بن زيد * يصفها ويصف الساقية من قصيدة أولها :
- بَكَرَ الْعَاذِلُونَ فِي وَضَحِ الصَّبْحِ يَقُولُونَ لِي أَمَا تَسْتَفِيقُ؟^(١)
- وَدَعَوْا بِالصَّبُوحِ يَوْمًا ، خَافَتْ قَيْنَةً فِي يَمِينِهَا إِنْزِيقُ^(٢)
- فَدَمَّتْهُ عَلَى عُقَارٍ كَعَيْنِ الدَّيِّكِ صَفَى سُلَافَهَا الرَّأْوُوقُ^(٣)
- مُرَّةٌ قَبْلَ مَزَجِهَا ، فَإِذَا مَا مَزَجَتْ لَدَّا طَعْمَهَا مَن يَذُوقُ^(٤)
- وَطَفًا فَوْقَهَا فَقَاقِيعُ كَالِيَا قُوتٍ حَمْرُ ، يَزِينُهَا التَّصْفِيقُ^(٥)
- ٦٤٠ : ثُمَّ كَانَ الْمِزَاجُ مَاءً سَحَابٍ لَا صَدَى آجِنٌ وَلَا مَطْرُوقُ^(٦)

* ترجمه الشاعر : هو عدى بن زيد بن حماد بن زيد بن أيوب « وأيوب هذا أول من سمى بهذا الاسم من العرب » شاعر تميمي فصيح ، عاش أجداده بالحيرة وكان أبوه زيد أحذق العرب في الكتابة فتولاها لكسرى أنوشروان ، وتعلم عدى العربية والفارسية والكتابة بهما ، وبعد أن شب صار مقدما عند النعمان الثالث ، وندىماله ، ثم صار كاتباً في ديوان كسرى أنوشروان ، ورحل إلى الشام فأقام بدمشق زمناً ، ثم عاد إلى كسرى ، وخرج من عند كسرى إلى الحيرة ، فزوج هند بنت النعمان بن المنذر ، فبقيت زوجة له حتى قتلته النعمان ، فترهبت في دير عرف باسمها حتى ماتت ، وكان قتل النعمان لعدى حوالى سنة ٥٨٧ م .

- التفسير اللغوي : (١) بكر : قاموا بكرة . العاذلون : اللأعنون . تستفيق : تفيق من غيك .
- (٢) الصبوح : الحمر تشرب في الصباح . القينة : الجارية المغنية .
- (٣) قدمته : صفته بالفدام ؛ وهو مصفاة أو نحوها توضع فوق الإناء ليصفي ما فيه . العقار : الحمر . السلاف : خالص الشراب وأوله . الراووق : المصفاة .
- (٤) مزجها : خلطها بالماء . لدا طعمها : التذ بطعمها .
- (٥) طفا فوقها : علا فوقها . التصفيق : نقل الشراب من إناء لآخر ليصفو .
- (٦) صدى : متغير . آجن : راكد فاسد . مطروق : مباح للناس .

تحليل الأبيات :

بدأ عدى قصيدته بالغزل ، فذكر أن عاذليه بكرروا يعذلون على وجده ، ويلومونه على جواه ، ويدعونه إلى أن يستفيق من هواه ، وليس هؤلاء العاذلون من الحساد المبغضين ، ولكنهم من الندامى المحبين ، فما إن انتهوا من عذلم إياه في ابنة عبد الله حتى دعوا بالبحر ليصطبحوا ، فأقبلت ساقية فاتنة ، وقينة ساحرة في يمينها الإبريق مترعا بالمدام ، ممتلأينبت الحان ، فوقعه فدامه على عقار مصفى ، كمين الديك صفاء ولمعانا ، هي قبل أن نمزجها بآبن السحاب مرة ، فلما مزجناها به راقنا ذوقها ، ولذنا طعمها ، راقنا جميعا ، ولذنا طرا ، لا فرق بين حديث الشراب ومدمنه ، وإذا هي بعد أن مزجناها تطفو فوقها الفقاعات كالآلى ، ويعلوها الحب كالدرر ، هذه الفقاعات لها حمرة كحمرة الياقوت يزيد حسنها ، ويضاعف جمالها تنقلها بين الأكواب ، وتداولها في الأباريق والكؤوس .

ثم كان مزاجها ماء صافيا مسكوبا من المزن ، ومصبوبا من السحاب ، لا راكدا ولا فاسدا ، فهو غير متغير اللون أو الرائحة أو الطعم ، وليس كذلك مطروقا لكل وارد ، ولا مباحا لكل قاصد ، فيعكره كثرة الواردين ، ويغيره تعدد القاصدين .

النقد :

عدى بن زيد أرق شعراء العصر الجاهلي ؛ لأنه عاش عيشة حضرية ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول : « من بداحفا » .
وعدى في هذه القصيدة أرق من الشعراء العباسيين ، تبدو رفته في أسلوبه ، وفي ألفاظه ، وتبدو الرقة في كثرة تداول الحرف الذي اختاره قافية لقصيدته وهو القاف ، فانظر إلى هذا البيت :

فدمته على عقار كمين الديك صفى سلافها الراوق

وقد أخذ بعض معانيه كثير من شعراء البحر كالأخطل وأبي نواس وشوقي ، وأخذهم إياها دليل إعجابهم بها .

نظرة في وصف الخمر ومجالسها

كانت الخمر في العصر الجاهلي من مظاهر السراء والثراء ومن دلائل المروءة والنبالة ، ومن أسباب العزة والفتوة ، فأقبل عليها كل من يريد أن يتسامع الناس عنه أنه سرى ثرى ، كريم نبيل ، ولم ينحرف عن معاقبتها إلا قلة ضئيلة رأت فيها غير ما يراه الآخرون ، ولعل أولئك الذين انحرفوا عنها قد شاركوا الآخرين في وصفها ، وأسهموا معهم في نعتها .

وها قد عرضنا خمسة نماذج لوصفها ، وهى وإن تكن قليلة إلا أنها تشعرنا باحتفالهم لها ، واحتفاؤهم بها ، وجميعهم من ذوى المراكز الخطيرة فى الجزيرة العربية سواء كان خطرهم ذاك مؤثلاً أو مستحدثاً ، وقد تفرعت بينهم أساليب الوصف ، فهذا الأعشى يصور لنا مجلساً تبارى فيه الشرب ، فى حوار ممتع ، ونجوى رائعة . وفى تصوير بارع ، وتلوين دقيق ، من مثل قوله :

فقام فصب لنا قهوة تسكننا بعد إرعادها

كميتا تكشف عن حمرة إذا صرحت بعد إزادها

وهذا عمرو بن كلثوم يتحدث عنها حديث الأشراف النبلاء ، فلا يصف أثرها فى الجسم ، أو فعلها فى الرأس ، وإنما يصف أثرها فى الأخلاق ، وفعلها فى الخلال ، فهى :

تجور بذى اللبانة عن هواه إذا مذاقها حتى يلينا

ترى اللعز الصحيح إذا أمرت عليه لماله فيها مهينا

أما علقمة الفحل فيصف مجلس الشراب تدار فيه الراح على نغمت المزهر الرنم ، « والقوم تصرعهم صهباء خرطوم » وينسب الكأس إلى أنها « كأس عزيز من الأعناب عتقها » ويصف الإبريق ويصوره تصويراً غير واضح فهو كالظبي المستشرف ، وقد وضخنا وجه الشبه فى التحليل على النحو الذى ارتضيناه ، وعلى أى فالخمر معتقة قد :

ظلت تفرق فى الناجود يصفقها وليد أعجم بالكتان مفدوم

كان إبريقهم ظبي على شرف مفدم بسبا الكتان مرثوم

وإذا كان للناقد ما يأخذه على علقمة فهو صلابة لفظه ، وجزالة كلمه التي لا تلائم الخمر
الرفيقة السلسة ، ونعتها بما لم يعهد فيها ؛ إذ لم يعرف إلا المدمنون — إن كانوا — أن الخمر
تشفى الصداع ، « ولا يخالطها في الرأس تدويم » .

أما الأسود بن يعفر فقد انصرف عن الحديث في الخمر إلى الحديث عن سقاتها ، فأبدع
في وصفهم ، وأجاد في تصويرهم ، فيقول :

والبيض تمشى كالبدور وكالدمى وبواعم يمشى بالأرفاد

والبيض يرمين القلوب كأنها أدحى بين صريمة وجناد

ينطقن معروفًا وهن نواعم يبيض الوجوه رقيقة الأكباد

أى تصوير للجمال أوضح من ذلك التصوير ؟

أما عدى بن زيد فقد وصف الخمر بالصفاء ، فالساقية قد صفت الخمر بالقدم فقال :

فدمته على عقار كعين الديك صفى سلافها الراووق

ولعل قائلًا أن يقول : ما العقار وما السلاف ؟ فنقول : إن العقار غير السلاف في المعنى

الدقيق ، فقد سميت الخمر عقارًا لأنها عاقرت الدن ، أما السلاف فالخمر لأول عهدا ، وهنا

تبدو دقة عدى في استعمال الألفاظ . وكأني بشوق بك قد نظر إلى قول عدى :

وطفا فوقها فقاقيع كاليا قوت حمير يزينا التصفيق

فتدرك ما فيه من نقص ؛ إذ قال :

حرف كأسها الحب فهى فضة ذهب

فالفاقيع لا تكون كالياقوت ، وأحسب أن قوله « حمير » هذه حشو فالياقوت لا يكون

إلا أحمر ، فأما صدى في قوله : « لا صدى آجن ولا مطروق » : فلم نثر لها على معنى

صريح يلائم البيت ، فعانى الصدى الصريح لا يؤدى المعنى المراد ، ففسرناها بتابعه ،

وعلى كل فعلى من زعماء وصف الخمر ، وأسلوبه آية الرقة والسلاسة ، ولعل حياته

في فارس والحيرة والشام منحه من المعاني ما لم يمنحه شاعر سواه .

(د) وصف الأسلحة

١ — قال أوس بن حجر* من قصيدة أولها :

صَحَا قَلْبُهُ عَنْ سَكْرَةٍ وَتَأَمَّلَا وَكَانَ بِذِكْرِي أُمُّ عَمْرٍو مُوَكَّلَا^(١)

وَإِنِّي أَمْرُؤٌ أَعْدَدْتُ لِلْحَرْبِ بَعْدَمَا رَأَيْتُ لَهَا نَابًا مِنَ الشَّرِّ أَغْصَلَا^(٢)

أَصَمَّ رُدَيْنِيًّا كَانَ كُـمُوبَهُ نَوَى الْقَسْبِ عَرَّاصًا مَزْجًا مُنْصَلَا^(٣)

عَلَيْهِ كَصَبَاحِ الْعَزِيزِ يَشُبُّهُ لِفِصْحٍ وَيَحْشُوهُ الذُّبَالُ الْمُفْتَلَا^(٤)

وَأَمْلَسَ حَوْلِيًّا كَنَهْيٍ ، قَرَارُهُ أَحْسَنَ بَقَاعٍ نَفَحَ رِيحٌ فَأَجْفَلَا^(٥)

كَانَ قُرُونُ الشَّمْسِ عِنْدَ ارْتِفَاعِهَا وَقَدْ صَادَفَتْ طُلُعًا مِنَ النُّجُومِ أَغْزَلَا^(٦) : ٦٤٦

* **ترجمته الشاعر :** هو أوس بن حجر بن أسيد بن عمرو بن تميم ، كان شاعر مضر حتى أسقطته النابغة وزهير ، واستقرت له شاعرية تميم ، ومن النقاد من يقدم عليه عدى بن زيد ولسنا على رأيهم . توفي سنة ٦١٠ م .

التفسير اللغوي : (١) تأمل : تدبر . بذكرى : بذكر . أم عمرو : خليلته . موكلا : مشغولا . (٢) أعددت : جهزت . أعصل : ملتويا معوجا .

(٣) أصم : صلباً متيناً . ردينيا : منسوباً إلى ردينة المعروفة بتثقيف الرماح مع زوجها سمهر . القسب : الثمر اليابس . عراصا : كثير اللعان . مزجا : موضوعاً له الزوج . منصلا : مركباً له النصل . والزوج : الحديدية في أسفل الرمح ، والنصل الحديدية في أعلاه .

(٤) العزيز : الملك . يشبه : يشعله . لفصح : بكسر الفاء من أعياد النصاري ، وبالفتح الصبح ، والأول هو المراد . الذبال : فتيل السراج . المقتل : المقتول فتلا محكما .

(٥) أملس حولياً : درعا ملساء قد مضى على نسجها حول ، والدرع تؤنث وتذكر النهى : الغدير . القرار : القمر . بقاع : بأرض سهلة مطمئنة . فأجفل : غفأ وفزع .

(٦) قرون الشمس : أشعتها ، وقرن الشمس أول ما يبدو منها عند شروقها . الطلع المكان المشرف . النجم : النبات الصغير . أغزل : منفردا .

- تَرَدَّدَ فِيهِ ضَوْءُهَا وَشُعَائُهَا فَأَخْصَنَ وَأَزَيْنَ لِأَمْرِي إِنْ تَسَرَّ بَلَا! (٧)
 وَأَيُّضَ هِنْدِيًّا كَانَ غِرَارُهُ تَلَالُؤُ بَرْقٍ فِي حَيٍّ تَكَلَّلًا (٨)
 إِذَا سُلُّ مِنْ غَمْدٍ تَأْكُلُ أَثْرُهُ عَلَى مِثْلِ مِصْحَاةِ اللَّجَيْنِ تَأْكُلًا (٩)
 كَانَ مَدَبَ النَّمْلِ يَتَّبِعُ الرُّبَا وَمَدْرَجَ ذَرٍّ خَافَ بَرْدًا فَأَسْهَلَ (١٠)
 عَلَى صَفْحَتَيْهِ مِنْ مُتُونٍ جَلَّاهُ كَفَى بِالَّذِي أُبْلِيَ وَأَنْتَ مُنْصَلًا (١١)
 وَمَبْضُوعَةٍ مِنْ رَأْسٍ فَرَعٍ شَظِيَّةٍ بِطَوْدٍ تَرَاهُ بِالسَّحَابِ مُجَلَّلًا (١٢)
 عَلَى ظَهْرِ صَفْوَانٍ كَانَ مُتُونُهُ عَلَيْنَ يَدُهُنِ يُزَيِّقُ الْمَتَنَزِّلًا (١٣)
 يُطِيفُ بِهَا رَاعٍ يَجْتُمُّ نَفْسَهُ لِيَكْلَأَ فِيهَا طَرْفَهُ مُتَأَمِّلًا (١٤)

- (٧) فأخصن : أفعل تعجب من حصن ، أى فما أحسنه . سريل : لبس السربال .
 (٨) غراره : حده . حي . سحاب . تكلل : لبس الإكليل ، وهو شبه عصابة زين بالجواهر .
 (٩) تأكل : توهج واشتد لمعانه . أثره : فرنده وجوهره . المصحاة : إناء للشرب ، وفي رواية مسحاة ، وهى أداة تشبه المرد ، ولعلها أنسب . اللجين : الفضة .
 (١٠) مدب : مصدر ميمى ، ديب . يتبع الربا : يقصد المرتفعات . مدرج : درج .
 الذر : صغار النمل أو هو الهباء المنتشر فى الهواء . فأسهل : فنزل من الجبل إلى السهل .
 (١١) على صفحته : على جانبيه . متون : جمع متن ظهور . أنت : حسن . المنصل : السيف .
 (١٢) المبضوعة : المقطوعة ويعنى بها القوس . الشظية الفلقة من النصف أو نحوه .
 الطود : الجبل . مجللا : ملتفا بالسحاب .
 (١٣) الصفوان : الصخر الصلد . عللن : سقين مرة بعد مرة ، والعلل السقى للمرة الثانية ، وضده النهل . المنزل : النازل ببطء وحذر .
 (١٤) يطيف بها : يدور حولها . يجتم : يكلف . ليكلأ : ليردد . طرفه : عينه متأملا : متدبرا متمعنا .

- فَلَا قِيَّ امْرَأً مِنْ مَيِّدَعَانَ وَأَسْمَحَتْ قَرَوْنَتُهُ بِالْيَأْسِ مِنْهَا وَعَجَّلَا^(١٥)
 فَقَالَ لَهُ : هَلْ تَذْكُرُنَّ مُحَبَّرًا يَدُلُّ عَلَى غُفْمٍ وَيَقْصُرُ مُعْجَلًا؟^(١٦)
 عَلَى خَيْرٍ مَا أَبْصَرْتَهَا مِنْ بِضَاعَةٍ لِمُلْتَمَسٍ بَيْعًا لَهَا أَوْ تَبَكَّلَا^(١٧)
 فَوَيْقَ جُبَيْلٍ شَامَخَ الرَّأْسَ لَمْ تَكُنْ لِيَتَبَلَّغَهُ حَتَّى تَكُلَّ وَتَعْمَلَا^(١٨)
 فَأَبْصَرَ أَلْهَابًا مِنَ الطَّوْدِ دُونَهُ يَرَى بَيْنَ رَأْسَيْ كُلِّ نَيْقَيْنِ مِهْبَلًا^(١٩)
 فَأَشْرَطَ فِيهَا نَفْسَهُ وَهُوَ مُعْصِمٌ وَالسَّقَى بِأَسْبَابٍ لَهُ وَتَوَكَّلَا^(٢٠)
 وَقَدْ أَكَلْتَ أَظْفَارَهُ الصَّخْرُ، كُلَّمَا تَعَيَّا عَلَيْهِ طُولُ مَرَقٍ تَسَهَّلَا^(٢١)
 فَازَالَ حَتَّى نَالَهَا وَهُوَ مُشْفِقٌ عَلَى مُوْطِنٍ لَوْ زَلَّ عَنْهُ تَقْصَلَا^(٢٢)
 ٦٦٣ : فَأَقْبَلَ لَا يَرْجُو الَّذِي صَغُرَتْ بِهِ وَلَا نَفْسَهُ إِلَّا رَجَاءُ مُؤْمَلَا^(٢٣)

(١٥) ميدعان : عين . أسمعحت : سمحت . قرونته : نفسه ، اليأس : انقطاع الأمل .

(١٦) غفم : ربح . يقصر : يقصر ويعيا .

(١٧) للتمس : لطالب . تبكلا : عنيمة .

(١٨) جبيل : تصغير جبيل ، والتصغير للتعظيم . تكل : تعب وتعيا . تعمل :

تجهد ومتصب .

(١٩) الألهاب : جمع لهب وهو الصدع في جانب الجبل . نيقين : ثنية نيق ، وهو

الكان المرتفع . مهبل : الهوة الناهبة في الأرض .

(٢٠) فأشراط : فأعد وألزم نفسه . معصم : ممسك . أسباب : وسائل . توكل :

اعتمد على الله .

(٢١) تعيا : أعجزه . مرقى : رقى . تسهل : طلب السهل ، وفي رواية توصل .

(٢٢) مشفق : خائف . زل عنه : سقط عنه : تفصل : تقطع وتفرق جسمه .

(٢٣) لا يرجو : لا ينتظر نفسه التي صعدت به . رجاء مؤملا : رجاء متمنى منتظرا .

- فَلَمَّا قَضَىٰ بِمَّا يُرِيدُ قِضَاءَهُ وَحَلَّ بِهَا حِرْصًا عَلَيْهَا فَأَطْوَلَا^(٢٤)
أَمْرًا عَلَيْهَا ذَاتَ حُدْرٍ ، غَرَابُهَا رَقِيقٌ بِأَخْذٍ بِالْمَدَاوِسِ صَنِقَلًا^(٢٥)
عَلَىٰ فَخْذَيْهِ مِنْ بُرَايَةِ عُوْدِهَا شَبِيهُ سَفَا الْبُهْمَىٰ إِذَا مَا تَفَتَّلَا^(٢٦)
فَجَرَّدَهَا صَفْرَاءَ ، لَا الطَّوْلُ عَابَهَا وَلَا قِصَرٌ أَزْرَىٰ بِهَا فَتُعْطَلَا^(٢٧)
إِذَا مَا تَعَاطَوْهَا سَمِعَتْ لِصَوْتِهَا إِذَا أَنْبَضُوا عَنْهَا نَثِيًّا وَأَزْمَلَا^(٢٨)
وَإِنْ شَدَّ فِيهَا النَّرْعَ أَدْبَرَ سَهْمُهَا إِلَىٰ مُنْتَهَىٰ مِنْ مَعْجِسِهَا ثُمَّ أَقْبَلَا^(٢٩)
وَحَشَوِ جَفِيرٍ مِنْ فُرُوعٍ غَرَابٍ تَنْطَعُ فِيهَا صَانَعٌ وَتَنْبَلَا^(٣٠)
تُخَيَّرْنَ أَنْضَاءَ ، وَرُكْبَنَ أَنْضَلَا كَجَمْرِ الْغَضَا فِي يَوْمِ رِيحٍ تَزِيلَا^(٣١)

- (٢٤) حل بها : نزل بها . فأطول : فأطال المقام والحلول .
(٢٥) ذات حد : كناية عن السكين . غرابها : حدها . المداوس : جمع مدوس كنبير
آلة الصيقل يتقف بها القسي .
(٢٦) براية . بقايا البرى . السفا : من السنبل حسكه . البهمى : نبات يشبه الشعير .
تفتل : التف بعضه على بعض .
(٢٧) فجردها : خلعها من قشرها . أزرى بها : عابها . فتعطل : فلا تعمل .
(٢٨) تعاطوها : تناولوها . أنبضوا عنها : حركوا وترها . نثيا : صوتا ؛ والنثيم صوت
القوس والأسد والظبي . أزملا : ريننا .
(٢٩) أدبر : تحول . عجسها : مقبضها ومثله معجسها .
(٣٠) الجفير : الكنانة توضع فيها السهام . تنطع . تأثق ، ومثلها تنبل .
(٣١) أنضاء : جمع نضو هزالا ، ويقصد به السهم قبل أن يراش . الأنصل : جمع نصل ،
وهو الحد . النضا : شجر من الأثل خشبه من أصلب الخشب ، وجره يبق زمنا طويلا
لا ينطفئ ، تزيل : تفرق وتوزع .

فَلَمَّا قَصَى فِي الصَّنْعِ فِيهِنَّ فَهْمَهُ فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ تُرَاشَ وَتُصْقَلَ^(٣٢)

كَسَاهُنَّ مِنْ رِيَشٍ يَمَانٍ ظَوَاهِرًا

سُخَامًا ، لُوْأَمًا ، لَيْنَ الْمَسِّ ، أَطْحَلًا^(٣٣)

٦٧٤ : فَذَاكَ عَتَادِي فِي الْحُرُوبِ إِذَا التَّظَلَّتْ

وَأَرْدَفَ بَأْسٌ مِنْ خُطُوبٍ وَأَعْجَلًا^(٣٤)



(٣٢) فهمه : حذقه ، وفي رواية هممه . تراش : يركب فيها الريش . تصقل :

تحدد .

(٣٣) يمان : منسوب إلى اليمن . سخاما : ريشا ظاهرا . لواما : ريشا يلائم بعضه بعضا

أطحل : أغبر يميل إلى السواد .

(٣٤) التظلت : اشتعلت وتلظت . أردف : تبع . بأس : شدة .

تحليل الأبيات :

صحا القلب عن سكرته ، وأفاق الفؤاد من غوايته ، وكان من قبل مشغولاً بمحبوبته ،
صحا ومن حقه أن يصحو ، فالعزة تنسى الإنسان ملاذها ، والمجد يصرف المرء عن هواه ،
وهذه الحرب التي هي من أقوى أسباب العزة والمجد قد تكشفت ، فلنأخذ لها أهبتها ،
ولنعد ليومها عتادها .

قد أعددت لها ربحاً صلباً ثقفته رديئة فأحسننت ثقافته ، فكموبه كنوى التمر اليابس
نعومة وملاسة ، ثم أزجته وأنصلته ، فبدا كأن عليه مصباح ملك يشعله في يوم عيد ،
فيحشوه الذبال المقتل ، والفتيل المحكم ؛ ليكون ضوءه أسطع ، ونوره ألمع .

وأعددت لها درعا ملساء نسجها ناسجها في عام كامل ، فهي في تماوج نسيجها ، وبريق
قتيرها كالغدير تلعب بمائه الريح الهادئة ، ويداعبه النسيم العليل ، فيلمع موجه ، ويظهر
فوقه دوائر بيض ، أو كأن لمعانها أشعة الشمس صادفت مستشرفاً من نبت ناجم ، فضوؤها
يتردد عليه ، ونورها ينبسط فوقه ، فكأنه الثوب يتردى به ذلك النجم الأعزل ، فما أعظم
حصانته ، وما أجمل زينته !

وأعددت لها سيفاً مهنداً ، وأبيض مرهفاً كأن حده برق يتلألأ وسط سحب
مستدير ؛ إذا سل من غمده توهج فرنده ، وتأكل رونقه ، فصار في توجهه ولماعه كمسحاة
من اللجين ، وكأن رونقه في التماع صفحتيه ديب نمال تصعد في الربا يقابله درج هباء
يسقطه إلى الأرض خشية البرد ، وكفى هذا الذي أبلى غمده ، وأحسن نغته منصلاً !

وأعددت لها قوساً قد بضعت من فرع شجرة نبئت في جبل جليل بالسحاب ، فوق
ظهر صخر أصم ، كأنه قد نهل وعلّ من دهن يزل منه الخذر ، ويزلق من مسيره على
صخره البطيء ، فاكسب من ذلك الصخر صلابته وملاسته ، يدور حول هذه الشجرة
راع يكلف نفسه مالا يطيق ، ويمشها مالا تستطيع ؛ ليمتع بمرآها طرفه ويردد فيها
بصره ، وإذا هو يتأملها ، ويتمن فيها لاقى أمراً من « ميدعان » وقد يئست نفسه من

الوصول إليها ، وعجلت عن بلوغها ، فقال له ذلك « المبدعاني » أتعرف من يخبر بالخير ويقصر عنه ؛ وبأمر بالبر ولا يفعله ؟ إنه أنا ذلك الخبير الآمر ، إنها خير ما يبصر به المرء الذى لمتمس بيما أو يرجو رجحا ، إنها فوق جبل شامخ القمة ، مستطيل القنة ، ولن تبلغه حتى تتعب وتنصب ، وتعمل فتجهد ، فرأى شقاً يستطيع أن ينفذ منه ، ومخرما قد يقدر أن يصمد فيه ، ولكنه يرى بين مرتفعين هوة قد يسقط منها فتودى به ، فالزم نفسه أن يبلغ قمته ممسكا بأسباب الحياة ، معتصما بالتوكل على الله ، لقد ناله فى مرقاه الضر ، فأكل أطفاره التى يتسلق بها الصخر ، فكلما أعياء المرقى ابتغى مرتقى أيسر ، فما زال يعالج أمره : حتى بلغه وهو خائف وجل من موطن لو زلت فيه قدمه لتفرقت أوصاله ، فلما قطع مبضوعته ، وقضى لبانته ، وحل بالقمة أطال المقام حرصا على نيل بغيته .

وبعدئذ أمرت على الفرع شفرته ، وأرسل فوقه غراب سكينه ، يصقل به ما قد شق فى الوصول إليه ، وإنك لتجد فوق فخذيه براية غصنها ، ونفاية عودها تشبه شفا البهي إذا التف بعضه على بعض .

فجردها قوسا صفراء لا يعيها طول ، ولا يزرى بها قصر ، فهى معدة لحينها ، مؤدية أعظم ما يرجى منها ؛ إذا ما تناولها قواسوها ، وأنبضوا وترها سمعت لها صوتا حنونا ، وثنيا ورنينا ، وهى لينة صلبة متى شد النازع فيها السهم عاد إلى مقبضها ، ثم ما يلبث أن يتركه فيذهب بعيداً لقوة دفعها ، وصلابة عودها .

وأعددت كنانة محشوة بالسهم المصقولة من فروع أشجار غرائب فى صلابتها ، قد تأنق فيها صانعها ، وتمهل فى صقلها صاقلها ، فاختيرت ، ثم ركبت فيها النصال حمراً محددة كأنها جمر الغضا فى يوم ريح ، فنفرق فى اليمين والشمال ، ثم تطاير فى كل مكان .

فلما أتم صنعها ، وأولاهها جميع فهمه وحذقه كساهن ريشا يمانيا سخاما ولواما ، لينا مُعبرا . ذلك عتادى عند تأجج الحرب ، وترادف البأس ، واشتداد الخطب .

النقد :

بلغ أوس بن حجر في قصيدته تلك من وصف القتاد عند العرب ما لم يبلغه شاعر ، وجاء في تصويرها وتحديد آثارها بما لم يحى به كى محارب ، فهو قد استقصى هذه الأسلحة لم يغادر منها سلاحا ، فهى : أصم ردينى ، وأملس حولى ، وأبيض هندى ، ومبضوعة من رأس فرع ، وحشو جفير من فروع غرائب .

وقد منح كل سلاح من هذه الأسلحة عنايته ، فوصفه أدق وصف ، وصوره أروع تصوير ، وشبهها بما يلائمها أجل تشبيه ، فكان فارس الحلبة في هذا الميدان ، وأنا معيد جميع أبياته لو أردت أن أعرض جميل صورته ، وبديع رسمه ، فأى صورة أروع من تصوير درعه وقد لمع قتيورها ، وتلاأت في أشعة الشمس مساميرها ، فبدت مهتزة مضطربة كأنها غدير تهزم ماءه نسائم رفاق ، أو كأنها قرون الشمس ساطعة مرتفعة فصادفها نبت ناجم ، فضوؤها يسطع فيه ، وأشعتها تتردد فوقه ، ما أجل هذا المنظر ! وما أزينه ! وما أقدر من رسمه وما أحسنه ! هل أقول لقد أوفيته حقه إذ عرضت صورته ؟ لا ، ولكنى أكاد أوفيه ذلك إذا عرضت الأبيات التى تشتمل على الصورة لترى فيها الأجزاء واضحة القسما ، بادية الحاسن ، مقسمة الظلال ، متلائمة الأجواء ، وها هى ذى :

وأملس حوليا كنهى ، قراره أحس بقاع نفح ريح فأجفلا
كأن قرون الشمس عند ارتفاعها وقد صادفت طلعا من النجم أعزلا
تردد فيه ضوءها وشعاعها فأحصن وأزين لامرى إن تسربلا

ومع أنه وهب لكل سلاح عنايته إلا أنه أثر القوس إيثارا عظيما ، ولعله كان ذا تأثير فى حياته أكثر من سائر عتاده ، فقد وصفها فى ثمانية عشر بيتا ، ذكر فيها منبتها الذى نبتت فيه ، وبضعت منه ، وباضعها الذى عرف أصلها ، فأطاف بها ، وصاحبها الذى شجعه على قطعها . . . وهكذا ما يزال يرسم خطواته ؛ حتى يصل إلى صوتها عند نزاعها فيقول :

إذا ما تعاطوها سمعت لصوتها إذا أنبضوا عنها نثيا وأزملا
وإن شد فيها النزع أدبر سهمها إلى منتهى من عجبها ثم أقبلأ

ولست مبالغا إن قلت إن الشعراء السكاة أخذوا جلّ معانيهم من ذلك الشاعر الذى لم
يكن فارسا من الطراز الأول ، فقد كان يقع فى الأسر كثيراً ، ويفر من ذلك الأسر ،
وكأنى به كان يحمس الفرسان والأبطال بوصف العتاد ، وتلك الطريقة إحدى طرق
النصر ، فلو لم يكن له من أسبابه إلا وصف عتاده لسكان قد أدى واجب قبيلته عليه ،
فكيف وقد كان مشاركا فيه ؟

أوس بهذه الأبيات أقدر من وصف القوس ، ومنه اقتبس من وصفها بعده ، وعلى
رأسهم الشماخ بن ضرار .



٢ — وقال الشماخ بن ضرار * يصف قوساً :

تَخَيَّرَهَا الْقَوَاسُ مِنْ فَرْعِ ضَالَةٍ لَهَا شَدَبٌ مِنْ دُونِهَا وَحَزَانُ^(١)
 مَتَّ فِي مَكَانٍ كَنَهَا فَاسْتَوَتْ بِهِ وَمَا دُونَهَا مِنْ غَيْلِهَا مُتَلَاخِزُ^(٢)
 فَمَا زَالَ يَنْحُو كُلَّ رَطْبٍ وَيَاسٍ وَيَنْفَلُ حَتَّى نَالَهَا وَهُوَ بَارِزُ^(٣)
 فَأَنَحَى عَلَيْهَا ذَاتَ حَدٍّ ، عَرَابُهَا عَدُوٌّ لَأَوْسَاطِ الْعِضَاءِ مُشَاوِزُ^(٤)
 فَلَمَّا اطْمَأَنَّتْ فِي يَدَيْهِ رَأَى غَيَّ أَحَاطَ بِهِ ، وَازْوَرَّ عَنْ يَحَاوِزُ^(٥)
 فَأَمْسَكَهَا عَامِنٍ يَطْلُبُ دَرَاهَا وَيَنْظُرُ مِنْهَا مَا الَّذِي هُوَ غَاوِزُ^(٦)
 أَقَامَ الثَّقَافُ وَالطَّرِيدَةُ مَعْنَهَا كَمَا أَخْرَجَتْ ضِغْنُ الشَّمُوسِ الْمَاهِزُ^(٧)
 ٦٨٢ : فَوَاقَى بِهَا أَهْلَ الْمَوَاسِمِ فَانْبَرَى لَهَا يَبِيعُ يُغْلَى بِهَا السَّوْمُ رَائِزُ^(٨)

* ترجمته الشاعر : هو الشماخ بن ضرار التغلبي من ثعلبة بن سعد بن ذبيان ، وال شماخ لقبه واسمه معقل أدرك الإسلام ، وقال عنه الخطيب : إنه أشعر غطفان ، ذكروا عنه أنه أوصف الناس للحمير الوحشية وللقوس ، وأرجز الشعراء على البديهة . توفي سنة ١٨ هـ .

التفسير اللغوي : (١) الضالة : شجرة السدر البرية . الشذب : العيدان المشدبة المقطوعة .

الحزائر : لم نجد هذا الجمع في القواميس ، وقد فسر في الجمهرة بأنها أصول الشجر العظام ، ولعلها الجزائر . وهي جمع حزة . ومن شأن الصوف التفرق .

(٢) كنها : سترها . الغيل : الشجر اللتف . متلاخز : متضايق .

(٣) ينحو : يقصد . ينفل : يدخل تحت الشجر ليتخير أقواها جذرا . بارز : ظاهر .

(٤) فأنحى عليها : فاعتمد عليها . ذات حد : كناية عن موصوف هو القاس أو السكين .

غرابها : حدها . مشاوز : محارب .

(٥) اطمأنت : سكنت . القوس : أزور : مال وصد . يحاوز : يحاط .

(٦) درأها : بسطها . الغامز : السكان المطمئن فيها ، يعني الشق .

(٧) الثقاف : خشبة تقوم بها الرماح . الطريدة : القصة التي يعرف بها اعتدالها .

الشموس : الفرس الجموح . الماهز : جمع مہمز أو مہماز ، وهي حديدة في مؤخر خف الرائف .

(٨) فواقى بها : فجاء بها . انبرى : اعترض . بيع : مبتاع . السوم : البيع .

رائز : مجرب .

- فقال له : بايع أخاك ولا يكن لك اليوم عن رنج من البيع لاهز^(٩)
 فظل يناجى نفسه وأميرها^(١٠) أيا بني الذي يعطى بها أم يجاوز؟
 فلما شراها فاضت العين غيرة^(١١) وفي الصدر حَزْ أَرْزُ من الوجد حامز^(١٢)
 فذاق ، فأعطته من اللبن جانباً كفى ، ولها أن يفرق السهم حَاجز^(١٣)
 إذا أنبض الرامون فيها ترنمت ترنم شكلى أو جمعتها الجنائز^(١٤)
 هتوف إذا ما خالط الظبي منهمها وإن ريع منها أسلمته النواقر^(١٥)
 كأن عليها زعفراناً تميره خوازن عطار يمان كوايز^(١٦)
 ٦٩٠ : إذا سقط الأنداء صينت وأشعرت حبيراً ، ولم تدرج عليها الماعوز^(١٧)

- (٩) بايع أخاك : به . لاهز : الجبل ويقصد لا يكن لك مانع أو صاد .
 (١٠) يناجى نفسه : يسارها . يجاوز : يقبل متجاوزاً . أميرها : قلبه .
 (١١) شراها : باعها . حزاز : حزن يحز في قلبه . حامز : ممض محرق .
 (١٢) فذاق : فجرها . يفرق السهم : يضيع بإدباره .
 (١٣) أنبض الرامون : حركوا الأوتار . ترنمت : تغنت . شكلى : فاقدة ولدها .
 (١٤) هتوف : ذات صوت . ريع : أفزعه الرامى النواقر : قوائم الظبي الموائبة .
 (١٥) الزعفران : صبغ أصفر . تميره : تحركه فتطلى به . خوازن : جمع خاذنة ،
 وكوايز كذلك جمع كازة .
 (١٦) الأنداء : جمع ندى . صينت : حفظت . أشعرت : ألبست الشعار . حبيراً : برداً
 موسى . الماعوز : الأخلاق .

محلل الأبيات :

تخير هذه القوس قوَّاس عليم بجيادها ، بصير بأعوادها ، فاتخذها من فرع ضالة قد شذبت زوائدها ، وقطعت أطرافها ، فطالت وزكت ، ونمت في مكان سترها عن الميون ، فاستوت دون أن تمتد إليها يد ، أو يمتص غذاءها جذر ، إذ تباعدت عنها الأشجار التي يمكن أن تسهم معها في الغذاء ، في حين أن غيرها قد التف بعضه على بعض ، فغذاؤه ضئيل ، وشرابه قليل .

ما زال هذا القواس يحس الأشجار ، ويتحسس نبعها : رطبها ويابسها ، صلبها ولينها ، وكلها لا ترضيه حينما يتبين جذرها ويتعرف أسها ؛ حتى نالها وهو ظاهر ، فقصدها بفأسه المرفقة الحد ، العدوَّة لكل عضمة ، المحاربة لكل ضالة ، فلما سكنت في يديه توسم غنى ، قد نزل به ، فصد عنم يخالطه .

وأمسكها عامين كاملين يقومها ويبسطها ، وينظر أثر الشق فيها ؛ حتى أقام الثقاف ميلها ، وسوّت الطريدة متنها ؛ مثل الثقاف والطريدة في صقلها وتقويمها كمثل المهامز تخرج ضغن الفرس الشموس .

وأقبل القواس على الموسم مزهوا بها ، نخورا بثقافها ، فاعترضه رجل يحسن المساومة ، فأدرك ما فيها من حسن ، مبايعه إياها ، وأغلى له في ثمنها ، وأغراه الربح فهو يناجى نفسه ، ويؤامر قلبه ، أيأبى البيع أم يتجاوز عنها وقد ضمن الربح الكثير ؟

فباعها وعينه تفيض بالعبرات ، وقلبه يتقطع حسرات ، فاختبرها شاريها ، فأعطته اللبان دون أن تضع سهمه ، فلها من صلابتها عن إغراقه حاجز ، فإذا حرك الرامون وترها ترنمت كترنم الشكلى التي أكل قلبها الحزن ، تصوت صوتا حزينا عند ما يخترق سهمها الظبي ، كأنها تواسيه وتناجيه ، وإن أجفل منها وفزع فحاول البعد عن سهمها لم تطاوعه النواقر .

كأن هذه القوس قد خضبت بالزعفران ، تحركه فيصيبها طلاؤه الخزون عند عطار ،

ويلحقها خضابه المكنوز عند يمانى ، إذا سقط الندى صينت منه ، وألبست شعارا من
الحبير الموشى ولم تغط بالخلق من الثياب .

النقر :

قصد الشماخ إلى وصف القوس قصدا ، فلم يشرك معها سواها فى وصفه إياها كما فعل
أوس بن حجر ، ولكنه مع هذا كان أقصر من سلفه نفسا ، وكانت معانيه أقل من معانى
أوس بداعة وحسنا ، وذلك أنهما كليهما وصفا منبت قوسه ، فقال أوس :

ومبضوعة من رأس فرع شظية بطود تراه بالسحاب مجللا
على ظهر صفوان كأن ستونه عللن بدهن يزلق المتنزلا
يطيف بها راع يجشم نفسه ليكلأ فيها طرفه متأملا

فقوسه من رأس فرع شظية بطود مجلل بالسحاب على ظهر صفوان ناعم أملس ، فالوصول
إليها يجشم باغيها ، ويؤلم قاصدها ، وهى معان بالغة الروعة فى إعلاء شأن القوس ؛
أما الشماخ فقال :

تخيرها القواس من فرع ضالة لها شذب من دونها وحزائر
نمت فى مكان كنها فاستوت به وما دونها من غيلها متلاحز
فما زال ينحو كل رطب ويابس وينفل حتى نالها وهو بارز

فأين هذا من ذاك ؟ لقد كان عليه أن يستفيد من سلفه ، ولكنه قصر فحق عليه العتب ،
وكلاهما وصف قطعها وتنقيفها ، فبالغ أوس فى وصف شقاء قواسها وعلى قدر المشقة يكون
الأجر ، فكان فضله على خلفه أكثر ، فعاود أبيات كل منهما لتحكم بما نحكم به

٣ — وقال راشد بن شهاب اليشكري * يصف سلاحه :

- فَهَلَّا أَبَا الْخَنَسَاءِ لَا تَشْتُمُنِي فَتَقَرَعَ بَعْدَ الْيَوْمِ سِنُّكَ مِنْ نَدَمٍ^(١)
وَلَا تُوعِدُنِي إِنِّي إِنْ تَلَاقَيْتَنِي مَعِيَ مَشْرِفِي فِي مَضَارِبِهِ قَضَمٍ^(٢)
وَنَبْلٍ قِرَانٍ كَالشُّيُورِ سَلَاجِمٍ وَفَرَعٍ هَتُوفٍ، لَا سِقَى وَلَا نَشَمٍ^(٣)
وَمُطَرَّدُ الْكَعْبِينَ أَسْمَرُ عَاتَرٍ وَذَاتُ قَتِيرٍ فِي مَوَاصِلِهَا وَرَمٍ^(٤)
مُضَاعَفَةٌ جَدَلَاءُ، أَوْ حُطْمِيَّةٌ تُغَشِّي بَنَانَ الْمَرْءِ وَالْكَفَّ وَالْقَدَمَ^(٥)
٦٩٧ : لعادية من السلاح استمرتها وكان بكم فقر إلى الغدر أو عدم^(٦)

* ترجمه الشاعر : هو راشد بن شهاب بن عبدة بن عصم بن ربيعة اليشكري ، شاعر جاهلي مقل ، لم تقع له على ترجمة واسعة ، وقصيدته هذه يخاطب بها قيس بن مسعود بن قيس ابن خالد الشيباني .

التفسير اللغوي : (١) فهلا : فريثا وانتظارا ، وفيها معنى الوعيد والتهديد . أبا الخنساء :

يعني قيس بن مسعود . تفرع سنك : كناية عن صفة هي الندم .

(٢) توعدني : تتوعدني وتهددني . المشرفي : السيف المنسوب إلى مشارف الشام . في

مضاربه : في طلبته وحده . قضم : تكسر من كثرة ما أعملته .

(٣) القران : التشابه . السلاجم : الطوال ، الواحد ساجم : فرع هتوف : كناية عن

القوس الصوتة . السقى : ما شرب الماء من الأنهار . النشم : الشجر الخوار الضعيف .

(٤) المطرد : كناية عن الرمح المصقول الذي اطرده كعباء ، وزال أثرها ، وقال الكعبين

لأن اطراد كعبين دليل اطراد اباقي : العاتر : الصلب . ذات قتير : كناية عن الدرع ، والقدير

ردوس مسامير الدرع . مواصلها : ما يتصل بالخلق . الورم : الاستواء .

(٥) مضاعفة : منسوجة حلقتين . جدلاء : مجدولة محكمة الجدل . حطمية : منسوبة

إلى حطمة بن محارب ، وكان صانع دروع ، أو حطمية لأنها تعظم السيوف . تغشى : تغطي ، كناية

عن أنها سابعة .

(٦) العادية : المنسوبة إلى عاد ، كناية عن قدمها .

تحليل الأبيات :

توعد قيس بن مسعود الشيباني شهابا اليشكري ، فأنشأ القصيدة التي منها هذه الأبيات ينذره حربته ، ويتوعده بطشه ، ويصف له سلاحه ، ويستوهن روحه المعنوية ، فقال :

تريث يا أبا الخنساء ، فلا تشتمنى ، ولا تلغ في عرضى ، فإنك إذا دأبت على شتمى ، واستمرأت أكل عرضى لم تلبث أن تفرغ من الندم سنك ، وحذار أن تهذى ، فإنك حين تلقانى سترى فارسا يقهر الفرسان ، قد استكمل أهبطه ، وأتم عتاده وعدته .

إن معى سيفا مشرفيا ثلمته كثرة الضراب ، ولكنه قاطع حاسم ، ونبلا يشبه بعضه بعضا ؛ لأنه معدّ لقوس واحدة تنزعها كف واحدة ، وهى طويلة لتنفذ إلى الأكباد ، وتصل إلى شغاف الفؤاد ، وقوسا ذات صوت حنون عند ما أنزع عنها سهمها ، صدقة النبع ، صلدة الغرب ، لم يربطها أن سقيت من ماء الأنهار ، فنبعها لم يسق بغير ماء السماء ، فليس فيها ضعف ولا خوار ، وريحها قد اطردت كمويه ، واستوت عقده ، واسمر لونه ، لشدة صلابته . ولدى درع يلمع قتيورها ، وتبرق مساميرها ، قد استوت مواصلها ، وتضاعف نسجها ، وأحكم جدلها ، فهى من صناعة حطمة الذى وهب لها فنه ، ومنحها إحكامه ، فهى إذ يلبسها الفارس تغطى جميع أطرافه ، فتضفى عليه السلامة .

هذه أسلحة استعرتها من الزمن عند ما رأيتم تفتقرون إلى الغدر ، وتحتاجون إلى العدم .

النقد :

مع أن الشاعر أوجز فى وصف عتاده ، إلا أنه استطاع أن يصف كل قطعة منه وصفا دقيقا ، فجاء قديراً فى إيجازه ، قديراً فى دقة أوصافه ، فأى وصف أدق وأبلغ من قوله فى وصف الدرع ؟

مضاعفة جدلاء أو حطمية تغشى بنان المرء والكف والقدم

لقد وصفها بالشخانة والإحكام ، ونسبها إلى صانعها ، وأنها سابغة لانتزك جزءا من صاحبها دون أن تغطيه ، وأو فى البيت بمعنى الواو ، وهذا سائغ شائع .

ثم أى جمال فى الوصف للمرج يبد قوله : « ومطر الكعيبين أسمر عاتر » إنه وصفه فى هذا الشطر بثلاث صفات هى : جودة الثفاف ، والملاسة ، والصلابة .

٤ — وقال ثعلبة بن عمرو العبدى * يصف عتاده :

وَشَوْهَاءٌ لَمْ تُوشَمْ يَدَاهَا وَلَمْ تَذَلْ فَقَاطَتْ وَفِيهَا بِالْوَلِيدِ تَقَازُفٌ^(١)
وَتُعْطِيكَ قَبْلَ السَّوْطِ مِلءٌ عِنَانِهَا وَإِحْضَارَ ظَلِي أَخْطَاطُهُ الْمَجَادِفُ^(٢)
بَلَلَتْ بِهَا يَوْمَ الصَّرَاخِ ، وَبَعْضُهُمْ يَحْبُ بِهِ فِي الْحَيِّ أَوْرُقُ شُكَارِفُ^(٣)
بَيْضَاءٌ مِثْلَ النَّهْيِ رِيحٌ ، وَمَدَّةُ شَايِبُ غَيْثٍ يَخْفِشُ الْأَكْمَ صَائِفُ^(٤)
وَمُطَرِدٌ يُرْضِيكَ عِنْدَ ذَوَاقِهِ وَيَمْضِي وَلَا يَنَادُ فِيمَا يُصَادِفُ^(٥)
وَصَفْرَاءُ مِنْ نَبْعٍ ، سِلَاحٌ أُعِدَّهَا وَأَبْيَضُ قَصَالُ الضَّرِيْبَةِ جَائِفُ^(٦)
٧٠٤ : عَتَادَ امْرِئٍ فِي الْحَرْبِ لَا وَاهِنُ الْقَوَى وَلَا هُوَ عَمَّا يَقْدُرُ اللَّهُ صَارِفُ^(٧)

* ترجمه الشاعر : انظر ترجمته في ص ٢٤٥ .

التفسير اللغوي : (١) الشوهاء : القبيحة والجميلة ، فالكامئة تجمع في معناها بين الضدين ، والآخر هو المراد . لم تذل : لم تهين . فقاطت : فأتى عليها القيط . الوليد : العبد . التقاذف : التدافع .

(٢) ملء عنانها : عدوا ملء عنانها . الإحضار : العدو . المجادف : ما يحدف به ويرمى . (٣) بللت بها : ملكتها وكانت في قبضتي . يوم الصراخ : يوم الاستنجد بي . يحب : يسير به خبياً ، والحبب ضرب من العدو . والأورق : الرمادى ، والورق الأم الإبل . الشارف : الهرم .

(٤) البيضاء : كناية عن المدرع . النهى : الغدير . ريح : أصابته ريح . الشايب : جمع شؤبوب دفعات المطر . يخفش : يقشر . الأكم : جمع أكمة : صائف : في الصيف .

(٥) مطرد : كناية عن الرمح لا طراد كعوبه بالثقيف . ذواقه : اختباره . يناد : يعوج .

(٦) وصفراء : كناية عن القوس . النبع : شجر تتخذ منه القسى والسهم ، وهو ينبت في أعالي الجبال . وأبيض : كناية عن السيف . قصال : قطاع . جائف : يبلغ الجوف .

(٧) عتاد امرئ : عدة رجل . واهن : ضعيف . يقدر : يقضى . صارف : منصرف .

تحليل الأبيات .

رب فرس حسناء ليس فيها ما يشينها ، فلم توشم يداها لداء أصابها فيها ، ولم تضعف لمرض نزل بها ، وهي - إذ يحل بها القيظ - النشيطة المرحّة شأنها في الشتاء تقذف بسأسها ، وتلعب بالوليد .

تهب لك كل قوتها ، وتعطيك ما يتسع له عنانها ، فتعدو بك عدو الظي أخطأه الراي ، ملكت عنانها يوم الاستنجاد بي ، وبعض الأبطال تسير بهم النياق الورق خبيا ، وتسعى بهم الإبل الهرمة وثيدا .

ملكك عنانها في كامل عتادي ، فقد تسرّبت بدرع محكمة يلع قتيها ؛ كأنه النهى هبت عليه أرواح النسيم ، وأمدته دفعات المطر ، فأزالت عن الأكم الرمل والتراب ، وكانت تلك الشائب في يوم صائف .

وفي يدي رمح قد اطردت كمانه ، فهو يرضيك عند ما تجرّبه في الطعان ؛ إذ يمضي إلى رميته دون انحناء أو انحراف ، ومعى قوس من نبع نبت فوق الربا ، فهو صدق عند النزاع ، صلب لدى الرمي ، وإلى كل هذا العتاد سيف صقيل يقصل الضريبة ، ويبلغ جوف المضروب . ذلك عتاد رجل ليس واهن القوة ، ولا ضعيف المنّة ، وهو إلى هذا مؤمن بقدر الله ، عالم أنه لا يصرفه صارف ، ولا يدفعه دافع .

النقد :

أوجز الشاعر في وصفه إيجازاً بليغاً ، وإن كان وصف العتاد ركنا من أركان الفخر ، والفخر يستأهل الإطناب والاحتفال ، إذ الغرض منه بعث الرهبة في نفوس الأعداء ، والإشادة بالهزة والمجد والكبرياء .

على أن الشاعر مع هذا الإيجاز قد أودع أبياته بعض الصور كاملاً رائعاً ، وذلك كقوله :
بيضاء مثل النهى ريح ... ، وكقوله : ومطر د يرضيك ...

وترضينا منه تلك النزعة الحكيمة التي ختم بها أبياته ، وإن لم ترض أنداده من رجال الحرب والميدان ، « ولا هو عما يقدر الله صارف » إذ أولئك يحسبون أن الآجال في طلبات سيوفهم ، وأن الحياة طى بلائهم وجهادهم ، وما أبعد دعاوى لا يقيم لها في غير الشعر ميزان !

نظرة فاحصة عن معاني الشعراء في وصف السلاح

يكاد الشعراء يتفقون في المعاني التي تناولوها في وصف عتادهم ، ولهم في ذلك عذر ، فعتادهم محدود ، وسلاحهم معدود ، لا يعدو السيف والرمح ، والقوس والدرع ، والسهم والنبل ، وحتى أصول هذا العتاد وأجزاؤه متشابهة بل متماثلة ، فهي لا تزيد على الحديد والشجر ، وصياقلتها ومثقفوها معروفون منسوبون ، وإذن فلا عليهم أن يتفقوا ، وللمبدع منهم حينئذ الفضل كل الفضل .

ولعلني لم أتجاوز الحق حين حكمت لأوس بن حجر بالفضل ؛ لأنني حين حكمت له بهذا الحكم استعرضت كثيرا مما قاله الشعراء ممن لم أختار لهم ، لقصر أنفسهم لحسب ، كما استعرضت ما اخترته وأثبتته للشماخ بن ضرار ، ولراشد بن شهاب الشكري ، ولثعلبة ابن عمرو العبدى ، فما تجاوزته لقصر نفس الشاعر قول الجحيم بن الطماح ، وكان من الفرسان يصف نفسه :

فِي كَفِّهِ لَدَنَةٌ مُثَقَّفَةٌ فِيهَا سِنَانٌ مُحَرَّبٌ لَحِمٌ

* * *

مُدَّرَعًا رِبِطَةً مُضَاعَفَةً كَالْتَهْنَى وَفِي سَرَارِهِ الرَّهْمُ

ولبشامة بن الغدير يحض قومه على الاستعداد للحرب :

وَحُشُّوا الْحُرُوبَ إِذَا أُوقِدَتْ رِمَاحًا طَوَالًا وَخَيْلًا فُجُولًا
وَمِنْ نَسَجِ دَاوُدَ مَوْضُونَةٍ تَرَى لِلْقَوَاصِبِ فِيهَا صَلِيلًا

ولعبد قيس بن خفاف البرجمي :

فَأَصْبَحْتُ أَعْدَدْتُ لِلنَّائِبَا تَعْرِضًا بَرِيثًا وَعَضْبًا صَقِيلًا
وَوَقَعَ لِسَانُ كَحْدِ السَّنَانِ وَرُمُحًا طَوِيلَ الْقَنَآةِ عَسُولًا
وَسَابِقَةً مِنْ جِيَادِ الدُّرُو عَرَسَمُ السَّيْفِ فِيهَا صَلِيلًا
٧١٢ : كَاءُ الْغَدِيرِ زَفَقَةُ الدَّبُورُ يَجْرُ الْمُدَجِّجُ مِنْهَا فُضُولًا

ولريعة بن مقروم المضرى :

وبالكف زوراء حرميةً من القضب تعقب عزفا نثيا
وأعجب حشر ترى بالرّصا فِ رِما يحاطُ منها عصيا : ٧١٤

فنحن نرى أن المعانى التى تداولها من عرضنا بعض شعرهم هى المعانى التى تناولها من لم نعرض لهم ، ولا فرق بينهم إلا فى اعتماد بعضهم على الصور الشعرية دون بعض ، وفى هذا المجال يتفاضلون ، فأوس بن حجر يصف رحمه بقوله :

أصم ردينيا كأن كموبه نوى القسب عراصا مزجا منفلا
عليه كمصباح العزيز يشبه لقصح ويحشوه الذبال الفتلا
ويصفه الجريح بن الطماح فلا يزيد على أن يقول :

فى كفه لدنة مثقفة فيها سنان محرب لحم
ويصف الشباخ بن ضرار صوت قوسه فيقول :

إذا أنبض الرامون فيها ترنمت ترنم ثكلى أوجعتها الجنائز
فى حين يقول ربيعة بن مقروم :

وبالكف زوراء حرمية من القضب تعقب عزفا نثيا
ويصف ثعلبة بن عمرو الدرع ، فيقول :

بيضاء مثل النهى ريج ومده شائب غيث يحفش الأكم صائف
ولا يبلغ عبد القيس بن خفاف غايته إذ يقول :

وسابفة من جياذ الدرو ع تسمع للسيف فيها صليلا
كأه الفدير زفته الدبور يجر المدجج منها فضولا
وهو يشبه إلى حد كبير قول بشامة بن الغدير ، وقول بشامة أكثر معنى :

وحشوا الحروب إذا أوقدت رماحا طوالا ، وخيلا فحولا
ومن نسج داود موضونة ترى للقواضب فيها صليلا

وبعد فلا أحسب إلا أن العرب لم تكن لهم بالآثار الإنسانية العناية العظيمة ، ودليلنا على هذا قلة ما قالوه فى نعت عتادهم مع أنهم شعب حرب وجلاد ، ولعل تقديرهم لآثار الخالق أصغر فى نظرم آثار الخلق ، وصرفهم عنها إلى ممالك أحاسيسهم ، وأسر مشاعرهم .

نظرة شاملة في معاني الشعراء

في وصف الطبيعة الساكنة

موضوعات الطبيعة الساكنة أكثر كثيرا من موضوعات الطبيعة المتحركة ، وإن يكن الشعراء قد احتفلوا بالطبيعة المتحركة أكثر من احتفالهم بالطبيعة الساكنة ، وهم فيما صنعوا لم يكونوا بدعا من الناس ، ولكنهم نهجوا النهج الذي نهجه سواهم ، وكأني بهم قد احتفلوا أعظم احتفال بما يتصل بالطبيعة المتحركة ، فأكثرنا من وصف الأطلال ، وذكر الديار ؛ لأن الأحباب كانوا يقطنونها فحق عليهم أن يطيلوا الوقوف بها ، ويكثرنا من رسمها وتصويرها ، وقل أن تجد شاعرا جاهليا لم يبك دارا ولم يندب على طلل ، وهم - وإن يكونوا متقاربين في تناول المعاني - متباعدون في الدوافع إلى هذه المعاني ، فمنهم من يبكيها كما يبكي ابن خدام ، ومنهم من يبكيها عن وجد وحرقة ، وأسى ولهفة ، وأنت تشعر كامل الشعور بحال الرجلين حتى وإن تماثلت المعاني وتساوت الصور ، تشعر به من اصطفاء اللفظ ، وتخير الموقف ، فأين من قول امرئ القيس :

فغانبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فغومل
قول ثعلبة بن عمرو العبدى ؟

لمن دمن كأنهن صحائف قفار خلا منها الكتيب فواحف ؟

فثعلبة يسأل عن أصحاب الدمن التي صارت كالصحائف ، قد خلا منها الكتيب فواحف ، ولو كان واجداً لشعر في طريقه إليها باللوعة ، ولهداه لها قلبه بالخفقان والحرقة ، وإذن فلا يمكن أن يكون تقارب المعاني ، بل تماثلها دليلاً على تقارب الشعر أو تماثله ، بل لا بد أن يكون هناك عامل آخر هو الإحساس الباطني بأن هذا الشاعر يتدفق عن شعور .

ويجىء بعد هذا الغرض من وصف الطبيعة الساكنة وصف الليل وطوله ، وقد تناوله الكثير من الشعراء ، وأتوا فيه من المعاني بالغريب البديع ؛ حتى لقد صار له في النقد قواعد راسية ، وقد مر بك اختلاف النقاد في المفاضلة بين أبيات امرئ القيس ، وأبيات

النافذة ، وهناك غيرها وغير من اخترنا لهم لا يقلون عنهم في الإجابة والإبداع ، وهذا
سويد بن أبي كاهل يجيد في وصف طوله ، فيقول :

فَأَيُّتُ اللَّيْلَ مَا أَرَقُّدُهُ وَبِعَيْنِي إِذَا نَجْمٌ طَلَعَ
وَإِذَا مَا قُلْتُ لَيْلٌ قَدْ مَضَى حَطَفَ الْأَوَّلُ مِنْهُ فَرَجَعَ
يَسْحَبُ اللَّيْلُ نَجُومًا ظُلُمًا فَتَوَالِيهَا بَطِيئَاتُ التَّعَنُّعِ
وَيُزَجِّبُهَا عَلَى إِبْطَائِهَا مُغْرَبُ اللَّوْنِ إِذَا اللَّوْنُ انْقَشَعَ

وهذا المرقش الأصغر يتصور أن ليلته تكررت ، ويتخيل أنها تعددت ، فيقول :

وَلَيْلَةٍ بَتَّهَا مُسْهِرَةٌ قَدْ كَرَّرَتْهَا عَلَى عَيْنِي الْهُمُومُ
لَمْ أَغْتَمِضْ طُولَهَا حَتَّى انْقَضَتْ أَكَلَوْهَا بَعْدَ مَا نَامَ السَّلِيمُ

فوجده تركه يقظا في حين أن اللدبع قد أوى إلى فراشه ، فما أشد هذا الوجد ! ،

وما أروع ذلك الوصف !

ثم هم قد نظروا في السماء نظرة الرجاء ، فهي لهم معين الحياة وأصل البقاء ، فوصفوا
سحبها وبروقها ، ونبغوا شهبها ونجومها ، ولم ينسوا أن يذكروا رياحها : صباها ودبورها ،
كما وصفوا آثار الطبيعة من حر لافح ، وبرد قارس ، مما يدل على طول تأمل ، وإن لم
يطيلوا في آثار هذا التأمل ، وإذا كنا لم نذكر صورا لجميع ما قالوه في الظواهر السماوية
فلأن هذه الصور لا تعدو أن تكون لفات عابرة ، أو أبياتا سائرة من مثل قول بشر
ابن أبي خازم يصف كواكب بنات نعش في بيت واحد بأنها تدور وتنطف ، كما تدور
جماعة البقر الوحشي وتنطف إذا أدركها ما يخيفها :

فَبِتُّ مُسَهَّدًا أَرَقًّا كَأَنِّي تَمَشَّتْ فِي مَفَاصِلِ الْقَمَارِ
أَرَأَيْتُ فِي السَّمَاءِ بَنَاتٍ نَعَشٍ وَقَدْ دَارَتْ كَمَا عُطِفَ الصَّوَارُ

ومن مثل قول علقمة الفحل يصف الحر وأثر الجوزاء فيه :

٧٢٣ : وَقَدْ عَلَوْتُ قَتُودَ الرَّحْلِ يَسْفَعُنِي يَوْمٌ تَجِيءُ بِهِ الْجُوزَاءُ مَسْمُومٌ

حَامٍ كَأَنَّ أَوَارَ النَّارِ شَامِلُهُ دُونَ الثِّيَابِ، وَرَأْسُ الْمَرْءِ مَعْنُومٌ
ومن مثل قول المسيب بن علس يصف أثر البرد وقد ساقه في المدح :

إِذَا تَهَيَّجُ الرِّيحُ مِنْ صُرَادِيهَا ثَلَجًا يُبَيِّخُ النَّيْبَ بِالْجَمْعِ جَاعٍ
أَحَلَّتْ بَيْنَكَ بِالْجَمْعِ ، وَبَعْضُهُمْ مُتَفَرِّقٌ لِيَحُلَّ بِالْأَوْزَاعِ

وقد كانوا في تأملهم مبالغين حتى عرفوا جميع صور السماء والكواكب عند ماتغضب الطبيعة أو تتغير ظواهرها ، فانظر إلى الصورة التي صوروا بها الشمس عند الجذب والبرد ، لقد صوروها بالورس خضب بالزعران ، وذلك في قول متمم بن نويرة مادحا :

لَعَمْرِي لَنَعَمَ الْمَرْءُ يَطْرُقُ ضَيْفُهُ إِذَا بَانَ مِنْ لَيْلِ النَّامِ هَزِيعُ
بَذُولٍ لِمَا فِي رَحْلِهِ غَيْرُ زَمَحٍ إِذَا أَبْرَزَ الْخُورَ الرِّوَانِعَ جُوعُ
إِذَا الشَّمْسُ أَضْحَتْ فِي السَّمَاءِ كَأَنَّهَا مِنْ الْمَحَلِّ حُصَّ قَدْ عَلَاهُ رُدُوعُ

وانظر إلى تلك الصورة الرائعة التي رسمها سبيع بن الخطيم التيمي للمطر يسقط في غدير ، وقد ساق تلك المطرة ريح الجنوب التي تسير مبطنّة متثاقلة ، في حين تكف الصبا سحابة ثقيلة :

وَمُسَيِّبٍ خَصِرٍ ثَوَى بِمَضِلَّةٍ وَإِذَا نُحِرَّ كُهُ الرِّيَّاحُ يَزِيفُ
حَلَّتْ بِهِ بَعْدَ الْهُدُوءِ نِطَاقُهَا مِسْعٌ مَسْهَلَةُ النَّتَاجِ زَحُوفُ
تَرَعُ الصَّبَا رِيْعَانَهُ وَدَنْتْ لَهُ دُلُحٌ يَنْوُنَ عِظَامَهُنَّ ضَعِيفُ
٧٣٣ : تَنْفِي الْحَصَى حَجَرَاتُهُ ، وَكَأَنَّهُ بِرَحَالٍ خَيْرٍ بِالضُّحَى مَخْفُوفُ

وإذا جاوزنا السماء وأجرامها ، والرياح وأنواءها ، والسحب وأمطارها إلى الأرض ألفينام وصفوا الصحراء فأطالوا وصفها ، ورسموها وما تشتمل عليه فأجادوا رسمها ، في أبيات قليلة ولكنها جامعة ، وفي نظرات قصيرة وإن تكن ممعنة ، وألما في خلال تصويرهم إليها بالسراب فأكثرُوا من ذكره ، وأطالوا في وصفه ، وقد مر فيما عرضناه بعض رسمه ،

وهذه صور أخرى له ، قال المرقش الأكبر مصوراً الجبال يغطيها السراب حيناً ، ويبرزها حيناً ، فكانها تطفو وتغرق في خليج من الماء :

وَأَعْرَضَ أَعْلَامُهَا كَأَنَّ رُءُوسَهَا رُءُوسُ جِبَالٍ فِي خَلِيجٍ تَغَامَسُ
إِذَا عِلْمٌ خَلَفَتْهُ يُهْتَدَى بِهِ بَدَا عِلْمٌ فِي الْآلِ أَغْبَرُ طَامِسُ

وهي صورة رائعة لا يتصورها إلا من عبر الصحراء ، وتأمل جريان الآل فيها .
وقال بشر بن أبي خازم يفخر بقطعه فلاة تعزف فيها الجن ، وتحن بها رياح السهام ،
ويصور الآكام متخذة من اللوامع دروعاً :

وَحَرْقٍ تَعْرِفُ الْجِنَانُ فِيهِ فَيَا فِيهِ تَحْنُ بِهَا السَّهَامُ
ذَعَرْتُ ظِبَاءَهَا مُتَفَوِّراتٍ إِذَا ادَّرَعَتْ لَوَامِعَهَا الْإِكَامُ

وقال الثقب العبدى يفخر بقطعه البلاد إبان اشتداد الحر ، والتهاب الهجير ، وقد شبه
السراب ببيض الثياب ، كما أنه في قلبه يشبهها في طيها :

أَجِدُّكَ مَا يُذَرِّبُكَ أَنَّ رَبَّ بِلْدَةٍ إِذَا الشَّمْسُ فِي الْأَيَّامِ طَالَ رُكُودُهَا
وَصَاحَتْ صَوَادِحُ النَّهَارِ وَأَعْرَضَتْ لَوَامِعُ يُطَوِّى رِيْطُهَا وَبُرُودُهَا
قَطَعَتْ بِفِتْلَاءِ الْيَدَيْنِ ذَرِيْعَةٍ يَقُولُ الْبِلَادَ سَوْمُهَا وَبَرِيدُهَا

أما الآثار الإنسانية فكانت عندهم جد قليلة ، فلم تكن لهم قصور عالية ، ولا حصون
منيعه ، ولا قلاع حصينة ؛ كما لم يكن لهم أثاث ولا رياش يستولى على مشاعرهم ، ويستبد
بعواطفهم ، فعذرهم واضح ، إذ كيف أصف شيئاً لا أجده ؟ وأنى لى أن أصور متاعاً
لا أعرفه ؛ على أن منهم من دفعته معارفه إلى وصف أشياء رآها في غير محيطه ، من ذلك
قول راشد بن شهاب البشكري يفخر :

بَنَيْتُ بِشَاجِرٍ مَجْدَ لَا مِنْ حِجَارَةٍ لِأَجْعَلَهُ عِزًّا عَلَى رَغْمٍ مِنْ رَغْمٍ
أَسْمَ طَوَّالٍ يَدْحَضُ الطَّيْرَ دُونَهُ لَهُ جَنْدَلٌ يَمَّا أَعَدَّتْ لَهُ إِرَمٌ
وَيَأْوِي إِلَيْهِ الْمُسْتَجِيرُ مِنَ الرَّدَى وَيَأْوِي إِلَيْهِ الْمُسْتَمِيزُ مِنَ الْعَدَمِ

والآيات التي تنسب إلى السموءل بن عاديا يفخر بقصره الأبلق عند ما لجأ إليه امرؤ القيس واستودعه أدرعه ، فضرب به المثل في الوفاء إذ أسلم ابنه للقتل دون أن يخون أمانته ، فيسلم أدرع من لجأ إليه :

وَفَيْتُ بِأَدْرُعِ الْكِنْدِيِّ إِنِّي إِذَا مَازُمٌ أَقْوَامٌ وَفَيْتُ
وَأَوْصَى عَادِيًا يَوْمًا بِالْأُتَيْدِمْ يَا سَمَوَّءَلُ مَا بَنَيْتُ
بَنَى لِي عَادِيًا حِصْنًا حَصِينًا وَمَاءٌ كَلَمَّا شِئْتُ اسْتَقَيْتُ

ولكنهم وصفوا من الآثار الإنسانية الخمر ، وأكثروا من القول فيها ؛ لأنها كانت عندهم مظهراً لكثير من أخلاق الفتوة كالشجاعة والسخاء والإتلاف ، وقد دفعهم شغفهم بشرايها وولعهم بمعاقبتها إلى الافتتان في المعاني ، والابتداع في الصور ، وقد مر بنا الكثير من تلك المعاني المفتنة المبتدعة ، وكلها يشهد بأنهم سامو الخيال ، ماهرو التصوير ، وما مر بنا ليس بأفضل ما قيل ، ولكنه من أفضله ، وإلا فأى حسن يفوق هذا الذي نسوقه للقرش الأصفر يصف ريق محبوبته ؟ وأن الخمر التي من صفاتها أنها صهباء كالملك ريحاً ، المصفاة بالناجود ، أو المكيلة بالأقداح التي بقيت في دنيا عشرين عاما يطان عليها القرمذ ، وتبرز للريح لتبرد ، قد اشترت من قوم يهود لهم بمصرها خبرة ، وبيننا وبينهم شقة ؛ إلا أن حبنا لها قرب منا سوقها ، فسمعنا إليها حتى حصلنا عليها ؟ وهامى ذى الآيات :

وَمَا قَهْوَةُ صَهْبَاءُ كَالْمِسْكِ رِيحُهَا تَعْلَى عَلَى النَّاجُورِ طَوْرًا وَتُقَدِّحُ
تَوْتٌ فِي سِبَاءِ الدَّنِّ عِشْرِينَ حِجَّةً يُطَانُ عَلَيْهَا قَرَمَدٌ وَتُرْوَحُ
سَبَّاهَا رَجَالٌ مِنْ يَهُودَ تَبَاعَدُوا لَجِيلَانٍ يُدْنِيهَا مِنَ الشُّوقِ مُرْجُ
بِأَطْيَبَ مِنْ فِيهَا إِذَا جِثْتُ طَارِقًا مِنْ اللَّيْلِ ، بَلْ فَوْهَا أَلَدٌ وَأَنْصَحُ ٧٥٠

وهذا عبدة بن الطيب يقدو وقرن الشمس منفثق ، وكأنه مجلل بسواد الليل ؛ إذ الديك يدعو أعضاء أسرته ، يقدو إلى التجار فأعداه شاب معجب بنفسه يجر من خلفه إزاره ، كأنه في حسنه صدر السيف ، له شمائل كريمة ، وأفانين في الخير ، هو رجل جد عند ما يجذ الأمر ويشدد ، ورجل لهو ومجون عند ما يحلو اللهو والمجون ، فاتكأنا عند

تاجرها على فراش مرقومة ، ونمارق منقوشة ، عليها زخارف وتهاويل ، فيها صور الدجاج والأسود ، بل فيها تماثيل لكل شيء ، في بيت يشبه الكعبة في شكله أو في قداسته ، شادها بان ماهر ، فزين أركانها وجمل مبانيها ، يضيئها ذبال مفتول ، لنا أصيص كأنه أصل الحوض هدمه تراحم الإبل عليه ، لدى ذلك الأصيص الزق مغلول مقيد ، والكوب أبيض ، في جيده إكليل من الزهر ، قد برد ذلك الكوب بالماء ، فبينه وبين الأصيص جرة ضخمة كأنها في شكلها وسط حار وحشى قد ثقب جانبه ، والكوب مترع قد علاه الزبد ، وقد أعدت لنا قطعة عظيمة من لحم كبش ، مشكوكة في السفود ، يطوف بها علينا خادم عجل ، تنطق بمنطقته ، وبين يدينا صحفة فيها الأبازير ، ثم شربت صباحا خمر احمرء ، لها في شاربها رعدة ، وهى خمر لم يسبقنى إلى معاقرتها إنسان ، شربتها صرفا وإن بدت لرقتها ممزوجة ، وقد يعلنا مغنّ بشعر كأنه الأصباغ المذهبة للسقوف يتناقله الرواة ، ويحملونه في الآفاق ، ترفع حواشى ذلك الشعر المذهب قينة طويلة الجيد ، تؤنس جلسها ، كأن صوتها للشاربين ترتيل ومزامير ، تمر علينا غدوة تلهينا بغنائها ، فذهب لها البرود والسرايل ، وهذه هى الأبيات :

وَدُونَهُ مِنْ سَوَادِ اللَّيْلِ تَجْلِيلُ	وَقَدْ غَدَوْتُ وَقَرْنُ الشَّمْسِ مُنْفَعِقُ
لَدَى الصَّبَاحِ ، وَهُمْ قَوْمٌ مَعَارِيلُ	إِذَا شَرَفَ الدَّيْكَ يَدْعُو بَعْضُ أُسْرَتِهِ
رِخْوُ الْإِزَارِ كَصَدْرِ السَّيْفِ مَشْمُولُ	إِلَى التَّجَارِ فَأَعْدَانِي بِلَذَّتِهِ
مُخَالِطُ اللَّهِوِ وَاللَّدَاتِ ضَلِيلُ	خِرْقٌ يَجِدُّ إِذَا مَا الْأَمْرُ جَدَّ بِهِ
مِنْ جَيْدِ الرَّقْمِ أَزْوَاجُ تَهَاوِيلُ	حَتَّى اتَّسَكْنَا عَلَى فُرْشِ زَيْنَتِهَا
مِنْ كُلِّ شَيْءٍ بَرَى فِيهَا تَمَائِيلُ	فِيهَا الدَّجَاجُ ، وَفِيهَا الْأَسَدُ مُخْدِرَةُ
فِيهَا ذُبَالٌ يُضِيءُ اللَّيْلَ مَفْتُولُ	فِي كَعْبَةٍ شَادَهَا بَانٍ وَزَيْنَتُهَا
وَطُءُ الْعِرَاكِ ، لَدَيْهِ الزُّقُ مَغْلُولُ	لَنَا أَصِصٌ كَجِذَمِ الْحَوْضِ هَدْمُهُ
فَوْقَ السَّمَاعِ مِنَ الرِّبْحَانِ إِكْلِيلُ	وَالْكُوبُ أَزْهَرُ مَعْصُوبٍ بِهَلْتِهِ

٧٥٩ :

مُبَرَّدٌ بِمَزَاجِ الْمَاءِ بَيْنَهُمَا حُبٌّ كَجَوْزِ حِمَارِ الْوَحْشِ مَبْزُولُ
وَالْكُوبُ مَلَانٌ طَافَ فَوْقَهُ زَبَدٌ وَطَابِقُ الْكَبْشِ فِي السَّقُودِ مَحْمُولُ
يَسْعَى بِهِ مِنْصِفٌ عَجَلَانُ مُنْتَطِقُ فَوْقَ الْحِوَانِ ، وَفِي الصَّاعِ التَّوَابِلُ
نَمْ اصْطَبَحْتُ كَمَيْتًا قَرَقَقَا أَنْفَا مِنْ طَيِّبِ الرَّاحِ ، وَاللَّذَاتُ تَعْلِيلُ
صَرَفًا مَزَاجًا ، وَأَحْيَانًا يَمَلُّنَا شِفْرٌ كُذْهَبَةُ السَّمَانِ مَحْمُولُ
تُذَرِي حَوَاشِيَهُ جِدَاءُ آنِسَةٍ فِي صَوْتِهَا لِسَمَاعِ الشَّرْبِ تَرْتِيلُ
٧٦٦ : تَقْدُو عَلَيْنَا تُلْهِمُنَا وَنُصْفِدُهَا تُلْقَى الْبُرُودُ عَلَيْهَا وَالسَّرَايِلُ

أى مجلس شراب آنق من ذلك المجلس ؟ وأى مجلس أحفل بأسباب الأنس والمرح
من مجلس عبدة بن الطبيب ؟ شراب وطعام وغناء ، لقد عز عليه أن يقترح فيه ما يمكن أن
يزيده جمالا .

أما النوع الآخر من الآثار الإنسانية التى عنوا بها ، وشغفوا بوصفها فهى عتاد
القتال ، وأسلحة الحروب ، وقد أوفيناها حقها عرضا وبسطا ، ولا يزال حديثنا عنها جد
قريب وحسبنا ما قدمناه .



الفصل السابع

صور لمظاهر مؤتلفة من الطبيعتين المتحركة والساكنة

(١) وصف الطعائن

١ - قال المثقب العبدى * من قصيدة أولها :

أَفَاطِمُ قَبْلَ بَيْنِكَ مَتَّعْنِي وَمَنْعَكَ مَا سَأَلْتُكَ أَنْ تَبْنِي^(١)

لِمَنْ طُعْنُ تَطَالُعٍ مِنْ ضُبُيبٍ فَأَخْرَجْتَ مِنَ الْوَادِي لَحِينَ؟^(٢)

مَرَزْنَ عَلَى شَرَافٍ فَذَاتِ رَجُلٍ وَنَكَبْنَ الذَّرَائِحَ بِالْيَمِينِ^(٣)

وَهُنَّ كَذَاكَ حِينَ قَطَعْنَ فَلَجًا كَأَنَّ حُومَلَهُنَّ عَلَى سَفِينٍ^(٤)

يُشَبِّهْنَ السَّفِينَةَ ، وَهُنَّ بَحْتُ عَرَاضَاتُ الْأَبَاهِرِ وَالشُّؤُونِ^(٥)

٧٧٢ : وَهُنَّ عَلَى الرَّجَازِ وَاكِنَاتٌ قَوَاتِلُ كُلِّ أَشْجَمٍ مُسْتَكِينٍ^(٦)

* ترجمته الشاعر : اقرأ الترجمة في ص ٨٢ .

التفسير اللغوي : (١) متعني : بالوصل . أن تبني : أن تبعدي .

(٢) الطعن : جمع طعينة ، وهو الهودج فيه النساء . ضبيب : بالضاد أو الصاد موضع لحين : بعد حين وإبطاء .

(٣) شراف ، وذات رجل ، والذرائح : أمكنة . نكبن : عدلن .

(٤) الفلج : الطريق أو الوادي . الحمول : جمع حمل الهودج كان فيها النساء أو لم يكن . السفين : جمع سفينة .

(٥) البخت : الجمال طوال الأعناق . عراضات : جمع عراضة ، والعراض المفرط في العرض كطوال . الأباهر : جمع أبهر عرق في الظهر . الشؤون : جمع شأن ، وهي شعب قبائل الرأس التي تجري منها الدموع إلى العينين .

(٦) الرجاء جمع رجاءة بكسر الراء مراكب النساء . واكنات : مطمئنتات . الأشجع : الطويل . مستكين : خاضع .

- كغزلانٍ خُذِلْنَ بذاتٍ ضالٍ تنوشُ الدَّانِيَّاتِ مِنَ الْغُصُونِ^(٧)
ظَهَرْنَ بِكَلَّةٍ ، وَسَدَلْنَ رَفْعًا وَتَقَبْنَ الْوَصَاوِصَ لِلْعُيُونِ^(٨)
وَهُنَّ عَلَى الظَّلَامِ مُطَلَّبَاتٌ طَوِيلَاتُ الذَّوَائِبِ وَالْقُرُونِ^(٩)
أَرَيْنَ مُحَاسِنًا ، وَكُنَّ أُخْرَى مِنَ الْأَجْيَادِ وَالْبَشَرِ الْمَصُونِ^(١٠)
وَمِنْ ذَهَبٍ يَلُوحُ عَلَى تَرِبٍ كَلَوْنِ الْعَاجِ لَيْسَ بِذِي غُصُونِ^(١١)
بِتَلْهِيمَةٍ أُرِيشُ بِهَا سِهَامِي تَبْدُ الْمُرْشَقَاتِ مِنَ الْقَطِينِ^(١٢)
عَلَوْنَ رِبَاوَةٍ ، وَهَبَطْنَ غَيْبًا فَلَمْ يَرْجِعَنَّ قَائِلَةٌ لِحِينِ^(١٣)
فَقُلْتُ لِبَعْضِهِنَّ ، وَشَدَّ رَحْلِي لَهَا جِرَّةٌ نَصَبْتُ لَهَا جَبِينِي^(١٤)
لَعَلَّكَ إِنْ صَرَمْتَ الْحَبْلَ مِنِّي كَذَلِكَ كُونِ مُصْحَبَتِي قَرُونِي^(١٥)

(٧) خذلن : تخلفن . ذات ضال : اسم مكان يكثر فيه شجر الضال . تنوش : تتناول الدانيات : القريبات .

(٨) الكلة : الستر الرقيق . سدلن : أرسلن . الرقم : ضرب مخطط من الوشي أو البرود . الوصاوص : البراقع الصغار ، واحدها وصواص .

(٩) الظلام : بكسر الظاء الظلم . مطلبات : مطلوبات . الذوائب : جمع ذؤابة ضفائر الشعر . القرون : خصل الشعر .

(١٠) كنن : سترن . الأجياد . جمع جيد الأعناق . البشر : ظاهر الجلد . المصون : المستور .

(١١) التريب : جمع تريبة ، وهى عظام الصدر موضع القلادة . الغصون : ثنى الجلد من الكبر .

(١٢) التلهية : التسلية . أريش بها سهامى : أزرق فيها الريش لتكون أفتك . تبد : بالبدال والزأى تسبق وتغلب . المرشقات : المستشرقات للأنظار . القطين : الخدم والتباع والجيران .
(١٣) الرباوة : ما ارتفع من الأرض . الغيب : ما اطمأن منها . القائلة : القيولة وهى نصف النهار . لحين : لوقت قصير .

(١٤) لها جرة : عند هاجرة النهار وهو منتصفه نصبت : رفعت . جينى : أعلى وجهى .

(١٥) صرمت الحبل : قطعت الوصل . مصحبتى : تابعتى . قرونى : نفسى .

تحليل الأبيات :

بدأ الشاعر قصيدته بمناجاة حبيبته ، فقال :

متعيني قبل الفراق بنظرة تكون لى أسعد الذكريات ، فتخف اللوعة ، ويهون الوجد ،
فإن لم تفعلى شعرت عندئذ بألم الفراق ، ووجد البين .

ثم انتقل بعد أبيات إلى وصف الظعن ، فتساءل تساؤل المتلهف عن فيها ، فقال :
لمن هذه الظعن تظهر من ضبيب؟ فإنها لم تخرج من ذلك الوادى من حين ، لكأنها كانت
تستريح من سفر غير قاصد ، ومرحلة ليست بالقصيرة ، وكيف لا ؟ وقد مررن بأمكنة كثر :
بشراف وذات رجل ، بعد أن انحرفن عن الذرائح إلى اليمين ، وهن إذ قطعن فلجاً تشبه
هوادجهن السفائن ، تشبهها في امتدادها ، وتمايلها في سيرها ، واستواء ماتجرى فوقه ، ونفاسة
ماتحملة ، تشبهها مع أنها إبل طوال الأعناق ، عراض الأباهر ومجارى الدموع .

أولئك النسوة في هوداجهن ساكنات مطمئنات ، يقتلن بسحر جمالهن العشاق من
الشجعان ، ما أشبههن بغزلان تخلفن بأرض يكثُر فيها الضال ، فهن يمددن أجيادهن يتلقفن
أوراق الأشجار ، ظهرن بوجوههن الوضاعة الواضحة من الأستار الرقيقة المرفوعة ،
وسدلن رقما مطرزا بالديباج ، موشى بالدمقس ، وثقبن البراقع الصغار بالعيون الناعسات ، وهن
مع ظلمهن لنا ، ودلمن علينا ، مطلبات منا ، مرغوبات إلينا ، قد تعددت أسباب جهن ، أذناها
أنهن طوال الذوائب ، مرسلات الغدائر ، أبدين من محاسنهن ما يصح أن يظهر من عيون
نواعس ، وخدود نواعم ، وغدائر مرسله ، وسترن أخرى كالجياذ الناصعة ، والبشر المصون ،
والقرايب حليت بقلائد الذهب التى تشبه الحاج فى صفاء لونها ، وملاسة بشرتها ، فهن
شواب ناعمات .

أنتهى بفاطمة تلك حين أريش سهاى استعدادا للحرب ، فذكرها تبعث فى النجدة ،
ففى تفوق الفتيات الشاخصات ، وتثير بجماها الغوانى المرشقات من القطين والجارات .
علت تلك الظلمات ربا وهبطن وهذا دون أن يسترحن ، فهن يصلن صباحهن بأصيلهن

وإن شق ذلك عليهن ، فقلت لإحداهن ، وهى محبوبتى التى أتتبع خطاها بشد رحلى معها
فى الهاجرة ، يستقبل أوارها جينى : أخشى إن قطعت وصلى ، وصرمت جبل ودى أن تقطع
نفسى وصلك ، وتصرم جبل وذك .

النقر :

بدأ وصف الظعن بالاستفهام التحسرى ، فأحسن فى البدء ، وبرع فى الاستهلال ،
ولولا أنه أ أكثر من ذكر المواضع والأمكنة لكان قد بلغ الغاية ، كما بلغها فى تشبيهه البخت
بالسفن ، فهو تشبيه رائع جميل ، وبيته :

وهن على الرجاثر واكنات قواثل كل أشجع مستكين

بيت فارع الحسن بتصويره وبتخيل لفظه ، وما أجل أن يجمع بين الشجاعة والاستكانة ،
فهو شجاع عند ملاقاته الأقران ، خاضع لدولة الحسن والجمال ، وليس أقل منه تصويراً ذلك
البيت الذى استمد لقبه منه ، وهو :

ظهرون بكلة وسدلن رقما وثقبن الوصاوص للعيون

فهو بيت فيه من التصوير الحسى والنفسى ما لا يمكن الغض منه ، هذا إلى ما فى الأسلوب
من جمال رائع يبدو فى تلك المقابلات التى لا تكلف فيها من مثل قوله :
أرين محاسنا وكنن أخرى من الأجياد والبشر المصون

وقوله :

علون رباوة وهبطن غيبا فلم يرجمن قائلة لحين

وإذا كان هناك ما يمكن أن يؤخذ عليه فهو خشية القطيعة إن صرمت حبله ، فالعاشق
لا يملك زمام قلبه ، ولا يدفع جراح نفسه وكذلك مما يمكن أن يأخذه عليه نقدة الأساليب
تكرير القافية فى البيتين الثانى والثالث عشر ، وهم يقولون صادقين إن التكرار قد يكون
مبعثه نضوب معين القافية .

٢ — وقال زهير بن أبى سلمى * من معلقته يصف الظمائن كذلك :

- تَبْصُرُ خَلِيلِي هَلْ تَرَى مِنْ ظَمَائِنِ تَحْمَلُنَ بِالْمَلْيَاءِ مِنْ فَوْقِ جُرْثُمِ؟ (١)
عَلَوْنَ بِأَنْمَاطٍ عِتَاقٍ وَكَلَّةٍ وَرَادٍ حَوَاشِيهَا مُشَاكِهَةَ الدَّمِ (٢)
وَفِيهِنَّ مَلْهَى لِلطَّيْفِ وَمَنْظَرٌ أُنِيقُ لِعَيْنِ النَّاطِرِ الْمُتَوَسِّمِ (٣)
بَكْرُنَ بُكُورًا، وَاسْتَحْرَنَ بِسُحْرَةٍ فَهِنَّ وَوَادِي الرَّسِّ كَالْيَدِ لِلْفَمِ (٤)
جَعَلُنَ الْقَنَانَ عَنْ يَمِينٍ وَحَزَنَهُ وَكَمْ بِالْقَنَانِ مِنْ مُحِلٍّ وَمَحْرَمِ (٥)
ظَهَرْنَ مِنَ الشُّوبَانِ، نَمَّ جَزَعُهُ عَلَى كُلِّ قَيْئٍ قَشِيبٍ مُقَامِ (٦)
وَوَرَّكُنَ فِي الشُّوبَانِ يَعْلُونَ مَتْنَهُ عَلَيْهِنَّ ذَلُّ النَّاعِمِ الْمُتَنَعِّمِ (٧)
كَأَنَّ فِتَاتَ الْعَهْنِ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ نَزَلْنَ بِهِ حَبُّ الْقَنَا لَمْ يُحْطَمِ (٨)
فَلَمَّا وَرَدْنَ الْمَاءَ زُرْقًا جَاهُهُ وَضَعْنَ عَصَى الْحَاضِرِ الْمُتَخَيِّمِ (٩)

* ترجمه الشاعر : اقرأها فى ص ٨٨ .

التفسير اللغوى : (١) تبصر خليلي : تأمل يا صاحبي . ظمائن : جمع ظمينة ، وهى الإبل فوقها الهوداج فيها النساء . العلياء : بلد . جرثم : ماء من مياه بنى أسد .
(٢) بأنمط . أنمط جمع نمط ، وهو ثوب من الصوف يطرح على الهودج . عتاق : كرام . الكلة ثوب رقيق يكون تحت الأنمط . وراد : تشبه لون الورد . حواشيا : نواحيها .
مشاكهة : مشابهة . (٣) ملهى : لهو . اللطيف : الرقيق لا جفاء فيه . أنيق : معجب .
التوسم : التفرس . (٤) استحرن : خرجن سحرة . وادى الرس : الرس ماء لبنى أسد .
(٥) القنان : جبل لبنى أسد . الحزن : الموضع الغليظ : محل ومحرم : ذى عهد وغير ذى عهد ، أو عدو وغير عدو . (٦) الشوبان : واد . جزعنه : قطعنه . قئى : صفة لموصوف محذوف ؛ أى على كل غبيط قئى ، وهو النسوب إلى بلقين ، وهم حى من اليمن تنسب إليهم الحال ، وهو قتب طويل يكون تحت الهودج . قشيب : جديد . مقام : موسع .
(٧) وركن : ملن . متنه : أعلاه ؛ والثن ما ارتفع من الأرض وغلظ . عليهن : على الظمائن . دل الناعم : دلال الرقيق واختيال الرفه . (٨) فئات العهن : منتشر الصوف ما صبغ منه وما لم يصبغ . منزل : مكان نزول . الفنا : شجر ثمره حب أحمر فيه نقطة سوداء . لم يحطم : لم يكسر . (٩) الحمام : ما اجتمع من الماء . وضعن عصى الحاضر : كناية عن الإقامة . المتخيم : القيم للخيام .

تحليل الأبيات :

تأمل أيها الصديق هل ترى ظمائن سائرات ؟ قد تحملن من العلياء محاذيات في مسيرهن ماء جرثم ، رفعن فوق الأمتعة الأنماط والكلل ذات اللون الوردى من نواحيها ، المشاكلة للدم في حواشيها ، في رؤية أولئك الظمائن ملهى الرجل الرقيق الذى لا جفاء فيه ، والمنظر الأنيق المعجب للسيد المتأمل الذى يعرف الجمال فيصفه ويطريه .

خرجن إلى رحيلهن بكرة ، و سرن سحرة ، فهن في مسيرهن بوادى الرس ، عالمات بطرقه ، كما تعرف اليد الطريق إلى النعم ، لا تجور عنه ولا تنحرف دونه .

جعلن جبل القنان وحزنه في مسيرهن عن يمينهن اتقاء لمخاطره ، فكم به من أقوام لهم ذمة وعهود ، وأقوام لازمة لهم ولا عهود ، خرجن من وادى السوبان ، ثم عرضن له مرة أخرى ، فقطعنه على كل غبيط منسوب إلى بلقين ، لا يزال قشيبا جديدا موسعا من جانبيه ، وملن في وادى السوبان عاليات ماغلظ منه وارتفع ، يبدو على الظمائن دلال المتنعم ، ورفاهية المترفه ، كأن حثات الصوف في كل مكان ينزلن به حب الفنا قبل أن يحطم ، فحين وردن الماء أزرق لتجمعه ، وضمن عصى التخيم ، ونصبن أخبية المقيم .

النقد :

بدأ زهير أبياته على نحو مابداً به المثقب أبياته ، فكلاهما يستنهم في حسرة عن الظمائن ، وإن كان المثقب قد تجاهل أن هذه الظمائن هى التى فيها مالكة له تخفينا من وجده ، وكلاهما رسم طريق سير هذه الظمائن ، وصور الوديان التى سرن فيها إلا أن زهيراً كان أقدر على رسم خط السير ، ولكنه قصر في الحديث عن جمالهن ومجدهن ، وإن يكن كثير عزة حكم له بالتفوق في النسيب ، إذ سئل أى بيت أنسب ؟ فأشدد :

فلما وردن الماء زرقا جمامه وضعن عصى الحاضر التخيم

أما نحن فلا نرى في هذا البيت ما يراه كثير ، وخير منه عندنا قول المثقب :

وهن على الرجائز واكنات قوادل كل أشجع مستكين

كفرلان خذلن بذات ضال تنوش الدانيات من الفصون

(ب) في وصف الفرسان وعتادهم عند الحرب

١ — قال ضمرة بن ضمرة * يصف نفسه في قتال عدوه :

وَمُشَعَلٍ كَالطَّيْرِ نَهْنَهْتُ وَرَدَّهَا إِذَا مَا الْجَبَانُ يَدْعَى ، وَهُوَ عَانِدٌ^(١)
 عَلَيْهَا الْكُمَةُ وَالْحَدِيدُ ، فَهُمْ مَصِيدٌ لِأَطْرَافِ الْعَوَالِي وَصَائِدٌ^(٢)
 شَمَاطِيطٌ تَهْوِي لِلسَّوَامِ ، كَأَنَّهَا إِذَا هَبَّتْ غُوطًا كِلَابٌ طَوَارِدٌ^(٣)
 وَقَرْنٍ تَرَكْتُ الطَّيْرَ تَحْجُلُ حَوْلَهُ عَلَيْهِ نَجْمٌ مِّنْ دَمِ الْجَوْفِ جَاسِدٌ^(٤)
 ٧٩٥ : حَشَاةُ السَّنَانِ ، ثُمَّ خَرَّ لِأَنْفِهِ كَمَا قَطَرَ الْكَعْبُ الْمُورَّبُ نَاهِدٌ^(٥)

* ترجمته الشاعر : هو ضمرة بن ضمرة بن جابر بن قطش بن نهشل التيمي ، كان لسنا فصيحاً ، كان اسمه (شقا) فدخل على النعمان بن المنذر فعاب دمامته ، فقال له : أبيت اللعن إن الرجال لا تكمل بالقفران ، ولا توزن بميزان ، وإنما المرء بأصغريه ، بقلبه ولسانه ، إن صال صال بخنان ، وإن قال قال ببيان ، فقال له النعمان : أنت ضمرة بن ضمرة يريد أنه كأبيه ، فصار اسمه ضمرة . توفي حوالي سنة ٦٠٠ م .

التفسير اللغوي : (١) المشعلة : الكثيفة تشعل للحرب ، شبهها بالنار المشعلة . نهنت : كفت ، وردها : الورد القطعة من الجيش . يدعى : ينتسب . عاند : منحرف .
 (٢) الكمة : جمع كمي الفرسان في أتم سلاحهم . العوالي : جمع عالية وهي أعلى الرماح .
 (٣) شماطيط : جمع شطاط أو شمطوط ، أو الشمطيط الفرقة من الجيش . تهوى : تسقط .
 السوام : الإبل الراحية . الغوط : جمع غائط ، وهي الأرض الواسعة الطمئنة ، ومنها غوطة دمشق ، وهي أجمل قطعة فيها . طوارد : قوائم .
 (٤) القرن : النظير في النجدة والفروسية . تحجل : تسير على رجل واحدة من الفرج . النجم : الدم الشديد الحمرة .
 الجاسد : اللازق . (٥) حشاه السنان : دخل في أحشائه . خر : سقط . قطره : رماه على قطريه ، وما جانبا . الكعب : عظم يلعب به . المورب من الكعب : الحاد الأطراف .
 الناهد : الصبي المرتفع .

تحليل الأبيات :

يصف ضمرة شجاعة قومه في قتال عدوهم ، فيقول : رب كتيبة كثيفة منتشرة انتشار الطير كفكفت جموعها ، ونهنت جحافلها ؛ حين يدعى الجبان الدعاوى ، وينسب إلى نفسه البأس والقوة ، وهو عائد عن الجمع ، منحرف عند ملاقاته الحشد ، خشية أن يصيبه الحتف ، يتزعم هذه الكتيبة الكماة الأبطال يغطيهم الحديد ، ويتسربلون بالبيض والدروع . ولكن جديدهم لم يغن عن أكثرهم شيئا ، ويبيضهم ودروعهم لم تدفع عن جموعهم قضاء ، فن هؤلاء المصيد والصائد ، والأسير والأسر .

فرق هذه الكتيبة تنقض على الغنائم انقضا الكلاب الطوارد ، وتهوى على الفئ هوى الطيور الجوارح ؛ لأنها لا تنبأ إلى عدوها ، فقد ألجمته السنان ، وكسته الهزيمة العار . تلك الكتيبة لا تثبت لى فى ضراب ، ولاتنى أن تنهزم أمامى عند تبادل الطعان . ورب قرن جدلته وتركته نهش السباع ونهب الطيور ، فهى تحجل حوله تنتاش لحمه ، وتمتص عظمه ، فوق أجزاء جسمه الدم المتجمد ، وعلى أطرافه النجيع المتجسد ، فقد أوجأت شاة السيف فى أحشائه ، فسقط على وجهه ، كما يرمى الفتى الناهد الكعب المحدد ، فيلصق فيما يسقط عليه ، ويستقر فى أحشاء ما يرمى به .

النقد :

فى هذه الأبيات تصوير للحرب ، فكم من الناس يقول ويدعى ، حتى إذا دارت رحاها انحرف عنها ، وخاف ميدانها « إذا ما الجبان يدعى وهو عائد » فى هذه الحرب تتصاول الفرسان ، ففيها الصائد والمصيد ، والأسر والأسير ، « مصيد لأطراف العوالى وصائد » . وفيها تصوير للجند وقدا انتهت المعركة ، فهم ينصرفون إلى جمع الغنائم واقتسام الأسلاب ، وحينئذ تقبل الطيور « عصائب طير تهتدى بعصائب » لتجد طعاما ميسرا موفورا . وفيها وصف للقتلى يخرون على حراؤفهم ، وأمروء وسهم ، إذ سددت إليهم الأسنة تسديد اللاعب بالكعب المؤرب ، وهى صور لامبالغة فيها ولا غلو .

٢ — وقال دريد بن الصمة * يصف حرباً قتل فيها أخوه عبد الله :

دَعَايَ أَخِي وَالْخَيْلُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فَلَمَّا دَعَانِي لَمْ يَجِدْنِي بِمُقَعَدٍ ^(١)
 أَخِي أَرْضَعْتَنِي أُمُّهُ بِلِبَانِهَا بِشِدَّتِي صَفَاءَ بَيْنِنَا لَمْ يُجَدِّدِ ^(٢)
 تَنَادَوْا، فَقَالُوا: أَرَدَتِ الْخَيْلُ فَارِسًا فَقُلْتُ: أَعْبَدُ اللَّهَ ذَلِكُمُ الرَّدِيُّ؟ ^(٣)
 فَجِئْتُ إِلَيْهِ وَالرَّمَا حُ تَفْشُوهُ كَوَقْعِ الصَّيَاصِي فِي النَّسِيَجِ الْمُدَدِ ^(٤)
 وَكُنْتُ كذَاتِ الْبُورِ رِيْعَتٌ فَأَقْبَلْتُ إِلَى جِلْدٍ مِنْ مَسْكٍ سَقَبَ مُقَدَّرِ ^(٥)
 فَمَارُحْتُ حَتَّى طَرَقَتْنِي رِمَاحُهُمْ وَغُودِرْتُ أَكْبُو فِي الْقَنَا الْمُتَقَصِّدِ ^(٦)
 فطَاعَنْتُ عَنْهُ الْخَيْلَ حَتَّى تَنَفَّسْتُ وَحَتَّى عَلَانِي حَالُكَ اللَّوْنِ أَسْوَدِي ^(٧)
 ٨٠٣ : قِتَالِ امْرِئٍ آسَى أَخَاهُ بِنَفْسِهِ وَيَعْلَمُ أَنَّ الْمَرْءَ غَيْرُ مُحْلَدٍ ^(٨)

* ترجمه الشاعر : هو دريد بن الصمة . واسم الصمة معاوية الأصغر بن الحارث بن معاوية الأكبر شاعر فحل ، وفارس شجاع ، كان أطول الفرسان الشعراء غزوا ، وأبعدهم أثراً ، وأكثرهم ظفراً ، وأعينهم نقيية ؛ أدرك الإسلام فلم يسلم ، وقتل يوم حنين ، وهو هنا يبكي أخاه عبد الله الذي قتل في حربه مع غطفان .

التفسير اللغوي : (١) أخى : يعنى عبد الله . الخيل : يقصد الفرسان . بمقعد : بمقعد عن القتال ، وفي رواية بمقعد . (٢) اللبان : اللبن . لم يد : لم يحف لبانه ، وفيه كناية عن دوام الصفاء . (٣) تنادوا : نادى بعضهم بعضاً . أردت : أهلكت . (٤) تنوشه : تتناوله . الصياصى : جمع صيصية ، وهى شوكة يمرها الحائك على الثوب حين ينسجه . الممدد : المطول الممتد . (٥) ذات البو : الناقة يذبح ولدها أو يموت ، فيحشى لها جلده فترأى . ريعت : فزعت . الجلد : ما جلد من السلوخ وألبس غيره لثمنه أم للسلوخ فندر عليه . المسك : الجلد لأنه يمسك ما وراءه من اللحم والعظم . السقب : ولد الناقة الصغيرة . القدد : للشقى (٦) طرقتنى : شقت جسدى وجلت فيه طرقا . أكبو : أسقط . القنا : الرماح . المتقصد : الميت . (٧) تنفست : تفرقت . حالك اللون : يقصد الغبار الكثيف من وقع حوافر الخيول حوله . أسودى : يريد أسودى ، كما قيل فى الأحمر أحمرى ، وفى الدوار دوارى ثم خففت ياء النسب بحذف إحداها ، وهى الأولى ، وجعلت الثانية صلة . (٨) آسى : سوى ، محلد : خالد .

تحليل الأبيات :

هذه الأبيات من قصيدة في الرثاء من جياذ الشعر الجاهلي ، لافي الرثاء فحسب ، بل في جميع ما تناولته فنون الشعر .

وقد كان دريد بارعا في وصف القتال ، فبعد أن ذكر دعوة أخيه إياه ، وأنه كان سريع التلبية ، إذ لم يكن عند مادعاه إلى الموت بمقعد ، فهو أخوه رضيعا ثديين جمعا على صفاء ، لم يبيس لنبهما ، فلم يحفّ عطف أمهما ، وصف القتال فقال :

لقد تنادى الأعداء ، وتجاوبت الأصداء ، أرادت الفرسان فارس الميدان ، ومن يكون ذلك الفارس غير عبد الله ، فهو وحده الذي يستحق هذا اللقب ؟

أقبلت عليه والرماح تنناشه من كل جانب ، والعوالي تتناوله من جميع أقطاره ، فتقع على جسمه الطاهر وقوع الشوكة يمرها على الثوب الناسج ، فهو لم يغلب عن ضعف ، وإنما غلبته الكثرة الكثيرة .

حينئذ كنت كالناقة يذبح سقبا فتراع وتفزع ، فتبعث فيها الروعة والفرع النظر إلى ذلك البوتشمه وتحسسه ، فأنا أنامله تأمل الأم المنكوبة في وليدها ، فما نزلت إلى الميدان حتى خرقت جسمي رماحهم ، وجعلته طرائق وخطوطا ، وتركت أكبوا في الرماح الطاعنة .

لقد طاعنت عن جثته الفرسان حتى تفرقت جموعها ، وحتى علا النقع رأسى ، فصرت منه حالك اللون ، أسود البشرة ، لقد قاتلت قتلة أخى قتال أخ صادق في أخوته ، فهو يسوى بينه وبين أخيه حتى في طلب البقاء ، ويجب لأخيه الحياة كما يجبها لنفسه ، قاتلت عنه قتال من يعلم أن كل حى إلى فناء ، « وأن المرء غير مخلد » .

النقر :

الأبيات تسيل بصورها العبرات ، فهو يصور تنادى الفرسان في غبطة بقتل أخيه ، وليس أبلغ في إظهار الغبطة من كلمة « تنادوا » ثم إن شعر الرأس ليقف من الهول عند ما يتصور تناوش الرماح لأخيه ، وهى « كوقع الصياصى في النسيج الممدد » ثم أى تصوير أجمع لذهاب العقل من التسوية بينه وبين الناقة تراءم بوها ؟ لقد بلغ دريد بقصيدته آية الوصف الحسى والعاطفى .

٣ — وقال غنّرة * يصف كتيبة هزمها :

وكتيبة لبستها بكتيبة شهباء بأسلة يخاف رداها^(١)
 خرساء ظاهرة الأداة كأنها نارٌ يشبُّ وقودها بلظاها^(٢)
 فيها الكماء بنو الكماء كأنهم والحيل تمترُ في الوغى بقناها^(٣)
 شهبٌ بأيدي القاسين إذا بدت بأ كفهم بهر الظلام سناها^(٤)
 صبرٌ أعدوا كلَّ أجردٍ ساجٍ ونجبية ذبلت وجف حشاها^(٥)
 يعدون بالمستلّمين عواسباً قوداً تشكى أينها وجأها^(٦)
 يحملن فينا مَداعسَ بالقنا وقرّاً إذا ما الحربُ خفّ لواها^(٧)
 من كلِّ أروعٍ ماجدٍ ذى صولة^(٨) مرسٍ إذا لحقت خصى بكلاها^(٨)

* ترجمه الشاعر : أقرأها في ص ١٢٢ .

- التفسير اللغوي : (١) الكتيبة : الفرقة من الجيش . لبستها : خلطتها . شهباء : العظيمة الكثيرة السلاح . رداها : هلاكها .
- (٢) خرساء : لا صوت لها . الأداة : العتاد . يشب : يشعل . بلظاها : بلهبها .
- (٣) الكماء : جمع كى ، وهو الفارس المدجج بالسلاح . الوغى : الحرب . بقناها : برماحها .
- (٤) شهب : وصف لموصوف محذوف هو أسنة . بهر : كشف . سناها : نورها .
- (٥) صبر : صابرون . أجرد : وصف للفرس خف شعره لسمنه . ساج : يعدو بأفدامه الأربعة ، كما يعمل الساج بيديه ورجليه . نجبية : ناقة كريمة . ذبلت : ضمرت . حشاها : ما انضمت عليه الضلوع .
- (٦) يعدون : يحرون . المستلّمين : اللابسي اللأمة ، وهى الدرع . عواسب : غضابا . قودا : جمع أقود الدلول النقاد . أينها : تعبا . وجأها : حفاها .
- (٧) مداعس : جمع مدعى ، وهو الفارس الطعان . وقرّا : جمع وقور الساكنون . خف : اضطرب .
- (٨) الأروع : الماجد : الذكى الكريم النسب . مرس : ثابت . خصى : جمع خضية بالضم والكسر . الكلى : جمع كلية وكلوة .

وَصَحَابَةُ شَمِّ الْأَنْوَفِ بَعَثْتُهُمْ لَيْلًا وَقَدَمَالَ الْكَرَى بِطُلَاهَا^(٩)
 وَسَرَيْتُ فِي وَعَثِ الظَّلَامِ أَقْوَدُهَا حَتَّى رَأَيْتُ الشَّمْسَ زَالَ ضَحَاهَا^(١٠)
 وَلَقِيتُ فِي قُبُلِ الْمَجِيرِ كَتِيبَةً فَطَعَنْتُ أَوَّلَ فَارِسٍ أُولَاهَا^(١١)
 وَضَرَبْتُ قَرْنِي كَبِشَهَا فَتَجَدَّلَا وَحَلَمْتُ مُهْرِي وَسَطَهَا فَمَضَاهَا^(١٢)
 حَتَّى رَأَيْتُ الْخَيْلَ بَعْدَ سَوَادِهَا حُمْرَ الْجُلُودِ خُضْنَ مِنْ جَرِّ حَاهَا^(١٣)
 يَعْثُرْنَ فِي نَقَعِ النَّجِيعِ جَوَافِلَا وَيَطَّانُ مِنْ حُمَى الْوَغَى صَرْنَاهَا^(١٤)
 ٨١٨ : فَرَجَعْتُ مُحَمَّدًا بِرَأْسِ عَظِيمِهَا وَتَرَكْتُهَا جُزْرًا لِمَنْ نَاوَاهَا^(١٥)

-
- (٩) شم الأنوف : مرتفعى الأنوف ، وهى كناية عن العلا والرفعة . الكرى : النوم .
 الطلى : جمع طلية وطلاة العنق ، أو أصلها .
 (١٠) وعث الظلام : اختلاط الظلام وشده . زال : تحرك ، ومصدره زول . ضحاها :
 وقت ارتفاع الشمس .
 (١١) قبل المجير : فى أول اشتداد الحر . أولاهها : أولى طعناتى .
 (١٢) تجدلا : تكسرا . فمضاها : فقطمها .
 (١٤) نقع النجيع . النقيع : المستنقع والغبار ، والأول هو المراد . النجيع الدم الأسود
 المتجمد . حمى الوغى : شدة الحرب . صرعاها . قتلها .
 (١٥) محموداً : مشكوراً ، جزراً : جمع جزور ، وهى الناقة تجزر . ناواها : مخفف
 ناوأها عاذاها .

تحليل الأبيات :

رب فرقة كثيفة من الجند دهمتها بفرقة عظيمة العدد ، موفورة العتاد ، يخشى فتكها ، ويخاف رداها ، يسير أفرادها في سكون لامن خوف بل عن غضب ، فعتادها ظاهر ، وسلاحها لامع ، كأنه نار مشبوبة .

في هذه الفرقة فرسان ورثوا الفروسية عن آبائهم ، يشبهون — إذ تتعثر الخيل عند ماتحمى الوغى في الرماح المتساقطة ، والقنا المتهاوية — يشبهون في أيديهم سيوفهم ورماحهم شهباً بأيديهم أقباس من النار ، فيكشفون الظلام ، ويزيحون القتام ، ككأه أجلاذ ، أعدوا للجلاد الجرد السواحج ، والنجب الذوابل الأخلاف ، الجواف الأحشاء ، الضواصر البطون ، تعدو تلك الخيول عوابس غواضب ذللاً ، تشكو ما يلحقها من نصب ، وما يصيبها من أين وتعب . بفرسان قد استلأموا . إنهن يحملن فتياناً فرساناً يحسنون الطمن ، رزناً عند ما يخف عقل الحليم ، ويضيع رشد الوقور ؛ إذا خف لواء الحرب ، فحمل أثناء الرجوع بالفشل ، من كل نذب ماجد ، وأروع ذكى ، ذى جولة وصوله ، وحول وطول ، ثبت عند النزال إذ تبلغ الخصى كلى الفرسان .

ورب صحب عزيزى النفوس ، شم الأنوف بعثت بهم ليلا في غارة بعد أن لعب الكرى بأعنة الفرسان ، فسرّيت في شدة الظلام أقود تلك السرية ، فلم أنفك في غارتى حتى تحركت أشعة الشمس ، ولقيت في أول المهجير فرقة ضخمة ، فجعلت أولى طعناتى لأول فرسانها ، وضربت قائدها فخراً مجدلين ، ثم حملت مهرى على قلبها ففرقتها كل مفرق ، ومزقتها شر ممزق ، وما زلت كذلك حتى رأيت الخيول الدم قد صارت كمتا ، كأنما خضبت من دماء فرسانها ، وحتى رأيتها تتعثر في مجتمعات من الدماء ومستنقعات من النجيع ، فتذعر مما ترى ، وتجنّفل مما تسير عليه ، فهى لم ترطراً ككتلك التى تتعثر فيها ، فهن إما سائرات في مستنقعات ، وإما سائرات عند احتدام الحرب فوق رموس الصرعى ، ثم عدت مظفراً منصوراً ، محموداً أحمل رأس عظيمها ، وتركت الكتيبة كالجزور ينهشها من عاها من الكواسر والجوارح .

النقر .

لعنقة في شعره شخصية ، فإنك تستطيع أن تحكم دون تمثر في حكمك عندما تسمع
شعر عنقرة أنه لعنرة دون سواه ، فهو يهول من قوة عدوه ليكون القلب بعدئذ عظميا قهارا ،
وهو في هذه الأبيات يسير على نمطه الذي اختاره سمة له ، وقد صور لنا الموقعة تصويراً واقعياً

فكتيبته : شهباء بأسلة يخاف رداها

خرساء ظاهرة الأداة كأنها نار يشب وقودها بلظاها

والخيلول :

يعدون بالمستلثمين عوابسا قودا تشكى أينها ووجاها

ويصور الحرب أدق تصوير فيقول :

ولقيت في قبل الهجير كتيبة فطعنت أول فارس أولاها

وضربت قرني كبشها فتجدلا وحملت مهرى وسطها فمضاها

حتى رأيت الخيل بعدسوادها حمر الجلود خضبن من جرحاها

أما الأسلوب فهو أسلوب عنقرة القوى الواضح لولا غموض يعتور البيت الثاني من البيتين :

فيها الكمة بنو الكمة كأنهم والخيل تعثر في الوغى بقناها

شهب بأيدي القابسين إذا بدت بأ كفهم بهر الظلام سناها

فوجه الشبه لا يستقيم إذا كان المشبه الكمة والمشبه به الشهب ، وإنما يستقيم إذا كان المشبه
السلاح على أن الأبيات فيها قوة الكتيبة الشهباء .



٤ — وقال سلامة بن جندل * يصف نجدة قومه في حربهم من قصيدة أولها :

أودى الشَّبَابُ حَمِيدًا ذُو التَّعَاجِيبِ أودَى ذَلِكْ شَأْوٌ غَيْرُ مَطْلُوبِ^(١)

كُنَّا إِذَا مَا أَتَانَا صَارِخَ فَرَعٍ كَانَ الصُّرَاخُ لَهُ قِرْعَ الظَّنَائِبِ^(٢)

وَشَدَّ كُورٍ عَلَى وَجْنَاءِ نَاجِيَةٍ وَشَدَّ مَرَجٍ عَلَى جِرْدَاءِ مُرْخُوبِ^(٣)

وَالْعَادِيَاتُ أَسَابِيءُ الدِّمَاءِ هَاهَا كَأَنَّ أَعْنَاقَهَا أَنْصَابُ تَرْجِيِبِ^(٤)

مِنْ كُلِّ حَتٍّ إِذَا مَا ابْتَلَّ مُلْبَدُهُ صَافِي الْأَدِيمِ ، أَسِيلُ الْخَدِّ ، يَعْبوبِ^(٥)

لَيْسَ بَأَسْنَى ، وَلَا أَقْنَى ، وَلَا سَمَلٍ يُعْطَى دَوَاءٌ قَفَى السَّكَنِ مَرْبُوبِ^(٦)

٨٢٥ : تَظَاهَرَ النَّيُّ فِيهِ فَهُوَ مُحْتَفَلٌ يُعْطَى أَسَاهِيٍّ مِنْ جَرَىٍ وَتَقْرِبِ^(٧)

* ترجمه الشاعر : هو سلامة بن جندل بن عمرو بن عبيد بن الحارث ، من شعراء تميم

الفحول ومن فرسانهم الأبطال ، ومن وصاف الحيل البارعين ، وهذه القصيدة - فيما يقول الرواة - أجود شعره ، توفي حوالى سنة ٥٢٠ م

التفسير اللغوى : (١) أودى : ذهب . التعاجيب : الأعاجيب ، وهو جمع لا واحد له .

الشأو : الغاية والسبق . (٢) صارخ مستنجد . فزع : خائف . الصراخ : الإغاثة . الظنائيب : جمع ظنوب حرف عظم الساق ، والجملة كناية عن الاستعداد .

(٣) الكور : رحل الناقة بأداته . الوجاء : الناقة العليظة الوجنتين . الناجية : السريعة .

الجرداء : الفرس القصيرة الشعر . المرحوب : الفرس الطويلة . (٤) العاديات :

الحيل السريعات . الأسابي : الطرائق ، مفردها إسباءة . أنصاب : جمع نصب حجارة كانت

تنصب حول الكعبة . ترجيب . تعظيم . (٥) الحت : السريع . ملبد : موضع اللبد .

صافى الأديم : صافى الجلد . أسيل الخد : ناعم الخد . يعبوب : كثير الجرى .

(٦) الأسنى : الحفيف شعر الناصية . الأقنى : الذى فى أنفه احديداب . السفلى :

المضطرب الأعضاء . الدواء : يقصد اللبن . قفى السكن : الضيف الكريم عند السكن ،

وهم الساكنون . المربوب . الذى يغذى فى البيوت ، ولا يترك يرود الطعام عند غير أهله .

(٧) تظاهر النى : تراكم الشحم بعضه على بعض . المحتفل : الكثير المجتمع . الأساهى :

الضروب والفنون لا واحد له . التقريب نوع من السير دون الجرى .

- رَفَقَ الدَّسِيعُ إِلَى هَادٍ لَهُ بَتَعَ . فِي جَوْجُو كَمَا كَدَاكَ الطَّيْبِ مَخْضُوبٍ ^(٩)
 فِي كُلِّ قَائِمَةٍ مِنْهُ إِذَا انْدَفَعَتْ شَوْبُوبُ شِدِّ كَفَرِغِ الدَّلَوِ أَنْعُوبٍ ^(١٠)
 كَأَنَّهُ يَرْفِي نَامَ عَنْ غَنَمٍ مُسْتَنْفَرٍ فِي سَوَادِ اللَّيْلِ مَذْءُوبٍ ^(١١)
 يُحَاضِرُ الْجُنَّ مَخْضَرًا جَحَافِلُهَا وَيَسْبِقُ الْأَلْفَ عَفْوًا غَيْرَ مَضْرُوبٍ ^(١٢)
 مِمَّا يَقْدَمُ فِي الْهَيْجَا إِذَا كُرِهَتْ عِنْدَ الطَّعَانِ وَيُنْجِي كُلَّ مَكْرُوبٍ ^(١٣)
 هَمَّتْ مَعْدٌ بَنَاهَا فَتَنَّهُنَّهَا عَنَّا طِعَانٌ وَضَرْبٌ غَيْرُ تَذْرِيبٍ ^(١٤)
 بِالْمُشْرِفِيِّ وَمَصْقُولٍ أَسْنَتْهَا صُمُّ الْعَوَامِلِ صَدَقَاتِ الْأَنْيَابِ ^(١٥)
 ٨٣٣ : سَوَى الثَّقَافُ قَنَاهَا فَهِيَ مُحْكَمَةٌ قَلِيلَةُ الزَّيْغِ مِنْ سَنٍ وَتَرْكِيْبٍ ^(١٦)

- (٩) الدسيع : معزز العنق في الكاهل . الهادي : العنق أو مقدمه . البتع : الطويل .
 الجؤجؤ : الصدر . المداك : الصلاة مختصوب : مخرج بدماء العدو .
 (١٠) الأساوى : دفعات الجرى . فرغ الدلو : مخرج الماء منها . أنعوب : سائل منشعب .
 (١١) اليرفي : راعي الغنم . مستنفر : مستثار . مذهب : هجم عليه ذئب .
 (١٢) يحاضرها : يطاولها الحضر ، وهو شدة الجرى . الجون : بالضم جمع جون بالفتح
 يقال للأبيض والأسود ، يريد بها الحمر الوحشية . الحجافل : جمع جحفلة ، وهي للخيول والحمر
 بمنزلة الشفة بالانسان . عفوا : هادئا .
 (١٣) الهيجاء : الحرب . إذا كرهت : إذا خيفت . مكروب : نازل به وشدة .
 (١٤) همت : عزمت . فتنهها : فزجرها . تذيب : تحديد . وفي رواية غير تذيب
 وهي مبالغة من الذب .
 (١٥) المشرفي : السيف المنسوب إلى مشارف الشام . مصقول : محدد . العوامل :
 جمع عاملة أعالي الرماح ، كعوال . صدقات : صلبات . الأنابيب : ما بين عقد الرماح .
 (١٦) سوى : عدل . الثفاف : منقف الرماح ، وهي خشبة فيها ثقب تقوم بها الرماح .
 الزيغ : الاعوجاج . تركيب : يعنى تركيب النصال .

- زُرْقًا أُسْنَتْهَا ، حُمْرًا مُنْقَفَةً أَطْرَافُهُنَّ مَقِيلٌ لِلْيَعَاسِبِ (١٧)
تَجَمَّـلُوا أُسْنَتْهَا فِتْيَانُ عَادِيَةٍ لَا مُقْرِفِينَ وَلَيْسُوا بِالْجَعَايِبِ (١٨)
٨٣٦: كَأَنَّهَا بَاكُفٌ الْقَوْمِ إِذْ لَحِقُوا مَوَاتِحُ الْبُئْرِ وَأَشْطَانُ مَطْلُوبٍ (١٩)



-
- (١٧) زُرْقًا أُسْنَتْهَا: لشدة صفائها . حُمْرًا: اشتداد الصفاء يبعث حمرة . مَقِيلٌ: مكان قضاء القيلولة . اليعاسيب: جمع يعسوب ملوك النحل .
(١٨) عَادِيَةٍ: حرب . الْمُقْرِفِينَ: الذى يكاد يكون هجيناً ، والهجين من أمه رقيقة . الْجَعَايِبِ: القصار الضعاف .
(١٩) مَوَاتِحُ الْبُئْرِ: الجبال التى ينزح بها الماء من البئر . الْأَشْطَانُ: الجبال الطوال مطلوب: بئر بعيدة القرار بين المدينة والشام .

تحليل الأبيات :

ذهب الشباب محمودة عواقبه ، كثيرة أعاجيبه ، ذهب وتلك غاية ما كنا نطلبها ،
وشأولم نكن نأمله .

يبكاء الشباب والتحسر على أيامه الزاهبات بدأ الشاعر قصيدته ، ثم انتقل إلى الفخر
بالكرم والنجدة والشجاعة ، فقال :

كنا - وما زلنا - إذا استنجد بنا مستنجد ، أو استصرخ بقومنا مستصرخ كان
الاستعداد للدفع عنه جواب استصراخه ، فشد الأكوار على الوجناوات النجائب ،
والسروج على الجرد السراحيب ، تلك العاديات التي ترى فوق أعناقها طرائق الدم من
طعننا الأعداء ، فكأن هذه الأعناق أنصاب نذبح فوقها الهدى لها ، من كل فرس جواد
سريع عند ما يتل موضع اللبد منه ، صافي الجلد ، ناعم الخد ، سريع الجرى ، وذلك
لحسن القيام عليه ، ولكرمه وعتقه ، ليس فيه ما يمكن أن يعاب به ، فليس خفيف شعر
الناصية ، وليس محدودب الأنف ، وليس مضطرب الأعضاء ، بل هو كامل الحسن ، بالغ
الجمال ، فنحن لذلك نكرمه غاية الإكرام ، فنسقيه مما نسق منه أكرم الضيوف ، ونغذيه
ما نغذى به أعز الأرباب ، فهو سمين مكتنز ، ضخم محتفل ، له أفانين في العدو والجرى ،
وأساهى في الحضر والتقريب ، يعتلى كاهله عنق يتع طويل ، فوق صدر ناعم أملس ، كأنه
لنعومته وملاسته وكمته مداك الطيب ، في كل قائمة من قوائمه الأربع عند ما يندفع عاديًا
دفعات من الجرى ، كأنها في شدة وقعها انصباب الماء من الدلو .

كأن ذلك الفرس راعى غم نام عنها ، فعتت فيها الذئاب ، فنهض من سباته فزعا
مضطربا يحاول بأسرع عدوه ، وأشد جريه إنقاذها من مخالب مفترسها ، وهو يبارى الحر
الوحشية حضرها ، وقد اخضرت شفاهاها ؛ لما هي فيه من رعى كثير ، ويسبق الألف من
الخيل دون أن يضرب بسوط ، أو يركل بقدم .

ذلك الفرس من الجياد التي تختار لاقتحام الهيجاء إذا خيف اقتحامها ؛ لاشتداد
الضرب والظعن فيها ، فينجى فارسه بكره وفره ، فيسبق مطلوبًا ويدرك طالبًا .

همت معدًا بناغمًا ، وقصدت حر بنا قصدا ، فكفها عن الهم بنا ماتعرفه عنا من طعن

مسدد ، وذب عن حرماننا قوى شديد بالسيوف المشرفية ، وبالرماح المصقولة الأسنة ، الصم
العوامل ، الصلبة الأنابيب ، قد سوى الثقاف قناتها ، فهي محكمة ، عديمة الاعوجاج ،
شديدة التحديد ، صافية الحديد ، فأستنها زرق يخالطها حمرة لشدة صفائها ، مقومة أتم
تقويم ، فأستنها تقيل فيها رموس قواد الجيش ويعاسيب الجند .

تصقل أستنها وتجلو أطرافها فتیان حرب ، كلهم نسيب كريم ، ليس فيهم هجين
ولا ضعيف ، كأن هذه الرماح بأ كف المحاربين إذ لحقوا أعداءهم الفارين حبال يمتح بها
ماء البئر ، أو أشطان بئر بعيدة الغور ، فهي لا بد مدركة رؤوس أولئك الفارين .

النقر .

الأصل في هذه الأبيات أنها للفخر ، ولكن الشاعر وصف فيها الاستعداد للقتال
وصفا بارعا في قوله :

وشد كور على وجناء ناجبة وشد سرج على جرداء سرحوب
ثم سار يصف الخيل في حضرها وتقريبها ، وأجزاء جسمها ، وما تقدمه لفارسها من
جهد محمود في قتاله فأجاد الوصف ، ثم وصف الرماح فوفق في وصفه إياها ، وإن يكن كرر
بعض المعاني ، ولعل هذا التكرير مما يلائم الفخر الذي هو الأصل في قصيدته ، وذلك
من مثل قوله :

سوى الثقاف قناها ، فهي محكمة قليلة الزينج من سن وتركيب
زرقا أستنها حمرا مثقفة أطرافهن مقيل لليعاسيب
تجلو أستنها فتیان عادية لا مقرفين ، وليسوا بالجعابيب
ويعجبنا ذلك المعنى في قوله : « أطرافهن مقيل لليعاسيب » فهو قد صور لنا الرموس
تقيل في أطراف الرماح ، وهو معنى لم يسبق إليه فيما نعلم .

٥ — وقال بشر بن أبي خازم* يصف نجدة قومه من قصيدة أولها :

عَفْتُ مِنْ سُلَيْمَى رَامَةً فَكَيْبَهَا وَشَطَّتْ بِهَا عَنكَ النَّوَى وَشُعُوبُهَا^(١)
وَكُنَّا إِذَا قُلْنَا : هَوَازُنُ : أَقْبَلَى إِلَى الرُّشْدِ لَمْ يَأْتِ السَّدَادَ خَطِيبُهَا^(٢)
عَظَفْنَا لَهُمْ عَظَفَ الضَّرُوسِ مِنَ الْمَلَا بِشَهْبَاءَ لَا يَمْنِي الضَّرَاءَ رَقِيبُهَا^(٣)
فَلَمَّا رَأَوْنَا بِالنَّسَارِ كَأَنَّنا نَشَاصُ الثَّرِيَا هَيَّجَتْهَا جَنُوبُهَا^(٤)
فَكَانُوا كَذَاتِ الْقِدْرِ لَمْ تَذَرِ إِذْ غَلَّتْ أَتَنَزَّلُهَا مَذْمُومَةً أَمْ تَذِيبُهَا؟^(٥)
قَطَعْنَاهُمْ ، فَبِالْيَمَامَةِ فِرْقَةٌ وَأُخْرَى بِأَوْطَاسٍ تَهْرِ كَلِيبُهَا^(٦)
نَقَلْنَاهُمْ نَقْلَ الْكَلَابِ جِرَاءَهَا عَلَى كُلِّ مَعْلُوبٍ يَثُورُ عَكُوبُهَا^(٧)
٨٤٤: لِحَوْنَاهُمْ لِحَوِ الْعِصِيِّ ، فَأَصْبَحُوا عَلَى آلَةٍ يَشْكُو الْمَوَانِ حَرِيبُهَا^(٨)

* ترجمه الشاعر: اقرأ ترجمته في ص ١١٦ .

التفسير اللغوي : (١) عفت : درست . رامة : بلد . الكيب : الرمل . شطت : نأت وبعدت . النوى : نية السفر . شعوبها : جمع شعب يقصد أهلها .
(٢) هوازن : قبيلة وهي منادى . الرشد : الحلم والسداد . السداد : الإصابة .
(٣) عطفنا لهم : ملنا عليهم . الضروس : صفة لموصوف محذوف هو الحرب ، وإنما توصف بالضروس لأنها تضرس المقاتلين كما تعض الناقة السيئة الخلق حالبها . الملا : الصحراء .
الشهباء : الكتيبة علاها الحديد فلع . الضراء : ما يوارى الإنسان من الشجر . الرقيب : الناظر .
(٤) النسار : اسم مكان . نشاص الثريا : ما ارتفع من السحاب بنوئها ، وفيه كناية عن الكثرة . جنوبها : ريح شديدة تهب من الجنوب .
(٥) ذات القدر : صاحبة القدر فيها السمن . مذمومة : أى من الضيف . تذيبها : تذيب سمنها .
(٦) قطعناهم : مزقناهم في حربنا إيهم . اليمامة وأوطاس : موضعان كانا ميدان قتال .
تهر : تصيح من خوف . كليها : كلابها (٧) نقلناهم : حملناهم على الانتقال من بلدهم . الجراء : جمع جرو . معلوب : وصف لموصوف محذوف أى طريق معلوب ، وهو المهمد . عكوبها : غبارها ، والهاء تعود على الطريق ، وهو يذكر ويؤنث .
(٨) لحوناهم : أخذنا جميع عتادهم ، وهو من لحا الشجرة إذا قشر عودها . الآلة : الحال . الموان : الدل . حريبها : الحريب المسلوب المال .

لَدُنْ غُدُوَةٍ حَتَّى أَتَى اللَّيْلُ دُونَهُمْ وَأَدْرَكَ جَزَى الْمَبْقِيَاتِ لِقَوُّهَا^(٩)
 جَعَلْنَ قَشِيرًا غَايَةً يُهْتَدَى بِهَا كَمَا مَدَّ أَشْطَانُ الدَّلَاءِ قَلْبُهَا^(١٠)
 إِذَا مَا لَحِقْنَا مِنْهُمْ بِكَتِيْبَةٍ تُذَكِّرُ مِنْهَا ذَحْلَهَا وَذُنُوبُهَا^(١١)
 بَنَى عَامِرٍ : إِنَّا تَرَكْنَا نِسَاءَ كُمُ مِنَ الشَّلِّ وَالْإِيْجَافِ تَدْمَى عُجُوبُهَا^(١٢)
 غَضَارِيطُنَا مُسْتَبِطِنُو الْبَيْضِ كَالْدُمَى مُضَرَّجَةٌ بِالزُّعْفَرَانِ جُيُوبُهَا^(١٣)
 تَبَيَّتْ النِّسَاءُ الرُّضِعَاتُ بِرَهْوَةٍ تَفْزَعُ مِنْ خَوْفِ الْجَنَانِ قَلْبُهَا^(١٤)
 ٨٥١: دَعُوا مُنَبِّتَ السِّيفَيْنِ إِنَّهُمَا لَنَا إِذَا مُضَرُّ الْحَمْرَاءُ شُبَّتْ حُرُوبُهَا^(١٥)

- (٩) لدن : عند ، وهو ظرف يصلح للزمان والسكان ، وهو المكان أقرب وأخص .
 الغدوة : أول الصباح . المبقيات : الخيل تدخر بعض جريها . اللغوب : الإعياء .
 (١٠) قشيرا : يعنى قبيلة بنى قشير ، والقصود أن خيل بنى أسد جعلت همها بنى قشير .
 الأشطان : الحبال الطويلة . القلب : البئر . الدلاء : جمع دلو .
 (١١) الكتيبة : الفرقة من الجيش . الدحل : الثأر .
 (١٢) بنى عامر : منادى حذف حرف ندائه . الشل : الطرد . الإيجاف : السير الشديد
 تدمى : يسيل دمها . العجوب : جمع عجب بسكون الجيم ، وهو نهاية العصم .
 (١٣) غضاريطنا : خدمنا وأتباعنا مفردة غضريط . مستبطنون : داخلون فى بطونهم
 كناية عن أنهم فى أحضانهم . الدمى : جمع دمية التماثيل من الرخام أو الشمع أو غيرها
 مضرجة : مخضبة . الزعفران : نبت أصفر طيب الرائحة .
 (١٤) رهوة : بأرض منخفضة أو مرتفعة . الجنان : القلب .
 (١٥) دعوا : اتركوا . السيفين : الشاطئين . مضر الحمراء : لقب بالحمراء لقبة من
 جلد أحمر وهبها تزار لمضر .

تحليل الرُّبَيَّات :

درست لفراق سليمى بلدتها وإن تكن مآزال عامرة ، وأوحشت كثنائها التى كانت
تُسَجِّرُ فيها ، وإن كانت ماتنكفك آنسة ، وبعدت بمحبوبتك عنك نية سفرها مع قبيلها .
بهذا المعنى الحزين بدأ الشاعر قصيدته ، ثم سار فيها متفعجاً من الفراق ، موجعاً من
النوى ؛ حتى انتقل إلى وصف ناقته ، ومنها نخر بنجدة قومه فقال :

٨٥٢ : أجبنا بنى سعد بن ضبة إذ دعوا والله مولى دعو — وة لا يجيبها
وكنا إذا قلنا : هوازن أقبلى إلى الرشد لم يأت السداد خطيبها

ثم أخذ يصف عاقبة هوازن بعد أن حاد عن السداد خطيبها ، ومال عن الجادة حاديها ،
فقال : إننا ملنا عليهم ميل الحرب الشديدة تقبل عليهم من الصحارى بكثيفة العدد ،
كثيرة العدد ، لا يختبئ رقيبها فى الأشجار ، ولكنه يبدو للعيان والأنظار ، فلما رأنا هوازن
فى النصار كأننا السحاب الركام كثرة وهولا هيجهته الجنوب صاروا فى حيرة واضطراب ،
فمثلهم كمثل المرأة تسلاً سمناً ، وقد نزل بها ضيف ، فهى فى حيرة أتم سلاًه ، فيسأم الضيف
ويظن بها البخل ، أم تنزله ولما ينضج فيذم طعامها ؟ فهى فى الحالين مذمومة ، وذلك حال
هوازن إن حاربوا هزموا وذموا ، وإن أعرضوا لحقهم العار .

مرقناهم فرقا ، وقطعناهم قطما ، ففرقة باليمامة ، وأخرى بأوطاس تهر كلابها هرير الخوف ،
وتنبج نباح الفرع ، وحملناهم على أن ينتقلوا فى الأحياء كما تنقل الكلاب جراءها خشية
الاعتداء ، فذهبوا فى طرق مطروقة يثور الغبار فى وجوههم ، سلبناهم أموالهم كما يسلب العود
لحماءه ، فأصبحوا فى حال تشكوذها وهوانها شكوى الضعيف السليب .

حاربناهم من الغدوة إلى العشى ، فلم نترك فيهم رمقا ، ولم يدخروا فى الدفاع عن أنفسهم
جهداً ، فمثلهم كمثل الفرس تَبَقى بعض جريها ، ثم تضطر فلا تدخر شيئاً ، حتى يدركها الأثين
ويعصيبها الكلال .

جعلنا نحن - بنى أسد - بنى قشير غايتنا التى نبغىها ، وهدايتنا التى نهتدى بها ، فلم نخذ عن حربهم يمنة ولا يسرة ، كما تمد حبال الدلاء نحو القلب ، فتمى أدركنا منهم فرقة تذكرونا ما بيننا من ذحول وذنوب ، فاشتد القتال ، واحتدم الضراب .

بنى عامر : اذكروا لنا شجاعتنا ، فقد تركنا نساءكم تدمى عيوبهن ؛ إذ حملن على غير وطاء ، وأسرع بهن فى السير حتى لا يقعن فى الإسار ، واذكروا إذ تركتم بعض نساءكم ، فاستبطنها خدمنا ، وهن فى جملهن كالدوى المطيبة بالزعفران ، أما المرضعات منهن فانهن يستعصمن بالنجاد أو يستترن فى الوهاد ، وهن فى فزع تطير له القلوب .

فدعوا لنا شاطئ البحر فانهم ما ملكنا إذا مضى الحمراء شبت حروبها .

النقر :

قال بشر هذه القصيدة يشيد بانتصار قومه بنى أسد وحلفائهم على بنى عامر ، فغضبت تميم لقتل بنى عامر ، فتجمعوا وقاتلوا طيئاً وحلفاءها ، فهزمت تميم ، فقال بشر قصيدة أخرى منها :

٨٥٣ : غضبت تميم أن تقتل عامر يوم النسار فأعتبوا بالصليم
والقطعة قوية المعانى ، زاخرة بالصور ، ولا نأخذ عليه إلا إسرافه فى دعاواه ، وطرحه الخلق العربى الكريم فى معاملة السباء من الحرائر ، فما زعمه لا يقره الخلق العربى النبيل .
ويعجبنا منه تشبيه تنقل أعدائه هروبا من قومه بنقل الكلاب جراءها ، كما يعجبنا ذلك التشبيه الذى جعلهم فيه مذمومين على أى حال .

فكانوا كذات القدر لم تدر إذ غلت أتزلها مذمومة أم تذيبها ؟

(ح) وصف سوءات الحرب

١ - وقال زهير بن أبي سلمى * يصف سوءات الحرب من معلقته :

- وما الحَرْبُ إِلَّا مَا عَلِمْتُمْ وَذُقْتُمْ وما هوَ عنها بالحديثِ المرْجَمُ (١)
 متى تَبَعُوهَا تَبَعُوهَا ذَمِيمَةٌ وتَضُرُّ إِذَا ضَرَّ يَتُمُوهَا فَتَضُرُّ (٢)
 فتَعْرِكُكُمْ عَرَكُ الرِّيحِ بِثِفَالِهَا وتَلْقَحُ كِشَافًا تَمَّ تَحْمِلُ فَتَنْتُمُ (٣)
 فتَنْتِجُ لَكُمْ غِلْمَانًا ، أَشَامَ كُلُّهُمْ كأَحْمَرِ عَادٍ ، نَمَّ تَرَضِعُ فَتَنْفُطِمُ (٤)
 ٨٥٨ : فَتَغْلِلُ لَكُمْ مَا لَا تُغْلِلُ لِأَهْلِهَا قُرًى بِالْعِرَاقِ مِنْ قَبِيْزٍ وَدِرْهَمِ (٥)

* ترجمته الشاعر : اقرأها في ص ٨٨ .

التفسير اللفظي : (١) يخاطب الشاعر بأبياته هذه حي عبس وذبيان ، ويذكرهم بالأحداث الجسام التي نزلت بهم أثناء حروبهم . المرجم : المظنون من الرجم بمعنى الرمي بالرجام وهي الحجارة ، فالعنى مجازي ، قال الزمخشري : رجمه قذفه وشتمه ، ورجم بالظن ، ورجم به رمى به . (٢) تضرى : تعود وتدرّب . فتضرم : فتشتعل .

(٣) تعركم : تدلكم كناية عن الطحن . بثفالها : الثفال خرقه أو جلدة تبسط تحت الرمي ليسقط عليها الطحين ، والباء في بثفالها بمعنى مع . تلقح : تحمل . كشافا : متتابعاً . تنتج : تلد . فتنتج : فتجىء بتوأمين . (٤) الشؤم : ضد الجن ، ورجل مشثوم ، ورجل مشاثيم كرجل ميمون ورجل ميامين والاشأم أفعل تفضيل من الشؤم ، وجمعه الأشأم وأراد بأحمر عاد أحمر ثمود ، وهو عاقرة الناقة ، واسمه قدار ، وقد تجوز ، إذ ثمود يقال لها عاد الأخيرة ، والدليل قوله تعالى : « وأنه أهلك عاداً الأولى » يعنى قوم هود .

(٥) تغلل : تخرج الأرض الغلة . القفيز : مكيال . درهم : ميزان ، وخص العراق لشهرتها بالغلات .

تحليل الأبيات :

صور الشاعر ويلات الحرب ونكباتها في صور متعددة متجددة ، كل صورة منها كفيلة بدفع الناس عن ركوبها ، وحملهم على الابتعاد عن امتطاء أسبابها ، فقال :
ليست الحرب أيها المتحاربون شيئاً تجهلونهُ فأعرّفكم به ، فقد خبرتموها وخبرتمكم ،
وذقم ويلها ، وأذاقكم صابها ، وليس حديثي عنها بالحديث الذي يظن فيه الرمي بالغيب ،
أو الرجم بالظن ، وإنما هو حديث الحق المشاهد .

إنكم إن تثيروها تثيروها دميعة دميعة ، كرية قبيحة ، فهي كالوحش المدرب على الفتك ، المغرى على النهش والقتل ، أو هي كالنار المشتعلة لا تبقى ولا تذر ، لواحة للبشر ،
أو هي كالرحى لا تفتأ تطحن كل ما يقع بين شقيها ، أو كالناقة الشوهاء الولود تلد أشأم مولود ، أو هي أرض ذات غلة مرة المذاق ، لا تعقب الغنى وإنما تعقب الإملاق ، وتثمر رزايا تفوق في كثرتها ما تثمره أرض العراق ، مما يكال أو يوزن ، فبئس هي من عدو للحياة والأحياء .

النقد :

هذه الأبيات في وصف الحرب من أروع ما قال زهير ، وليس لشاعر جاهلي أو غير جاهلي في وصف سوءاتها ما لزهير ، فقد جاء فيها بصور هي آية الروعة ورمز الإبداع ، ولعل ذلك لأن زهيراً كان يقول عن إيمان ، ويتحدث عن عقيدة ويقين ، فبلغ ما بلغ من الإجادة والافتنان ، ذلك الذي لا يحتاج إلى الإيماء إليه ، والتدليل عليه ، ففي كل بيت صورة أو صورتان ، متكاملة الظلال والألوان كقوله :

فتمركم عرك الرحي بثفالها وتلقح كشافاً ثم تحمل فتتم

٢ — وقال امرؤ القيس * يصف الحرب وسوء عواقبها .

الحربُ أولُ ما تكونُ فتيةٌ تبدُو بزيتها لكلِّ جهولِ
حتى إذا حِيتُ وشبَّ ضرامُها عادتُ عجوزاً غيرَ ذاتِ خليلِ
شمطاء جزّت شعرها وتنكرتُ مكروهةٌ للثمِّ والتَّقيلِ
تحليل الأبيات :

الحرب في أول أمرها شابة فتية، فيها حسن وطلاقة وفتنة ؛ لأنها توحى بالظفر والنصر وطيب الأحذوتة ؛ حتى إذا وقع الناس في لهيها ، وحى وطيسها ، واشتعل ضرامها ظهرت على حقيقتها عجوزا نكراء لا تبقى على خليل ، ولا تحتفظ بخليل ، وكيف ذاك ؟ وهي تتخذ منهم غذاءها ، فدمائهم شرابها ، ولحومهم طعامها ، إنها تبدو شمطاء شوهاء ، قبيحة المنظر ، دميمة المرأى ، قد جزت شعرها فزادها ذلك نكرا ، وتنكرت لمن كانت تزعمهم أصدقاءها ، فعادت مكروهة للثم والتقبيل .

النقد :

مارس امرؤ القيس الحرب أعواما ، فعرفها على حقيقتها ، فهي تغرى وتغوى ؛ تغرى بالنصر ، وتغوى بالظفر والغنيمة ، تبدو في زينة فاتنة ، وصورة ساحرة ، ولكنها ماثلت أن تظهر على حقيقتها ؛ تنال من الغالب والمغلوب ، وتأخذ من الطالب والمطلوب ، فهي كالدهاية العجوز توقع في الشباك بعد أن تنصب الأشراك .
والجليل في هذه الأبيات أن امرؤ القيس استمد صورته من المرأة شابة وعجوزا ، والمرأة هي أول من أثار الشرور ، وحمل الأوزار ، وما أشبه قول امرؤ القيس بقول سيدنا سليمان عليه السلام : الشر حلو أوله ، مر آخره .

ترجمة الشاعر : انظر ترجمته في ص ١٠٩

التفسير اللغوي : (١) فتية : شابة . (٢) شب ضرامها : اشتعل لهيها . خليل : صديق . (٣) شمطاء : اختلط بياض شعرها بأسوده . تنكرت : تغيرت .

خاتمة عن خصائص الوصف في العصر الجاهلي

الآن وقد عرضنا الوصف في العصر الجاهلي بجميع صورته عرضاً مبسوطاً ، سواء من ناحية فنونه ، أم من ناحية أخيلته وأفكاره ، أم من ناحية نظمه وتنسيقه نستطيع أن نحكم عليه بما يأتي :

١ — الوصف هو أقدم فنون الشعر على الإطلاق ، لا نستثنى منها فناً ؛ وذلك لأن العربي شديد الحساسية بالجمال ، قوى الشعور بالحسن ، فهو مدفوع إلى التعبير عن حسه بالوصف ، مضطراً إلى تصوير شعوره بالشعر ، وليس من اللازم اللازم أن يكون الشعر مستقيماً في أوزانه ، فهذا عبيد بن الأبرص ، وهو من أبرز شعراء ذلك العصر يبدو الاضطراب في شعره أحيانا .

٢ — يلتزمون الصدق في أوصافهم ، والحقيقة في أوضح صورهم ، وليس معنى هذا أن الوصف يتجافى مع الخيال ؛ فهو يعتمد على الخيال إلى حد بعيد ، إذ الصدق لا ينافي الخيال ؛ فنترة حين يقول مثلاً :

يَدْعُونَ عَنَتَ ، وَالرِّمَاحُ كَأَنَّهَا أَشْطَانُ بَثْرٍ فِي لَبَانِ الْأَذْهَمِ
مَازِلْتُ أَرْمِيهِمْ بِغُرَّةِ وَجْهِهِ وَلَبَانُهُ حَتَّى تَسْرُبَلَ بِالْدَمِ
فَازَوْرَ مِنْ وَقَعِ الْقَنَا بَلْبَانِهِ وَشَكَا إِلَى بَعْبَرَةٍ وَتَحْمَحُمِ
٨٦٥ : لَوْ كَانَ يَدْرِي مَا الْحَاوِرَةُ اشْتَكَى وَلَكَانَ لَوْ عَلِمَ الْكَلَامُ مُكَلَّمِي

صادق كل الصدق في تصويره ، فإن الرماح تبدو مصوبة مستطيلة ؛ كأنها في استطاعتها أشطان البئر ، والدم قد يتطاير فينطى وجه الجواد ، فكأنه متخذ منه سر بالاً ، والفرس الجواد يشارك فارسه في حربه ، فليس بدعاً أن يقول أرميهم بغرة وجهه ، وقد يتغير الفرس مما يلاقى ، ويشعر فارسه بازوراره وتغيره ، وقد يشكو بالحمة والعبرة فيثير في نفس فارسه الأسى والأسف لشكواه ، ولو استطاع المحاور والمجادلة لاشتكى وحاور وجادل .

كل هذا صدق خالص ، وهو مع ذلك خيال سامق .
إنهم صادقون في وصفهم ؛ لأن وصفهم لا تكلف فيه ، وإنما هو صادر عن عاطفة
وشعور ، وهذان هما مبعث الصدق ، يرى امرؤ القيس البرق يومض ويهتز بين الجبال
والوديان ، فيشبهه بحركة اليدين في سحب مستدير كأنه الإكليل ، أو هو في وميضه
ولمعانه كصاييح الراهب السخى على معبده ، فهو يهين سليطه ويضاعف زيته ، ويرفع
ذباله المقتل ، والبيتان هما :

أَصَاحَ : تَرَى رَقَّ أَرِيكَ وَمِيزُهُ كَلَمَ الْيَدَيْنِ فِي حَيٍّ مُكَلَّلٍ
يُضِي سَنَاهُ أَوْ مَصَايِحُ رَاهِبٍ أَهَانَ السَّلِيطَ بِالذُّبَالِ الْمُقْتَلِ

٣ — جميع شعراء هذا العصر لهم في الوصف الفكرة الواضحة ، والمعنى القوى الناصع ،
ولا يمنع ذلك أنهم يتفاضلون في وضوح فكرهم ، ويتميزون في قوة معانيهم ، ونصاعة
أخيلتهم ، إذ كيف لا نحكم بفضل عبيد بن الأبرص على الأعشى مثلا ، وقد جاء في بيت
واحد بمعنى فصله الأعشى في بيتين ، فقال عبيد يصف المرأة بحرارة جسمها شتاء ،
وخصره صيفا :

تُدْفِي الضَّجِيعَ إِذَا يَشْتَوِ وَتَحْصِرُهُ فِي الصَّيْفِ حِينَ يَطِيبُ الْبَرْدُ لِلصَّاحِي
وَقَالَ الْأَعْشَى ، وقد يكون آخذا المعنى من عبيد :

وَتَبْرُدُ وَتَبْرُدُ بَرْدَ رِدَاءِ الْعَرُو سِ رَقَرَقَتْ بِالصَّيْفِ فِيهِ الْعَبِيرَا
٨٧٠ : وَتَسْخُنُ لَيْلَةً لَا يَسْتَطِيعُ نُبَاحًا بِهَا الْكَلْبُ إِلَّا هَرِيرَا

وقد مر بنا بعض الصور الغامضة التي عالجناها على نحو قد لا تحتمله ألفاظ البيت
كقول عنترة :

فِيهَا الْكَمَاةُ بَنُو الْكَمَاةِ كَأَنَّهُمْ وَالْخَيْلُ تَعْتَرُ فِي الْوَغَى بِقَنَاهَا
شُهْبٌ بِأَيْدِي الْقَابِسِينَ إِذَا بَدَتْ بِأَكْفُهُمْ بَهْرَ الظَّلَامِ سَنَاهَا

ولكن الغامض من صورهم قليل لا يعتد به .

٤ — على الرغم من أن صورهم بسيطة غير مركبة ، فإنها رائعة الحسن رائعة الجمال ، فإن التركيب قد يكون صادرا عن تكلف وتصنع ، وليس شيء يفسد الشعر كهذين ، وقد مر بنا من الصور الجميلة في بساطتها ، الرائعة في سهولة مأخذها ما فيه غنية عن الأمثلة .

٥ — يبتهم معين وصفهم ، والعين الثرة لصورهم ، منها يستمدون تشبهاتهم ، ويمتحنون استعاراتهم ، وعليها يعتمدون في كناياتهم ، لا فرق في كل ذلك بين السيد الشريف ، والعبد الوضيع ، فكل مظاهر البيئة ملكهم جميعا ، وقد مر بك الكثير من المعاني المنشابهة التي اعتمدوا فيها على البيئة .

٦ — أكثر صورهم حسية ، إن لم نقل إنها جميعها حسية ، أخذوها مما يقع تحت سمعهم وبصرهم من أحداث الطبيعة ، وتقلبات الكون ، وتطورات الأيام ، ومن صور الإنسان والحيوان والجماد والنبات ، وهم شديدو التأمل لما يرون ، بعيدو التدبر لما يسمعون ، وأى تأمل وتدبر أكثر من قول عنتره يصف ذباب الروض ؟

وَحَلَا الذَّبَابُ بِهَا فَلَيْسَ بِيَارِحٍ غَرِدًا كَفَعْلِ الشَّارِبِ الْمُتَرَنِّمِ
هَزِجًا يَحْكُ ذِرَاعُهُ بِذِرَاعِهِ قَدَحَ الْمَكْبِ عَلَى الزَّنَادِ الْأَجْدَمِ

وأى تأمل وتدبر أكثر من قول امرئ القيس يصف عيون الوحش وهو ينظر إليه حذرا ؛ لأنه يدرك أنه يسعى لصيده ؟

٨٧١ : كَأَنَّ عُمُونَ الْوَحْشِ حَوْلَ خَبَائِنَا وَأَرْحُلُنَا الْجَزْعُ الَّذِي لَمْ يُتَقَبِّرْ

٧ — كان الوصف سجلا لكثير من عاداتهم وأخلاقهم وسياستهم ، وقد مر بنا الكثير من الصور الدالة على هذه العناصر الثلاثة ، فليس هناك ما يدعو إلى التكرار أو الإفاضة فيما هو في متناول أيدي الجميع .

٨ — يميلون في الوصف — بالذات — إلى الإطناب ، فقد يبدؤون ويعيدون ، وقد عللنا ذلك بأن المعنى أطربهم ، فأرادوا إبراده في أكثر من صورة واحدة ، وهم بذلك مخالفون لما كانوا يلتزمون في غير الوصف من الإيجاز البليغ .

فمن الإطناب قول النابغة يصف سيوف آل جفنة :

ولا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ بِهِنَّ قُلُوبٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ
تُخَيِّرُنَ مِنْ أَرْزَامِ يَوْمٍ حَلِيمَةٍ إِلَى الْيَوْمِ قَدْ جُرِّبْنَ كُلَّ التَّجَارِبِ
تَقْدُّ السُّلُوقِ الْمُضَاعَفَ نَسْجُهُ وَتُوَقِّدُ بِالضَّفَّاحِ نَارَ الْحَبَابِ

٩ — صورهم في وصف الطبيعة المتحركة والساكنة تجمع بين الحركة والسكون ، والجلبة والهدوء ، وكأنى بهم يلائمون بين الصور وأسبابها ، وبين الحقيقة وخيالها ، وقد صرت بنا صور متنوعة ، ولكن ذلك لا يمنعنا أن نعرض صوراً أخرى فيها حركة وجلبة ، وسكون وهدوء ، وملاءمة بين الصور ومصوراتها ، ومناسبة بين الأوصاف وموصوفاتها ، ألسنت تحس الصخب والضجيج ، والجلبة والاضطراب في قول الحارث ابن حلزة اليشكري ؟

أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ عِشَاءَ فَلَمَّا أَصْبَحُوا أَصْبَحَتْ لَهُمْ ضَوْضَاءُ
مِنْ مُنَادٍ ، وَمِنْ مُجِيبٍ ، وَمِنْ تَصْهَالٍ خَيْلٍ خِلَالِ ذَاكَ رُغَاءُ

تسعر بهذا الصخب من المعنى ومن اللفظ ، ومن الأسلوب ، وهذه أبيات لعمر بن كلثوم تحس فيها الصلابة والقوة لأن الموقف يقتضيها :

بَأَيِّ مَشِيئَةٍ عَمَرَوْ بَنَ هِنْدٍ تُطِيعُ بَنَا الْوُشَاةِ وَتُزْدَرِينَا ؟
بَأَيِّ مَشِيئَةٍ عَمَرَوْ بَنَ هِنْدٍ نَكُونُ لِقَيْنِكُمْ فِيهَا قَطِينَا ؟
تَهْدِدُنَا وَتُوَعِدُنَا . رُؤَيْدَا !! مَتَى كُنَّا لِأَمْلِكَ مُقْتَوِينَا ؟
فَإِنَّ قَنَاثَنَا يَا عَمْرُو أَعْيَتْ عَلَى الْأَعْدَاءِ قَبْلَكَ أَنْ تَلِينَا
إِذَا عَصَّ الثَّمَاثُ بِهَا أَشْمَارَتْ وَوَلَّتْهُ عَشَوَزَنَةٌ زَبُونَا
٨٨٢ : عَشَوَزَنَةٌ إِذَا انْقَلَبَتْ أَرَنْتَ تَشْجُ قَفَا الثَّمَفِ وَالْجَبِينَا

أليس خيالك سيصور لك ذلك الموقف وقد وقف عمرو متفكراً قوسه ، متقلداً أسيفه ، مربد الوجه ، مختلج النفس ، يتخير الألفاظ تخيراً ، ويقذف بها عمرو بن هند كأنها قطع الصخر ؟ إن خيالك لا بد سابع بك فمريك هذا المنظر .

وانظر إلى الأعشى يصف كرم آل الملق ، فيتخير أوسع الألفاظ معاني ، وأضحى حروفا ، فيقول :

نَفَى الدَّمَّ عَنْ آلِ الْمُحَلَّقِ جَفَنَةً لِحَابِيَةِ الشَّيْخِ الْعِرَاقِيِّ تَفَقُّقُ
يَرْوَحُ فَنَى صِدْقٍ وَيَفْدُو عَلَيْهِمْ بِمَلَأِ جَفَانٍ مِنْ سَدِيفٍ يُدَقُّ
تَرَى الْقَوْمَ فِيهَا شَارِعِينَ وَدُؤُوهُمْ مِنَ الْقَوْمِ وَلَدَانٍ مِنَ النَّسْلِ دَرَدَقُ

فاذا ذكر الحرق وعذب ، وأسمعنا لفظا كأنه مقتبس من رقتها ، وعرض علينا صورا توحى بمجلس أنس لجماعة من فتیان هذا العصر ، كقوله :

نَارَعْتُهُمْ قَضَبَ الرِّيَاحِ مُتَكِبًا وَقَهْوَةً مَزَّةَ رَاوِقُهَا خِضْلُ
لَا يَسْتَمِيقُونَ مِنْهَا وَهِيَ دَائِرَةٌ الْإِبْهَاتِ ، وَإِنْ عَلُّوا وَإِنْ نَهَلُوا
وهذا عنتره الرجل الغليظ القلب ، يسيل رقة عند ما يناجى عبلة فيقول :

أَعْبَلَةٌ قَدْ زَادَ شَوْقِي وَمَا أَرَى الدَّهْرَ يَدْنِي إِلَى الْأَحْبَبَةِ
وَكَمْ جَهْدٍ نَائِبَةٍ قَدْ لَقِيتُ لِأَجْلِكَ يَا بِنْتَ عَمِّي وَنَكْبَةِ
٨٩٠ : فَلَوْ أَنَّ عَيْنَكَ يَوْمَ اللَّقَاءِ تَرَى مَوْقِفِي زِدْتِ لِي فِي الْمَحَبَّةِ

١٠ — لم يكونوا في أوصافهم للطبيعة الساكنة يطيلون ، وقد عللنا ذلك قبل ، وإذا كان منهم من أطال فإن إطالهم في موضوعات خاصة كوصف الحجر ومجالسها في شعر الأعشى وأضرابه ، ووصف الحرب وأسلحتها في وصف الشعراء الفرسان ، ونحن إذا ضمنا هذه الخصائص إلى ماسقناه عن الطبيعة المتحركة والسالكين بدت لنا خصائص الوصف كاملة تامة . وبعد فأرجو أن أكون قد بلغت الغاية التي رمت إليها من عرض صورة واضحة للوصف في العصر الجاهلي تتيح للدارس الحكم السليم على منزلة الشعر العربي وبخاصة الوصف بين آداب الأمم عامة .

وأرجو أن يهب لي الله القوة لإظهار بقية أجزاء هذا الكتاب لنتم بإظهارها حلقة لامة في سلسلة الأدب العربي .
وعلى الله قصد السبيل .

أهم المراجع التي اعتمدنا عليها في هذا الكتاب

- ديوان طرفة .
 » علقمة .
 » الحماسة : لأبي تمام .
 ساعات بين الكتب : للأستاذ العقاد .
 شعراء النصرانية : للآباء اليسوعيين .
 طبقات الشعراء : لابن سلام الجهمي .
 في الأدب الجاهلي : للدكتور طه حسين بك .
 مجمع الأمثال : للميداني .
 مختار الشعر الجاهلي : للأعلم الشنتمري .
 مختارات البارودي .
 مهذب الأغاني .
 نقد الشعر : لقدامة بن جعفر .
 نقد النثر : » » »
 نهاية الأرب : للنويري .
 (ب) كتب تاريخية وجغرافية :
 تاريخ الأمم والملوك : للطبري .
 سيرة ابن هشام .
 مروج الذهب : للسمودي .
 جزيرة بلاد العرب : لحافظ وهبه .
 الرحلة الحجازية : للبناوتوي .
 (ح) كتب لغوية :
 أساس البلاغة : للزخشري .
 القاموس المحيط : للفيروزآبادي .
 المصباح المنير : للفيومي .
 لسان العرب : لابن منظور .
 المنجد : للأب لويس معلوف اليسوعي .
 مختار الصحاح : للرازي .
 نهاية ابن الأثير .

- (١) كتب أدبية :
 الأغاني : لأبي الفرج الأصفهاني .
 الأمالي : لأبي علي القالي .
 البيان والتبيين : للجاحظ .
 الحماسة : للبحري .
 الحيوان : للجاحظ .
 الروائع : لقواد البستاني .
 الشعر والشعراء : لابن قتيبة .
 الصناعتين : لأبي هلال العسكري .
 العقد الفريد : لابن عبد ربه .
 العمدة : لابن رشيقي .
 المثل السائر : لابن الأثير .
 المفضليات : للضبي .
 المعلقات السبع : للزوزني .
 المعلقات العشر : للتبريزي .
 المعلقات العشر : للشوقي .
 النثر الفني : للدكتور زكي مبارك .
 الوسيط : للأستاذين السكندري وعناني .
 تاريخ آداب اللغة العربية : للأستاذ السباعي يومى .
 » » » : » جورجي زيدان .
 » » » : » محمد هاشم عطية .
 جهرة أشعار العرب : لأبي زيد القرشي .
 دواوين الشعراء :
 ديوان امرئ القيس .
 » الأعشى .
 » النابغة .
 » زهير .

فهرس تراجم الشعراء حسب الحروف الأبجدية

الرقم	الاسم	الرقم	الاسم
١٩٨	ترجمة أبي ذؤيب المذلى .	٣٢٦	ترجمة دريد بن الصمة .
٢٦٠	» أعشى قيس .	٣٠٥	» راشد بن شهاب اليشكري .
٢٨٦	» الأسود بن يعفر .	٨٨	» زهير بن أبي سلمى .
٢٤١	» الحارث بن حازة .	٣٣٢	» سلامة بن جندل .
٢٠٥	» الشنفرى .	١٢٨	» سلمة بن الحرشب .
٨٢	» المثقب العبدى .	١٥٩	» سويد بن أبي كاهل .
١٣٦	» المرقش الأصغر .	٣٢٤	» ضمرة بن ضمرة .
٢٠٩	» المرقش الأكبر .	٦١	» طرفة بن العبد .
٩٤	» المسيب بن علس .	١٨٩	» عبید بن الأبرص .
١٥٤	» النابغة الذبياني .	٢٨٨	» عدی بن زيد .
١٠٩	» امرئ القيس .	٢١٤	» عروة بن الورد العبسى .
٢٩٢	» أوس بن حجر .	٩٨	» علقمة بن عبدة الفحل .
٧٤	» بشامة بن الغدير .	٢٦٩	» عمرو بن قيس .
٢١٦	» بشر بن أبي خازم .	٢٨٢	» عمرو بن كلثوم .
٢٠٢	» تأبط شرا .	٢٤٣	» عميرة بن جمل .
٢٤٥	» ثعلبة بن عمرو العبدى .	١٢٢	» عنتره بن شداد العبسى .
٢٤٧	» حاتم الطائي .	١٣٣	» عوف بن عطية .
٢٦٤	» حنظلة الطائي .	١٤٦	» لبید بن ربيعة .
		٢٥٢	» مهلهل بن ربيعة .

فهرس القوافي

صدر البيت	قافيته	بحره	صفحة	صدر البيت	قافيته	بحره	صفحة
ء :				الحاء :			
أجمعوا	ضوضاء	الخفيف	٣٤٧	أعبلة	الأحبة	المقارب	٣٤٨
الألف :				دان	بالراح	البسيط	٤٩
ومهما	كالفقى	الطويل	٢٦٤	أمن	وتروحا	الطويل	١٣٦
الباء :				إنى	لواح	البسيط	٢٦٢
وقفت	صالب	الطويل	٣	وما	وتقدح	الطويل	٣١٥
فن	لاتجاوب	»	٣٨	تدفى	للصاحي	البسيط	٣٤٥
إذا	مراكبه	»	٣٩	الدال :			
وأركب	الرضا	البسيط	٤٠	ألا	وجد	الطويل	٦
وإنى	مشربا	الطويل	٥٢	»	سعيد	»	١٨
أرب	الثعالب	»	٥٢	سرنا	الرشد	البسيط	٣٩
فإن	طبيب	»	٥٨	يشق	باليد	الطويل	٥٧
وكل	والإيايا	الوافر	١٥١	لخولة	اليد	»	٦١
كانها	الذيب	البسيط	١٨٤	هل	عد	السريع	٨٢
كانها	القلوب	مخلع البسيط	١٨٩	غشيت	معبد	الطويل	٨٨
كأينى	الكواكب	الطويل	٢٥٦	يادار	الأمد	البسيط	٢٣٥ ، ١٥٤
أودى	مطلوب	البسيط	٣٣٢	أترجو	أسودا	الطويل	٢١١
عفت	وشعوبها	الطويل	٣٣٧	بانت	المواعيدا	البسيط	٢٢٢
ولا عيب	الكتائب	»	٣٤٧	فما	بالزبد	»	٢٧١
التاء :				كان	دد	الطويل	٢٧٣
وفيت	وفيت	الوافر	٣١٥	وأبيض	لأنفادها	المقارب	٢٧٨

صدر البيت	قافيته	بحره	صفحة	صدر البيت	قافيته	بحره	صفحة
ولقد	غواذى	الكامل	٢٨٦	الزأى :			
ومشعلة	عاندُ	الطويل	٣٢٤	تخيروها	وحزائرُ	الطويل	٣٠١
دعاني	بمقعدِ	»	٣٢٦	السين :			
الراء :				لعمرك	فقمسُ	الطويل	٥٢
				كأنى	موجسِ	»	١٦٤
لها	دبوراً	المقارب	٦	ولما	يابسُ	»	٢٠٩
تمتع	عرارِ	الوافر	»	لمن	الفرسِ	السريع	٢٤١
عوى	أطيرُ	الطويل	٨	ودوية	ناعسُ	الطويل	٢٦٧
ولقد	مطيرُ	مجزوء الكامل	٩	وأعرض	تغامسُ	»	٣١٤
ماأرانا	مكروراً	الخفيف	٣٢	الضاد :			
أصاح	استعاراً	الوافر	٣٣	أرقت	أرضِ	الطويل	٣٧
إن	شعاراً	الكامل	٤٩	العين :			
رأين	النواضرِ	الطويل	٥٦	قفا	أن يودعا	»	٦
بدلته	الأشرُ	الرمل	٥٧	رأيت	ومصنوعُ	مجزوء الوافر	٢٠
ألا	مستعارُ	الوافر	١١٦	تمنح	ارتفعُ	الرمل	٤٦
أمن	قفاراً	المقارب	١٣٣	وكلفتني	راتعُ	الطويل	٥٧
تبغاني	مصدراً	الطويل	٢١٤	أرحلت	بوادعِ	الكامل	٩٤
صل	خفرُ	الرجز	٢١٦	بسطت	اتسعُ	الرمل	١٥٩
أليتنا	فلاتمخورى	الوافر	٢٥٢	فوردن	لايقتلعُ	الكامل	١٩٨
ديمة	وتدُرُ	الرمل	٢٥٨	فبت	ناقعُ	الطويل	٢١٠
ليس	الصنبرِ	الخفيف	٢٦٩	وما	ومصرعا	»	٢١٧
فبت	العقارُ	الوافر	٣١٢	يالهف	تنخمُ	الكامل	٢١٨
وتبرد	العبيرا	المقارب	٣٤٥				

صدر البيت	قافيته	بحره	صفحته	صدر البيت	قافيته	بحره	صفحته
لمن	فالشرع	الكامل	٢٣٩	هجرت	ثقيلا	المتقارب	٧٤
وفلاة	القرع	الرمل	٢٦٦	وقد	هيكلا	الطويل	١٠٩
فأيت	طلع	»	٢١٢	عجبت	كالمنصل	الكامل	١٢٢
وإذا	بالجمع جاع	الكامل	٣١٣	صحا	وروا حله	الطويل	١٧٧
لعمري	هزيع	الطويبا	٣١٣	أقيموا	لأميل	»	٢٠٥
الفاء :				تقفا	لخومل	»	٣١١ ، ٢٢٧
تشتو	بالطائف	مجرود الكامل	٢	وايل	ليبتلى	»	٢٥٤
منعنا	ثقيف	الوافر	»	بل	شعل	البسيط	٢٦٠
لمن	فواحف	الطويل	٢٤٥	وبلدة	زجل	»	٢٦٥
وشوها	ثقاذف	»	٣٠٧	ما	هطل	»	٢٧٧
ومسيب	يزبف	الكامل	٣١٣	صحا	موكلا	الطويل	٢٩٢
القاف :				وحشوا	لخولا	المتقارب	٣٠٩
بكر	تستميح	الخفيف	٢٨٨	وقد	لنجليل	البسيط	٣١٦
نقى	تمهق	الطويل	٣٤٨	فأصمحت	صقيلا	المتقارب	٣٠٩
الكاف :				لحرب	جهول	الكامل	٣٤٣
كأنها	الشبك	البسيط	١٩٤	أصاح	مكلل	الطويل	٣٤٥
اللام :				الميم :			
مهففة	كالسجنل	الطويل	٩	أنى	الأعما	الكامل	١٨
غذوتك	وتنهل	»	٣٨	خلقنا	والماتم	الطويل	١٩
فقلت	المعلل	»	٤٤	لسان	والدم	»	٢٢
مهصرت	المخلخل	»	٤٥	أبصرت	السقم	الرجز	٢٧
وواد	المعلل	»	»	عوجا	خذا	الكامل	٣٢
أكلت	الويل	الوافر	٥٨	هل	توم	»	٣٣

صدر البيت	قافيته	بحره	صفحته	صدر البيت	قافيته	بحره	صفحته
أمن	فالمثلّم	الطويل	٢٢٩، ٥٧	تبصر	جرثم	الطويل	٣٢٢
هل	مصروم	البسيط	١٦٩، ٩٨	وما الحرب	المرجم	»	٣٤١
تأوبه	الفریم	الوافر	١٢٨	يدعون	الأدم	الكامل	٣٤٤
أمتلك	قوامها	الكامل	١٤٦	النون :			
لو كان	الأعصم	السريع	٢١٨				
عفت	فرجامها	الكامل	٢٣١	ليسق	رياحينا	البسيط	٦
هل	الحیم	السريع	٢٣٧	سقياً	لينا	»	»
أتعرف	منمنا	الطويل	٢٤٧	ونركب	تؤاسينا	»	٤٠
أو	بمعلم	الكامل	٢٧٥	ظهرن	لعميون	الوافر	٥٨
قد	خرطوم	البسيط	٢٨٤	وإذا	جبانا	الخفيف	١٥٢
فمها	ندم	الطويل	٣٠٥	ألا	بطان	الوافر	٢٠٢
في كفّه	لحم	المنسرح	٣٠٩	ألا	ثمان	الطويل	٢٤٣
وليلة	الهموم	مجزوء البسيط	٣١٢		الأندرينا	الوافر	٢٨٢
وبالكف	نثما	المتقارب	٣١٠	أفاطم	تبني	»	٣١٨
وقد	مسموم	البسيط	٣١٢	الهاء :			
وخرق	السهام	الوافر	٣١٤	وكتيبة	رداها	الكامل	٣٢٨
بنيت	رغم	الطويل	٣١٤	الياء :			
				إذا	المعصی	الوافر	٢١٧

فهرس الموضوعات

الرقم	الموضوع	الرقم	الموضوع
١	المقدمة .	٣٠	الشعر الجوراني واليمنى .
	الفصل الأول	٣٣	الشعر العربي المفقود .
	بمدد العرب :	٣٥	الشعر الغنائى . انبعاثه
١	أقسامها التاريخية .	٣٦	تقسم الشعر الغنائى .
٥	جو بلاد العرب وأثره فى شعرهم .		الفصل الرابع
٧	تقسيم القبائل العربية على بلاد العرب		الوصف :
٨	أثر البيئة فى الشعر العربى .	٤٢	الوصف وتقسيمه .
	الفصل الثانى	٤٨	أثر البيئة العربية فى أهلها .
	مفائى أدبية :	٥٢	أثر البيئة فى الوصف .
١٠	شاعرية الأمم واختلاف مداها .	٥٤	الطبيعة فى الشعر العربى .
١٣	الشعر بذرة النثر الجاهلى .	٥٦	نهجنا فى التأليف .
١٥	سبق الشعر للنثر .	٥٧	قيمة الوصف فى العصر الجاهلى .
١٦	حال النثر الأولى .		الفصل الخامس
»	فضل الشعر على النثر .	٥٩	الطبيعة المتحركة :
١٧	فضل القرآن على الشعر .		(١) وصف الناقة :
١٩	موازنة بين شعر ونثر .	٦١	لطفة . التحليل والنقد .
	الفصل الثالث	٧٤	لبشامة بن العدير . التحليل والنقد .
	تقسيم الشعر :	٨٢	لمنقب العبدى . التحليل والنقد .
٢٣	أقسام الشعر الإفرنجى .	٨٨	لزهير بن أبى سلمى . التحليل والنقد .
٢٤	الشعر الغنائى وأقسامه .	٩٤	لمسيب بن علس . التحليل والنقد .
٢٦	لماذا لم يكن للعرب شعر قصصى ؟	٩٨	لعلمقة بن عبدة الفحل . التحليل والنقد .
٢٩	الشعر القصصى والتخيل .	١٠٢	نظرة فاحصة عن المعانى فى وصف الناقة .

(تابع) فهرس الموضوعات

الرقم	الموضوع	الرقم	الموضوع
	(ب) وصف القيس :	١٨٩	لبيد بن الأبرص يصف العقاب تصيد ثعلبا . التحليل والنقد .
١٠٩	لامرئ القيس . التحليل والنقد .	١٩٤	لزهير بن أبي سلمى يصف صقرا يطارد قطة . التحليل والنقد .
١١٦	لبشر بن أبي خازم . التحليل والنقد .	١٩٨	لأبي ذؤيب الهذلي يصف صيد الحمر الوحشية . التحليل والنقد .
١٢٢	لعنتره العبسي . التحليل والنقد .	٢٠٢	لثابت شرا يصف الغول وقد تقاتلا . التحليل والنقد .
١٢٨	لسامة بن الحرشب . التحليل والنقد .	٢٠٥	لشنفرى يصف الذئب . التحليل والنقد .
١٣٣	لعوف بن عطية . التحليل والنقد .	٢٠٩	لهرقل الأكبر يصف ذئبا أطعمه . التحليل والنقد .
١٣٦	لهرقل الأصغر . التحليل والنقد .	٢١٠	للسابعة يصف الحية . التحليل والنقد .
١٤٠	نظرة فاحصة عن المعاني في وصف الفرس .	١١١	لعنتره يصف الثعبان . التحليل والنقد .
	(ح) وصف الأوابد :	٢١٤	لعروة بن الورد العبسي يصف الأسد . التحليل والنقد .
١٤٦	لبيد بن ربيعة في وصف البقرة الوحشية . التحليل والنقد .	٢١٦	للسابعة يصف الحية أيضا . التحليل والنقد .
١٥٤	للسابعة الديباني في وصف الثور الوحشي . التحليل والنقد .	٢١٧	نظرة في شعر الطبيعة الحية عند العرب .
١٥٩	لسويد بن أبي كاهل يصف الثور الوحشي . التحليل والنقد .		الفصل السادس
١٦٤	لامرئ القيس يصف الحمار الوحشي . التحليل والنقد .	٢٢٤	الطبيعة الساكنة :
١٦٩	لعاقمة بن عبدة الفحل يصف الظليم . التحليل والنقد .	٢٢٧	صور الطبيعة الساكنة .
١٧٤	نظرة فاحصة عن المعاني في وصف الأوابد . التحليل والنقد .		(أ) وصف الأطلال .
	(د) صور متنوعة لمظاهر الطبيعة الحية	٢٢٧	لامرئ القيس . التحليل والنقد .
١٧٧	لزهير بن أبي سلمى يصف معركة مع الحمر الوحشية . التحليل والنقد .	٢٢٩	لزهير بن أبي سلمى . التحليل والنقد .
	لامرئ القيس يصف حربا بين عقاب وذئب . التحليل والنقد .	٢٣١	لبيد بن ربيعة العامري . التحليل والنقد .
١٨٤		٢٣٥	للسابعة الديباني . التحليل والنقد .
		٢٣٧	لهرقل الأكبر . التحليل والنقد .

(تابع) فهرس الموضوعات

الرقم	الموضوع	الرقم	الموضوع
٢٣٩	لبشامة بن الغدير . التحليل والنقد .	٢٨٤	لعقمة الفجل . التحليل والنقد .
٢٤١	للحارث بن حنزة . التحليل والنقد .	٢٨٦	للأسود بن يعفر . التحليل والنقد .
٢٤٣	لعميرة بن حمل . التحليل والنقد .	٢٨٨	لعدي بن زيد . التحليل والنقد .
٢٤٥	لثعلبة بن عمرو العبدى . التحليل والنقد .	٢٩٠	نظرة فى وصف الحمر ومجالسها .
٢٤٧	لحاتم الطائي . التحليل والنقد .	(>)	وصف الأسلحة :
٢٤٩	للعاني المشتركة وعمر المشتركة فى وصف الأطلال	٢٩٢	لأوس بن حجر . التحليل والنقد .
	(ب) وصف الليل :	٣٠١	للشماخ بن ضرار : التحليل والنقد .
٢٥٢	لمهلل بن ربيعة . التحليل والنقد .	٣٠٥	لراشد اليشكري . التحليل والنقد .
٢٥٤	لامرئ القيس . التحليل والنقد .	٣٠٧	لثعلبة العبدى : التحليل والنقد .
٢٥٦	للتابعة الذبياني . التحليل والنقد .	٣٠٩	نظرة فاحصة عن معاني الشعراء فى السلاح .
	(ح) وصف السحاب والبرق والغيث :		نظرة شاملة عن معاني الشعراء فى وصف
٢٥٨	لامرئ القيس . التحليل والنقد .	٣١١	الطبيعة الساكنة .
٢٦٠	للأعشى . التحليل والنقد .		الفصل السابع
٢٦٢	لعبيد بن الأبرص . التحليل والنقد .		صور لمظاهر مؤتلفة من الطبعيتين :
٢٦٤	لحنظلة الطائي فى وصف القمر . التحليل والنقد		المتحركة والساكنة .
	(د) وصف الصحراء والبرد والحر :		(أ) وصف الظعائن .
٢٦٥	للأعشى . التحليل والنقد .	٣١٨	للمثقب العبدى : التحليل والنقد .
٢٦٦	لسويد . التحليل والنقد .	٣٢٢	لزهير بن أبي سلمى . التحليل والنقد .
٢٦٧	للمرقش الأكبر . التحليل والنقد .		(ب) وصف الفرسان وعنادهم عند الحرب
٢٦٩	لعمر بن قتيبة . التحليل والنقد .	٣٢٤	لصمرة بن ضمرة . التحليل والنقد .
٢٧١	للتابعة الذبياني . التحليل والنقد .	٣٢٦	لدريد بن الصمة . التحليل والنقد .
	(أ) وصف الآثار الإنسانية :	٣٢٨	لعنترة . التحليل والنقد .
٢٧٣	لطرفه فى وصف السفينة . التحليل والنقد	٣٣٢	لسلامة بن جندل . التحليل والنقد .
٢٧٥	لعنترة العبسي . وصف روضة التحليل والنقد	٣٣٧	لبشر بن أبي خازم . التحليل والنقد .
٢٧٧	للأعشى . وصف روضة . التحليل والنقد		(ح) وصف سوءات الحرب .
	(ب) وصف الحمر وسقاتها :	٣٤١	لزهير بن أبي سلمى .
٢٧٨	للأعشى . التحليل والنقد .	٣٤٣	لامرئ القيس . التحليل والنقد .
٢٨٢	لعمر بن كثوم . التحليل والنقد .	٣٤٤	خاتمة عن خصائص الوصف فى العصر الجاهلي .

ندت أخطاء هيئة على القارىء أن يتفضل بتصحيحها قبل القراءة

صفحة سطر	الخطأ	الواب	صفحة سطر	الخطأ	الصواب
١٢ ٥	أ كبر	أكثر	٢٠٨ ١	متمكنا	متمكن
٦ ٦	الحصا	الحصاد	٢١٧ ١٨	روائهم	روائهم
١٧ ٦	عهدم	عهدكم	٢٣١ ٦	إرازامها	إرازامها
١٥ ٣٨	مقامة	مقامه	٢٤٠ ٢١	الدفع	الدمع
٧ ٨٨	ترده	ترده	٢٤٦ ١٧	ثعلبة ابن عمرو	ثعلبة بن عمرو
١٠ ١٣١	ذو	ذات	٢٤٩ ٢٠	بها	بها
٦ ١٥٩	الشرع	الشرع	٢٥٨ ٥	برئته	برئته
٣ ١٧٠	حسكل	حسكل	٢٧٥ ٦	يحك	يحك
٦ ١٩٦	النقل	النفل	٢٧٩ ٤	شهادها	شهادها
٢٠ ٢٠٧	وانصرفنا	وانصرفن	٢٩١ ٢٠	فمعاني	فمعنى

مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده

بحمد الله تعالى قد تم طبع

الجزء الأول من

الوصف في الشعر العربي

(العصر الجاهلي)

القاهرة في { ٢٧ شوال سنة ١٣٦٨ هـ
٢٢ أغسطس سنة ١٩٤٩ م }

مدير المطبعة

رستم مصطفى الحلبي

ملاحظ المطبعة

محمد أمين عمران

